حسن سامي يوسف

عَتَبَةُ الأَلَم



رواية في خمسة مشاهد وعديد المشاهدات

عَتَبَةُ الأَلَم

حسن سامي يوسف

عَتَبَةُ الأَلَــم

رواية في خمسة مشاهد وعديد المشاهدات

دمشق

شباط (فبراير) 2014

شباط (فبراير) 2016

قد أكون على خطأ

ولكنّ هذا لا يعني بعدُ أنّكَ على صواب

في دمشق
الآن
رجلٌ يستعدُّ للضغط على زناد المدفع
رضيعٌ يبحث في العتمة عن صدر أمه النائمة
مذيعةٌ تلفزيونية تتمنى لمشاهديها أوقاتاً طيبّةً مع برنامجها الجميل
عجوزٌ تفتش في الزبالة عن شيءٍ تأكله
ولدٌ يتخبط في فراشه من حُمّى التهاب الكبد
رجلٌ يغتصب امرأة مُقعدة
شابٌ ينحر طفلاً بسكينٍ نصلها مثلوم
قططٌ تُدمي بعضها في الليل والقمامة من أجل بقيةٍ من عظام دجاجة نافقة
صبيّةٌ في فراشها الربيعي تموت شوقاً إلى الحب
رجلٌ سكران في كاباريه يرش أوراق النقد الكبيرة على راقصةٍ بدينة
حفل زفافٍ في أحد الفنادق المترفة
رقصٌ وطعام وشراب وأهازيج وغناء
رجلٌ يخون بلده مقابل حفنة دولارات
ثُلةٌ من شباب يتفرجون في مقهىً على مباراةٍ بكرة القدم
رجلٌ وزوجته في منزلهما يتشاجران بعد فساد الطعام في البراد من انقطاع الكهرباء
تاجر يعقد صفقة مأكولاتٍ ملوثة مع أحد المتنفذين
عاشقان يتغازلان تحت درج البناء خوفاً من الأهل والعيون الغريبة
لصوصٌ يسرقون شقةً نزح الساكنونَ عنها

رجلٌ يقرأ القرآن ويحمد ربَّه على كل حال
سيارة إسعافٍ تزعق في الشوارع الخاوية
جنديٌّ يشعل سيجارة عند الحاجز وسْطَ الطريق
مريضٌ بالقولنج يصرخ من الوجع في ردهات مأوى للاجئين
طفلتان تنامان ملتصقتين على رصيفٍ مهجور
جائعٌ ينتظر من السماء سلّةً غذائية
مولّدةٌ كهربائيةٌ تهدر في الجوار
الآن
الرجل يضغط على زناد المدفع
الآن
تنطلق القذيفة الثقيلة منْ حجرتها
الآن
إنسان ما في المدينة لن يكون بين الأحياء بعد الآن

2016 - 2 - 26

المشهد الأول:

خريف عام 2000 ظهر في الصحافة العربية والعالمية بيانٌ يحمل تواقيعَ تسعةٍ وتسعين مثقفاً سورياً، يتوجه بالخطاب إلى السلطة، يطالبها الشروعَ بإصلاحاتٍ لا تقبل تسويفاً، من أجل تفادي أوضاعٍ كارثيةٍ قد تقع في البلد عاجلاً أو آجلاً. لن أخوض في تفصيلات ما ورد في ذلك البيان الذي أظنه قد كان حجر الزاوية في مجمل الحراك المدنيّ اللاحق في عموم سوريا. ربما كنتُ (لست واثقاً من هذه النقطة) الفلسطينيَّ الوحيدَ الموقَّعَ على ذلك البيان بوصفه مثقفاً سوريا. يجب الاعتراف بأن ردَّ فعل السلطة، أو النظام - إن شئتم - لم يكن بتلك القساوة التي توقعتها أغلبية الموقعين على البيان. لم تحدث اعتقالاتٌ مثلا. كان هناك بعضُ الاستجواب لبعض الاشخاص، وكان بعضُ المضايقات من فصيلة: "انتبه!أنت مراقَب." بالنسبة إليّ أنا مثلا، جاؤوا إلى الحيِّ حيث أقيم (كنت أقيم في صحنايا- تلك البلدة الناعمة في غوطة دمشق الغربية)، وسألوا عني السّمان والبقّال والحلاّق والجيران. وربما سألوا عمال التنظيفات أيضا. وكان يهمّهم، فيما بدا لي، أن أعلم بأنهم يسألون عني، فقد همس لي بعضهم: "انتبه يا أستاذ حسن.. عم يسألوا عنك." وفي الحقيقة أنني شعرتُ ببعض الخوف من عقابٍ ما، رغم قناعتي بأنه سوف يكون عقاباً بلا جريمة، جنايةً كانت أو حتى مجرد جنحة. وبسبب رسوخ القناعة ذاتها لديّ - ومع مرور بعض الوقت - وجدتني لا أكترث للأمر إلا قليلا، رغم الاتهامات التي ساقها، على نحوٍ عشوائي، بعضُ أعمدة النظام آنئذ بعمالة هؤلاء المثقفين وولائهم لاعداء الامّة. وإن كانت

الذاكرة لا تخونني هذه اللحظة فإن أكثر من كال لنا الشتائم والاتهامات هو السيد عبدالحليم خدام (نائب رئيس الجمهورية). اتهاماتٌ أثارت في نفسي سخرية مريرة، وبخاصة عندما رأيت السيد النائب يعلن انشقاقه عن النظام عشية عام 2006.

اليوم الضهر
على رصيف مزدحم بالمارّة في قلب دمشق
شفت وسمعت ولد عمره حوالي عشر سنين
عم يلوّح بإصبعه الشاهد في وجه رجل ستيني
وعم يصرخ فيه:
اعرف حالك مع مين عم تحكي

2015 - 4 - 19

المشهد الثاني:

مساء يوم ربيعي من عام 2001.. رنّ جرس الهاتف في منزلي. كانت زوجتي أقربَ مني إلى الجهاز. رفعتِ السمّاعة وردّتْ على المتصل، وبعد"مرحبا وأهلين ومين بيريده؟" التفتتْ إليّ وقالت: "مختار صحنايا عم يسأل عنك." لم أفهم. أو بالاصح: لم أستوعب، فأنا مواطن صالح يدفع بانتظام فواتير الماء والكهرباء والهاتف ورسوم البلدية على اختلافها، وليس لي مشكلات مع الجيران ولا حتى مع جيران الجيران، فماذا يريد المختار مني؟! أخذتُ السماعة وتحدثت إلى الرجل. كان لديه طلب واحد: أن أزوره في مكتبه ليشرب معي فنجاناً من القهوة. استغربت الطلب، ولكني رأيت أن في رفضي له نوعاً من قلّة الذوق. لم أكن أعرف موقع ذلك المكتب. وصف لي محدثي العنوان بالتفصيل الممل، وتمنى عليّ ألا أتأخر في الحضور. ذهبت إلى العنوان الموصوف. كان بعيدا عن منزلي. في أقصى شمال البلدة، وأنا أقيم في أقصى جنوبها. لم أعثر على أي مكتب، حتى لو كان عقارياً. شارع شبه مهجور، مصابيحه مطفأة، رغم أنها غالباً ما تكون مشتعلة في عز النهار. صفٌ من البنايات الجديدة في يسار الطريق، وبيوتٌ قليلة مبعثرة في يمينه على أرض كانت زراعيةً إلى عهدٍ قريب. وأمام أحد هذه البيوت المبعثرة كان المختار واقفاً في انتظاري. ولما رأى حيرتي من عدم الاهتداء إلى أي مكتب عرف أن الشخص المطلوب قد وصل. ناداني واقترب مني وصافحني بحرارة. رجل خمسيني، أشيب الشعر، مربوع القامة. قدّم لي نفسه، وأعرب عن سعادته بلقائي. دخلنا إلى البيت. قادني عبر وجيبة كثيرة الخضرة إلى غرفة

كبيرة جداً ليس فيها كرسيٌ واحد. إنها - باختصار- مضافة. سألته: أين المكتب إذن؟ قال: الغرفة المجاورة هي المكتب. وصدّقته. لم يكن لديّ سبب يجعلني أشكك بصحة ما يقول. جلسنا على الفُرش الوثيرة وعزم عليّ سيجارة وأشعلها، وصبّ لي القهوة المرّة، من دون أن يتوقف عن ترديد قاموس واسع من عبارات الترحيب، وكال لي سيلاً من المدائح بسبب مسلسلاتي التلفزيونية "الرائعة" (كانت بعض الفضائيات تعرض مسلسل: أسرار المدينة.) وأخبرني أنه وجميع أسرته يتابعون هذا المسلسل "التحفة"، وأنه فخورٌ بكون الكاتب حسن سامي يوسف من ساكني هذه البلدة الجميلة التي اسمها صحنايا. كنت أجامله قدر استطاعتي، رغم أني كنت في أعماق نفسي حائراً من غرابة الموقف كلِّه، فكلُّ شيءٍ حتى الآن بدا لي غريباً، أو حتى مضحكاً. ولكن، فجأة، بل فجأةً تماماً، لم يعد الأمر كذلك. ها هو المنعطف الدرامي يظهر أخيراً: "كتاباتك جميلة يا أستاذ حسن، فشو بدك بالسياسة؟!" منعرج درامي فعلاً، ولكنه منعرجٌغبيّ، فما من متفرج أو قارىء أو مستمع يحترم نفسه يرضى بمثل هذه الانعطافة البلهاء، فأنا (المتلقي) لم أفهم. والوضوح في الدرامة مطلوب بقوة. ولكنَّ الوضوح لا يعني التسطيح طبعاً. لم أفهم عن أي شيء يتحدث الرجل، فأنا لم أشتغل يوماً بالسياسة، ولم أكن أنوي الاشتغال بها في المستقبل، قريبه أو بعيده. إذن، لا بد من الاستيضاح: "شو قصدك يا مختار؟" بدأ المختار بالاجابة على سؤالي من نقطة بعيدة عن صلب الموضوع، ثم استرسل في الحديث. أظنني سمعت في ذلك المساء واحدةً من أكثر المحاضرات ضجراً في الوطن والوطنية وحب الوطن والانتماء للوطن. لعلّه كرّر كلمة (الوطن) أربعين مرة أو خمسين. قلت له ممازحاً: "ليت هذه الكلمة غير موجودة في اللغة العربية!" تظاهر بالانزعاج، وقال من فوره فاضحاً بعضَ الحكاية: "لهيك وقّعت على هذا البيان اللي (تردد قليلا) اللي ما بعرف حتى بأي كلمة بدي أوصفه." قلت له بعد أن بدأت أفهم شيئا ما: "بنصحك توصفه بأنه بيان وطني. واللي موقعين عليه خايفين على الوطن، لانو الوطن غالي عليهم، ولانهم أشخاص وطنيين جدا." وضحكتُ وأردفت: "واللغة الانكليزية يا مختار أحسن من اللغة

العربية لانو ما فيها كلمة وطن. البيت هو الوطن. وقهوتك طيبة يا مختار. والوطن هو البيت، فخليني أتشكرك على كرم الضيافة وأرجع إلى وطني بسلام. "وأدرك بأنه لن يأخذ مني حقاً ولا باطلا - إن كان يستجوبني طبعاً. ولكنّ الهدف لم يكن الاستجواب، ولم يكن من قبيل: "انتبه! أنت مراقب." كان الهدف أكبر من هذا وأكبر من ذاك. كان الهدف شيئا آخر. " الفلسطيني في سوريا يُعامَلُ أحسنَ معاملة. "هكذا قال. قلت: " الفلسطيني في سوريا يُعامَل كما ينبغي.لا أكثر ولا أقل."ولم يعجبه هذا الرد فعاد يؤكد على الفكرة ذاتها. استشهد بي أنا حصراً: أعيش برفاهية، في منزل هادئ و" كتير حلو متل ما وصفولي ياه." سألته: "ومين اللي وصفلك ياه؟" ضحك وقال: "حكي نسوان." تظاهرت بمجاراته في الضحك، وقلت: "النسوان بيحكوا كتير وقليل." ورجع للضحك وهو يؤكد صحة حديثه الأول: "لا لا.مو هيك تماما. "وكان لديه دليلٌ ما: الصالون، الشرفة، المطبخ. وصف هذه المطارح على نحوٍ لا يخلو من دِقّة. ولم يستوقفني الأمر، فهذه المطارح التي وصفها متاحة لعامة زائري منزلي، وليس فيها خصوصياتٌ من أي نوع، والحديث عنها أمر شائع في مجتمعاتنا العربية، وبخاصة في البلدات الصغيرات. وقدّرت أن يكون مصدر هذه المعلومات السخيفة واحدة من صديقات زوجتي اللواتي يترددن على منزلنا. وفي الحقيقة أنني لم أخبر زوجتي بشيء من ظنوني، حتى بعدما عرفت حقيقة هذا الرجل، الذي رجع يستفيض بالحديث عني: دخلي مرتفع جدا، أتقاضى الأجر الأعلى بين كتّاب الدرامة في سوريا، ومن المؤكد أنّ لي علاقات عِريضةًمع مسؤلين كبار في الدولة، وأنني قادر بالتالي على حل أية مشكلة قد أتعرض لها مهما كانت كبيرة، وأنني لست من سكان مخيم اليرموك حيث الضجيج والفوضى، وهذا ما لا يتوافر للاجئين الفلسطينيين في بلدان كثيرة، في لبنان مثلا، أو مصر أو العراق. وافقته على ضجيج المخيم وعلى الفوضى التي فيه، وقد أصبحت في حاجة أكيدة إلى الانتهاء من هذه المقابلة. ولعلّه أدرك أنني بدأت أتلمس فكرته التي سوف يعلنها صراحةً بعد قليل. بدأت أتلمس ما نسميه في الدرامة (الهدف الاسمى)، وأنني بدأت أنزعج من اللقاء، فاستعاد ابتسامته ومدائحه،

واعتذر لي إن كان قد أزعجني بشيء ما. أكدت له أنني لست منزعجا وأن القهوة كانت لذيذة، وأن الرسالة قد وصلتني، فقال: "رسالة شو؟! الله يسامحك! أنا والله بس خايف عليك. إنت كاتب كبير فخليك عم تكتبلنا هي المسلسلات العظيمة ولا تترك شي تاني يشغلك." قلت: " عَيْنْ خير يا مختار." قال: " وبصراحة أكتر، ولا تزعل مني (لحظة صمت) إنت فلسطيني، شو دخلك؟!" لقد وصلت الفكرة. بماذا أردّ عليه؟ الجواب حاضرٌ عندي. فلسطين جزءٌ من سوريا لايتجزأ، فأنا لست معترفا بِ (معاهدة سايكس- بيكو) ولست معترفا بِ (وعد بلفور) ولست معترفا بِ (اتفاقية فيصل - وايزمن)، ولست معترفاً كذلك بوعد ربِّ الجنود حين وَهَبَ اليهودَ أرض الفلسطينيين التي تغرّب فيها إبراهيم أياماً كثيرة، وفي التالي: لست معترفا بكل النتائج التي وصلت إليها الحال السورية بعد هذه المؤامرة الكونية. لم أقل شيئا من هذا للمختار. رأيت أن من العبث قولَ أيِّ شيء، ورأيت أن الانسحابَ خيرُ ما يمكن عمله. وهذا ما كان. عندما رجعت إلى المنزل سألتني زوجتي عما يريده المختار. قلت مبتسما: "إنتي كمان ما دخلك." غضبت المرأة من فورها، وقالت: "كل شي عندك أسرار.. شو هالعيشة يا ربي؟!" وفي الحقيقة أنني كنت بجوابي هذا ألْمح إلى فلسطينيتها لا أكثر، فهي فلسطينية أيضا. كنت ألْمح ولا أصرّح، فهي مجرد امرأة، ونحن الرجال- أغلبيتنا على الاقل- نترفع عن مشاطرة النساءِ أفكارنَا العظيمةَ الموجِعة. ذهبت المرأة إلى المطبخ، فلحقت بها إلى هناك، وصالحتها من فوري. اخترعت لها قصة قابلة للتصديق: المختار يطلب مني أن أتواسط له بإحدى القضايا العالقة في وزارة المالية. قصة تقنعها إلى حد ما، فقد اعتادت على رنين هاتفنا المنزلي حاملاً مثل هذه الطلبات، فكثيرٌ من الناس يظن بأن زوجها قادر على حل مشكلات العباد حتى لدى الأجهزة الأمنية، أو هو قادر على ذلك حتماً مادام اسمه كثير الظهور على شاشات التلفزيون. والحقيقة هي: ليس لي أية علاقة بأي مسؤول في جميع مفاصل الدولة. حتى المسؤولون الصغار (وزراء الثقافة مثلا) لم تربطني بهم جميعاً سوى علاقات عَرَضية، وزوجتي تعرف هذه الحقيقة جيدا، وتخجل من البوح بها لايِ من

طالبي المساعدة. تخجل من أن تقول لهم: "إن نقل خط هاتفنا الارضي من منزل كنا نسكنه إلى منزل آخر مجاور انتقلنا إليه حديثا، أمر يحتاج إلى واسطة أكبر من إمكانيات زوجي." لم يكن أحد ليصدقها، مع أن ما تقوله صحيحٌ تماما. كانوا سيتهمونها بالكذب، ولو في القرارة من أنفسهم. أو: وهذا في أحسن الاحوال، كانوا سيتهمونها بالبخل في تقديم المساعدة لمحتاجيها. وكانت في نتيجة ذلك كله تشعر بالحَرَجِ الدائم من الناس، وتداري حَرَجَها بابتسامة مغلّفة بالمرارة بسبب قلّة حيلة هذا الزوج الذي يصرّ دائماً وأبداً على أن يكون مجرد مواطن عادي جدا، رغم كثرة ظهور اسمه على شاشات التلفزيون.

حركة الطرقات هذا المساءَ في قلب دمشق قليلة.. يبدو أنّ الأنباء الواردة من حيّ جوبر فرضت نفسها على سلوك الجميع هنا.. المحال التجارية، في معظمها، أُغلقت أبوابها مع أذان المغرب. وبعضها أُغلق أبوابه قبل ذلك. والناس شبه اختفوا من المكان.

أما الأطفال فليس لهم أثر. أما النساء فقد كنَّ قلّة القلّة المتبقية في الطرقات. بعض الموجدين يتهامس حول ما يحدث في جوبر. وبعضهم يتجرأ ويرفع صوته. بعضهم يتساءل. بعضهم يجيب عن الأسئلة بثقة العارف بحقيقة ما قد حصل ويحصل في ذلك الحي الذي لا يبعد أكثر من ثلاثة كيلومترات عن قلب العاصمة. أحدهم يقول إنه سمع الآتي: القصف غداً على دمشق لن يكون بقذائف الهاون، بل بصواريخ الغراد تمهيداً لاقتحام المدينة. ما هذا؟ تحذير للناس بعدم مغادرة منازلهم؟ لا أعرف إن كان الخبر من أساسه صحيحاً. على أية حال، مثل هذه التهديدات لا تخيفني. وهكذا وجدت نفسي غير معنيٍ بسماع المزيد. تابعت طريقي. وصلت إلى ساحة النجمة. وهناك على الرصيف الخاوي أمام مبنى نقابة الصيادلة اعترضتْ طريقي بنتٌ مراهقة. هي في الحقيقة بنتٌ لطيفة، وحلوةٌ أيضاً. مكتملة الأنوثة، ولكنها أنوثةٌ مأجورة. أظنها لم تبلغ السادسة عشرة من عمرها. سألتها:

شو بدك؟

قالت:

مانك وحيد؟

قلت:

مبلى، أنا وحيد. بس إنتِ شو بدك؟

وأنا كمان وحيدة.

ما فهمت. عم تبحثي عن الرفقةلا ولاّ هيّ الفلوس؟

الحقيقة التنتين سوا.

مديت إيدي لجيبي وتناولت ورقة فئة الألْف ليرة، وقدمتلها ياها.

مسكتْ الورقة بإيدها وألقت عليها نظرة لا مبالية، وقالت:

هي الألف أنا شو بدي أعمل فيها؟

بتجيبلك وجبة معقولة للعشا.

بعرف بعرف، بس أنا ما هاد كان قصدي.

أكيد ما هاد كان قصدك. لكن أنا هي ظروفي

شلون يعني هي ظروفك؟

يعني ما بدفع فلوس مقابل جسد امرأة.

بس عم تقول إنك وحيد.

ولو.

طيب وين رايح هلأ؟

بعدني اليوم بلا أكل. رايح أتغدى.

وأنا والله لساتني بلا أكل. خدني طعميني معك.

تأملتها. لم تكن أكثر من طفلة نضجت قبل الأوان.

قلت لها:

تعالي.

ومشيتُ، وتبعتني، ثم جاورتني، وشبكت بذراعي ذراعها.

ومضينا في الشوارع المعتمة الخاوية.

كنا تماماً مثلَ أبٍ وابنته

2014 - 8 - 15

المشهد الثالث:

مساء يوم ربيعي من عام 2002.. كانت زوجتي تنوي السفر إلى دولة الامارات العربية المتحدة. زيارة عائلية. وكانت تحتاج إلى جواز سفر جديد (وثيقة سفر للاجئين الفلسطينيين) لأن صلاحية القديم باتت منتهية. وإجراءات الحصول على جواز السفر المملّة معروفة للجميع. ومن بين تلك الاجراءات ورقةٌ ممهورة بختم المختار تثبت أنك مقيمٌ في البلد ولستَ مغتربا. سألتني زوجتي وهي تستعد للخروج من المنزل إن كنت في حاجة إلى شيء ما تحضره لي في طريق العودة: "لا شكرا ما بدي شي. "وخرجتْ. ذهبتُ إلى المطبخ، وصنعتُ قهوة أو طبختها، وخرجت بها إلى الشرفة، ودخنت سيجارة. كان التدخين في المنزل ممنوعاً بتاتاً، فزوجتي تكره التدخين، وربما كانت تكره المدخنين أيضاً. وبينما كنتُ أهمّ بتدخين السيجارة الثانية، انفتح باب الشرفة وأطلّت المرأة، وعاتبتني من فورها، وهي تنظر إلى السيجارة الثانية بين أصابعي، قائلة: "ما بيكفيك سيجارة وحدة؟!" هربت من عتابها أقول: "شو ما استهديتي على مكتب المختار؟" "مبلى استهديت، ووقّع الورقة ومشي الحال." "بهالسرعة؟" "كيف يعني بهالسرعة؟ ما ليكو المختار جنبنا. يا دوب خمسين متر." "خمسين متر شو؟ وجنبنا شو؟ وين يعني جنبنا؟" "جنب دكان أبو أحمد." "متأكدة؟" "طبعاً متأكدة." "جايز يكون انتقل." "لا ما انتقل. طول عمره هون. ولا تهرب من الموضوع متل عادتك. أنا عم أحكي عن التدخين." وقلت في نفسي: غير معقول! وأشعلت

السيجارة الثانية. وعادت المرأة تلومني على الاستهتار بصحتي وتندب حظها من هذا الزوج العصيّ على الاصلاح، وغادرتِ الشرفةَ غاضبة. وتملكني فضول - بات معي الليل بطوله - لزيارة مكتب المختار من جديد.

اليوم العصر كنت قاعد بكفتيريا على الرصيف
عم أشرب قهوة
كان في سيارة فخمة جداً ماركة تويوتا
متوقفة صف تاني ومعطلة تلات أرباع حركة السير بالشارع
إجا شرطي مرور وعمل مخالفة للسيارة
ترك نسخة من المخالفة
تحت ماسحة الزجاج الأمامي
وانصرف بجولة في المنطقة
بعد شي ربع ساعة
خرج صاحب السيارة من بناء مجاور
شغّلها عن بعد بالريموت كونترول
واقترب منها
فوجىء بالمخالفة تحت ماسحة الزجاج
تناولها من هناك
ومن دون ما يقرأ فيها حرف واحد
مزقها لنتف زغيرة
ورماها بالأرض
بهي اللحظة رجع الشرطي
سأله الرجل:
إنت اللي عملت المخالفة؟
نعم أنا لأنو السيارة.
بدك تعملي فيها موشح؟
بس يا أستاذ.

بلا كترة حكي.. سلملي على وزير الداخلية وقوله بيقولك أبو سعيد: هي المخالفة انقعها واشرب ميتها.. يالله انقلع من وشي

ما بعرف ليش حبيت ما أكون مجرد شاهد.. ما بعرف ليش حبيت أتدخل.. قلت لأبو سعيد:

بس هيك إنت عم تهين القانون.

أنا في مطرحي وأبو سعيد في مطرحه

التفت ناحيتي.. وقال:

وإنت شو حشرك؟

قلت:

كترة غلبة.. وبكل الحالات مو من حقك تهين الشرطي لأنك بهالتصرف بتهين القانون.

وبدك تعملي فيه فيلسوف كمان؟! الشرطي صار القانون؟!

لأ طبعاً.. الشرطي مانو القانون.. بس هو عم يطبق القانون.. يعني أداة القانون

آهه.. باينتك من جماعة الكتابة والقراءة

مو مهم أنا من جماعة مين.

ليك يا محترم.. أنا بدي أعطيك نصيحة لوجه الله تعالى: خليك بحالك، وإلاّ.

وما قال وإلاّ شو.. بس أنا فهمت عليه، خطرلي أقوله:

اعرف حالك مع مين عم تحكي

بس ما قلتها

اختصرت الحديث

مو لشي، إلاّ لقناعتي إنو أنا قدام أبو سعيد: ولا حدا.

2015 - 9 - 21

المشهد الرابع:

جميع فصول السنة من الاعوام الاربعة اللاحقة.. ذهبتُ مساءَ اليوم التالي إلى (أبو أحمد) في دكانه (بقّال، سمّان، يلبّي احتياجاتنا المنزلية على الهاتف.) سألته عن مكان المختار. وعرفت أنه على بعد خمسة عشر متراً من هنا: "عاليمين" ذهبت إلى حيث دلّني الرجل. مكتب المختار هنا فعلاً. دخلت. المختار يجلس خلف طاولته. وما من أحد آخر في المكان. إنه ليس الرجل الذي عرفته قبل عام تقريبا. سألني عن طلبي، وسألته إن كان ثمة مختارٌ آخرُ في صحنايا. أجاب بالنفي. وأجاب عن بقية فضولي بأنه مختار صحنايا منذ عشرة أعوام، وأنه منذ عشرة أعوام أيضا لم يغيّر هذا المكتب، وعاد يسألني عن حاجتي، فارتبكتُ وشكرته وانصرفت. وربما تركته في حَيْرةٍ من الامر كلّه.. خرجت إلى الطريق وقد أصبح لدي مجموعة من الاسئلة المحيّرة حول ما قد حصل قبل عام تقريباً. قررت الوصول إلى جواب على أحد تلك الاسئلة فوراً. ذهبت إلى ذلك البيت (الوطني) في ذلك الشارع شبه المعتم. استهديت إليه سريعاً. كان معتماً هو الآخر. قرعت الجرس. لا جواب. قرعت ثانيةً وثالثةً. بلا جدوى. أصخت السمع وقد ألصقت أذني بالباب. لا حس ولا خبر. انصرفت على مهل أجرجر أذيال الخيبة. مررت بهذا البيت كثيراً خلال سنوات عدّة لاحقة. مررت ليلاً. مررت نهاراً. مررت صيفاً. مررت شتاءً. طرقت الباب. قرعت الجرس. بلا جدوى. بلا أية جدوى. وعندما يئست من الأمر تماماً رحت أقنع نفسي بأن الذي حدث لم يحدث في الواقع، وبأن كلّ شيء كان حلماً.. الحياةُ كلُّها حلم.

نهاري كان طويل

الساعة تسعة وربع إجتني سيارة للفندق وحملتني إلى فندق شيراتون

(ورشة عمل

مستقبل الدراما السورية

الاستحقاقات والاحتياجات على ضفتي الاستجابة)

الكلام اللي بين قوسين مو من عندي

هذه الكلمات مطبوعة على الأوراق الموجودة أمام كل مشارك في الورشة

تمعنت بهالحكي مرة ومرتين وتلات مرات، ويمكن عشر مرات

الحقيقة إني ما فهمت شي

إما إنه إنشاء لا يُقدّم ولا يؤخر

أو:

أنا أصبحت قليل الاستيعاب للأفكار الكبيرة

خجلت أسأل صديقتي القديمة ديانا جبور (المدير العام لمؤسسة الإنتاج التلفزيوني) عن معنى هالكلام.

ما بعرف ليش فضّلت الصمت.

القاعة كانت كبيرة

والحضور أيضاً كبير نسبياً

والطاولة لم تكن مستديرة.

كانت على شكل مستطيل ناقص ضلع.

وبالصدارة كان يجلس السيد وزير الإعلام

والمتداخلين عددهم غير قليل أيضاً.

السيدة ديانا طلبت مني أعمل مداخلة.
اعتذرت.
الحقيقة كنت بعدني عم أفكر بالعنوان.
شو يعني: على ضفتي الاستجابة؟
لقيت حالي منفصل عن الاجتماع
وعن المداخلات المختلفة
حسيت حالي غير ذي نفع لهذه الورشة.
وحقيقةً ما بعرف ليش تملكني هالشعور
يمكن لأني ابتعدت طويلاً عن المهنة
أو
يمكن عندي تصور مختلف أكان للدرامة ككل أو لطبيعة أزمة الدرامة السورية
أو
التنتين سوا
ولفظة مختلف هنا لا تعني أبداً أنني على صواب
جايز يكون العكس هو الصحيح
لكن بغض النظر ليش هيك صار معي
فالنتيجة كانت واحدة:
الانفصال عن الجلسة
والإحساس الأكيد بأني غير ذي جدوى.
إذن، الحل هو الانسحاب.
لكن لا يجوز الانسحاب والجلسة منعقدة.
هاي بتصير قلّة أدب.
وعموماً هيك حركة ما بتشبهني.

انتظرت الاستراحة.

وبالاستراحة غادرت القاعة وغادرت الفندق.

عبرت ساحة الأمويين

كان عندي رغبة أمشي، رغم إنه الشمس اليوم كانت حامية.

مشيت الطريق الطويل بمحاذاة نهر بردى

جدولٌ لا ماءَ فيه

لكن بالمقابل يحتوي على كمية زبالة أقل ما يمكن أن يُقال فيها وعنها: معيبة

وصلت لجسر فيكتوريا

لسه عندي رغبة أمشي

تابعت طريقي من أمام وزارة الداخلية إلى ساحة المرجة

في المرجة صابني حنين مفاجىء لسوق الحميدية

قلت لنفسي:

أوكي، سوق الحميدية صارت قريبة.. روح لهناك يا ولد مازال عندك حنين لهالمطرح

أخذت الطريق باتجاه قلعة دمشق

اليوم تذكرت مسلسل:

الانتظار

شخصية عبود (لعبها تيم حسن).

ولد طيب القلب

ولكن عيبه في الحياة أنه يمتهن اللصوصية

بمرة من المرات

في الليل

بيقتحم صيدلية

بيتفاجأ إنه الصندوق ما فيه فلوس

بينقهر

لذلك بياخد كمية كبيرة من الأدوية

وتاني يوم بيبيع هذه الأدوية على بسطة مرتجلة في سوق شعبية مرتجلة

وكان ينادي مروجاً لبضاعته:

حيلّا دوا بعشر ليرات

المسلسل من إنتاج 2006

المشهد في السيناريو كان مُتخيل

اليوم، حوالي الساعة تلاتة، ومقابل قلعة دمشق

وقريباً من نُصب صلاح الدين

كان في شب

فارد كرتونة كبيرة على الأرض وفوق الكرتونة بيدر من الأدوية

وكان عم ينادي مروجاً لبضاعته:

حيلّا دوا بمية ليرة

يا إلهي!

نسخة طبق الأصل عن المشهد الذي كان متخيلاً ذاتَ حين

وقفتُ أمام البسطة

أدويةٌ من كل صنف

لجميع الأمراض

القلبية منها، والكبدية، والهضمية، والصدرية، والنفسية

أسعارها في الصيدليات أضعاف مئة ليرةٍ مضاعفة

حتى إن بعضها لم يعد متوافراً في السوق المحلية

أنا أعرف عديد هذه العقاقير على نحوٍ جيد

فإنني أتعاطى بعض أدوية القلب والشرايين يومياً

كانت الناس متجمهرة حول البسطة
لاحظت أنّ أكثر ما يشترونه: الأدوية النفسية
منومات
مهدئات
والشاب لا يعرف أصلاً ماذا يبيع
كان ثمة دواءٌ قلبيٌّ أتعاطاه كل يوم
سعره في الصيدليات مرتفع
ويحدث أحياناً أن ينفقد من السوق
كدت أن أشتري منه عديد العلب
وما منعني من ذلك إلاّ قناعتي
بأن الأدوية المسروقة لا تجلب للبدن غيرالشقاء.

2014 - 9 - 24

المشهد الخامس:

أواخرَ عام 2010 كنت عائداً إلى دمشقَ جواً من سفرة بعيدة بعض الشيء. كانت زوجتي تنتظرني على المطار. استقبلتني بلهفة. أو: هكذا بدتْ لي، فقد جاهرتْ بالسخط على نفسها إذ لم تتذكر أن تحضر لي معطفاً إلا بعدما صارت على بعد سبعَ عشرةَ كيلومتراً من المنزل. قلت لها ممازحاً: "زغيرة عكيد!" وبينما كنا نهمّ بمغادرة صالة المطار لمحتُ رجلاً طالما بحثتُ عنه خلالَ تسعِ من سنينَ وأكثر. رجل ستينيٌّ، أبيضُ الشعر، مربوعُ القامة. كان ينظر إليّ. وعندما التقتْ عيناي عينيْه ابتسم لي. إذن، الأمر ليس حلماً كما حاولت أن أقنع نفسي سنينَ عدداً. الأمر حقيقي، ملموس. من الواضح أنَّ الرجل كان ينتظر قادماً ما من مكان ما. قلت لزوجتي: لحظة وبرجعلك.. وتركتُها، وذهبتُ إلى الرجل الذي طالما بحثت عنه. صافحني بحرارة، وقال لي إنه يتابع مسلسلاتي التلفزيونية مع أسرته (يبدو أنه ربّ أسرة مثالي)، وأنه شديدُ الاعجاب بمسلسل (زمن العار). ابتسمت وقلت له: "زمن العار مسلسل تافه." قال متصنعاً الاحتجاج: "لو كان تافه ما كان أخد كل هالسمعة وكل هالجوائز. قلت: "اتركني من المسلسل. ثم إنه زمن العار الحقيقي لسه ما إجا. عالطريق، بس بعدو ما وصل." قال: "ليش إنت دائما متشائم؟! لازم بالعكس تكون مبسوط. مسلسلات كتيرة يخزي العين، وجوائز كتيرة هون وهنيك. أكيد اشتريت فيلا ومرسيدس." وقبل أن أطرح عليه السؤال الذي يؤرقني سارع يقول: "يا ترى هالصبيّة الأمّورة بنتك؟" "نعم، بنتي." واستدركتُ من فوري وأضفت متظاهراً بالممازحة: "وبالمناسبة، فلسطينية

متلي." وكنت أدري لماذا كان لدي تلك الرغبةُ الاكيدة بالاستدراك، فهي تدور في فلك سؤاله حولَ فلسطينيتي، والذي كان قد طرحه عليَّ قبلَ حينٍ بعيدٍ من الدهر. ضحك مجاملاً إيّاي بطرافة الاستنتاج المذهل الذي وصلتُ إليه، وقال: "الله يخليلك ياها!" قلت له: "عندي سؤال واحد يا ريت تجاوبني عليه." "تفضل." "إنت مين؟ بقصد شو بتشتغل؟" "متقاعد." "وقبل التقاعد؟" "بصراحة؟" "شو هالسؤال النهفة؟! ليش عندك أكتر من جواب عن السؤال الواحد؟!" ضحك من جديدٍ، وتمتم: "كنت بالأمن." "ضابط؟ مساعد؟ رقيب؟ مخبر؟ شو؟" "عقيد. ولا بقى تسألني عن الموضوع." "مبلى، بدي أسأل - قلت بعناد - البيت يللي ادّعيت إنو مضافة المختار.. " قاطعني على نحوٍ صارم: "لا تكمّل، ما رح أجاوبك. لا تسألني أي شي." بدا لي جوابُه هذا قراراً غيرَ قابلٍ للطعن، حتى إنه أشاح بوجهه عني. رحت أحدّق فيه ببلادة. عاد والتفت إليّ وقال كمن يعلن نهاية اللقاء: "ما حلوة تترك الصبيّة عم تنتظر." قلت: "معك حق." وكان قد أُسقط في يدي.. تصافحنا من جديد. وانصرفتُ إلى المرأة الغاضبة على زوجها الذي تستقبله بلهفة، فيروح ينشغل عنها بمحادثة رجل غريب. سألتني ونحن نخرج من صالة المطار إلى الشارع: "مين هادا الزلمة اللي تركتني واقفة لحالي متل الهبلة منشان تروح تحكي معو؟!" ماذا أقول لها؟ كيف أجيب عن هذا السؤال البسيط؟ هل أحدّثها عن رجل الأمن الذي ربما كان حاضراً في منزلنا كلّ صباح أو كلّ مساء وهي تستمتع بتناول النسكافيه مع صديقاتها في الصالون أو على الشرفة، حسب الطقس؟ وماذا أجني من جواب كهذا؟ لا شيء بالتأكيد إلا زرعَ بذرة مِن شكٍ قد لا يكون له ما يبرره في واقع الحال. والشكّ عديلُ الجحيم. أعرف الأمر من تجربتي مع الحياة. لُذتُ بالصمت متظاهراً بعدم سماع السؤال، ولكنَّ المرأة لم تقنع بصمتي. توقفتْ مثل طفل حَرِدٍ، ونظرتْ إليّ بإصرار، وقالت: "ما جاوبتني، مين هادا الزلمة؟" قلت، من دون أن أنظر في وجهها: "هادا الزلمة ولا حدا." "كمان!!" وعندما تعلن المرأة هذه ال" كمان" المصحوبة ليس بمئة إشارة تعجب، بل بألف إشارة احتجاج، يصير على الرجل أن يكون مهادنا إلى

أقصى حدود الجبانة التي يمكنه وصولها بكلّ طاقته. كان الوقت قبيل الغروب، والطقس كان شديد البرودة. رفعتُ ياقة سترتي أحمي بها رقبتي من لسع هواءٍ صقيعيّ (في اليوم التالي هطلتْ ثلوجٌ كثيرة على المدينة.) ركبنا السيارة. زوجتي وراء المقود، وأنا أجلس بجوارها. أُشعلُ سيجارة على مهل. كان التدخين قد صار مسموحا في السيارة، وصار مسموحاً في المنزل أيضا. زوجتي نفسها صارت تدخن السجائر. لعلّها يئست من إصلاحي. يئست من ترقيتي إلى مستواها النبيل، فقررتِ النزول إلى مستواي السوقيّ. حلٌ أبلهُ لمعضلة المساواة. والحلول البلهاء لا تقود إلى مطرحٍ آمن، فلا تتنازلنَ أيتها النساء. الرجال طمّاعون بكرمكنّ. طمّاعون بلا حدود.. أدارتِ المرأة الغاضبة زر تشغيل المسجلة من دون ذرة تنازل عن وجومها.. فيروز: بواب.بواب، شي غُرب شي صحاب، شي مسكّر وناطر تيرجعوا الغيّاب. كنت أختلس النظر إلى وجوم المرأة، وكنت أعرف دواءَه. الهدايا التي في الحقيبة سوف تصلح الموقف. أو هذا ما كنت أرحوه، فليس الآن وقت المشكلات الزوجية. كان ينتظرني عملٌ يلحّ عليّ المنتجُ إنجازَه بسرعة: اللمسات الأخيرة على مسلسل (الغفران). اتصل بي الرجل غيرَ مرة قبل سفري المفاجىء: "عجلة الإنتاج بدأت تدور، فلا تخذلني يا أستاذ حسن!" كنت آمل أن تأتي الهدايا بنتائجَ طيّبة. ولكنّ تقديمَ الهدايا يحتاج الوصول إلى المنزل. والمنزلُ ليس قريباً بعد. وحبّات مطر صغيرات تَساقَط عُلى زجاج السيارة، وتلاَصَقُ به. تأبى أن تهجره فتروح تعمل الماسحتان ببلادة تبعثِ في النفس على السَأَم. كنت أرجو لو يهطل غيثٌ كثير. ولكنّ الغيوم خذلتني، رغم أنها ثقيلةٌ، منخفضةٌ، ومشبعةٌ بالرطوبة. والسيارة تمضي بنا. وتلوحُ في البعيد، رغم الغيوم وحبات المطر، تلك الصخرةُ العملاقةُ التي اعتدنا أن نسميها جبلاً، واعتدنا أن نسمي الجبل قاسيون. لعلّها الصخرةُ الاكبرُ حجماً في جميع الأرض. وإن كانت كذلك نكون أصحاب رقم قياسي نستحق بموجبه أن ندخل موسوعة غينيس. ولكنه، للأسف الشديد، ليس من صنعنا.. إنها يدُ الله، فدمشق قطعةٌ من النعيم تتهيأ للرحيل إلى جهنم.. وأنا أمعن النظر في قاسيون وفي المدينة المفروشة على ثنياته، وأحاول أن أنسى العقيد وسؤاله

العبقري القديم. ودمشق تقترب كثيراً، وتبتعد أكثر. وفيروز تكاد تعصر القلب من وجع ينتظر هذه المدينة في القريب من مُقبل الأيام: يا باب محفور عمري فيِك! رح أنطر وسمّيك: باب العذاب.

سردٌ عشوائي لشبهِ سيرةٍ ذاتية

نشرت بوستاً على الفيس ظهيرةَ هذا اليوم أسخر فيه من الحكم بالإعدام على عدد من الشباب الفلسطينيين (الذين استشهدوا فوق تراب فلسطين) على خلفية ما قال عنه القضاء المصري أعمال قتل قام بها هؤلاءِ المجرمون في أنحاء مصر، ويعود تاريخها (أي الجرائم) إلى 25 يناير 2011 وما بعدها، بينما يعود تاريخ استشهاد الشباب الفلسطينيين إلى سنواتٍ عدّة قبل التاريخ المذكور أعلاه، حتى إنّ أحدَهم استشهد إبّان الانتفاضة عام 2002.

أعترف بأنني لا أقرأ التعليقات على ما أكتب في صفحتي الفيسبوكية إلاّ فيما ندر. ليس ترفعاً، بل محالٌ أن يكون الأمرُ كذلك، فأنا في الحقيقة رجلٌ متواضع، أو حتى شديدُ التواضع، والذين يعرفونني عن كثب يصادقون على صحة ما ذهبت إليه من قول، دون أدنى مجادلة فيه. ربما كان الدافع إلى عدم القراءة قليلاً من كسلٍ، وكثيراً من جهلٍ بالمعلوماتية (لم أعرف كيف أحذف من الصفحة ليس سنةَ ميلادي، بل الشهرَ واليوم. وبهذه المناسبة أشكر جميع من كتب لي كلمة طيبة)، ثم هناك انشغالي الدائم بالقراءة أو بالكتابة، فأنا أكتب كثيراً، غيرَ أني أمزق عند الصباح أغلبية الورق الذي كتبت في ليلي. قد يبدو الأمر غريباً، ولكنْ.. لله في خلقه شؤون.. الأمر في الحقيقة خارجٌ عن إرادتي، فأنا كاتبٌ قليلُ الرضا عمّا يكتب، إنْ لم أقل عديمَه.

قراءتي المفضلة هي: المتنبي.

عندي من ديوانه كثيرٌ من النسخ تتوزع في أرجاء المنزل: غرفة العمل،

غرفة النوم، الصالون، المطبخ، بل حتى في حقيبة السفر.

نومي قليلٌ.. أعاني أرقاً مزمناً أعيا الأطباء الذين زرتهم لهذا الغرض، وهم كُثُر.

ساعتان من النوم في أية ليلة ضربٌ من الترف.

أعشق فيروز.. عهدك بقلبي قديم عهد الصّبى الغالي.. ليل القمر والنسيم بعدن على بالي.

أسمع أم كلثوم كثيراً، وأحب من أغانيها بخاصةٍ ما كان لحنه للشيخ زكريا أحمد

فرحة وبانت لي من بعد طول صبري هيَّ اللي كانت لي يا ربي في عمري

اليومَ عند المساء لفت انتباهي بمصادفةٍ محضة تعليقٌ على ما نشرتُ ظهراً:

أستاذ حسن أيا موضوع إشكالي عربي.. بتنظرلو من زوم القضية الفلسطينية.. ليش

(انتهى التعليق الذي نقلته حرفياً)

ملاحظة: ما سوف أقوله ليس رداً على التعليق، بل مناسبةٌ جاءتني بمصادفة أراها طيبة لأعيد تقديم نفسي إلى أصدقائي، غير الحياتيين منهم بالطبع، بل الفيسبوكيين.

اسمي موجودٌ على أربعةَ عَشَرَ مسلسلاً تلفزيونياً يخلو جميعُها من كلمة فلسطين، إلاّ عَرَضا في بعضها.

اسمي موجود على عشرات الأفلام السينمائية (كاتباً أو مستشاراً دراميا) يخلو جميعُها من كلمة فلسطين إلاّ عَرَضا، في بعضها أيضا.

جميع مسلسلاتي سوريّة خالصة، بل حتى دمشقية.. تذكروا من فضلكم: حكاية خريف - أيامنا الحلوة - الانتظار - زمن العار - الغفران - السَراب،

الخ. هل مرقتْ كلمة فلسطين في أيٍّ من هذه المسلسلات، ولو بالمصادفة؟

حتى فيسبوكياً، تذكروا من فضلكم: (يوميّات مدينة)، هل فيها يوميّة واحدة عن غير الوجع السوري؟ هل فيها يوميّةٌ واحدة عن وجع فلسطينَ السوريّة، رغم موت مئات الفلسطينيين جوعا وبرداً وقتلاً في مخيم اليرموك جنوب دمشق؟

على أيّ شيءٍ تدلل هذه الحقائق؟

سوف أختصر الجواب:

فلسطين أرضٌ سورية تمّ اغتصابها بمؤامرة كونية فريدةٍ من نوعها في تاريخ البشر.

هذا ما أومن به، وهذا ما لا أجادل فيه.

هل أنا خائنٌ بهذا القول لفلسطين؟

لست أرى نفسي كذلك.

كنت ومازلت وسوف أبقى مؤمناً بأنني سوريٌّ أعطوه اسم: فلسطيني. تماماً كما أنّ هناك: حلبي، حمصي، لاذقاني، الخ.

وأنا لا أهرب من اسمي الجديد. بل إنني أتمسك به وأحافظ عليه، وأدافع عنه، من قناعتي ليس بسلامة الانتماء إليه، بل بسلامة الوعي بخصوصيته المتفردة.

أنا ابن مخيم اليرموك، رغم أنني لا أقيم فيه منذ سنواتٍ بعيدة.

قد أحزن في أماكن كثيرة من هذا العالم، ولكنني لا أفرح إلاّ في مخيم اليرموك.

لست طائفياً، ولن أكون. حتى إنّ قائمة أصدقائي الحياتيين تكاد تخلو من أبناء الطائفة التي جئت بها إلى الدنيا.

الآنَ أعيشُ بلا دخل (آخرُ ما عُرض من تأليفي على الشاشة: مسلسل الغفران، الذي انتهيت من كتابته أواخر 2010)، ولكنني قبل الكارثة التي

شملتنا جميعاً في سوريا كنت من ذوي الدخل العالي.. من تعبي طبعاً. فأنا أتقاضى (والأصح: كنت أتقاضى) الأجرَ الأعلى في الدرامة السورية على صعيد الكتابة. أي: دخلني ملايين كثيرة من المال. ولكنّ تلك الملايين الكثيرة لم تبدّل شيئاً في موقفي من الحياة: التعاطف غير المحدود مع الفقراء والمستضعفين الذين أنتمي إليهم بالأساس، بحكم فلسطينيتي على الأقل، بما في كلمة فلسطين من ظلمٍ وفقرٍ وتعسف يصل إلى حدّ العهر عند بعض العرب.

تزوجت عديد المرات بعديد النساء الجميلات.. أظنه شأناً شخصياً، وهذه ملاحظة على هامش السيرة.

أمقت التعصب حتى في كرة القدم، فحين يخسر النادي المفضل عندي "دورتموند" الألماني، فإنني أحزن قليلاً، وفقط قليلاً. ثم أتجاوز الأمر بروح رياضية. وعندما يفوز (كما حدث قبل أسبوعين تقريباً حين أقصى نادي بايرنَ في نصف نهائي كأس ألمانيا) فإنني أفرح قليلاً، وفقط قليلاً، ثم أتجاوز الأمر بروحٍ رياضية.

سافرتُ كثيراً حولَ العالم، حتى صرت أكره المطارات وعلاقاتها العابرة.

لستُ متديناً، رغم أني لا آكل لحم الخنزير.

أدخن الكثير من السجائر.

أشرب الكثير من القهوة.

لا أتعاطى المخدرات.. جربتها في الشباب.. دخّنت سيجارتي حشيش ذاتَ سهرة، وشعرت بالقرف منها، فتركتها إلى الأبد.. ولكنني أتناوِل حبة منوم في أحيان متباعدة.

أشرب الكحول في بعض الأوقات.

لا ألعب القمار حتى لو ضمنوا لي الربح سلفاً، فأنا أستمتع بإنفاق النقود التي أحصل عليها بتعبي. فقط بتعبي.

لست محللاً سياسياً، استراتيجياً أو غير استراتيجي، وأمقت أن أكون كذلك.

مصادر معلوماتي تنضح بالكذب: الإعلام المفتوح. فقط.

ليس تربطني علاقةٌ بأحدٍ من أصحاب القرار في جميع الدنيا.

أعرف بعض اللغة الروسية، وبعض اللغة الإنجليزية.

أستطيع الادّعاء بمعرفة اللغة العربية على نحوٍ طيب، ومنذ الطفولة، فقد تتلمذت على أحد أفضل العارفين بها في جميع العصور. إنه يوسف سامي يوسف (أخي الكبير الذي رعاني بعد أن مات والدنا وأنا في الثامنة من عمري بعد).

أستطيع الادّعاء بمعرفةٍ واسعة بالأدب العالمي منذ هوميروس وإلى اليوم.

متهمٌ مِن جميع مَنْ يعرفني بقوّة عجيبةٍ بالذاكرة.

يدقّونَ كثيراً على الخشب.

عندي ست روايات، نفدت جميعها من زمان (صدرت في تونس، القاهرة، بيروت، دمشق.. إحداها "فتاةُ القمر" تحولت إلى مسلسلٍ تلفزيوني أظنه أصاب نجاحاً طيباً: نساء صغيرات.. كتبته بشراكةٍ كاملة مع صديق عمري نجيب نصير). سوف أعيد طباعتها (الأعمال الكاملة) عندما يتحسن وضعي المالي، وأرجو أن هذا الأمر بات قريباً. عندي حالياً مشروع مسلسلٍ تلفزيوني جديد بعنوان: (الندم) أتحدث فيها عن وجع سوريا اليومَ، بما في ذلك بعض وجع مخيم اليرموك. وقد نشرت مقاطعَ صغيرةً منها على الفيس.

لديَّ بعضُ الترجمات، أهمُها: (المسألة اليهودية) لِ فيدور دوستويفسكي - عن الروسية. نُشرت في لندن ودمشق وبيروت

أتهرب من الأضواء. ولا أظهر على الشاشة من أجل الحديث عن الدراما إلاّ نادراً.. ظهرتُ مراتٍ عدّة خلال عدوان إسرائيل على لبنان عامَ 2006، وطالبتُ يومَها أن تدخل سوريا الحرب إلي جانب حزب الله. وظهرتُ مرتين خلال العدوان على غزَة أواخرَ 2009.

أتهرب من احتفالات الجوائز. حتى إنّ جائزة (أدونيا) جاءتني إلى البيت عن مسلسل (زمن العار)، بينما الاحتفال لم يكن في المريخ، بل على بعد

ربع ساعة من حياتي في فندق فور سيزنز. وأعترف الآن بأنني أشعر بالخجل من هذا السلوك.

أهرب من حفلات التكريم، التي، رغم كثرتها، لم أتواجد إلاّ في ثلاثٍ منها، وعلى عجلٍ واستحياء. تكريم مسلسلات: أيامنا الحلوة - الانتظار - زمن العار.

جاهلٌ تماماً بتكنولوجيا المعلومات.

أكره استغلال النفوذ، ولم أمارسه يوماً.

أخيراً.. أرجو ألاّ تفهموا من كلامي أنني ملاك، فقد ارتكبت في حياتي عديد الأخطاء التي تجعلني أشعر بالندم في بعض الأحيان. تجعلني أتمنى عودة تلك اللحظات إلى الوجود ثانيةً لأصلح ليس ما أفسدَ الدهرُ، بل ما اقترفتْه نفسي التي كان يحلو لها أن تكون آثمةً في بعض المرّات، ولو قليلا.. أتمنى لو عادت إحدى النساء الصغيرات إلى الحياة ساعةً فأقبّلَ قدميها، وأظل أقبّلهما إلى موتي، وساعةٌ عند قدميْ تلك المرأة تكفيني من أجل الموت ندماً.. فرحة وبانت لي من بعد طول صبري هيّ اللي كانت لي يا ربي في عمري.. ولكن.. ليس يُرْجِعُ الزمانُ ما مضى، كما قال السّيّابُ ذاتَ قصيدة.. إنني لست ملاكاً أبدا. غير أني لست شيطانا كذلك.

كانت منام في الليل وصحيت من بدري ولا فرح بيها قلبي ولا عيني.

أقف بحزم ضدّ القتل وضدّ التعذيب والاعتقال التعسفي

بغض النظر عن: مَنْ يقتل مَنْ، ومَنْ يعذّب مَن، ومَنْ يعتقل مَنْ.

أقف بحزم ضد التخلف بجميع وجوهه. وهذا أكثر ما أبغضه فينا نحن العرب والسوريّين، أو مَنْ كان في حكمهم. أي: الفلسطينيين.

2015 - 5 -20

عامر وليلى

مخيم اليرموك ليس قطعةً من الجنّة، والجنّةُ ليست قطعةً منه. إنه ليس مجردَ حيٍّ دمشقيٍّ - كانت - تعيش فيه أكثريّةٌ فلسطينيةٌ وأقليّةٌ سورية. هذا المكانُ من الأرض ليس مجردَ جغرافيا، رغم كونه أكبرَ مدينةٍ فلسطينيةٍ في العالم.. إنه تاريخٌ في المُقام الاول، وفي المُقام الأخير أيضا. تاريخ نكبة العرب الكبرى في أحد أبرز وجوهها: الشتات الفلسطيني.. والكتّابُ الفلسطينيون من أبناء هذا المخيم - وأنا في مقدمتهم - لم يكونوا أوفياء للتاريخ. لم نكتب عن مخيمنا المنكوب شيئاً ذا قيمة. لم نكتب عن ذاكرة الشتات المُهْمَلةِ في أزقة مخيم اليرموك. بئسَ الكتّابُ نحن! بسطاءُ الفلسطينيين أفضلُ من مثقفيهم، فهم قادرون على عمل الكثير، والكثير جداًعلى نحو يثير الدهشة. هؤلاءِ البسطاءُ يستأهلونَ مثقفينَ خيراً مِنّا. لقد تمكّنوا في صيف وخريف عام 2012 من استيعاب أعداد النازحين الكبيرة إلى مخيم اليرموك من أحياء دمشق الجنوبية المنكوبة من الحرب الدائرة هناك آنئذٍ. يُقال إن عدد النازحين إلى المخيم قد وصل إلى نصف مليون إنسان. وربما كان في هذا الرقم مبالغةٌما. ولكنّ الشيء الذي لا مبالغة فيه هو أن شباب مخيم اليرموك (الفوضويين) أغاثوا كلَّ من لجأ إليهم من أخوتهم السوريين بالطعام والكِساء والدواء والسكن، وأنهم فعلوا ذلك، دون مساعدةٍ من أية منظمة إغاثة، دوليةً كانت أو إقليميةً أو حتى محليّة. لقد تدبروا الامر معتمدين على أنفسهم فقط، وأنهم فعلوا ذلك بمهارة "عوقبنا عليها بذلك القصف اللئيم." كما قال لي أحد شباب مخيم اليرموك الذين التقيتهم

بالمصادفة في مدينة السادس من أكتوبر في ضواحي القاهرة. وكلمة المصادفة في ذلك المكان والزمان لا معنىً حقيقيٌ لها، لأنها مستنسخةٌ من الحتمية. فالمكان يعجّ باللاجئين السوريين والفلسطينيين السوريين الهاربين من جحيم الحرب التي كانت تطحن سوريا على مدار الساعة. أظنه الان قد أقفرَ منهم. كنا في أوائل الصيف (2013)، وكان يلزمني بعض الثياب التي تلائم الطقس الحار، فقد غادرتُ دمشق إلى القاهرة في عز الشتاء الطويل الذي سبق ذلك الصيف القاسي. لفت انتباهي وأنا أتسكع في سوق المدينة المركزية قميص (تي شيرت (أبيض اللون يرتديه شاب طويل القامة، ناحل القوام، أسمر البشرة، في أواسط العشرينات من العمر، وعلى صدر القميص صورة كبيرة لِ (حنظلة) الفلسطيني يدير ظهره، كعادته، لهذا العالم الناضح بالقباحة. أعجبتني الفكرة، فأنا أيضا من المغرمين بالرسام (ناجي العلي) خالق هذه الشخصية المتفردة في غرابتها. قلت للشاب: "قل لي من فضلك؛ من أين اشتريت هذا القميص؟" قال: "ليس من هنا." "ماذا تقصد ب هنا؟" ابتسم مختصرا احتمالات سوء التفاهم: "هذا القميص اشتريته من مخيم اليرموك." " آ.. أنت فلسطيني إذن." "نعم. فلسطيني من مخيم اليرموك. اسمي عامر." تصافحنا، وقدّمت له نفسي أيضا. قال إنه يعرف هذا الاسم جيداً، وإنه يعرف شخصا من أقربائي. ودعاني لتناول كأسٍ من عصير قصب السكر. قبلت دعوته، وجلسنا على أحد الارصفة نشرب العصير ونتحدث في شؤون المخيم بخاصة، وشؤون الفلسطينيين عموما. حدثني مطوّلاً عن القصف الذي استهدف المخيم "قصف عشوائي تماما." تركته يسترسل بالحديث. لم أخبره مثلا أنني كنت شاهداً على ذلك القصف وتلك العشوائية، وأنني أقمت تحت القنابل ثمانية أيام قبل أن أهرب في اليوم التاسع بعد أن سقطتْ إحدى القذائف على المنزل الملاصق لمنزل أخي حيث كنت أقيم. لقد قتلتْ تلك القذيفةُ والداً وما وَلَد. تركتُ الشاب يروي تجربته مع القصف كما عاشها هو لا كما رأيتها أنا، فقد بدا لي أنه كان ناشطاً في المخيم، وبالتالي فإنّ معرفته بحقيقة ما قد جرى هناك أكثر صحةً وشموليةً من معرفتي أنا بالأمر كلّه.. سألته: "تتحدث عن المهارة التي عوقبتم عليها، متى وأين اكتسبتم هذه

المهارة؟" قال: "كان لنا تجربةٌ صغيرةٌ في العمل الاغاثي قبل سنواتٍ قليلة. هل تتذكر قصة الفلسطينيين العراقيين الذين هربوا من سكاكين المليشيات الطائفية؟" "طبعا أتذكر. لقد هربوا إلى سوريا." "صحيح وغير صحيح. سوريا لم تسمح لهم بالدخول إلى أراضيها لأكثر من عدّة كيلومترات. بنوا لهم خياما في الصحراء مع العقارب والافاعي. كانوا بلا طعام، بلا دواء، بلا كساء، بلا نقود، بلا أي شيء. هربوا من المذبحة بأرواحهم فقط، فكانوا يحتاجون إلى كل شيء، وصرنا مضطرين على أن نحمل إليهم كل شيء، بما في ذلك الماءَ الصالحَ للشرب. لم يكن في مخيم اليرموك مشكلة بتجميع المال الضروريّ لاغاثة شعبنا. أهل الخير في المخيم كثيرون. المشكلة كانت في أن ذلك المخيم الصحراوي يبعد مئات الكيلومترات عن مخيم اليرموك. ومع ذلك نجحنا. وأطباء المخيم فيهم البركة." قلت: "أنا لا أراها تجربة صغيرة. فلماذا تسميها أنت كذلك؟" قال: "كان العدد وقتئذ محدوداً. لم يصل الرقم الاجمالي للهاربين من المجزرة إلى عشرين ألفاً. أما عدد السوريين الذين نزحوا إلى مخيم اليرموك، فالله وحده يعلم به." "ألم يكن لديكم سجلات؟" "لا. لم نهتم بهذا الجانب من المصيبة." "هل يمكن الحديث عن نصف مليون نازح كما يقول بعضهم؟" "لا. هذا رقم كبير جدا. أظن أن مجموع من نزح إلينا أقل من نصف هذا العدد." "هل تعرف من كان البادىء بقصف المخيم؟ النظام يقول: العصابات المسلحة هي من استجرّ الفلسطينيين إلى النزاع المسلح في سوريا، بينما تقول المعارضة بخلاف هذا تماما، فأين الحقيقة؟" "الحقيقة أنّ من يقصف المخيم الآن هو النظام وأزلامُه من المرتزقة الفلسطينيين. أما البدايات، فلا أحدَ بريءٌ من دمنا. حتى هؤلاء." وأومأ بعينيه إلى عامة المارّة. قلت: "وما دخل هؤلاء الغلابة؟" قال: "ونحن ماذا؟ ألسنا غلابة مثلهم؟!" "بلى.مثلهم أو أكثر." "إذن، لماذا يقسون علينا؟" قلت مبتسماً: "لا يقسو على الغلبان إلا الغلبان مثله." قال: "ولكن المفروض أنّ العكس هو الصحيح.المفروض ألا يحنّ على الغلبان إلا الغلبان مثله." وصمت لحظة قصيرةً وأضاف: "هل تستطيع أن تدلّني على السبب الذي يكرهوننا من أجله؟ "أظنني كنت قادراً على الإجابة عن هذا السؤال،

ولكني آثرت الصمت من خشيةٍ أن أبدو مملاً مثل أولئك المحللين الاستراتيجيين الذين يحتلّون شاشات التلفزة العربية بالطول وبالعرض، فأنا أومن تماماً بأنَّ الناسَ كأفرادٍ طيّبون بالفطرة، طيّبون وخيّرون، في مصر وغير مصر، والشرّير بينهم منبوذٌ لأنه يسبح أصلاً عَكسَ التيار، أي إنه مخالف للطبيعة البشرية، ولكنَّ الإعلامَ هو مَنْ يجعل أغلبية الناس عدائيين. إنه ينزع عنهم فردانيتهم كوسيلةٍ وحيدةٍ يملكها من أجل أن يحوّلهم إلى قطيع، فالكراهية مثل التعصب سِمةٌ قطيعية خالصة. هل كان بسطاء الألمان في زمن هتلر سيئين؟ أشك في هذا. ومع ذلك فقد احتفلوا، وعلى نحوٍ بدائيٍ لا يليق أبداً بشعبٍ متحضر اخترع وصنع الأسبرين والبنسلين والباراسيتامول والمرسيدس، بإحراق كتب توماس مان وأرتولد بريخت وجاك ماريا ريمارك وسواهم من عمالقة الأدب الألماني في ساحات برلين العامة. أظنهم كانوا على استعدادٍ للابتهاج بإحراق هتلر ذاته لو تمرد على ثقافة القطيع التي صنعها بنفسه. ومشكلة الإعلام المصري (في معظمه وليس في جميعه حتماً)، أنه يجعل من العداء لفلسطين هدفاً أسمى لمجمل عمله. السبب في ذلك يعود إلى رغبته الاكيدة بتحميل فلسطين أسباب التخلف الذي تعانيه مصر على كافة الأصعدة، فهو لا يجد ولن يجد شمّاعة أقوى من فلسطين الضعيفة يُعلّق عليها خيباته أمام إسرائيل القوية.. (لمّا ما منقدر على الجلاّد منقول الحق على الضحية.) وهذا هو جوهر العار في جميع الأزمنة والأمكنة. لكنَّ المشكلة مع الإعلام المصري فهي تكمن في أنَّ المنحدر الأخلاقي عنده يبدو بلا قرار. بلا قاع.. قلت لعامر: "وأنت تظن أن النظام قصف المخيم بسبب إيواء السوريين النازحين من الأحياء المنكوبة؟" "أعطني سبباً آخرَ." "وجود مسلحين مثلا في المخيم." ضحك، وقال: "مسلحون يعني السلاح. فلو كان لدينا سلاح لما هجمنا على الجولان في الذكرى الأخيرة للنكسة بقبضات عارية، ولما سمحنا لليهود أن يقتلوا عشرين شاباًمنا ونحن بلا حول ولا قوة. كنا استخدمنا السلاح الذي تتحدث عنه. كنا أطلقنا النار على أقل تقدير. ولكن الحقيقة هي: لم يكن هناك أي تبادل لاطلاق النار. لقد كنتُ حاضراً مع الشباب في الجولان. أغلبية من شارك في ذلك الهجوم كانوا من شباب

مخيم اليرموك. ولكنّ الرصاص كان يئزّ من جانب واحد فقط، فعن أي سلاح تتحدث يا أستاذ؟" وصمت لنصف دقيقة تقريبا قبل أن يضيف: "على أية حال، ما حدث لسورية كان لا بدّ أن يشمل الفلسطينيين فيها." "لماذا هذه اللابد؟" "لأنّ محمود درويش قالها للعرب من زمان." "وماذا قال محمود درويش للعرب؟" "مأساتي التي أحيا نصيبي من مآسيكم." ونظر إليّ بطرف عينه ليعرف إن كنتُ قد اكتشفت أمره. أظنه كان يعلم بأن هذا الكلام ليس لمحمود درويش. حتى إنه صمت برهةً كمن ينتظر ما سوف أقول بهذا الشأن. وأنا لم أقل شيئاً. أظنني كنت أحب أن أتواطأ معه على الغشّ، فقد لزمتُ الصمتَ بكل سرور. ولهذا فإنني لم أقل له: إن لدى الفلسطينيين شعراء جميلين غير محمود درويش، منهم سميح القاسم، ومنهم أيضاً توفيق زيّاد، الذي قال للعرب: أناديكم، أشد على أياديكم، أبوس الأرض تحت نعالكم وأقول أفديكم، وأهديكم ضِيا عيني، ودفءَ القلب أعطيكم، فمأساتي التي أحيا نصيبي من مآسيكم. أظن أنّ الشاب كان سعيداً بصمتي، أو حتى بـ"جهلي" وأنا ما آثرتُ الصمت إلا لسببٍ بسيط: لن أكسب شيئاً لو خيّبت أمله بمحمود درويش. حتى لو استشهد الفتى بالمتنبي لصادقتُ، من دون تردد، على أن هذا الشعر الجميل منتحلٌ من محمود درويش، رغم الأعوام الألف التي تفصل بين الرجلين. كنت سأفعل ذلك حتما مادام الفلسطينيون بعامة، والشباب منهم على نحوٍ خاص، يصيبون نشوةً غريبةً من أمر هذا الشاعر الذى استحال أيقونةً مقدسة لدى الشعب الذي لم يعد يملك غير الأسى. محمود درويش.. نبيّ الفلسطينيين الجديد.. لقد انتصرِ الغشُّ بجدارة، وظهر أثره الطيب جلياً في وجه محدّثي الشاب. انتهينا من عصير قصب السكر ونحن على الرصيف جالسيْن بعد. سألني عن غدي. قلت له إنني راحل إلى بيروت بعد أيام قليلة، وقد أرجع إلى دمشق." لماذا دمشق في هذه الأوقات العصيبة؟" "لديّ أسبابي." "الأبناء؟ الشغل؟" "لا، لا هذا ولا ذاك." ابتسم وقال: "تعود من أجل امرأة إذن." قلت: "ربما عدت بسبب امرأة، وليس من أجل امرأة." نظر إليّ غير مدركٍ شيئا من لعبة الكلمات المتقاطعة هذه. فهمتُ نظرته، ولكن ماذا أقول له؟ هل أروي له

قصة شابّة اسمها رشا، تدرس في جامعة دمشق - كلية الآداب - قسم اللغة العربية - وتعشق مثله محمود درويش، رغم أنها ليست فلسطينية؟. هل أقول له إنني أتصل بها بالموبايل كل يوم تقريباً. أو بالأصح: كلّ ليلة، وإننا نتحدث طويلا؟ لم أكن أمانع بالحديثَ عن هذه الشابّة الجميلة، وعنْ قصتي - أنا الرجل الكهل - معها، ولكنّ الذي دفعني إلى السكوت خشيتي من أن تبدو الحكايةُ كلُها خارجَ السياق، فابتسمتُ وقلت للشاب: "أنا نفسي لا أعرف ماذا يحدث.على أية حال، هكذا المثقفون دائما. يعقّدون البسيط من الكلام والأفكار. ثم دعك مني، وقل لي: أليس ثمة فتاةٌفي دمشق تستأهل أن تعود إلى هناك بسببها أو من أجلها؟" قال: "بلى." قلت: "حدّثني عنها." "ماذا أقول؟ إنها بردانة." "عفواً؟" "هذه آخر كلمة سمعتها منها." "أين تقيم في دمشق؟" "في المخيم.. مخيم اليرموك." "هل هي فلسطينية؟" "فلسطينية مثلي ومثلك." "ما اسمها؟" "ليلى." "وما حكاية بردانة؟" "بردانة - وصفن ثانيتين أو ثلاثاً.. يبدو أنه كان يفكر بالترجمة المناسبة للكلمة. وبدا لي أنه لم يعثر عليها- يعني تشعر بالبرد. قالت لي: بردانة. كان هذا على الموبايل.اتصلتُ بها من هنا، من القاهرة. كانت هذه آخر المكالمات بيننا. كانت في الشتاء الأخير عندما ضربت دمشقَ عاصفةٌ ثلجية. كانت المدينة بلا كهرباء، بلا وقود، بلا تدفئة. هل تصدق؟ لقد سمعت على الموبايل طقطقة عظامها من ارتجافة الصقيع." وصمت. لقد هبط عليه حزن ثقيل دفعةً واحدة. جاريته بالصمت لحظةً احتراماً لحزنه، ثم قلت: "وماذا جرى بعدئذٍ؟" "لا شيء." "كيف لا شيء؟" "انقطع الاتصال. ومازال مقطوعاً إلى اليوم. أخشى أن يكون قد وقع لها مكروهٌ ما، فربما عرفوا أنّ أمرَ هذه البنت يهمّني." "ومن يكون هؤلاء؟" "الذين يريدونني حيّاً أو ميتا." "النظام؟" "النظام وغير النظام." "مَن مثلاً غيرُ النظام؟" "أوه! كثيرون يا أستاذ.. لقد قلت لك قبل قليل: لا أحد بريء. لقد تعرضنا لخدعةٍ كبيرة. بعض مَن ادّعى ومازال يدّعي أنه جيشٌ حر لم يكن في الحقيقة إلا لصوصاً وقاطعي طريق. سيناريو شديد الخبث يعجز عن حبكته كاتب مثلك مشهود له بالمهارة." "شكراً على هذه الشهادة!" "أعمالك في غنىً عن شهادتي،

ولكن. "ولكنْ ماذا؟ لماذا صمتَّ؟" "أنت عائدٌ إلى دمشق، فهل تستطيع مثلاً.. ؟" "لماذا أنت مترددٌ في الكلام؟. لو عدتُ إلى دمشق فهل ترغب بأن أتصل بهذه البنت وأنقل لها منك رسالة ما؟ أطمئنها عليك مثلاً؟ هل هذا ما تريد قوله؟" "في الحقيقة نعم. هذا ما أردت أن أطلبه منك، ولكنني أتردد لأنّ موبايلها مطفأ. لن تصل إليها." قلت ممازحاً: "يبدو أنك لستَ مشتاقاً إليها." "ماذا تقول يا أستاذ؟! إنني أفكر بها ليل نهار.أحلم بها ليل نهار. أنا أصلاً كنت أخطط لإخراجها من سوريا بأيّ شكل. كنت أخطط للمجيء بها إلى هنا كي نتزوج، ثم نهاجر إلى بلدٍ أوروبي. على كل حال، ليتك تحاول أنْ تعرف شيئاً عنها. وشكراً لك سلفاً." "يبدو أنك متشائم حول وضعها." متشائم كلمة صغيرة." "لا أعرف بماذا أستطيع أن أساعدك أكثر من محاولة الاتصال. ومع ذلك.. هل تفهمني؟. أنا أريد أن أقدّم مساعدة ما. ولكنني لا أعرف كيف." "وأنا لا أريد أن أحمّلك مسؤولية.لا أريد أن أورطّك فجأةً بمشكلة أنت في غنىً عنها." "مشكلة من أي نوع؟" "وكيف لي أن أعرف ماذا يحدث هناك بالضبط؟! الله وحده يعلم، فالقتل في دمشق صار من أشياء الحياة اليومية." "أنا في غنىً عن المتاعب فعلاً، ومع هذا سوف أحاول، إنْ رجعتُ إلى دمشق، أن أعرف شيئاً عن حقيقة هذه البنت وحقيقة ما جرى لها؟" "هل تستطيع ذلك؟. أقصد هل عندك علاقات بمسؤولين كبار؟" "أعدك بأن أبذل أفضل ما لديّ." "وأنا لن أنسى لك هذا الجميل مادمتُ حياً." " ولكنني أحتاج لبعض المعلومات. ماذا كانت تشتغل مثلاً، وأين؟" "إنها لا تشتغل. مازالت صغيرة، عمرها تسعة عشر عاماً. مازالت تدرس- واغتصب ابتسامة - حمارة. رسبت بالبكالوريا السنة الفائتة." وابتسمتُ أنا أيضا. وسجّلتُ على موبايلي بعض المعلومات عن تلك البنت التي اسمها ليلى، وسألت: "ولكن، لماذا أنت مطلوب؟هل قتلت أحداً؟ هل أطلقت النار على أحد؟" "أقسم بالله العلي العظيم أنني لم أحمل أيّ سلاح، ولو كان مجرد شفرة حلاقة." "وأنا أصدقك، وأعدك بأن أبذل أفضل ما لديّ. لكن، ومن باب الفضول، لماذا أنت مطلوب؟" "يا إلهي!!.. هل تستطيع أن تقول لي لماذا يموت هؤلاءِ الذين يموتون في كل ساعة، بل في كل دقيقة في

عموم أنحاء سوريا؟" "أرجو المعذرة! اعتبر أنك لم تسمع مني هذا السؤال الأخير.- وصمتُّ لحظَ قصيرةً قبل أن أعود إلى الكلام - وماذا أنت فاعلٌ الآن؟" "ماذا أنا فاعل بخصوص أي شيء؟" "ما هي مشاريعك لغدٍ وبعد غد؟ هل ستبقى هنا في مصر مثلاً؟" "وسط هذه الكراهية للفلسطينيين؟! أعوذ بالله!" "بماذا تفكر إذن؟" "ليس أمامي إلاّ البحر." "إلى أين؟" "إلى حيث يحملني الموج." "وليلى؟" "هناك في أوروبا ما زالوا يقيمون للإنسان وزناً. هل سمعت عن لم الشمل مثلاً؟" "نعم بالتأكيد." تمنّيت له التوفيق مع المجهول. تبادلنا أرقام هواتفنا النقّالة.اتفقنا أن نظل على تواصل. نهضنا عن الرصيف. تصافحنا. وافترقنا. ثم لم نلتقِ مرةً ثانية، فقد رجعتُ إلى دمشق ولم أتصل به، رغم أنني بقيتُ أتسقطُ أخبارَه من هنا وهناك، ورغم أنه بعث إليّ ثلاثَ رسائل نصيّةٍ قصيرةٍ على الموبايل. كتب في الرسالة الأولى: (أرجو إنك ما تكون نسيتني يا أستاذ وأرجو إنك ما تكون نسيت ليلى)، وكتب في الثانية: (أنا صرت بالإسكندرية. رتبت أمور الهجرة. الوضع هون سيء. عم يعتقلوا الفلسطينيين من الشوارع. حتى الولاد الزغار. وعم يحطوهن بسجن اسمه كرموز بيقولو إنو كثير بشع. أبشع حتى من سجن أبو غريب ويمكن أبشع من غوانتنامو. أنا هلأ متخبي بورشة نجارة لأهل شب مصري عرفته بالقاهرة. جماعة بيحبو الفلسطينيين. رح أبعتلك رقمو لهادا الشب لأن رقمي يمكن ما يعود نافع بعد ما أركب البحر. الله يستر)، أما الرسالة الثالثة والأخيرة فقد جاء فيها: (رح أطلع بالزورق لإيطاليا بعد ربع ساعة. البحر كتير بارد. أول مكالمة بدّي أعملها لمّا بوصل أوروبا رح تكون إلك. ادعيلي).

دمشق.. اليوم المسا.. نسمة خريفية منعشة.. الكهربا موجودة بكل مطرح من حولي.. الحركة بالطرقات نشطة إلى حد لا بأس به.. ما في انفجارات.. أبداً.. تمشيت بالشوارع حوالي خمسين دقيقة.. المحال التجارية شغالة.. بياع السندويش اللي عند زاوية شارع الفردوس معجوق كتير.. ونفس الشي بياع العصير بالطرف المقابل.. جاره بياع الساعات اليابانية صافن بالملكوت.. عم يسمع فيروز، وعم يسمّعنا معاه: تاريك حابينا وما يتقول.. شو زعلنا.. ولد زغير عم يتسابق هو وأخته على الرصيف.. البنت وقعت.. إجا الولد يساعدها.. أبوه انتهره.. المرأة قالت لزوجها: خليه يساعد أخته.. الرجل رد عليها: اتركيها تعتمد على حالها.. يالله بابا قومي لشوف، ولا تبكي هه! بنت مراهقة عم تمشي بسرعة، والموبايل على إدنها: لك تقبر قلبي انشالله، خمس دقايق وبكون عندك.. مجموعة أولاد عم يلعبوا كرة قدم في الجزء المغلق من الشارع بوجه السيارات.. واحد بيناتهم سجّل هدف.. صار يصرخ متل المجنون من الفرح: وينو كريستيانو ييجي يتعلم مني (واضح إنه الولد برشلوني).. شلة شباب طالعين من محل أباظة وكل واحد فيهن حامل بإيدو صحن كنافة نابلسية وعم يتضحكوا.. زلمة ختيار قاعد ع الرصيف وعم يأركل.. ما في بالطريق ولا عسكري.. شب وصبية واقفين عند جذع شجرة، أو حتى شجيرة.. الهيئة عم يتعاتبوا في الغرام.. شب عم يحكي ع الموبايل برواق: لك إمي شو أعمل أنا؟ ما هو أبي، طولي بالك شوي.. أنا كنت رايح للصيدلية منشان أقيس ضغط الدم في شراييني.. حسيت حالي مليح.. ما رح أقيس الضغط حتى لو ما كنت مليح.. وصلت للصيدلية.. تجاوزتها.. ما بدي أنزع هالمسا الحلو.

2014 - 9 - 14

وبعد هذه الرسائل النصية الثلاث انقطعت أخبار عامر تماماً، باستثناء مكالمةٍ يتيمةٍ أجريتها مع الشاب المصري الذي يحب الفلسطينيين. اسمه إيهاب. كان قد مضى قرابة عشرين يوماً على رسالة عامر الأخيرة. قال لي إيهاب: (أنا زيّ حضرتك بالي مشغول عليه مفيش منو أي خبر). أما لماذا لم أتصل بعامرٍ قبل ذلك فلأنني كنت أحب أن أنقل إليه نبأً سارّاً عن ليلى. ولكنني لم أصل إلى أية نتيجة مفرحة بهذا الخصوص، رغم أني بذلت أفضل ما لديّ كما وعدت. وفي مجتمع يعيث به الفسادُ خراباً، يكون أفضل ما لديك هو: النقود، فالفساد أشدُّ فتكاً من الحرب. وفي الحقيقة إنني لم أبخل مقابل المعلومات التي جاءت شحيحةً، متضاربةً، وغيرَ قابلة للتصديق أحياناً. قالوا لي: هذه البنت صارت في لندن. وقالوا: ماتت تحت القصف في مخيم اليرموك. وقالوا: ماتت تحت التعذيب في أقبية أحد أجهزة الأمن. وقالوا ماتت تحت التعذيب لدى إحدى الجماعات الدينية المتطرفة. وقالوا: لا وجودَ لهذه البنت في الحياة، ولم يكن لها وجودٌ في يوم من الأيام. ولا أعرف كيف جزموا بهذه المعلومة الأخيرة، فقد احترق السجل المدني لفلسطينيي مخيم اليرموك بالكامل. في هذه الحال، أنا أيضاً لا وجود لي في هذه الحياة. ولكنني في الحقيقة موجود. أجلس الآن إلى الكومبيوتر في ركن الكتابة في منزل أحد أصدقاء عمري حيث أقيم منذ بضعة شهورٍ وحيداً عند سفوح جبل قاسيون. أشرب قهوةً وأدخن سيجارة في وقت متقدم جداً من ليلةٍ باردة. وأسمع أم كلثوم تغنّي من كلمات أحمد رامي وألحان محمد القصبجي: ليه تلاوعيني وإنتي نور عيني؟.. إنني موجود.حواسي كلها ناشطة. العين لا تكذب. أمامي على الطاولة ومن حولي قرابة خمسَ عشرةَ علبة سجائر معظمها فارغ تماماً، ولا أعرف لماذا لا أرميها في كيس الزبالة بعد، وعلى سطح الطاولةِ من يميني جهاز موبايل يسمونه ذكياً، من دون أن أعرف وجه ذكائه، فأنا لم أستخدمه طوال ثلاثة شهور تقريباً إلا كوسيلة اتصال بدائية فقط. لم أتقن استخدامه بأكثر من هذا إلا مؤخراً. صرت قادراً

على الدخول بواسطته إلى حسابي في الفيس بوك. واعتبرت نفسي بهذا الإنجاز البسيط أهمّ من بيل غيتس شخصياً.أحدُ أبناء أحدِ أخوتي ابتلاني به في القاهرة. كنت قد أعطيته نقودا ليشتري لي أشياء أحتاجها عشية عودتي إلى دمشق. غاب الشاب عني ساعة من الزمن، وعاد يحمل إليَّ هذا الجهاز، وقال: "هذا ما تحتاجه." واكتشفتُ من اليوم الأول بعلاقتي مع الذكاء أنّ الشركة الصانعة قد ارتكبت خطأً فنياً لا يُغتفر عندما نسيتْ أن تكتب تحذيرا صريحاً يقول: (يُمنع بيعُ هذا الجهاز لمن تجاوز الثانيةَ عشرةَ من العمر.) وبجانب جهاز الموبايل أرى بعض الأدوية أيضاً.أحدها عقارٌ منوّم (أعاني أرقاً مزمناً كما أسلفت، وسوف أعود إلى هذه المسألة بعد قليل). جرّبتُه عديدَ المرّات ولم أحصل منه على غفوة حتى لو كانت قصيرة، رغم أنّ الشركة الصانعة (وهي إحدى الأذرع الأخطبوطية في تروست الصناعة الدوائية الأمريكية) تؤكد في النشرة المرفقة أنه عقارٌ أكيدُ المفعول. هذا العقار الأمريكي الأكيد المفعول شديدُ الشبه بتلك المتممات الغذائية الأمريكية وغير الأمريكية التي تملأ صيدليات الدنيا، والتي تعِدُك بالنشاط والحيوية من دون أية أعراضٍ جانبيةٍ غيرِ مرغوبٍ بها. لقد جرّبتُهاهي أيضاً. وجدتها غير ضارّة فعلاً، ولكنها في الحقيقة ليست نافعة كذلك. ورغم هذا فإنني لا أتوقف عن شرائها بين حينٍ وحين. ماذا لديّ على الطاولة أيضاً؟ كتاب (الحماسة): أقولُ نصاحبي والعيسُ تَهوي / بنا بينَ المُنيفةِ فالضِّمارِ. ..تمتّع مِن شميمِ عَرارِ نجدٍ / فما بعدَ العشيّةِ مِن عَرارِ. القشيري في(حماسة) أبي تمّام. وبجوار (الحماسة) قطعة شوكولاتة لا أتذكر متى اشتريتها، ولا أتذكر أنني قد اشتريتها لنفسي. ربما اشتريتها لرشا ونسيت أن أحملها إليها. نسيت، رغم أنّ ذاكرتي قوية، أو حتى قوية جداً. قويّة إلى الحد الذي يجعلني أومن بوجود رابطة أكيدة بين الأرق وبين قوّة الذاكرة. أظن أنّ الأطباء الذين زرتهم في عياداتهم بشكوى الأرق لم يحسنوا التشخيص. لم يسألني أيٌّ منهم شيئاً عن ذاكرتي التي تستحضر آلاف الأسماء والأحداث في لحظة قصيرةٍ جداً من عمر الزمن: عند العصر من يوم أمس، مررتُ بأولادٍ يلعبون كرة القدم بصخب في الطريق بينَ السيارات، غيرَ مبالين بالقذائف المدفعية والصاروخية التي تطير

فوق رؤسهم منطلقةً من قمم قاسيون إلى شرق المدينة وجنوبها. الأطفال خُلقوا للعب، فكيف لأحدٍ أن يلومهم وهم يمارسون كرة القدم، حتى لو بينَ السيّارات في الطريق؟ إنه المكان الوحيد المتاح لأطفال دمشق الراهنة في هذه الدنيا من أجل أن يلعبوا. ذكر أحدُهم اسم (ميسي) لاعب كرة القدم الأرجنتيني الشهير. ربما كان الطفل يُفضّل نفسه على ميسي من بعد رميةٍ جيدة، أو من بعد هدفٍ قد سجّله بين سيارتين تحتلاّن نصفَ الشارع، وثلاثةَ أرباعِ الرصيف. كان الطفل مبتهجاً وفخوراً على نحوِ مجنون. (واضح أنه ريال مدريَدي)، فالعرب لم يعودوا إلاّ عشيرتين: برشلونة وريال، وأنا في الحقيقة لا أنتمي إلى أيٍ من هاتين العشيرتين، فتابعت طريقي بهدوء، ولكنَّ الاسم حملني سريعاً إلى برشلونة حيث يلعب هذا الشاب الذي صار ثالث الأساطير التي قدّمتها الأرجنتين للعالم من بعد مارادونا وتشي غيفارا. انفلتت السلسلة من عقال الذاكرة دفعةً واحدة. برشلونة اليتيمة.عاصمة الثورة الإسبانية. المدينة الذبيحة من الوريد إلى الوريد. ذبحها الجنرال (فرانكو) والعالم كله يتفرج. فرنسا، بريطانيا، الولايات المتحدة، الخ. الديمقراطيات كلها حجزت لنفسها مقاعد في صفوف المشاهدين. ما الداعي لاستفزاز الجنرال المدعوم من النازية الألمانية على نحوِ سافرٍ في بغضه؟ ما الداعي لاستفزاز الفوهرر القابع في برلين، والقابض على آلةٍ عسكرية لم تعرف البشرية لها نظيراً في جهنميتها؟ الجميع يتحاشى صداماً مع النازيّة، حتى الاتحاد السوفياتي. كان يعلن تعاطفه مع الثورة الإسبانية في وسائل الإعلام المختلفة، وكان في الوقت عينه يمدّ الآلة العسكرية النازية بالنفط ومشتقاته. كانت الثورة الإسبانية يتيمةً بحق، فالجميع يؤثر السلامة، لأنّ هتلر ينتظر ولو مجرد احتجاجٍ على المقتلة الإسبانية من أيّ أحدٍ في ديمقراطيات العالم. سوف يكونُ ذلك الاحتجاج على ما يجري هناك من فظائع سبباً وجيهاً لإحراق العالم جميعه. إلهُ النازية يبارك القتل بلا حدود. حتى إنّ النازية تكفلت بالمهام التي كان يصعب على الجنرال تنفيذُها. والديمقراطيات تظل تؤثر السلامة. من يجلب الدّبّ إلى كرمه غيرُ الأحمق؟ أتذكر جيداً أنّ سلاح الجو الألماني هو الذي ارتكب مجزرة (غيرنيكا). وأنه قد فعل ذلك بناءً على طلبٍ من الجنرال

فرانكو، من بعد أن استعصت المدينةُ على قواته. تقول الكتب جميعها (المتخصصةُ بهذا الشأن) إنّ أشعة الشمس قد حُجبت عن المدينة في نهار المجزرة، فقد كان في سماء ذلك النهار ألفٌ من قاذفات القنابل النازيّة. أتذكر الأندلس وشاعرَها الجميلَ(لوركا) ولحظةَ إعدامه، من بعد محاكمة ميدانية امتدّتْ لخمسينَ ثانية، بتهمة التحريض على الثورة ضد الجنرال "البغيض". لوركا خرج من الحياة إلى الأبد، وإلى الأبد ترك وراءه (عرس الدَّم) و(بيت برناردا آلبا). أتذكر آرنست همنغواي. لِمنْ تُقرع الأجراس؟ حقاً، لمن كانت الأجراسُ تُقرعُ يا آرنست؟ من أجل أية قيامةٍ كانت الأجراسُ تُدق؟ أتذكر موت الجنرال من بعد ما يقرب من أربعين عاماً على المجزرة التي ارتكبها في البلاد طولاً وعرضاً. سمع الجنرالُ المحتضرُ ضجةً تحت القصر. سأل المحيطين بفراش موته: "ما هذه الضجة التي أسمع؟" قالوا له: "إنه الشعب الإسباني يا سعادةَ الجنرال.. الشعب الإسباني جاء يودعك. ولم يفهم الجنرال ما قيل له. لم يستوعب أنه مائتٌ، فمِثلُه لا يموت. مِثلُه خالدٌ خلودَ الوجود نفسه، إن لم يكن خلودَ الله سبحانه، وأستغفر الله العظيم لي وللجميع. قال الجنرال للمحيطين به: "ولماذا جاء الشعب الإسباني يودعني؟ إلى أين هو راحلٌ شعبي الحبيب؟!" وتظلّ السلسلةُ منفلتةً من عقالها على نحوٍ شيطاني. أتذكر موت قيصر الفاشيّة الإيطالية، فالموتُ بالموتِ يُذْكَر. وأتذكر الواقعية الجديدة التي صنعها شبابٌ إيطاليون موهوبون. بل إنّ موهبتَهم لا ضفافَ لها.. (روما مدينة مفتوحة) و(سارق الدراجات) و(الأرزّ المرّ) و(ليالي كابيريا) و(معجزة في ميلانو) و(امرأتان). هناك كان حاضراً ذلك الفرنسي المدهش: جان بول بلوموندو. من لم يشاهد بلوموندو مرةً تظل حياتُه ناقصةَ الدهشة.. (بيير المجنون).. (على آخر نَفَس).. الموجة الفرنسية الجديدة.. (فرنسوا تريفو).. (الأربعمئة ضربة).. (جان لوك غودار).. (حَمَلَةُ البنادق).. أتذكر ذلك العرض الموسيقيّ المذهل: (أمريكي في باريس). وهذا بدوره يأخذني إلى (الرقص في المطر) و(قصة الحي الغربي). أتذكر(ناتالي وود) على نحوٍ خاصٍ جداً. كان عمري ستةَ عشَرَ عاماً حين بعثت إليها رسالة غرام إلى هوليود. كتبتُها بلغةٍ إنكليزية ركيكة. خجلتُ من

عرض الرسالة على أخي يوسف. أخي الكبير. يوسف سامي يوسف. كان يعرف اللغة الإنجليزية على نحوٍ أكثرَ من كثير، مما جعله نداً قوياً ل (ت. س. إليوت) عندما ترجم عديد قصائده إلى اللغة العربية. نعم، خجلت. فلتبق الأخطاء اللغوية على ما هي عليه. وبررت خجلي بضرورة التكتم على حبيَ الكبير لنجمة هوليود الساحرة. أظنها كانت في السادسة والعشرين من عمرها وقتئذٍ. واليومَ أومن بأن تلك الرسالة لم تصل إلى المرسلة إليها، فهي امرأة فائقة النعومة، وفائقة الرهافة. كان من المحال ألا تردّ عليّ ولو بكلمتين أو ثلاث. كتبت أشكو لها ما ألاقي من الأرق. لم أخبرها بشيء عن الذئب الصغير الذي أنا عليه (الجروُ الضائعُ وليس الحَمَلَ الضائع.. أرجو أن تنتبهي للفرق يا آنستي!) ولكنني في الحقيقة حذفت هذه الجملة من صيغة الرسالة النهائية، ولم أخبرها بشيء من أمر ذلك الذئب الصغير الذي يعيش معي وأعيش معه والذي يحرمني النومَ كلّ ليلة.

قلت لها: إنني لا أنام الليلَ بسببكِ أنتِ يا حسناءَ النهار.. تذكرتُ مليوناً من التفصيلات ولم أكن قد ابتعدت عن ميسي الصغير أكثر من عشرين خطوة، فما زال الطفل يصرخ مبتهجاً من الهدف الأسطوري الذي سجَله في فرجةٍ بين سيارتين تحتلان نصف الطريق وثلاثة أرباع الرصيف، وتعيقان حركة المركبات والمشاة في آن.

اليوم المسا دخلت إلى دكّان في قلب دمشق منشان أشتري سجاير
كان بقيان معي ست أو سبع سيجارات مش أكتر
وكان البيّاع مشغول بشوية زباين قبلي
انتظرت بالدور
ألقيت بهالأثناء نظرة على محتويات الدكان
مجرد فضول ممكن يصيب أي حدا
وقع بصري على أكياس شيبس
ماركات عديدة
ما إلي علاقة بالشيبس، مع إني كنت أشتريه كثير
إنما مش لإلي طبعاً
للأطفال
أطفال العائلة
اللي ما بقي منهم اليوم بسوريا ولا واحد
أبداً
كلهم كان في مخيم اليرموك

بسام، كنان، سامي، محمد، ليلى، عمر، سعد، تالة، مريم، عبادة، نونا، محمد، مجد، حلا، يوسف، أويس، حسن، كريم، وسام، سلام، وئام، لارا، ماريا، فرح، جهاد، عبدالعزيز

يا ربي! شو بدي أتذكر لأتذكر!!
وشو بدي أعد لأعد
سألت حالي وأنا عم أتفرج على الشيبس:

شو كانوا ياكلوا هدول الولاد؟
ما بعرف
وظيفتي كانت الدفع.. وبس
بتذكر إنه الكيس الواحد كان بخمستاشر ليرة
أخدت بإيدي واحد من هالأكياس
بدافع الفضول وتضييع شوية الوقت اللي بقيان
حاولت أقرأ المحتويات
ما فهمت شي
الزباين مشيوا
إجا دوري
سألني البيّاع:
شو بتريد؟
بكم كيس الشيبس؟
بمتين وخمس وعشرين ليرة
الوقت الآن قريب نص الليل
الدكاكين كلها بقلب دمشق صارت مغلقة من زمان
أمامي بهاللحظة على الطاولة في الغرفة: قلم، كومة ورق أبيض، كيس شيبس، وعلبة سجاير فارغة تماماً.

2015 - 8 - 27

أتذكر أنني حزنت كثيرا يوم ارتحلتْ ناتالي عن الحياة، رغم أنني كنت قد جاوزت المراهقة بكثير الزمن. كنت قد جاوزت الثلاثين من عمري عندما نهش السرطانُ اللعين تلك النعومةَ الفائقة، حتى جعلها أضعفَ مِن أن تقاوم الغرقَ في شبرٍ من الماء. في تلك الفترة من حياتي فقدتُ اثنتين من النساء اللواتي أحببت على مدارها: ناتالي نجمة هوليود البعيدة، وهناء التي لم تعش فوقَ الأرض إلاّ خمسةَ وعشرين عاماً. لقد ماتت بالسرطان هي أيضاً. ماتت بعيداً. بعيداً كثيرا. في مدينة جينيف السويسرية. لا أعرف أين دفنوا جثمانها. والذي يفاجئني اليومَ أنني لم أحاول أن أعرفَ أين كان الدفنُ، رُغمَ أنّ الحبيب يُزارُ. قالت لي مرّةً: أحبك حبّين: حبَّ الهوى/ وحبّاً لأنك أهلٌ لذاكَ.. قلت لها: تعالي نتزوج! نظرتْ إليّ ذاهلةً وقالت: هل أنت جادٌ في عرضك هذا؟! قلت: ما هذا السؤال الغريب؟! فأنا أحبك وأنت تعرفين ذلك. أنا أحبك يا هناء. قالت: أنا أحبك أكثر، ولكنني لا أستطيع أن أكون لك زوجة. قلت: لماذا؟. قالت: لا أستطيع، وكفى. كنتُ في التاسعة والعشرين من عمري، وكانت في الواحدة والعشرين. كانت بعدُ طالبةً في الصف الثالث في كلية الهنسة المدنية. دامت علاقتنا ثمانية شهور فقط. لم يحدث بيننا خلال تلك الشهور الثمانية اتصالٌ جسديّ، باستثناء ضمّة يتيمة وقبلة يتيمة. كنت أطلب منها أكثر من ذلك، وهي لم تقبل بشيء من ذلك الأكثر. كنت أطلب الزواج بها. كل الذي عرضتُه عليها كان الزواج، وكلّ الذي قدمَتْه لي كان الرفض. كنا نبدو للآخرين ثنائياً جميلاً.

كاتب شاب، وطالبة هندسة شابّة يُتوقعُ لها النجاح. كنا ثنائياً مُرَحبّاً به. دعانا مرّةً أحدُ الأصدقاء للغداء في منزله. جلستُ بعد الطعام في الصالون على ديوانٍ فسيح. جلستُ كما أفعل دائماً في طرف الديوان. كانت هناء تساعد صديقتنا ربّة المنزل في المطبخ بالجلي أو ما شاكله. جاءت بعد ذلك إلى الصالون، وجلستْ على الأريكة نفسها حيث أجلس. كان بين يديّ

جريدة. استلقتِ البنت على جنبها الأيسر ووضعتْ رأسها على ساقي اليمنى. لم أنتبه للأمر إلاّ متأخراً. ما هذه الحركة؟ إنها المرّة الأولى. هل هي مؤشر إلى تطورٍ ما جديدٍ في علاقتنا الجسدية؟ طويتُ الجريدة وقلت لها: ماذا؟ قالت: أريد أن أنام. قلت نامي يا حبيبتي. وراحت أصابع كفي اليمنى تحوم في خصلات شعرها بنعومةٍ تدغدغ على الإغفاء. انتظمتْ أنفاسُها، فاعتقدتُ أنها قد أغفتْ. ولكن صَوتها جاءني يقول: ليس النوم مرادي. قالت: أتعرف ما هي أمنيتي في هذه الحياة؟ قلت: ماذا؟ قالت: أن أموت بين يديك. قلت: إذن، تعالي نتزوج. قالت: أظن بأني لن أعيش طويلاً. قلت: ما هذا الكلام السخيف؟إنك في الواحدة والعشرين بعد، والحياة أمامك مديدة. قالت: لا، لن أعيش طويلاً. قلت: إذن، من الأفضل أن تعودي للنوم، أو تتزوجيني. قالت: أعود إلى النوم. وأغفتْ. تذكرتُ مليون تفصيل ولم أكن قد ابتعدت أكثر من ثلاثين خطوة.. مازال الطفل يصرخ مبتهجا بهدفه الأسطوري.. أترك الولد مع طربه، وأعود إلى نفسي. ماذا على الطاولة أيضاً؟ علبةُ محارم. ساعةُ يدٍ لا أحبها.لا تشبهني. دفترٌ صغيٌر أسجّل عليه ملاحظةً هنا أو ملاحظةً هناك. قلمٌ يابانيٌ اشتريتُ منه دزينةً كاملةً قبل يومين. كنت محظوظاً على نحوٍ غريب حين عثرت على هذه الأقلام في إحدى المكتبات، فقد اختفت من الأسواق مؤخراً لتحلّ محلها الأقلامُ الصينية التي غالباً ما تخذلك حين تكون بأمسّ الحاجة إلى تسجيل ملاحظةٍ أو خاطرةٍ مرقتْ في رأسك، وتخاف عليها من الضياع بين أشياء الحياة. قنينة ماءٍ معدني متوسطة الحجم. صحنٌ لأعقاب السجائر لم تتفق العربُ على اسم له محدد. في مصر يسمونه (طفّاية)، بينما يسميه السوريون (منفضة)، ولا أعرف ماذا يسمونه في الخليج أو في المغرب. ثمّة ولاّعةٌ هي أحسنُ ما قدمت لنا الصينُ في هذا البلد. يمكنني بها أن أشعل السجائرَ، ونارَ البوتوغاز، ويمكنني استخدامُها كذلك ضوءاً كاشفاً مثل (البيل). ولن يعرف قيمة هذه الميزة الأخيرة أحدٌ في العالم أكثرَ ممّا يعرفها السوريون. هذه الولاّعة زهيدة الثمن ومع ذلك فهي تساوي وزنها ذهباً في لحظةَ العتمة. ولحظاتُ العتمةِ كثيرةٌ عندَنا. لا يمكن لأحدٍ أن يعرف بالضبط متى سوف ينقطع التيّار الكهربائي،

أو كم سيطول هذا الانقطاع. بالأمس دام إحدى عشْرَةَ ساعةً متّصلة. ماذا يوجد على سطحِ الطاولة بعد؟ في الحقيقة: لاشيء آخر. مازلتُ أسمع أم كلثوم تغني من ألحان محمد القصبجي: ليه تلاوعيني وإنتي نور عيني.. وأسمع كذلك انفجاراتٍ عنيفةً لا تبعد عني أكثر من كيلومترين اثنين فقط. وأنتظر مكالمةً من رشا.عجيبٌ أمرُ هذه البنت! لا يحلو لها الاتصالُ بي إلا في قطعة الليل الأخيرة. حتى عندما اتصلتْ بي أول مرّة كان الفجر يرسل إشاراته للخليقة بانطلاقة يومٍ جديد. لم يكن قد مضى على الطلاق بيني وبين زوجتي إلا أسابيعُ قليلة. لمْ تعتذر الصبيّة التي لا أعرفها عن الاتصال في مثل هذا الوقت، بل قالت: "أعرف أنك ساهرٌ بعد. أعرف أنك الرجل الذي لا ينام الليل." "وهل هذه المعرفة تعطيكِ الحق بإزعاجي؟!" "لا طبعاً، ولكن لماذا الإزعاج مادمتَ غير نائم؟" "قد تزعجين باتصالك هذا شخصاً آخرَ في المنزل." " غير ممكن." "لماذا؟" "لأنك وحيد." وأضافت: "أعرف أنك وحيدٌ تماماً." "ومن أين لكِ هذه المعرفة؟" "إنني أتابع أخبارك." "ولماذا تتابعين أخباري؟ " "لا أعرف بالضبط، ولكنني أشعر بأنّ أمرك يهمني." ما هذا الحوار؟! لو كتبتُه في أحد المشاهد التلفزيونية لأصاب الجميعَ بالضجر:المنتج والمخرج والممثلين والجمهور."هل أستطيع أن أراك؟" سألتني." نعم، تستطيعين." "متى وأين؟" واتفقنا على موعدٍ.. والتقينا، ولم أكن أعلم في يوم اللقاء ذاك بأن هذه البنت سوف تمسك ببعض خيوط حياتي، على نحوٍ من الأنحاء، وأنني بسببها سوف أرجع إلى دمشق من منفاي الاختياري في القاهرة. التقيتها أول مرّة في ربيع عام 2012 وتركتها، وسافرت إلى القاهرة في أواخر العام نفسه، ورجعتُ إليها من المنفى الإراديّ عند أوائل الصيف من العام التالي، ولم أقل للفتى عامر أكثر من: أعود بسبب امرأة. كم في هذه الكلمات البريئة من حقيقة تنقصها البراءة!! لم أقل له: أنا مثلك أيضا أيها الولد الفلسطيني. سمعت مثلَكَ ارتجافةَ عظامِ البنت من هول ما نزل على المدينة من صقيع. كنت أطالبها بالموبايل أجوبةً محددةً عن أسئلةٍ محددة: البرد والطعام والثياب والمواصلات العامة وأصوات القنابل.هي بنت فقيرة. تقيم بعيداً عن أهلها مئاتٍ غير قليلةٍ من الكيلومترات.

تستأجر مع صديقة لِها منزلا في واحدة من العشوائيات التي أحاطت بالمدينة كما يحيط السوارُ بالمعصم. منزلٌ شديدُ التواضع. هكذا وصفتْه لي. لم أزرها في ذلك المنزل مرّة. كنت أطلب منها على الموبايل أجوبةً محددة عن أسئلتي المحددة. - قوليلي حقيقة وضعك: بردانة؟ جوعانة؟ خايفة؟ كانت تردّ على جميع أسئلتي السابقة بكلمتين اثنتين فقط: "أنا بخير." "ولكنني أراك في صوتك يا رشا. وأرى أنك لستِ بخير." "والله أنا بخير. وكل شيء يمكن احتماله لولا.. " "لولا ماذا يا رشا؟" وتكاد البنت تبكي، أو لعلها قد بكت: "هذه المدينة صارت قاسية.هذه المدينة لم يعد فيها حنان." هل هي دعوة مُلْزِمةٌ، رغم عفويتها، للعودة إلى الديار؟ ارجع أيها الذئب العتيق. ما هذا الضجر الذي تمارسه بعيداً؟ حتى إنك لا تغادر الفندق حيث تقيم منذ شهور. هل هو أمرٌ عليَّ تنفيذُه بلا نقاش؟ فهل ثمة شخصٌ غيري معنيٌّ بهذا الحنان المفقود؟ا وهل أنا مَن سرق الحنان من عذارى هذه المدينة؟! لا أفهم. ولكنْ،عليّ أن أكون مطيعاً، فالمفقود أشدُّ هولاً من القصف والصقيع. يجب أن أكون كريماً، وأمنح إحدى هؤلاءِ العذارى شيئاً من الحب والحنان. أعترف أني كنتُ مشتاقاً لرشا.. شبابها الغضّ. شَعرها الأسود الثقيل. بشرتهاالبرونزية.عيناها السوداوان. أسنانهاالبيضاء كثيراً. حيويتها المفرطة. صوتها العذب.آراؤها الغريبة ببعض الأدب العربي: امرؤ القيس لا بأس به. المتنبي لا يصلح أن يكون أكثر من بائع جوّالٍ في حواري دمشقَ وحلب. القشيري ليس إلا لصّاً سطا على أشعار مجنون ليلى، أخذ منه الصور والمفردات وأعاد بناءها على نحوِ بهلواني. أما الشعراء المحدثون فليسوا إلاّ الخردة التي يبيعها المتنبي على عربته الجوّالة. واستدركتْ: "باستثناء محمود درويش طبعاً." لستُ أوافقها الرأي، ولكنْ، حقُّ الرأي عندي مكفولٌ، مكفول. لم أقل لها يومئذٍ شيئاً من رأيي في المسألة. لزمتُ الصمتَ تماماً.

"وماذا أيضاً يا رشا؟" " لماذا لاتترك التدخين؟ إنه يضر بالصحة جداً." سوف أتركه قريباً يا ماما. وتضحك البنت: "أنا ماما؟" نعم،أنتِ ماما." وتظل تضحك. وأحمل ضحكتها إلى المنفى، ولا أحدّث بشيء من أمرها لذلك الفتى الفلسطيني الذي التقيته في مدينة السادس من أكتوبر بمصادفة

تشبه الحتمية.. ما هذا؟! جرسُ المنزل. أجفلُ. وبصراحة أكثر: أخافُ. أنظرُ ى ساعتي اليدوية على سطح الطاولة بجانب اللابتوب. تمام الثالثة. الثالثة تي في الفجر. من يمكن أن يكون القادم إليّ في العتمة الباردة؟!! النصيحة تي من ذهبٍ في دمشقَ هذه الأيامَ هي: لا تفتح باب منزلك بعد الساعة عاشرة مساءً. الجميع يقول لك هذا الكلام. ولولا خوفُ النظام من أن يبدو فقداً السيطرة على العاصمة لأعلن تلك النصيحةَ في وسائل الإعلام المختلفة. ماذا أفعل؟ فتحت الموبايل، ثم لم أعرف ماذا أفعل. وحيدٌ أنا في المنزل. صديقي سافر قبل مدّة غير قصيرة. جرس الباب مرة ثانية. قبل يومين وفي مثلِ هذا التوقيت من الليل، تمّ اقتحام أحد المنازل غيرَ بعيد من هنا، وتم قتلُ جميع ساكنيه. من القَتَلَةُ ومن القتلى؟ ما يُشاع في الحيِّ أن الجريمة لم تكن جنائيةَ الأسباب. إذن، هي على علاقة بالأحداث الدموية التي تقع في بلد. وفي حال أنّ مَنْ يقرع الجرس الآن قد جاء يبتغي القتل، فمَنْ الهدفُ حقيقي؟ صديقي المسافر أم أنا؟ أرجّح ألا أكون أنا، فأنا جديدٌ هنا: ضيفٌ عابر، ولا يمكن أن يكون قد تم رصدي بهدف القتل أو سواه، فإن كان قتلة من المعارضة فأنا لست عدواً لهم، من الزاوية الطائفية للمسألة على لأقل. وإنْ كانوا من شبّيحة النظام فإنهم لا يستأذنون الدخول إلى المنازل. يقتحمون الأبواب بلا مبالاة. ولكن إيّاك أن تفتح البابَ، فإنهم لن يميزوا بين ت وبين هو، فالعملية كلها لن تستغرق أكثر من ثانيتين اثنتين. الجرس مرة ثالثة. أطفأتُ الأنوار. أعطيت جهاز الموبايل وضعية الصمت. ذهبتُ حافيَ قدمين إلى الباب. لم أنظر من العين السحرية، فهذه حركة غبية تماما، لأنها فرصةٌ ممتازة للقتل من وراء الباب الذي وقفتُ بجواره محتمياً بالجدار (هذا ما تعلمته من أفلام جيمس بوند.. أيها العميل البريطاني! شكراً لك!)، وأصختُ السمعَ. لا شيء. لا حس. لا همسة. لا شيء أبدا، ومع ذلك، جرس مرّةً رابعة. كان الفاصلُ الزمنيُ بين الجرس والجرس نصفَ دقيقةٍ تقريبا. أربع مرّات. ثلاثة أنصاف دقائق تجمّد بعدها الدم في بدني، وأحالني ى كائنٍ خشبي من كتلة واحدة. بلا أية مفاصل أو عروقٍ أو عضلات أو غضاريف. كان بصري قد وقع قبلها على أسفل الباب: ثمّة ورقةٌ بيضاء كبيرة

تزحف على الأرض ببطء عجيب، على الأرجح أنه مُتعمَّد، بل ربمّا كان سادياً، من شق الباب السفلي إلى داخل المنزل فوق البلاط الأملس. توقفت الحركة وقد صار نصف الورقة داخلَ المنزل بينما ظل نصفها الآخر خارجَه. لم أكن أجرؤ، بطبيعة الحال، على أن أمد يدي وألتقطها، فهذه أيضاً وسيلة رائعة جديدة للقتل من وراء الباب. وحتى لو كنت أجرؤ على شيءٍ كهذا، فإنني لم أكن قادراً على تنفيذه، فأنا رجل خشبيٌّ غير قابل للانحناء أو الانطواء، بعدما صرت بلا أية مفاصل تعينني على الحركة وقد تجمد الدم في بدني جليداً غير قابل للكسر، ولا حتى بمطرقة حدّادٍ كبيرة. أظنني فقدت الوعي لحظة غير قصيرة سمعت بالكاد بعدَها وقع أقدامٍ مغادرة. على الأرجح أنّ تلك الأقدامَ كانت تحتذي نِعالاً رياضية كتيمة الصَّوت على الأرض. من كان هذا أو هؤلاء؟! سألت نفسي. وقررت أن أغادر المنزل عند الصباح بلا عودة، فهذا الشخص أو هؤلاءِ سوف يرجعون إليّ غداً أو بعد غدٍ حتماً. حسناً هم يريدون صديقي الذي ينتمي دينياً إلى طائفة النظام، ولكنهم سوف يقتلونني أنا. انصرفتُ على رؤوس أصابع قدميّ إلى غرفة النوم وقد عاد بعض الدم إلى بعض عروقي مثلما عادت انفجارات المدافع تهدر من جديد. كنتُ فريسةً للخوف. دخلت في الفراش وأنا أردد القول: سوف أغادر هذا المنزل حتماً. ولم أعد أريد من الحياة شيئاً سوى مجيء الصباح. أصوات المدافع تصير أقوى. إنّه الهَوْل يتملكني. انفجارٌ قريبٌ من المنزل. أظنها قذيفة هاون. ماذا أصابت؟ لست أدري. أيّة حربٍ هذه؟!! أعتقد بأنّ أحداً ما لا يملك أكثرَ من جزءٍ من الصورة. لا أظن بوجود أحدٍ يلمّ بالصورة كاملةً. من أجل ماذا رجعتُ إلى دمشق؟ هل من أجل أن أموت هنا؟ لقد أخطأتني القذائفُ من قبلُ مرتين. كانت قنابلَ عشوائيةً تماماً. أما الآن فالوضع مختلف. جاؤوا يقصدونني. أرجّح أنهم جاؤوا يقصدون صديقي. ليس مهمّاً. سوف يقتلون من يجدونه أمامهم. ولن يجدوا أمامهم سواي. إذن، الثالثة ثابتة كما نقول عادةً. وكان من السابق لأوانه معرفة أن المقصود لم يكن صديقي، بل أنا. والأسباب جنائيةٌ خالصة: سرقة، ابتزاز، وما شاكلهما. انفجار قريب آخر. هذه أيضاً قذيفةُ هاون، فقد سمعتُ صفيرَها واضحاً في الهواء. من يطلق هذه

القذائفَ الغبيةَ على هذا الحي الذي يسيطر عليه النظام؟ هل يُعقل أن يكون النظامُ نفسُه من يفعل ذلك؟ ولكن بأيّ غرض؟ وإن كان الجيش الحر هو الفاعل، فبأيّ غرضٍ أيضا وشعارُه حماية المدنيين من بطش النظام؟! أم تراه يرمي القذائف على هدف أمنيٍّ قريبٍ لا أعرفه؟ أيّة حرب هذه؟ اسمعي الشاكي وارحمي الباكي.. يا إلهي!! كيف فاتني أن أطفىء صوت اللابتوب؟ وتساءلتُ من فوري: هل كان الصوت مسموعاً إلى ما بعد باب المنزل. نهضت من الفراش، وكنت ما أزال حافي القدمين. لسعتني برودةُ الأرضِ. شيء رائع. استعادة الإحساس بالأشياء. استعادة الحواس. الاستمتاع باستعادتها. ذهبت إلى باب المنزل. وقفت هناك لحظةً. لم أكن أسترق السمع إلى ما وراء الباب الخارجي، بل إلى صوت أم كلثوم في ركن الكتابة البعيد. اسمعي الشاكي وارحمي الباكي قضّى طول عمرو قلبو يهواكي.. كان الصوت يأتيني ضعيفا. أشكّ في أن يكون قد تجاوز عتبة الدار. الورقة البيضاء الكبيرة ما زالت في مطرحها. انحنيت عليها محتمياً بالجدار، حتى صرت جاثياً على ركبتي، ولم ألمسها بيدي. اكتفيت بتصفحها من خلف زجاج النظارة: الجزء المتاح منها طبعاً. كانت بيضاء تماماً. ماذا يعني هذا؟ التوقيع على بياض؟ ربما كان الأمر كذلك. ربما. ربما. ولكنَّ الأمر لا يعنيني على نحوٍ مباشر. إنه يعني صديقي. وصديقي بعيدٌ جداً من هنا. إنه في موسكو. أي: لا خطر عليه من أي نوع. وسوف أتصل به غداً وأنبهه إلى الأمر. أراحتني هذه الفكرة، حتى إنّ الدم قد رجع يسري في عروقي ويخلّصني من تلك الجمدة الخشبية، وإن بالتدريج، فنهضت من جثوتي على مهلٍ تاركاً الورقة البيضاء على حالها الأولى، ووجدتني أذهب إلى ركن الكتابة مستمتعاً ببرودة الأرض. أيّ جبان أنا؟! شعرت بوجعٍ مفاجىءٍ في جميع أسناني. يبدو أنها كانت تصطك ببعضها بشدة خلال لحظةِ الخوف الطويلة. سوف أغيّر الأغنية في مسجلة اللابتوب.. طول عمري بخاف من الحب وسيرة الحب.. أحب هذه الأغنية على نحوٍ خاص. تذكرني بواحدة من الصبايا اللواتي رغبتُ بهنّ في حياتي، من دون أن أقوم بأية إشارة توحي بتلك الرغبة. كنت شاباً بعد. وكانت صبيةً حلوة. ربما انتظرتْ مني كلمة تشير إلى الحب أو إلى سيرته. غير أنني لم أفعل. ولا هي

فعلتُ أيضا. سافرتُ للدراسة بعيداً، وطويلا. وعندما رجعتُ من السفر البعيد الطويل رأيتها. سألتني: ألم تكن تحبني في ذلك الوقت؟ قلت: لا. وافترقنا لعشرين سنة. والتقينا. وسألتني: ألم تكن تحبني في ذلك الوقت البعيد؟ قلت: بلى. قالت: كنت أنتظر إشارةً منك، فلماذا لم تفعل؟! قلتُ: لا أعرف بالضبط لماذا، ولكن يبدو أنني رجلٌ جبان يا بثينة. قالت: الله يسامحك! وافترقنا. ثمّ.. لن نلتقي أبداً في مرة ثانية، لن تكون هناك مرة ثانية، فقبل عامين تقريبا ارتحلتْ بثينةُ عن هذه الدار من غير ما رجعة.. تذكرت المتنبي وأنا أغيّر الأغنية: مَنْ لم يمتْ بالسيف مات بغيره.. لا، لن أغادر هذا المنزل. بل إنني سوف أحافظ عليه، وسوف أحاول المحافظة على نفسي. سوف أحتاط للأمور كلها. أنا في دمشقَ. يصنفونها ثاني أسوأ مدينة للعيش في العالم. لا أعرف من تكون الأولى.. ربمّا كانت حلب.. سوف أصمد.. لن أقفز من فوق الخط الأحمر، فثَمَّةَ في الحياة خطٌّ أحمرُ عندَ كلِّ شيءٍ، وفي كلِّ شيء: في الجوع.. في الشبع.. في الزواج.. في الطلاق.. في العداوة.. في الصداقة.. في الجنس.. في الكتابة.. في الرحيل.. في البقاء.. في الحرب.. في السِّلْم.. في الصحة.. في المرض.. في الفرح.. في الحزن.. في الإيمانِ.. في الكُفْرِ.. في الحُبِّ.. في الكراهية.. في الشجاعة.. وفي الخوف أيضاً

في كلِّ مناحي الحياة.. هناك دائماً خطٌّ أحمرُ يجبُ عدمُ تجاوزِه بحالٍ من الأحوال.. لا لشيء سوى من أجل ألاّ نرمي إنسانيتنا في الزبالة.

فهل خلعتْ دمشق إنسانيتها عن نفسها ورمت بها إلى حاويات القمامة؟ أم إنها الحرب وقوانينها المستحدثة مَنْ فعل ذلك؟ الحرب المنفلتة من أيةِ قواعدَ واضحةٍ للاشتباك؟ ففي غياب قواعد الاشتباك الصريحة تسود الاستباحة كقانونٍ أسمى للعملية برمتها، بما فيها زائر الفجر، أو جرس الساعة الثالثة. كان من السابق لأوانه تلك الليلةَ معرفةُ أنّ المقصود من تلك الزيارة هو أنا، وليس صديقي المسافر. كان من السابق لأوانه، بالنسبة إليّ طبعاً، التفكيرُ بنسبية الأخلاق، رغم المتغيرات اليومية التي كانت تجري في المدينة على مسمعي ومشهدي. لست أتحدث عن المتغيرات السياسية والعسكرية طبعاً،

فهذه من طبيعة الحروب جميعاً، ولكن المتغيرات في علاقة الناس بعضهم ببعض. ما كنت أراه اليومَ ثابتاً كنت أجده قد صار في الغد قديماً، وبالياً، ورغم ذلك، لم أكن أحزر أن الأمر متعلق تحديداً بالأخلاق، فالأخلاق على مدار التاريخ البشري كله كانت بطيئة التحولات، ولم تخضع في أية حقبةٍ مهما كانت قاسية ومظلمة إلى تغيراتٍ عنيفة أبداً. كنت أفتش في هذه العلاقات المستجدّة عن العصب المحرك لجسم المجتمع بوصفه كتلةً واحدة، وكان الأجدر بي أن أبحث بدلاً من ذلك عن موضع القرحة النازفة في الروح لا في البدن.. كنت أرى سكان المدينة الكبيرة مثل ركّاب سفينة تايتنك، مع فارقٍ واحدٍ بسيط: الجميع يعلم سلفاً بوجود جبل الجليد في الانتظار، والكل مؤمنٌ بحتمية الغرق، ولا أحدَ يفعل شيئاً من أجل تفادي الكارثة، بل ربما كان العكس تماماً هو الصحيح: الكل يسعى إلى الهلاك. فعن أية أخلاقٍ يمكن الحديث؟!. سمعت كثيراً عن غسيل الأموال.. سمعت كثيراً عن غسيل الضمائر، ولكنها المرة الأولى التي أعاين بها عن كثب: غسيل الأخلاق.

جرس الساعة الثالثة وطيد الصلة بامرأة كانت زوجتي ذاتَ حين. خانتني مع أحد أصدقاء الحياة

نظرتي إلى زوجة الصديق: إنها من المحارم حتماً. وهذا واحد من المبادىء اللي حكمت حياتي. امرأة كهذه بمثابة أخت أو ابنة. الأمر عندي ليس للنقاش. زوجات أصدقائي بيحسدوا حالهن عليّ، لأني بدللهن كثير، وخاصة بالسفر. طلباتهن مستجابة. دائماً. بشوف هالشي واجبي. شوية وقت. شوية فلوس. شو هالهم؟. المكاسب أكبر بكتير من هيك مصاريف: انسجام الحياة. ما هدول الناس جزء من حياتك. وجزء مهم كمان. المرأة اللي بتخون زوجها بحس إنو الأفضل الابتعاد عنها. التهرب منها. تصطفل بحالها. ماني وصي على الناس. ما بتدخل بخصوصيات الاخرين. هذا كمان واحد من المبادىء اللي حكمت حياتي. ما عندي مشكلة كبيرة مع هيك امرأة. مشكلتي الكبيرة، أو حتى الفظيعة، لما المرأة بتخون زوجها مع صديقه. امرأة متل هاي ما بتمنى أشوفها، حتى لو بالصدفة. ما بقدر أسمع صوتها، ولو على التلفون. وطبيعي إني ما بتحمل أصافحها. مشكلتي بهالحياة (في هذا المجال)

إني بعرف وحدة من هدول النسوان. بعرفها منيح. كانت زوجتي بهالزمانات. ومشكلتي اليوم إني شفتها لهاي المرأة. والموقف ما كان بيسمحلي أبداً إني ما أصافحها. حاولتْ تفتح معي شوية مواضيع. سدّيت أمامها المنافذ. اختصرت اللقاء لدقيقتين. رحت بعدها ألوب على صيدلية مناوبة في يوم جمعة. عثرت على وحدة بعد نص ساعة تقريبا. اشتريت قنينة سبيرتو. وقفت على الرصيف. دلقت محتويات القنينة كلها على الإيد اللي صافحتْ هاي المخلوقة. ومع ذلك عم أحس إنه إيدي ما نضفت. ما تعقمت. ماني عرفان شو أعمل، سيما إنو صار وقت الدوا، وصار لازم آكل ولو لقمة وحدة.. يا ريتني اليوم ما طلعت من البيت! يا ريتني ما شفت هي المرأة! (ملاحظة: هذا الحكم سابقٌ لأوانه، فلم أكن أعلم بعد بحقيقة مَن يقف وراء جرس الساعة الثالثة. لم أكن أعلم بأن ذلك الشخص ليس إلاّ هذه المرأة، التي كانت على علاقة جنسية مع رجلٍ قضى حياته كلها يدّعي بأنه محظوظٌ جداً لأنه صديقي، وأظنه هو نفسه لم يكن يعلم بأن عشيقته تخونه مع شخص آخر قالوا له عنه: إنه شرطي. كما لم يكن يعلم أيضاً كما ادّعي لاحقاً بأن هذا الشرطي قد جنّد أحد الزعران لإخافتي وابتزازي، أو حتى سرقتي وقتلي إنْ لزم الأمر).

الثقة مو هبل

لكنها بالنسبة إلي كانت أكثر من هبل بالعلاقة مع هذا الصديق.. كان دائماً يحب أن يشعرني بأنه ليس نكرة.. وبأنّ لديه أشياء مهمة في هذه الحياة.. وكان كلّما حدّثني بأمرٍ قال لي:

بيني وبينك.

وكنت دائماً أقول له:

بالتأكيد.

ولكنني سرعان ما كنت أكتشف أنّ الذي بيني وبينه يعرفه القاصي قبل الداني.

غير أني كنت أظل وفياً بوعدي له.

كنت أظل الغبيّ الوحيد بين معارفه وأصدقائه.

وكنت أفعل ذلك بشيءٍ من الرضا.

إذن، عليَّ ألاّ أتذمر من خيانته صداقتنا مع زوجتي.

في الحقيقة: إنني لست متذمراً.. كلٌّ ما في الأمر أنني لا أريد رؤية هذا المخلوق، ولو بالمصادفة، فهو كالأبنية العشوائية: منظره يجرح العين بقباحته.

على شو هالعجقة؟ هدول البشر لوين رايحين؟ خطوات مترنحة. نظرات غائمة. على شو عم تفتشوا يا مساكين؟ بس ما تكونوا متلي. وحياة الله إني حيران. ما في قدامك غير ساحة النجمة. شو وراك؟ هون بالضبط. عند إشارة المرور. الضو كان أخضر للمشاة. إجت السيارة من جهة البرلمان. صبيّة زغيرة. كانت صابغة شعرها أشقر، وطايرة. صديقي عبد اللطيف سحبني من إيدي بآخر جزء من الثانية اللي قبل الموت. كانت السيارة طيرتني بالهوا. أنا ارتعبت. البنت متل ما تكون ضحكت من خوفي. ما بعرف إذا عم أتذكر تفاصيل الحادثة صح. يمكن البنت ما خلّصتْ ضحكتها عليّ حتى كان في ولد طاير بدالي بالهوا شي خمس متار. نصيب. كان راكب بسكليتة. طار هو وبسكليته. وقع على حرف الرصيف قدام مدرسة دار السلام. دماغه كان مقسوم نصين. أكتر من هيك ما صار. نزلت البنت من السيارة. إجت للرصيف اللي بطرف الساحة من جهة دامر. كانت مكركبة شوي. هي القصة قبل الموبايلات. اتصلت بالهاتف الأرضي تبع الكشك. سمعتها عم تقول: بابا أنا عملت حادث، وضربت ولد زغير. ويمكن رد الأب

على بنته: بابا لا تنزعجي، هلأ بنعتقله للولد اللي نزعلك مراقك.. قالت البنت: بابا الولد مات. رد الأب (وهادا افتراض مخيلة مريضة لكاتب سيناريو متواضع): إذن بنعتقل الجثة، المهم حبيبتي تكوني رايقة.

حياتنا كلها سيرك.

2014 - 10 - 7

في تلك الليلة، وبعد مشهد الرعب الهوليودي، قلت لنفسي: هذه هي ظروف المدينة في جميع أحيائها الموحشة، فإلى أين تذهب إذن؟! واتخذت قراراً نهائياً: لن أرحل. سوف أقوم بالاحتياطات كلها.الحيطة واجبة.أما الهرب؟ فإلى أين؟. وفتحت أغنية جديدةً على اللابتوب، ورفعت الصوت عالياً بعضَ الشيء.. ربما كنت أشعر بالتحدي، من دون أن أعرف من أين هبطتْ عليّ هذه الشجاعة المفاجئة.. ورجعتُ إلى النص الذي على شاشة الكومبيوتر أمامي. رحتُ أسألُ ببرودة مَنْ لم يعش لحظة رعبٍ قبل قليل: مَن الذي أحرق سجلات الفلسطينيين في مخيم اليرموك؟ يقول بعضهم: عملاء جهاز الموساد الإسرائيلي هم مَنْ تكفل بالمهمة. وأنا أقول: هذا جائز. ولكنني أحب أن أبشّر الموساد بالآتي: إنني أملك وثائق لا تثبت وجودي على الأرض، ولكنها تثبت ما هو أهم من ذلك. تثبت أنّ مُلكيةَ هذه الأرض تعود لي أنا. لست أتحدث هنا بالمجاز.لا أبداً. بل أتحدث بالمعنى المباشر للفظة: المُلكية. أنا لا أتذكر أبي جيداً. لقد مات باكراً أكثر مما ينبغي. لم يعش في الحياة إلا أربعةً وثلاثين عاما. مات لاجئاً فلسطينياً في لبنان. كان يملك أرضاً كبيرةً في فلسطين ورثها عن أبيه. وعندما استشعر الخطر القادم على فلسطين عشيةَ نكبة عام 1948 وزّع أرضه الكبيرة على أبنائه بالتساوي. من المؤكد أنه كان رجلاً بعيدَ النظر. في عام النكبة كان له ثلاثة أبناء فقط. والثلاثة ذكور، وأنا أصغرهم. كنت ما أزال رضيعاً بعد حين أصبحتُ من مالكي الأراضي الكبار. وللمناسبة حضرةَ الموساد، الوثائق التي لديّ مسجلة عند سلطة الانتداب البريطاني، وبثلاث لغات: الانجليزية، العربية، العبرية، ومصادقٌ عليها - حسب الأصول. والذي عرفته لاحقاً أنّ ثمة نسخةً من هذه الوثائق في أرشيف وزارة المستعمرات البريطانية. أم أنكم وصلتم إلى هذا الأرشيف وأحرقتموه؟ أعرف أنكم قادرون على ذلك.أعرف أنّ يدَكم طويلة. وأقول لكم بصراحة: قوتكم لا تخيفني. من المؤكد أنه لم يعد في العمر

متسعٌ أمامي للإفادة من الأرض التي أورثني إياها أبي. ومن المؤكد أيضاً أنني لن أستطيع توريث الأرض لأبنائي، وذلك لسببٍ بسيطٍ: لم أنجب أطفالاً. ما جنيتُ في هذه الحياة على أحد. ولكنْ حضرةَ الموساد لقد صار لدى آل اليوسف جيلٌ رابع. وهم كثيرٌ جداً. ومنتشر في مختلِف المعمورة. وكلهم يملك الحق بأرضي، ففلسطين حقٌ لا يسقط بالتقادم، تماماً كما هي إسرائيلُ جريمةٌ لا تسقط أيضاً بالتقادم، والمسألة مسألة وقت.. قد يطول هذا الوقت كثيرا، ولكنه يبقى وقتاً لا غير.. والتمعتْ شاشة الموبايل. إنها رشا. قالت: يسعد صباحك! قلت: يسعد أوقاتك كلها. قالت: شبو صوتك؟ قلت: أنا منيح. ولم أخبرها بشيء من الخوف الذي عشت قبل قليل، فأنبأَها به صوتي. يبدو أنني مازلت واقعاً في شَرَك الخوف الذي نصبه لي أشخاصٌ مجهولون لي حتى تلك اللحظة، لكنني عرفتهم لاحقاً، فآمنت ليس بنسبية الأخلاق، بل بانعدامها، وقد غدتْ لدينا في أدنى السلّم تماماً، فمؤشر التغيير كان حادّاً بأكثر مما تقتضيه قذارة الحرب الدائرة. قالت رشا: لأ مانك منيح، لاتشغل بالي عليك. قلت: الله لا يشغلك بال! قالت: معناتا ضروري أشوفك بكرا. واتفقنا على اللقاء غداً، وتمنينا لبعضنا ليلةً سعيدة، وافترقنا، ورجعتُ إلى ليلى. لقد شوشتني حكاية هذه البنت لدرجة أني - في لحظة من اليأس أو من الملل - اعتقدت بأن الصبيّة التي حكى لي عنها الفتى عامر ليست إلا من بنات أمنياته، غير أنّ بعض اليقين ساورني، أو همس لي بخلاف ذلك بعدما سمعتُ عن بناتٍ كثيرات قصصاً تجعل الرضيعَ يشيخُ من قبل الفِطام، فعاد إليّ بعضُ اليقين بإمكانية الوصول إلى نتيجة مقنعة. ولكنّ المؤلمَ في الموضوع أنها قد لا تأتي إلا بعدما فات الوقت. ..اليوم هو الثلاثاء 4. 11. 2014. في مثل هذا اليوم قبل خمسةَ عشرَ شهراً ابتدأ القصف العشوائي الممنهج على مخيم اليرموك، ثم لم يتوقف حتى هذه اللحظة. اليومَ، وفي قلبِ القلبِ من دمشق، مررتُ بساحة المحافظة التي تعرفها أغلبيتنا باسم (بوابة الصالحية)، والتي ربما كان اسمها الرسمي: (ساحة الشهيد يوسف عظمة). اليومَ مررت بمحلٍ صغيرٍ في تلك الساحة يبيع العصائر الطازجة، ومن بينها عصير قصب السكر. اليومَ توقفت أمام المحل الصغير على الرصيف

برهةً أفكر بتناول كأسٍ من ذلك العصير.اليومَ حسمت أمري وتابعت طريقي منصرفا عن ذلك المحل الصغير نازلاً باتجاه مقهى هافانا حيث كان لي موعدٌ بعد نصف ساعة مع رشا.اليومَ عادتني صورة ذلك الشاب بال(تي شيرت) الابيض وحنظلةُ يملأ صدره. ذلك الشاب الذي ركب البحرَ قبل شهرٍ من اليوم، فحمله الموجُ إلى ما لا أدري أين.. هل وطأتْ قدماه اليابسة الأوروبية؟ أم إن الأمر قد استقر به في واحدٍ من قيعان بحور إيطاليا؟.

عامر أمين!. سلامٌ عليكَ يومَ وُلدتَ ويومَ تموتُ ويوم تُبعثُ شاهداً.. و.. شهيدا!

أكتر سؤال عم أسمعه في شوارع دمشق خلال السنة الأخيرة هو:
معك متين ليرة؟
أخشى ما أخشاه أن يكون اسم دمشق قد صار:
مدينة الشحادين. بعد أن كان اسمها مدينة الياسمين
عم أحكي عن قلب المدينة على الأقل.
كل عشرين متر بيواجهك هذا السؤال
وأحياناً كل عشرة أمتار
الغلاء غير معقول وغير مقبول
البطالة شرحو
والقطعة النقدية من فئة المتين ليرة فقدت قوتها الشرائية على نحو معيب
والناس اللي لجأت إلى دمشق حتى من المناطق البعيدة لديها أعذارها طبعاً
فإلى أين تذهب جموع النازحين من الحرب؟
عاصمة البلد أولى بهم
اكتظاظ بشري هائل
فاقة
بطالة
الخ.
هذا كله مفهوم.
حتى لو ظهرتْ فجأةً أمراضٌ سارية.
سوف يكون الأمر مفهوماً.

الذي ليس مفهوماً هو هذه الطريقة الجديدة في التسول:

معك متين ليرة؟

إي معي متين ليرة.

عطيني ياهن.

ليش بدي أعطيك ياهن؟

لأنو معك. واللي معو بيعطي ليللي ما معو.

هذا الحوار جرى اليومَ بيني وبينَ أحد الشحادين.

المشكلة في الموضوع إنو إنت ما عدت تعرف تميز بين المحتاج فعلاً لمساعدة وبين المتسول

وما ممكن تعرف الفرق بين التنين إلاّ بالخبرة

وأنا يبدو صرت خبير بهالمسائل

والفضل بهالشي يعود إلى قدرتي العجيبة على التسكع بين الناس والملاحظة

اللي كان عم يحاكيني اليوم: شحاد

وأنا في الحقيقة تعمدت معه هذا الحوار

قلت:

عال.. هذا المنطق حلو، أو حتى ممتاز.. اللي معو بيعطي ليللي ما معو.. صح؟

صح.

أنا بهاللحظة معي متين ليرة.. إنت شو معك؟.

ولا ليرة وحدة.

جميل.. إذن أنا واجبي أعطيك. صح؟.

طبعاً.

كمان ممتاز.. أنا بعطيك المتين اللي بجيبتي بتصير إنت معك وأنا ما

معي. صح؟

شو يعني؟

يعني بيصير واجبك تعطيني. لأن يللي معو بيعطي ليللي ما معو.

آ؟!!!!!!

ما بدها آ.. بالعقل

آ؟!!!!!!

رجعت تقوللي آ؟!! عم قولك: بالعقل.. خود حق وعطي حق.

هلأ لشو كل هالحكي؟! بدك تعطيني ولاّ ما بدك تعطيني؟

مبلى مبلى بدي أعطيك.. بس إذا عطيتك المتين اللي معي ما بيبقى عندي حق السندويشة اللي رايح أتسممها، لذلك أنا بعطيك متين وإنت بتشتريلي سندويشة. اتفقنا؟

سندويشة شو اللي بدك ياها؟

شاورما (ملاحظة: أنا ما بحب الشاورما. والسندويشة الوحدة يمكن صارت بأربعمية ليرة).

إي المتين ما عادت تجيب سندويشة شاورما.

طيب شو أعمل أنا؟

إنت بدك تعطيني ولاّ بدك تاخد مني؟

لا والله عن جد بدي أعطيك، لكن بنفس الوقت عم فكر بالسندويشة.

إي هي محلولة.

كيف؟

بتوقف هون جنبي وبتمد إيدك.. أكيد رح يعطوك. منظرك أكابر وقميصك نضيف، والناس رح يفكروك محتاج عن جد ويعطوك.

شو بفهم من كلامك؟ إنت مانك محتاج عن جد؟

الحمد لله الله ساترها.

إذن، ليش عم تشحد؟.

وحضرتك ليش عم تشحد؟

بس أنا ما عم أشحد.

بالعقل يا بو قميص نضيف.. يعني مين غير الشحاد بيساوم على السندويشة؟

العمى ضربك العمى! فوراً ساويتني شحاد؟

إي شو فيها؟

ولك شلون شو فيها؟! البلد ناقصو شحادين؟!

حل عني ياه! نفختلي قلبي منشان متين ليرة.

لك تعا وين رايح؟ رح أعطيك متين ليرة.

ما بدي منك شي ولا بدي هالقرنة كلها. أصلاً قرنة مغمّة. تركتلك ياها تتسبب فيها لحالك.

ومشي. تركني. تركلي المطرح لإلي أسترزق فيه. ما بعرف ليش حسّيت كلامه متل نبوءة عرّاف. العمى! معقول؟! معقول ييجي يوم أوقف بالشارع وأمد إيدي، وأقول:

معك متين ليرة؟

والله معقول

والواحد فينا لازم يتوقع الأسوأ.

لذلك

خليني اليوم أعمل بروفة.

2015 - 2 - 22

مدينة الأحلام

سيارتي ليست مرسيدس. إنها كوريّة المنشأ. المرسيدس فوق طاقتي. وقبل هذا: أمرها لا يعنيني. منزلي ليس فيلا. إنه شقة في الطابق الثالث من بناء حجري جميل يتألف من خمس طبقات. مساحتها مئةُ مترٍ مربعاً أو تزيد قليلا. المنزل ليس مترفاً، رغم ما فيه من وسائل عيش لائق. يقع هذا المنزل في (أشرفية صحنايا). انتقلتُ إليه منتصف شهر آذار- مارس عام 2011.. له إطلالةٌ شديدة الاتساع على بساتين (داريّا) في غوطة دمشق الغربية. وداريّا، كما كانت تفيد وما زالت جميع نشرات الإخبار الحربية، أكثر الجبهات سخونةً في عموم سوريا منذ ما يقارب عشرين شهراً. وفي لحظةٍ قصيرةٍ واحدة ذات صباح يوم شتائي بارد من شهر كانون الاول- ديسمبر عام 2012، وبنيرانٍ، قيل إنها صديقة، تضرر البناء، وصار منزلي بحاجة إلى ترميم.نزحتُ إلى أحد الفنادق في قلب المدينة. لم يعد لي مكان سوى الفندق. كان ثمة بيوتٌ كثيرة مشرّعةٌ أبوابُها لاستقبالي. كلّها في مخيم اليرموك. وكلّها بات منذ عدة شهورٍ على ذلك الصباح البارد أسيرَ القذائف العشوائية. أولى تلك القذائف سقطت على شارعٍ شبهَ خاوٍ عند غروب شمس نهارٍ صيفي من عام ما بعد الشتات الجديد. كان أول أيام شهر الصوم. الأضرار كانت بسيطة: بعض الجرحى وبعض الحطام في ممتكاتٍ خاصة. هرع رهطٌ من الشباب إلى مكان الانفجار بهدف المساعدة، فوقعت المجزرة الكبيرة: سقطت قذيفةٌ ثانيةٌ في المكان عينه، وتطايرت على الفور أجسادُ تسعةٍ وعشرين شاباً نتفاً ممزقة هنا وهناك على جدران وأسطح البيوت القريبة والبعيدة.. كان وقت الإفطار

من أول أيام شهر رمضان.. كل عامٍ وأنتم أشلاءً ممزقة أيها الفلسطينيون الأوغاد!! هل وصلتْ الرسالة؟ نعم، بالتأكيد. ولكنَّ المشكلة ليست هنا. لم تكن المشكلة يوماً هنا، فالرسائل كانت دائماً تصل بلا لَبسٍ، وكانت دائماً تصل في الوقت الصحيح.. كانت أمي دائماً تقول: "مسكين اللي انكب طحينو بالشوك!" وهنا تماماً كانت المشكلة.. طحينٌ منثورٌ في حقلٍ من الشوك.. هؤلاءِ هم أهلي.. شعبٌ فائضٌ عن الحاجة.. شعبٌ فائضٌ عن حاجة الجميع.. مجرد حمولةٍ زائدة في سفينةٍ مثقلةٍ بالمتاعب، من الأنسب التخلص منها، بل إنّ ذلك لَمِنَ الأنفع حتماً.. كانت تلك القذيفة الرمضانية المباركة مجرد بدايةٍ فقط. كانت مجرد بداية الخروج من حقبة الشتات.. كانت مجرد بداية الدخول في درب التيه العظيم.. وحدها عشوائية القصف كان ينقصها العشوائية.. فقد كانت عشوائيةً منظمة إلى حدود الكمال في الدّقة، فبعد نحوٍ من شهورٍ خمسة تقريبا على تلك العشوائية المنتظمة كان الهدف الأسمى من العملية قد تحقق: الجميع أصبح على المضمار المناسب: درب التيه الطويل.. بات المخيم مهجوراً من أهله. لم يبق أحدٌ من العائلة مطرَحه. الجميع نزح. بفوضى، بعشوائية.. طحين في الشوك.. الأغلبية هاجرت إلى المهانة. بقي لي في سوريا شقيق واحد. إنه أصغرنا جميعا. يقيم الان في منزل كالجُحْرِ في(دُمّر-البلد) غربَ دمشق. إذن، ليس أمامي سوى الفنادق. سائح في مدينتك!! ربما كانت هذه هي الكوميديا السوداء بعينها. وليس هذا وقت الكوميديا، حتى لو كانت سوداوية الطابع. فما دمتَ سائحاًتقيم في فندق، فليكن هذا الفندق خارجَ المسرح على الأقل. سافرت إلى القاهرة. كانت الكراهية في انتظاري.. رأيت هناك وسمعت أحد مشاهير الاعلام المصري يؤدي التحية (على الهواء مباشرة) للخواجة الاسرائيلي، تقديرا منه لما يفعله هذا الخواجة بالفلسطينيين المجرمين الغدّارين الذين جاؤوا أباهم عِشاء يبكون. يوسف وأخوته. وكان على قميصه دمٌ ليس كذباًهذه المرّة، فيوسفُ ليس في الجُبّ يا أبانا. يوسف أكله الذئب حقاً. وهذا قميصه تعرفه من رائحته يا أبانا. ..(هذا القميصُ قميصُ يوسف.. وهذا الدمُ دمُه.) قال الشيخ الكفيف، وقال: (صبرٌ جميل والله الُمستعان).

كان الإعلام المصري قد أصاب نجاحاً هائلاً، حتى بين صفوف الجمهور البسيط، في زراعة الكراهية تجاه الفلسطينيين.. إنها القصة القديمة المُمّلة ذاتها: الانتصار للأقوى.. "لمّا ما منقدر على الجلّاد منقول الحق على الضحية." لا شيءَ جديد تحت الشمس: البقاء للأزعر.. في القاهرة سكنني الخوف من هذه الكراهية العمياء، فارتحلتُ إلى بيروت. وفي بيروت لم يكن الوضع أفضل، غير أني لم أتفاجأ بما لقيت فيها، فقد صرت عصياً على المفاجأة. وجدتني بحاجة إلى موافقة الجيش اللبناني من أجل السماح لي بزيارة أسرة أخي المشرّدة من مخيم اليرموك في دمشق إلى مخيم نهر البارد في شمالَ مدينة طرابلس. اعتراف: الحصول على تلك الموافقة لم يكن صعباً، ولكنه حتميٌّ. قررت العودة إلى دمشق، بصرف النظر عمّا ينتظرني هناك، ففي دمشقَ وحدها أستطيع أن ألملم بعضي إلى بعضي. وعدت. وبكى أخي الصغير حين رآني أعود. بكى على كتفي. كثيراً بكى.

بعد ليلٍ طويلٍ من العمل المضني
تفتح نافذة غرفتك على النهار
صباحٌ رائق
شمسٌ سخيّةُ الدفءِ
طقسٌ ناعمٌ يغويكَ بعدم الذهاب إلى الفراش ، رغمَ الذي فيك من مشقّة يحملك مكرهاً إلى أحلام يقظةٍ كاذبة ، فتسقطَ ، كرهاً عنك ، أسيرَ حنينٍ مخادع إلى الخوالي الربيعية
إلى العشب والأطفال والشجر
إلى أجنّة الزهر
صفراء أو خضراء أو زرقاء أو حمراء أو بيضاء
إلى أجنحة الفراشات السابحة في الفضاءات الرحيبة
إلى جوقات الحساسين على الغصون في طراءة الصباحات النديّة
إلى صخب الأولاد والبنات يتراكضون هنا وهناك في البساتين بين الشجر في يوم عطلةٍ مدرسية
يطاردون الفراشات وتطاردهم في انتظار أن يستوي الطعام على نار المناقل
يتسابقون مع القطط في الكَرِّ والفَرِّ والخوف والصراخ والضحك والتمرغ على العشب والتراب
صباحٌ ربيعيٌ يغويك بالرحيل نحو غوطةٍ دمشقية كانت بهيجة
ولم تعد
احزنْ إنْ شئتَ

تَحَسَّرْ
اكتئِبْ
تذكرْ ما طابت لك الذكرى
افعلْ ما بدا لك
هواءٌ كلُّ أحزانك
هواءٌ كلُّ أحلامك
إذن
توقف عن الحلم
كفى
اذهب إلى الفراش
قضيتَ ليلكَ تكتب عن الندم
تناولْ قرصاً من الباراسيتامول
سوف يريحك من وجع الظهر ، ولو قليلا
ثم حاول أن تنام
امتنع من التفكير بأطفالك الذين باتوا عنكَ بعيداً بعيدا
يا الله
ستةٌ وعشرون ولداً وبنتا
أم تراك تخطىء العدَّ
أليسوا سبعةً وعشرين
مرهقٌ أنت
إذن
امتنع من التفكير بأي شيء
وبكل شيء
أغلقْ هذه النافذة

أسدلْ هذه الستارة
توقفْ عن الحنين المخادع
انسَ الخوالي الهنيئة
فلا شيءَ عاد ينقذ من هذه القسوة الصقيعية في جنبات روحك
شمس الربيع لم تعد دفيئة
إذن
كُفًّ عن الوهم
حاول أن تغفو ولو ساعةً أو ساعتين
مرهَقٌ أنت
مرهَقٌ وموجَع
الظَهر
الرقبة
العينان
أصابع يدك التي أمسكت بالقلم طوالَ الليل وأنت تكتب عن الندم
ليس الندمَ على حياة غابرة
بل الندمُ على بلاد عابرة
مُرهَقٌ وموجَعٌ أنت
وما باليد حيلة
فكلُّ شيء بات يبعث على الوجع
وكلُّ شيءٍ بات يستثير الندم

2015 - 3 - 23

أقيم منذ ثمانية شهور تقريبا في منزل صديقٍ لي في حيّ ركن الدين. صديقي هذا ليس من الاكثرية السُّنيّة التي من المفترض أنني أنتمي إليها بحكم الفرز المذهبي الحاصل في البلد خلال الحرب الدائرة على عموم أراضيه. بل إنه - أي صديقي - من الطائفة العلوية: إحدى الاقليات التي أجدني مصنّفا فيها أيضا على نحوٍ أو آخر. فالفلسطيني في سوريا (وهذا من مفرزات الكارثة التي تعصف اليومَ بالبلد) صار مشكوكاً بطبيعة انتمائه. صار مشكوكاً بهويته. صار فجأةً ينتمي إلى الاكثرية وإلى الاقليات في آن. وهذا كله يتوقف على هويّة الناظر إلى هذه الهوية. ازدواجيةٌ مقلقةٌ على نحو يتطلب إعادة طرح الكثير من الأسئلة بشكل مغاير للطرائق التقليدية التي سبقت هذه المأساة غير المسبوقة على مستوى العالم- في الألفية الثالثة على الأقل. والسؤال الذي يطرح نفسه قبل أيّ سؤال ملّحٌ آخر في حالٍ كهذه هو: إلى أين يمكن لهذه الازدواجية أن تحمل من يعاني أعراضها الخبيثة؟ إلى أين إنْ ليس إلى الفِصام؟ وهل هذا الفِصام جُوهرُ "المسألة الفلسطينية" في مستواها السوري؟! لست واثقاً من الجواب. لست واثقا من شئ سوى أن هذا الأمرَ يدفع إلى الهذيان. لست واثقاً من شيء سوى أنه أمرٌ يذبح من دون أن يُميت. هذه الازدواجيةُ، هذا الفصِامُ، هذه المثنويةُ. هذه مجتمعةً ومجتمعةً تشكل ما يمكنني أن أسميه: متلازمة الاحتضار المتّصل (فلو أنها نفسٌ تموتُ جميعةً) كما كان امرؤُ القيس يرجو (ولكنها نفسٌ تساقَطُ أنفسا). لكنْ حتى الموتُ لم يعد رحمةً لطالبه من أمثالي، فأغلبيةُ مقابر أهل السّنة في دمشق لم تعد تقبل جثامين الفلسطينيين بين موتاها، رغم "سُنيّتهم"، ورغم أنّ إكرامَ الميّت دفنُه، كما أمر الرسول عليه الصلاة والسلام رعيتَه التي لم يستثنِ الموتى الفلسطينيين من إكرامها، في حدود ما أعلم. أما الأقليّة من تلك المقابر فلا تقبل أن تدفن فلسطينياً بين موتاها إلاّ بتعهدٍ صريح من أحياء الميّت بنقل الرفات من المكان بعد أن تهدأ الأحوال. وهنا ينشأ سؤالٌ مرعبٌ لبعض

الفلسطينيين المتبقين في سوريا، وهم للمناسبة قلّةٌ قليلة، وأنا واحدٌ منهم: ماذا لو لم يكن للميت أحياءٌ يقدّمون مثل هذا التعهد؟ أين سيدفن الجثمان إذن؟ أم إنه لن يجد إلى الدفن سبيلا؟ بعض الفلسطينيين يقول: الأمر سيّان عندي. أما بالنسبة إليّ فالقبر أهمُّ قطعة من الحياة، ففي القبر وحدَه تتحقق عدالة السماء الضائعة على الأرض. وأنا أنشد العدل ولو في الموت، من بعد أن فقدته طوالَ حياتي. ما أقوله عن المقابر ليس إشاعة. إنه خبر أكيد. اسألوا، إن كانت الحقيقة تعنيكم. الفلسطينيون السوريون هذه الأيام يتهامسون فيما بينهم بأسئلة كانت من الجرائم قبل أقلّ من ثلاثة أعوام: هل نحن عرب؟ وإن كان الجواب: نعم، يطفو على سطح الأسئلة: هل أخوتُنا العربُ عربٌ أيضا؟ وإن كان الجواب نعم، يأتي السؤال الباعث على الوجع: إذن، ما هذه الأُخُوَّةُ الملعونة؟!! عندما كنت في القاهرة فتحت لنفسي حساباً على الفيس بوك، وأنا الذي لا علاقة له بالإنترنت من قريب أو من بعيد، وكنت أتمنى لو بقيت معه بلا علاقة. ولكني كنت مكرهاً على الأمر، فخارطة شتات العائلة أكبر من استيعابها خارج هذا الإطار الذي لا أستسيغ: جنوب إفريقيا، مصر، لبنان، سوريا، الأردن، الأمارات العربية المتحدة، تركيا، أوكرانيا، إيطاليا، بولونيا، ألمانيا، السويد، النرويج، كندا.. ماهذا؟! ومن أجل أي شيء؟! هؤلاءِ الناسُ جميعاً(ومن دون استثناء) كانوا، قبل أقلِّ من عام واحد على دخولي عالم الإنترنت، يعيشون في مكان واحد اسمه مخيم اليرموك، أو: عاصمة الشتات الفلسطيني. ولم يكن أيٌّ منهم يفكر بأيّ رحيلٍ في أيّ اتجاه. فما حقيقة ما قد جرى؟ ثمة طُرفةٌ(ليس فيها شيء من طرافة) يتم تداولها هذه الأوقاتَ بين الفلسطينيين السوريين. تقول الطرفة: إن حكومة جلالة ملك السويد تجري مفاوضاتٍ مع حكومة الجمهورية العربية السورية من أجل أن تسمح الثانيةُ للأولى بإقامة جسر جوي يربط ستوكهولم بدمشق لتتمكن المملكة الإسكندنافية من إجلاء رعاياها الفلسطينيين العالقين في مخيم اليرموك. انتهت الطرفةُ غيرُ الطريفة. في عام 1948 لجأ الفلسطينيون إلى أخوتهم العرب طلباً للأمن من همجية إسرائيل. واليومَ يفرُّ الفلسطينيون إلى الشيطان طلبا للأمن من وحشية أخوتهم العرب. مرّة ثانية: أية أخوّة ملعونة

هذه؟! أعود إلى الطُرفة. يقول بعض المتشككين: إنّ ثمة مؤامرةً كبرى تُحاك ضد الفلسطينيين تمّت صناعتها بما عُرف عن جهاز الموساد الإسرائيلي من مهارة في حبكة الخبيث من القصص. ومؤامرة اُليوم تهدف إلى إلغاء حق عودة الفلسطينيين إلى أرض الميعاد. وما من سبيلٍ إلَى إلغاء هذا الحق إلا بإلغاء وجود المطالبين به. وفي الحالة السورية الراهنة: ترحيلُهم، وتشتيتُهم في أماكنَ قصيّةٍ عن فلسطينَ كثيراً، أو حتى كثيراً جداً، وأن الشركاء في هذه المؤامرة عديدٌ، وتأتي مملكة السويد في المرتبة الثانية بعد إسرائيل. وأنا شخصياً مستعد للإيمان بالتآمر السويدي على أبناء شعبي لولا وجودُ بعض الملاحظات لديّ، فالمؤامرةُ على فلسطين بخاصة وسوريا بعامة قديمةٌ جداً. لم تبدأ بـ(سايكس- بيكو). ربما كانت البداية الفعلية سبّاقةً على المستر سايكس والمسيو بيكو بنحوِ من عشرين عاماً.إننا نحب دائماً أن ننسى أو أن نتناسى (فندق الفرسان الثلاثة) في بازل السويسرية، وننسى أو نتناسى النتيجة الأبرز التي خلص إليها المؤتمرون هناك وقتئذٍ: (فلسطين يهودية كما هي إنكلترا إنكليزية). لقد رُفع هذا الشعار قبل مئة وعشرين سنة خلت، فما الذي أجّل التنفيذ إلى اليوم؟ قد يردّ عليّ أحد المتحمسين لنظرية المؤامرة قائلاً: "لأننا لم نسمح لهم بتنفيذ مؤامرتهم الدنيئة. وهنا أجدني أسأل بمنتهى البراءة: "إذن، لماذا تسمحون لهم اليومَ بذلك؟" وببراءة أيضاً أسأل: "لماذا تدفعون الفلسطينيين دفعاً إلى المجهول؟" وللمناسبة فقط، أتحدث هنا عن العرب جميعاً.لا استثناءات. ثمة قصصٌ مرعبة يعيشها الفلسطينيون (حتى الأطفالُ الرضيعون منهم) في مطارات العرب وموانئهم البحرية ومنافذهم البريّة، من دون ذنبٍ ارتكبوه سوى أنهم فلسطينيون.أعود إلى الشتات الجديد. الشتات الذي فرض عليّ دخول هذا العالم الذي يسمونه، ولستُ أدري لماذا، افتراضياً. أنا لا أراه كذلك حتى وإنْ كان كذلك فعلاً. العينُ مِغرفةُ الكلام. هذا صحيح بالمطلق. لكن ماذا والعينُ بصيرة؟ كيف العمل عندئذٍ يكون؟ المؤلم في الحكاية أنّ البصر لا يمتدّ إلى كندا وجنوب إفريقيا وبقية الأرض التي يتيه فيها من يهمّنا أمرهم من البشر. تكتب المراهقة الصغيرة تالة من مالمو السويدية على الفيس بوك: فلسطينية وأفتخر ويللي مو عاجبو ينتحر

- يشعر بالسعادة. والأصح طبعاً: تشعر بالسعادة. واضح أنّ الخطأ مصدره مشكلة عند الفيس بوك مع اللغة العربية، أو العكس. تعلّق هبة يوسف (لا أعرف هذه البنت. ليست من العائلة. مجرد تشابه في الأسماء.) على كلام تالة: الله حيّو فلسطيني والاسم بيكفيني. ترد تالة: الله حيّو هبّوش (الشدّة على الباء من عندي. أنا أعتذر إليكِ حبيبتي تالة عن هذا التدخل السافر في خصوصياتك اللغوية!) وترى هبة أنّ الواجب يقتضي ردّ التحية: ههههه تسلميلي تيتو. ويتدخل جد تيتو لأمها فيكتب من ألمانيا (لا أعرف من أيّة مدينة في ألمانيا): أصيلة يا روح جدك. وأكاد أضحك. وأسأل نفسي: أليس من واجبي المشاركة في هذا الكرنفال الصغير من العبث اللغوي؟ ولكن ماذا أكتب؟ هل أقول: أصيلة يا بنت اليوسف؟ ولكنّ بنت اليوسف تعود بعد دقيقة واحدةٍ فقط إلى طفولتها، فتكتب: العمر بيخلص والجلي ما بيخلص. وهنا أضحك من جديد، ولكنني أكتب إليها هذه المرّة، وأسألها: عم يتعبوكي بالجلي يا حبيبتي؟ أنا رح أتصرف، ورح فهمها لأمك إنو بنات اليوسف ما بيوقفوا قدّام المجلى. فتضحك البنت. أسمع رنّة ضحكتها وأنا في دمشق. وتكتب من بعد الضحكة: والله اشتقتلك! وأنا كمان اشتقتلك يا عمري يا تالة!. وتكتب الحلوة وئام من مدينة مرسين التركية: عم تشتي. ما هذا البوست؟ لست أسأل عن الترجمة. أعرف المعنى: السماءُ تمطرُ. جملةٌ اسمية. مبتدأ وخبر، رغم أنّ الخبرَ فيها جملةٌ فعلية. وعلى التقدير يمكنني القول: هي جملة فعلية تم فيها تقديم الفاعل على الفعل. وئام الحلوة لا تفهم هذا الكلام الذي أقول. هي في الثامنة من عمرها بعد. وأكبر خوفي أن تظل الطفلةُ الجميلةُ في الثامنة من عمرها، حتى وإن بلغتْ الثمانين، فأنا لا أعرف إلى أين سوف يحملها هذا التيهُ الجديد. ربما أخذها إلى إسكندنافيا. ولست أدري إن كان في إحدى اللغات الإسكندنافية جملةٌ اسميةٌ يكون الخبرُ فيها جملةً فعلية. على أية حال، هذا ليس أمراً جوهرياً في الحكاية. الأمر الجوهري هو أنّ التيهَ قد ابتدأ. مَنْ كانت البنتُ تخاطبُ حين قالت: عم تشتي؟ بالتأكيد لا أحد. إذن، ما الحكاية؟ هل اكتشفت البنتُ المطر؟ حتماً لا. بل إنني أستطيع أن أجزم بأنها قد غرقت في المطر ذاتَ يومٍ في مخيم

اليرموك وهي في طريق عودتها إلى المنزل من مدرستها القريبة. إذن، ما الذي دفعها إلى كتابة هذا البوست؟! قضيتُ وقتاً غيرَ قصيرٍ أفكّر بالأمر. لقد كتبتْه ليلاً.هل أيقظها المطر من النوم، على سبيل التخمين؟ جائز أنّ المطر كان قوياً فأقلق راحة البنت التي تعاني فرطاً في النعومة. ولكنّ هذا الإيقاظ لا يستوجب الدخول إلى الفيس وكتابة هاتين الكلمتين. فهي، أي البنت، لا تحمل جيناتي المؤرقّة. إنها تدخل في النوم سريعاً. وتنام دائماً بعمق. وأشكُّ بأن يوقظها المطر. وحتى لو أيقظها فإنني أشك بأن يجعلها تغالب النعاس لوقت يكفي من أجل الدخول إلى النت. إنني أعرف هذه البنتَ جيداً. أحبها وتحبني، رغم شجاراتنا القديمة. لقد غفرتْ لي ذنوبي كلَّها. بنتٌ حلوةٌ، متسامحة. ربما كانت في الثالثة بعدُ من عمرها حين كانت تغضب مني وتغضب عليّ لأنني أدّعي زوراً وبهتاناً ملكيتي لوسادتها الصغيرة. كانت تقول لي غاضبة: هاي تعوتي. ولو ترجمتُ هاتين الكلمتين إلى العربية الفصيحة لوصلنا إلى الأتي: هذه الأشياء لي. ولكن يا حبيبتي نحن مختلفان على وسادة واحدة. كيف تجمعين المفرد يا بنت؟ وأضحكُ. وتبكي. وأعيد لها وسائدها. وتنام بعمق، من دون أن يوقظها المطر. ما الذي يحدث في مرسين إذن؟ شاهدتُ البوست أو قرأته في الصباح. كانت البنت نائمة. كتبتُ أسألها: بعدها عم تشتي؟ وقرأتُ الردّ في صباح اليوم التالي: لا مبارح وقفت لا همزة، لا شدّة، لا فاصلة، لا نقطة، لا شيء سوى أنّ التيه قد ابتدأ فعلاً. حتى براءة الجواب تعلن ذلك صراحةً. هل التيه عالمٌ افتراضي؟! سؤالٌ غبيٌّ بالتأكيد. إنه الفِصامُ ذاته الذي بدأتُ أعيشه هنا. الأعراضُ اليومَ ذاتُها. أما في غدٍ، فالله وحدَه يعلم كيف تكون! فها هي البنتُ تغيّر صورة الغلاف على صفحتها كل يوم تقريبا. وها هو أخوها يصير أكثرَ منها إيجازاً. ها هو يحذف المبتدأ، ولا يُبقّي لنا علانيةً غيرَ الخبر. يكتفي الولد بكلمة واحدة، ولكنه يمطّها كثيرا: مللللللللللل.. من الواضح أنّه يتعمد أن يمطّ الكلمة من أجل التوكيد على معناها الحقيقي وليس الافتراضي. لقد وصلت الفكرة. شكراً بسّام! خيرُ الكلام ما قلّ ودل. هكذا قالت العرب قديما.لا، هذا العالم ليس افتراضياً، حتى وإنْ كان كذلك، فهذا التيهُ واقعيٌّ أكثرَ مما ينبغي. سمعتُ

اليومَ بنبأ موت أحد أصدقاء الطفولة. محمد العائدي. الفلسطيني محمد العائدي. أبو نايف. مات قبل أربعة أيام. مات بالسكتة القلبية. حمل مَنْ بقي في سوريا مِن شباب عائلة العائدي جثمان كبيرها. وضعوه في سيارة، وراحوا يجوبون مقابر دمشق بحثاً عن واحدة تقبل إيواءَه بين موتاها. بلا جدوى. لا مشكلة مالية لدى هؤلاء الشباب. إنهم يملكون الكثير من النقود. ويعرضون الكثير منها مقابل حفرة صغيرةٍ في أرض أيٍ من مقابر المدينة. بلا جدوى. دفنوه في البريّة البعيدة. دفنوه ليلاً. وربما باتوا في العراء. لم أستوضح هذه النقطةَ الأخيرة. ربما كانت - كما هي العادة دائماً - نتاج مخيلة كاتب سيناريو مريضة. ولكنّ المؤكد أنهم دفنوه في البريّة ليلاً. لم يكن أمامهم حلٌ آخر، فإكرامُ الميت دفنُه. هذا ما يوصي به الإسلام. وأبي قال مرّةً: الذي ما له وطن، ما له في الثرى ضريح، ونهاني عن السفر. هكذا قال المغنّي. ولكنّ المشكلة هي أنّ محمود درويش نفسَه قد عاش في التيه معظم حياته، رغم أنّ أباه قد نهاه عن السفر، فالسفر لم يكن واحداً بين جملة خيارات أمامه، تماماً كما هي حال الفلسطينيين بعامة. السفر عند الفلسطيني خيارٌ إلزامي، لأنه، باختصار، بديلُ الموت اليتيم. إنه الباب الوحيد الذي بقي ليس مفتوحاً، بل مواربٌ حسب. وهذا الباب لا ينفتح على أيّ مطرحٍ غير التيه.الحقَ أقول لكم أيها العرب: أنتم المتآمرُ الأولُ على حق العودة، وعلى بقية حقوق أخوتكم. الحقَ أقول لكم أيها العرب: أنتم المتآمر الأول على أنفسكم، حتى إنني بتّ أستغرب مِن سذاجة مَن يتآمر عليكم!. وهنا عادتني بعض الذكريات القديمة.. سبق لي أن عشت لحظةً مثل هذه.. في عام 1988 كنت أعمل على رواية (لم تكتمل، وللأسف) عن الشتات الفلسطيني (الشتات وليس التيه. ما يحدث اليومَ أكبرُ كثيراً من مجرد شتات. لقد دخل الفلسطينيون حقبة التيه الأكيدة.) وفجأةً رحت أهذي ببعض الشتائم من شدّة القهر. ولكنْ ثمة صوتٌ استوقفني وهمس لي يقول: الرؤية عندك صارت ضبابيةً من كثرة الغبار الذي أثَرْتَه من حولك. إلى أين أنت ذاهب؟ هل ستكتب درساً في التاريخ؟ أم ستكتب مقالةً في السياسة؟ اليومَ عادني الصوتُ نفسُه: هل رجعتَ للحديث عن الأخوّة الملعونة؟ يبدو أنّ الأمر كذلك. يبدو أنني سوف أقول رأيي في المسألة.

سوف أكتب عن هذه المسألة بوصفي مثقفاً فلسطينياً إنْ صمتَ في هذه الظروف العصيبة على الجميع فلن يكون أمامَه وقتٌ آخرُ للكلام. سوف أكتب عن الأخوّة. بل إنّ هذا واجبي، ولكن ليس الآن. وليس هنا. ليس عند عَتَبَةِ الألم. وتأملتُ بما قاله لي الصوت همساً. غبار العمل. الانتقاء. قالت العرب: لكل مقام مقال، فقل أنت: لكل مقالٍ مقام.. هههههههه.. قد يكون من واجبك أن تفعل، ولكن ليس الآن، وليس هنا. فهذه الأخوّةُ الملعونةُ منذ أكثر من خمسةٍ وستين عاماً يمكن لها أن تصبرَ أسبوعاً آخرَ أو أسبوعين. أشعلتُ سيجارة.نعم ليس الآن، وليس هنا. ورنّ الموبايل. هذا ليس وقت رشا. فمن الذي يطلبني إذن؟ تذكرت جرس الباب عند الثالثة فجراً، وعادني شيءٌ من خوف، من قبل حتى أنْ أنظر إلى الشاشة، التي ما إنْ نظرتُ إليها حتى كبر خوفي. لا اسم، ولا رقم أيضاً. من هذا المتصل يكون؟ لا تفتح باب المنزل بعد الساعة العاشرة. تلك كانت النصيحة الذهبية. غير أنها نصيحة يتيمة. لم ينصحني أحدٌ بعدم الرد على الموبايل. ولكنّ هذا المتصل بلا هوية. ما العمل؟ لا بأس بأن تكون جباناً، ولكن ليس إلى هذا الحد. فتحتُ الخط. جاءني صوت رجل غريب: أستاذ حسن؟ - أيوا.. مين معي؟ - فاعل خير. - عفواً؟! - معك فاعل خير. - عم أسأل عن الاسم، مو عن الوظيفة. ضحك الرجل، وقال: اسمي فاعل خير. من الواضح أنّ لديه سبباً ما يجعله يخفي هويته. قلت: شو باستطاعتي أفهم من هالكلام؟ عم تعرض عليّ مساعدة ولا عم تطلبها لشي حدا محتاج؟ قال: الحقيقة أنا حابب أساعدك. حابب أساعدك بأمر كتير ضروري وكتير مستعجل، يعني بتقدر تقول حالة إسعافية. - أف أف أف!!! خير اللهم اجعله خير؟! - حضرتك عندك سيارة كيا لونها أسود ونمرتها متين وأربعين مية وستة؟ - نعم، سيارة كيا لونها أسود وبتحمل هالنمرة هيّ سيارتي. وين المشكلة؟ - قبل ما قولك وين المشكلة، اسمحلي قولك: وين السيارة؟ - السيارة مع امرأة علاقتي فيها طيبة، وهيّ بحاجة إلها أكتر مني، فعطيتها ياها. - بمعنى بعتها؟. - لأ.. - على كل حال نحن منعرف مين هي المرا.. ومنعرف - اسمحلي أسألك بالأول (قلتُ مقاطعا) قلت إنكن بتعرفوا، فيا ترى أنا عم أحكي مع شخص

ولا مع جهاز؟ جهاز أمني مثلاً؟ ضحك الرجل وقال: أنا فاعل خير. - أوكي! متل ما بدك. وشو الخير اللي ممكن تقترحه عليّ؟ - اسحب سيارتك فوراً. - ليش؟ لاحظتوا شي غلط على المرأة؟ - سيارتك أصلاً مو مع المرأة اللي عم تحكي عنها واللي كانت زوجة أحد أصدقائك قبل عشرين سنة تقريباً. ولكنها كانت عشيقتك. - أنا ما عم أفهم شي يا فاعل الخير. - وأنا قلت اللي عندي، وبرأنا ذمتنا تجاهك. الباقي بملعبك يا أستاذ. ونصيحة لوجه الله تعالى: تصرف بسرعة قد ما بتقدر. علاقتك إلى الآن مع الشرطة. ما في داعي توصل لعنا، ما بدنا ياك تكون خبر عاجل على المحطات المعادية للوطن. ما بدنا شهداء جُدُد للحرية. تصبح على خير! وأغلق الخط. وتركني أتخبط بأفكاري يميناً وشمالا. ماذا يحدث؟ نظرتُ إلى ساعتي اليدوية.هذا الوقت في ليالي الشتاء صار متقدما كثيراً. إنها الواحدة بعد منتصف الليل. من غير المناسب أن أتصل بالمرأة في مثل هذه الساعة. ربما كانت نائمة. ولكن حتى لو كان الوقت مناسبا، فماذا أقول لها: أين السيارة؟ أو: أعيدي إليّ سيارتي؟! ما هذا السخف؟! وكيف يمكنني أن أهبط إلى مثل هذا الدْرك من قلّة الشهامة؟! فعن أيّ شرٍ يتحدث فاعلُ الخير هذا؟! عن أيّ شرٍ يتحدث الخيرُ وفاعلُه؟! الأمن لا يريد أن يتدخل بعد. مازال يترك الموضوع للشرطة. إذن، الأمر ليس خطيراً. فلماذا التخبط؟! رحت ألوم نفسي. ما هذا الجبن الذي صرت إليه؟!! ولكنه ضابط أمنٍ في بلدٍ غارقٍ بالدماء. لماذا يحذّرني؟ بماذا يهمّه أمري؟ أم تراه ينتحل شخصية رجل الأمن وأنّ وراء الأكَمَةِ ما وراءَها؟ ربما كان الأمر كذلك فعلاً، فهو حتى لا يعرف حقيقة علاقتي بهذه المرأة التي لم تكن عشيقتي في يومٍ من الأيام، لأنها كانت زوجتي. ثمّ وقع الطلاق بيننا. وتزوجت إلى رجلٍ آخر، واختلفا، وهجرها تمهيداً للطلاق. وحين لاح لها شبح الطلاق في الأفق اتصلت بي.. ولم أكن قد رأيتها منذ سنوات عديدة. كانت المرأة في ضائقة ماليّة. قالت: لم أجد مَن ألجأ إليه سواك. إنني في ضائقة. وطلبت موعداً للقاء.. والتقينا، وأعطيتها المبلغ الذي يفكُّ ضائقتها. وأبلغتني حزنها لأنّ الطلاق وقع بيني وبين زوجتي الأخيرة، وسألتْ عن بقية أخباري. قلت لها إنّ منزلي قد تضرّر، وإنني أقيم الآن في

فندق، وأفكّر بالسفر إلى القاهرة. وشكتْ لي قسوةَ العيش هذه الأيام عموماً، وبعد الطلاق على نحوٍ خاص، لم تعد قادرةً على أن تنفق كما كانت تفعل في حقبة الزواج، كما أنها صارت بلا سيّارةٍ أيضا. قالت لي: تصور أنني لم أعد أجرؤ على أنْ أركب تكسي، فخطفُ النساء صار موضةً في هذه المصيبة التي حلّت بنا جميعاً. عرضتُ عليها أن أترك لها سيّارتي. اعتذرتْ. قالت: لا أستطيع أن أخدمها. قلت: خدمة السيّارة على نفقتي أنا. ولا تهتمي، أنا بدفع أجور التصليح لو تعطل شيء بالسيّارة، وما أظن يصير هيك أمر لأنها سيّارة نظيفة، زائد إني بدفع ثمن البنزين، ومستعد أدفع سلفاً بالطبع. ضحكتْ وقالت: وإنت شو الله جابرك تدفع؟ قلت: خليني أسدد ثمن وجبات الغدا والعشا اللي ياما أكلتهم من تحت إيديكي. ولا تهتمي.. نعم، إنها ليست عشيقتي، وليست زوجة أحد أصدقائي. هاتان الصفتان لا تجتمعان عندي. فزوجة الصديق بالنسبة إليّ - كما قلت قبل قليل - من المحارم. تماماً كما هي الأم والابنة والأخت والعمة والخالة. هذا واحدٌ من مبادئي الراسخة في الحياة، بينما فاعل الخير يقول لي عشيقتك، ولو ناقشته في الأمر لقال: زانيتك.. هذه الثغرة في المعلومات حملتْ إليّ بعضاً من سكينة. لا يمكن أن يكون فاعل الخير رجل أمن. من المؤكد أنّ وراءَ الأكَمَةِ ما وراءَها.. ولكن أيضاً: ماذا يمكن أن يكون وراء الأكَمَة في واقع الحال؟ وهل هذه المكالمة على صلة بجرس الساعة الثالثة التي عند الفجر؟ ربما كان ثمة رابطة بين القصتين! وفي حال وجود رابطة يعودني الخوف وتتبدد السكينة. لقد لخبطتني هذه المكالمة. حملتني إلى فوضى الأفكار، فوجدتني في عين الزوبعة منها. وقضتْ على كل أملٍ قد أصيبه في ليلتي هذه من إغفاءةٍ قصيرةٍ عاثرة. وتتصل رشا بُعيدَ الفجر بوقتٍ قصير. ومن جديد تقول لي: صوتك مو عاجبني. وأكذب عليها: جايز إني بدي أمرض بالكريب. وتنصحني بشرب الزهورات الساخنة. وأقول لها: فوراً.. ولكنني لا أتحرك من مطرحي. تنتهي المكالمة مع رشا. وأظل في الفراش راقداً، متأملاً، متفكراً، متذكراً.. السيارة.. المرأة التي أعرفها على نحوٍ جيد، أو حتى أكثرَ من جيد. هذه المرأة كان لي معها أوقاتٌ عذبة. أنسى السيّارة. أفعل ذلك متعمداً. أحاول الهروبَ من هذه

المفاجأة المشوِشة. أهرب إلى تلك المرأة التي كانت زوجتي قبل سنين ما عادت قليلة.. لعلّ فاعل الخير قد لخبط بين امرأتين.. ربما كان الأمر كذلك فعلاً.. ومن يدري؟ ربما تعمدّ أن يفعل هذا.. ولكنْ بأيّ غرض يخلط الحابل بالنابل؟! هذه المرأة عاشت معي تحت سقفٍ واحدٍ، وعشت معها.. استعرتُ مرّة كلاماً قالته لي، وصار مشهداً أو أكثر في روايةٍ أو أكثر، وفي مسلسلٍ تلفزيوني أو أكثر. حاولتْ.في فترةٍ من عمر زواجنا أن تكتبَ شيئاً من قبيل المذكرات أو اليوميات. وكان النتاج في الحقيقة شيئاً خليطاً من ذاك وهذا. أنجزتْ أربعاً وثلاثين صفحةً في دفترٍ صغير، ثم أصابها الضجر من هذه (البلاهة)، حسْبَ تعبيرها، فتوقفتْ عن ممارستها تماماً. في يوم الطلاق. في لحظة الوداع الأخيرة. عند مغادرتها المنزل بلا رجعة. وكانت لحظةً قاسيةً علينا نحن الاثنين، قلتُ لها محاولاً تلطيف الوجع: نسيتي تاخدي دفتر البلاهة. اغتصبتْ ابتسامةً، وقالت: احتفظ فيه، اعتبره هدية، ممكن يفيدك بشي مشهد من شي مسلسل. في تلك الليلة لم أذق للنوم طعماً. ولا كذلك في الليالي التسع اللاحقات. ضربتُ في تلك الفترة رقماً أظنه قياسياً بقلّة النوم. وكنت أفكر كثيراً بالمرأة التي طالما تعلّقتُ بها والتي كان يحلو لي أن أسميها: فتاة القمر. وكنت دائم السؤال: ماذا تراها تفعل في تلك اللحظة؟ كانت تقف ملتصقةً بنافذة غرفتها المعتمة في بيت أهلها، وممتزجة بها، مثل نقطةٍ بيضاءَ في إطارٍ مظلم، ترنو إلى الفضاء مستكشفةً حدود عذابها فلا يتبدى أمامها لذلك العذاب من أفق، ولو كان نائيا. تقف مسمّرةً إلى إطار النافذة تقاوم عطشاً استبدّ بها إلى خلاصٍ مبهم. إنها لن تستطيع الصمود طويلاً، فالعقل مشلول، والجسد مخدوع، والقلب أخرس. عيناها فقط تنبضان. كانت كمن يحلّقَ في فضاءٍ غير هذا الفضاء. تحملها ريح الصِّبا، وتقذف بها إلى هاويةٍ قاحلةٍ إلا من سرابٍ يتماوج متراقصاً في صمتٍ مهيب.. لم أكتب كثيراً في تلك الليالي العشر المحكومة بالسهاد والأرق. ولكنّ سطراً واحداً كنت أكتبه وأعيد كتابته عشرات المرات في كل واحدةٍ من جميع الليالي العشر: وما أنا بالدّاعِي لعزّةَ بالجوى/ ولا أنا شامتٌ إنْ كعبُ عزّةَ زلّتِ.. وفي روايةٍ: فما أنا بالدّاعي لعزّة بالجوى/ ولا شامتاً إنْ نعلُ عزّةَ

زلّت.. لست أدري أيّ الروايتين أصحّ بالذي قاله كُثَيِّرٌ في عزّاه. وعزّة كتبت في دفتر البلاهة: [إنها لحظةُ المكاشفة التي جاءت أخيراً.. لحظة الحديث بصراحةٍ في أشيائنا المشتركة، ما راح منها وما هو في الطريق بعد.. قلت له: "سوف أبدأ حديثي من الاعتراف بأني أحبك، إنْ كانتْ ترضيكِ هذه البداية." وفي الحقيقة أنّ بدايةً كهذه ليست ترضيني أنا، لأنني أشعر شعوراً أكيداً أنّ الاعترافَ بالحب خطأٌ فادحٌ، أو عملٌ أحمقُ نرتكبه من دون وعي، ويحمل بين طيّاته شيئاً من خطورةٍ منشأُها الإحساسُ بالنفاق الذي يسكننا من دون أن نلحظه في أغلب الأحيان. ولهذا كنتُ أفضّلُ أن أبدأ حديثي بالقول: إنني أريد أن أعيش معك، لأنني أريد أن أهتم بك، ولأنني أيضاً أريد أن تهتم بي. أحب أن يهتمّ بي أحدُ الرجال اهتماماً حقيقياً.] أريد أن أهتم بك.. أريد أن تهتم بي.. هذه الكلمات كانت البذرة الأصلية التى أثمرتْ مشهداً في أحد مسلسلاتي التلفزيونية. أظنه كان مشهداً ناجحاً. وبغض النظر عن ظني، فقد كان مشهداً صادقاً بالتأكيد.. وأمعن بالهروب من السيّارة وفاعل الخير، وأبقى مع طليقتي القديمة.. مازلت أحتفظ بدفتر البلاهة في حقيبة الكتب الوحيدة التي أملكها مذ غادرتُ منزلي، الذي لا يبدو أنني سوف أعود إليه قريباً، فمنطقة داريّا مازالت الجبهةَ الأكثرَ سخونةً في جميع هذه الحرب المجنونة فوق عموم الأرض السورية. لا أعرف لماذا حملتُ هذا الدفتر معي بين مجموعةٍ غير كبيرةٍ من كتبي المفضلة: ديوان المتنبي، الحماسة، المواقف، نسخة من إحدى رواياتي. الرواية التي لم يذكرها أحدٌ بسوء، ولكنّ أحداً كذلك لم يذكرها بخير. كانت كأنها لم تكن، رغم أني بذلتُ في كتابتها جهداً أستطيع أن أصفه بالمضني. لقد آلمني أن أرى ذلك الجهد يذهب سدىً. أين المشكلة؟ تساءلتُ كثيراً خلال أربع عشرة سنة انقضت على صدورها. أين العلّة؟ أين الداء؟ فكرت بالأمر من وجوهه المختلفة. أظنني قد وصلت إلى بعض النتائج المقبولة في تشخيص العلّة. وقررت بناءً على ذلك التشخيص، الذي ربما كان سليماً، إعادة كتابة الرواية. وكنتُ كلما شرعتُ بالعمل كلما توقفتُ عنه بعد زمنٍ قصير، أو حتى قصير جداً في بعض المرّات. والحجّة كانت على الدوام ذاتها: لا وقت عندي. كنت أغرق في

الكتابة التلفزيونية، رغم أنّ هذه الكتابة بالذات ليست المفضّلة لديّ، بل أستطيع أن أعترف بأكثر من ذلك: إنني لا أحب هذا العمل. إذن لماذا كنت أُغرِقُ به نفسي؟! لماذا فعلتُ ذلك؟ أمن أجل النقود؟ أظن أن الجواب هو: نعم. إذن، إنني أملك الوقت لجني المال. إذن، إنني أهرب من الأدب المقروء متعللاً بغياب الوقت من جدول حياتي. إذن، إنني لا أحب هذه الرواية، وإنني قد تنازلت عن فكرة كتابتها مرةً ثانية. إذن، لماذا أحملها معي في حقيبة الكتب اليتيمة عندي من بعد هذا العمر كله؟! سلسلة الأسئلة هذه لا يجيب عنها سوى الآتي: بين طيّات هذا الكتاب المضني يكمن سرُّ السعادة. السرُّ الذي قالت عنه رزان: روحُ الوجع. ومن يدري؟ ربما كانت رزان أكثرَ دقةً مني في توصيف ذلك الشيء الذي لا نتفق له بعدُ على اسم مشترك، رغم أنه وجعنُا المشترك، أو سرّنا المشترك. ولكنها، أي رزان، ليست كذلك (أكثر دقة) إلاّ من الزاوية التي تنظر بها هي إلى الأمر. والشيء نفسه طبعاً ينسحب عليّ أنا أيضاً. نختلف على التسمية حسب. ولكن، هل هذا قليل؟ أظنه بالغ الأهمية، إنْ لم أقل بالغَ الخطورة، فهو يفتح أمامنا آفاقاً بلا ضفافٍ للتأويل والاجتهاد والفهم وبناء المواقف والآراء. هذا على مستوى الحياة ككل، غير أنه ينسحب على الفن أيضاً، وبقوة. قد تتشابه بعض الآراء حيال هذا المُنْتَج الأدبي أو ذاك. ولكنها، مهما تشابهت، لن تصل في حالٍ من الأحوال إلى درجة المماثلة. ما من خمسةٍ أو عشرةٍ أو مئةٍ من الباحثين الأدبيين قد اختلفوا حول أن سمة (هاملت) الرئيسة هي: التردد. حسناً، أنا أيضاً أنضم إلى هذه المئة. ولكن ماذا بعد التردد؟ هنا يبدأ التباين.. الكتابةُ أمرٌ غير مفهوم، لا بالسيرورة، ولا بالنتائج. إنها أمرٌ غير مفهوم، وغير مضمونٍ أيضاً. إنك لن تُرضي جميع الناس. وأظن أنّ هذه ليست وظيفتك ككاتب، أو كفنانٍ على وجه العموم. ليس وظيفتك أنْ ترضي الجميع. هذه غايةٌ لا تُدْرَك. ولكنْ، في الوقت نفسه، ليس وظيفتك أيضاً أن يتجاهلك الجميع، فالجميع كلمة رهيبة الوقع على الروح. الغريب في الأمر أنّ روايتي التي كان الجميع قد تجاهلها وجدتْ إقبالاً لافتاً للانتباه عندما تحولتْ ببعض مقاطعها إلى الشاشة الصغيرة. لقد استفدتُ من تلك الرواية في أربعِ من

المسلسلات التلفزيونية: نساء صغيرات، قبل الغروب، حكاية خريف، الغفران. وأكثر من ذلك: إنني أفاد منها هذه اللحظة، هنا. ومن بين تلك المقاطع التي تتم الإفادة منها الآن ذلك الذي لم نتفق أنا ورزان له على اسمٍ مشترك: روح الوجع أم سر السعادة؟ هل اختلفَ المتلقي بين الرواية وبينَ التلفزيون؟ نعم، بالتأكيد. اختلف المتلقي، واختلفت الأدوات. ولكنّ المتلقي دائماً على حق. شعارٌ لا يمكن الهروبُ منه. إنه مثل ذلك الشعار الذي ترفعه متاجر كثيرةٌ في هذا العالم يقول: الزبون دائماً على حق. والمتلقي مجرد زبون، والمُنتَجُ الفنيُّ مجردُ سلعة. الأمر ليس في حاجةٍ إلى فذلكة. سلعةٌ تحتاج إلى زبون. والزبون دائماً على حق. لا يمكنك أن تقبل به هنا وأن ترفضه هناك. أما هذا الترفع الذي نمارسه - نحن الكتاب - فهو في واقع الحال ليس إلاّ ضرباً من الدجل الخالص الذي نغطّي به الكثير من عيوبنا، حتى الشخصية بينها. ماذا أحمل في تلك الحقيبة أيضاً؟. إنني لا أكاد أفتحها. ولكنها في متناول اليد. أستطيع قراءة (البلاهة) من جديد في أي وقت. ولكن من أجل أيّ شيء أفعل ذلك؟ لأمارس مزيداً من الهروب من هاتف الليل الذي أربكني تماما؟ ماذا يريد فاعل الخير هذا؟! لا أعرف. ولكنه أوقد بي بعض الحنين إلى رزان وإلى حلاوة الأيام معها.. أذهب إلى حقيبة الكتب. إلى روح الوجع.. أعود إلى دفتر البلاهة الذي لم أمسك به منذ سنواتٍ عدة. أفتحه بشكلٍ عشوائي. يقع بصري على الآتي: [قطّبتُ حاجبيّ وأنا أرميه بنظرة متوعدة، فما كان منه إلاّ أن ازداد ابتساماً فزاد هذا في إرباكي. كان وجهه مرهقاً. وخُيّل إليّ أنه دائم الإرهاق. لكنني عرفت فيما بعد أنه ليس كذلك. عيناه زرقاوان خاملتان، وشعره خرنوبي. أما الكلمات عل لسانه فقد كانت بطيئة ومتأنية. كنتُ أرتدي قميصاً أبيض بنصف كم، وبنطلوناً من الكتان لونه خاكيّ. قال لي فيما بعد: "كان لون البنطلون أزرقَ فاتحاً." ولست أدري لماذا يحبّ أن يتصور الأمر كذلك. وقال لي أيضاً: " كان شعرك سيء التمشيط. قلت له: أنا أعتني بشعري دائماً. قال: إذن، لماذا لا تعتنين بماكياجك؟ " قلت: أنا أحب شعري.] اتصلتْ بي على الموبايل فجأةً بعد أن علمتْ بالطلاق الذي وقع بيني وبين زوجتي الأخيرة. لم أكن قد

رأيتها أو سمعت صوتها منذ سنواتٍ بعيدة. سألتني إن كنت أوافق على لقائها. قلت لها: نحن لسنا أعداء، وقد كان لنا أوقاتٌ مشتركةٌ حلوة، وإنني لا أتذكر أوقاتَنا الحلوة إلا بحبٍ، رغم قساوة النهايات التي وصلتْ إليها علاقتنا. قالت: على سيرة النهايات أظنك مديناً لي بالاعتذار. قلت: عن أي شيء بالضبط أعتذر؟ قالت: لقد أبكيتني كثيراً في نهاية مسلسل الغفران. قلت: يبدو أني مدين بالاعتذار لنساء كثيرات جداً. قالت: لا شأن لي بالنساء الكثيرات جداً، فأنا كنت شريكة لك في تلك النهايات، وشخصية عزّة هي أنا، وأنا بكيت أكثر من الجميع لأن هذا كان وجعي أنا. عزّة هي أنا، وليس تلك النساء الكثيرات جداً. أنا وحدي بين جميع من شاهد المسلسل يعرف روح الوجع الذي عشناه سوية أنا وأنت. المتفرجون شاهدوا ما قد تم عرضه عليهم، أما أنا فقد عشت حتى تلك اللحظات التي يبدو أنك لم تجرؤ على كتابتها، لسبب أو آخر. قلت: هناك الرقابة طبعاً، أي أنّ هناك سقفاً صلباً لا يمكن مناطحته برأسٍ عارية. ولكنني مع ذلك، فقد كتبت شيئاً من الوجع الخفيّ الذي تتحدثين عنه أو: روح الوجع كما تسمينه. ولكنني أعطيته اسماً مغايراً، أو فلنقل: وضعته تحت عنوان مختلف. - وماذا يكون هذا العنوان المختلف؟ - سرُ السعادة. - من المؤكد أنك تمزح. - بل إنني لا أقول غير الصدق. - أنت تفاجئني. أنت دائماً تفاجئني. - وأنتِ لا تتخلين عن هذه العادة السيئة. - أية عادة هي؟ - دوام المفاجأة.- هل تعرف ماذا كانت مشكلتي معك؟ - أتذكر أن الذي لك معي لم يكن مشكلة واحدة. - لا، بل هي مشكلة واحدة فقط. - إذن، لا أعرف كيف أختار، فأنا مازلت أتذكر بأنها أكثر من واحدة. - أعرف أنّ ذاكرتك قوية، وهذه كانت مشكلتي الوحيدة معك. - إلى ماذا ترمين بالضبط؟ ماذا تريدين أن تقولي؟ - لقد قلتُ وانتهى الأمر. إنك لا تنسى أبداً. - وهل هذا الذي تقولين ينطوي على إدانةٍ من نوعٍ ما؟ - بالتأكيد نعم، ولكن ليس الآن. فيما مضى. فيما مضى يا صديقي. لم تكن تنسى. لم تكن تغفر. إنها لعنة الذاكرة. فهل غفرت الآن؟ وهل ما زالت ذاكرتك قوية؟ - أظنها مازالت قوية. - شيء مؤلم، ولكن قل لي: هل نشرت ذلك الذي تسميه سرّ السعادة؟ - نشرت بعضاً منه. - أين؟

أو: هل أستطيع قراءته؟ - بكل سرور يا عزّة! - ههههه صار اسمي عزّة؟ على أية حال إنه اسم جميل.. وانتهت المحادثة بموعد للقاء غير بعيد. إنني أعرف هذه المرأة جيداً، فكيف لي أن أصدّقَ فاعلَ الخيرِ إذن؟! ولكن ماذا لو كان صادقاً؟ ماذا أفعل يا ربي؟ ساعدني يا الله!! ساعدني!! اشملني برحمتك من هذه البلبلة!! كان الصباح قد أطلّ على المدينة من دون أية وعود بيومٍ أقلَّ عنفاً. الانفجارات القوية تهز أطراف دمشق. تُقطِّع تلك الأطراف. كُنت عاجزاً عن النوم.على أية حال، هذا ليس جديداً عليّ. ولا الخروج من المنزل بعد طول سهادٍ جديدٌ عليّ. ولكنها المرة الأولى التي أخرج بها إلى الطرقات في هذا الوقت من النهار مذ رجعت من المنفى. الطرقات مغلقةٌ بالسيارات. السيارات لا تتحرك إلا بالسنتمترات. فقط بالسنتمترات. السبب مفهومٌ. الحواجز العسكرية. التفتيش. المدينة كلها في حال من السكون. لا أدري كيف يكون المنظر من الأقمار الصناعية. مدينة كبيرةٌ تموت فيها الحركة. تنتظر. مدينة الأحلام. عبارة سمعتها من سينمائي ألماني مشهور في بلاده، تجمعني به صداقة منذ سنواتٍ كثيرة. التقينا في أماكنَ متفرقةٍ من هذا العالم. تحدثنا في شؤون مختلفة: السياسة، السينما والأدب، كرة القدم، وحقيقة الهولوكوست، الخ. وكنا قادرين على أن يفهم أحدنا الآخر حتى عندما يصل النقاش إلى توماس مان وجاك ماريا ريمارك. وكان يبدو الرجل سعيدا لأنني قرأت الأدب الألماني، واستهواني ذلك الأدب كثيراً، وأن رواية (وقت للحب.. وقت للموت) هي درّة الأدب الألماني. لم يكن يوافقني على هذا الرأي، ولكنه، مع ذلك، كان يبدو سعيداً به. والحديث بيننا كان دائماً بالانجليزية التي يجيدها كما الإنجليز، بينما تبدو على لساني مصابةً بداء العرج المتقطع. ورغم هذا كنا قادرين على الحديث في كل شيء. في خريف عام 2005 جاء هذا السينمائي الألماني ضيفاً على مهرجان دمشق السينمائي. كان ضمن لجنة التحكيم للأفلام الروائية الطويلة. وبالتالي: لم يكن لديه وقتٌ من أجل نفسه، فكيف من أجلي أنا إذن؟ أعرف الأمر من تجربتي الشخصية. إنها أشغالٌ شاقة. ولكنّ الواجب كان يُحتّم عليّ أن أخترع من أجل صديقي وقتاً مقتطعاً أو بديلاً من مفقود لإظهار ولو القليل

من حُسن الضيافة، حتى لو اضطرني الأمر إلى التحايل على إدارة المهرجان التي تربطني بها علاقةٌ جيدة. كان الواجب يحتّم عليّ ذلك مادام الرجل الغريب ضيفاً على المدينة التي أنا من أبنائها. التقيته ثلاث مرات خلال أحدَ عشرَ يوماً قضاها الغريب بيننا. في المرة الأولى تسكعنا في مركز المدينة قرابةَ ساعة ونصف ساعة، شربنا خلالها قهوة في إحدى الكفتيريات. سألته ونحن نشرب القهوة عن انطباعه الأول حول دمشق. قال: تبدو مدينة لطيفة، أهلها طيبون، وفيها نساء جميلات. في المرة الثانية تناولنا العشاء في دمشق القديمة بعيداً عن فندق المهرجان ومطاعمه، وسهرنا إلى ما بعد منتصف الليل. تحدثنا قليلاً عن المهرجان، وأبدى بعض الملاحظات المتعلقة بالتنظيم. وعندما يتحدث الألماني بشؤون تنظيمية فالنصيحة التي من ذهب تكون: استمع جيدا، ولا تفوّت أي حرف. قلت له: حبّذا لو سمعتْ إدارةُ المهرجان هذه الملاحظات منك مباشرةً. قال: ألن يشعروا بالإحراج؟ قلت: لا أبداً، بل سوف يشكرونك على ما تقول. وانتقلنا إلى موضوع آخر، وآخر.. انتهتْ سهرتنا بعد منتصف الليل. خرجنا من المطعم، وكنت قد رتّبت الأمر بحيث نرجع إلى الفندق مشياً على الأقدام في أزقة وحواري دمشق القديمة المتداخلة ببعضها على نحوٍ أثار العجب في نفس ضيفي، حتى إنه سألني: هل أنت واثق من الطريق؟ قلت له: أعدك بأن تصل إلى الفندق في وقت يسمح لك بالنوم ست ساعات. مشينا من باب توما إلى فندق الشام. وعندما خرجنا من دمشق القديمة من جهة القلعة سألني عن تلك الأضواء المفروشة على ذلك الجبل. قلت له: هذا الجبل اسمه قاسيون. قال: أظن أن من الممتع الذهابَ إلى هناك. وتابعنا طريقنا. شكرني ونحن نفترق بباب الفندق على اني أخرجته من روتين المهرجان، وشكرني على العشاء الذي كان شهياً، وشكرني أكثر على المشوار الممتع في أزقة هذه المدينة القديمة الجميلة (قبل أيامٍ قليلةٍ فقط كانت: لطيفة). المرة الثالثة: مررتُ به بعد الغداء في الفندق (بناءً على موعدٍ مسبق طبعاً)، وذهبنا إلى ذلك الجبل الذي، ربما كان الذهابُ إليه ممتعاً. وقفنا في أعالي قاسيون نتفرج على المدينة وغوطتها العملاقة من علٍ. الألماني صمت. صمت تماماً. سألته: ماذا؟ قال: أظن أنني أتفرج على مدينة

الأحلام. قلت: لماذا تظنها مدينة الأحلام؟ لم يردّ على سؤالي. لعلّه لم يسمعني. كان منشغلاً بالدهشة التي خلقها المنظر أمامه. أو ربما سمعني وتجاهل السؤال من أصله. لا يريد أن يشغله شيء عن هذه الصنعة الإلهية المتكاملة. ظل صامتاً طوالَ دقيقة أو بعض دقيقة قبل أن يقول بصوت أراد له أن يكون خفيضاً احتراماً لهذا الجمال الذي فاجأه: لن أنسى هذا المنظر مادمتُ حيّاً.. كيف تبدو اليومَ مدينةُ الأحلام وقد توقفت الحركة فيها تماماً؟ لم أقدر على احتمال المشهد. قررت العودة إلى المنزل. رجعت. ارتديت البيجاما من جديد، وتناولتُ حبة من المنوّم الأمريكي الأكيد المفعول، فنمتُ عشرَ دقائق. تناولتُ قرصا ثانياً، متجاهلاً التحذيرات في النشرة المرفقة، والتي تؤكد على عدم تناول أكثر من قرصٍ واحد في اليوم الواحد. نمت أربع ساعات هذه المرة، وكان نوماً عميقاً. استيقظت نشِطاً إلى حدٍ لا بأس به. وقفت تحت الدوش بضع دقائق. ذهبت بعدها إلى المطبخ. صنعت قهوة كثيرة. شربتها في الفراش. دخنت معها ثلاث سجائر. كان مزاجي رائقاً إلى حدٍ ما، رغم أنّ هاتف الليل مازال يتردد في جنبات رأسي، ولكنه كان خفيف الوقع. لقد صدق الأمريكيون أخيراً، بغضّ النظر عن تحذيرهم الذي بدا لي كاذبا، وغيرَ جديرٍ بالاحترام. الحمد لله! حتى بلبلة الذهن كانت خفيفة إلى حدٍ لا بأس به أيضاً. أنظر إلى الوقت. إنها الواحدة التي بعد الظهر. ماذا أفعل؟ تمرق في رأسي فكرة أستحسنها: البوح بالذي في القلب. أتصل بأحد الأصدقاء. إنه أحمد. شخص موثوق تماما. وأكثر من ذلك: أحمد يعرف سيارتي على نحوٍ لا بأسَ به. تعطلتْ سيارته مرةً، وكان لديه أشغالٌ مستعجلة. أعطيته سيارتي، وبقيتْ في حوزته ثلاثة أيام، وهو من أخذها إلى رزان بناءً على طلبٍ مني. سألته إنْ كان يملك من أجلي ربع ساعة من الزمن يفيض عن حاجته. قال: كل الوقت لك. اتفقنا على اللقاء في مقهى هافانا عند الساعة الرابعة. وما إنْ أقفلتُ الخط حتى رنّ الموبايل في يدي. إنها رزان. قالت لي: تبدو من صوتك رائقَ المزاج. قلت لها: يعود الفضل في هذا إلى الأمريكيين. ضحكتْ. سألتْ: ما شأن الأمريكيين بمزاجك الرائق؟ قلت: لقد نمت أربع ساعات، وكان نوماً عميقاً. قالت: هل

أفهم من هذا أنك تعاطيت منوما؟ قلت: نعم، تماماً، هذا ما حصل، وهو منوّم أمريكي. قالت: كنت تفضل منوما سويسريا أيام كنا معاً، أم أنّ ذاكرتي حول تلك الفترة من حياتنا صارت ضعيفة؟ قلت: لا، ذاكرتك ليست ضعيفة، ولكنّ آخر الأطباء الذين زرتهم نصحني بهذا المنوم بالذات، وقال إن له مفعولاً سحرياً، غير أن روحي، فيما يبدو، ما زالت عصية على السَحَرة، ففي الحقيقة أنه عقارٌ تافه، وقد توقفتُ عن تعاطيه منذ زمن بعيد، ولا أعرف كيف نجح هذا اليومَ في مهمته، أظنها مجرد مصادفة توافرت فيها عوامل النجاح دفعةً واحدة. قالت: إيمتى رح تعزمني عَ الغدا؟ - إيمتى ما بدك. - اليوم. - اليوم لأ. مشغول، عندي موعد، بيوم تاني تكرم عيونك. قالت: والله زهقانة، لا فوتة لا طلعة، لا مشوار متل الخلق، لك صرت مشتهية أركب السيارة وأطلع لأي مطرح. بتعرف؟ يمكن صرلي تلات شهور ما سقت. قلت: يعني، الظرف صعب على الجميع، وما باليد حيلة، على كلٍ منتغدا سوا عن قريب انشالله! قالت: ضروري، بعدين والله اشتقنالك، إنت ما اشتقتلي؟ - مبلى أكيد، خلص منتواصل قريبا، ومنتفق على موعد. قالت: شبك عم تقولها من غير نفس؟! - أبداً. - أبداً أبداً!! متل ما بدك، بس اللي بحب تعرفه إنو أنا مشتاقتلك عن جد. قلت: منشان شو هي عن جد؟! بعرف إنك ما بتكذبي.. انتهت المكالمة. كنت واثقاً من صدق كلام السيدة. وكنت واثقا من صدق ما قلته لها: إنتي ما بتكذبي. إنني أعرف هذه المرأة جيداً (لم أكن أعلم وقتئذٍ بالخيانة القديمة مع صديق العمر، وبقية الشرور المرافقة)، فلماذا عليّ أن أصدق فاعل الخير إذن؟ ومن هو فاعل الخير هذا؟! وما الذي يريده في حقيقة الأمر؟! ذهبتُ إلى الموعد في مقهى هافانا قبل أوانه. أنا شخص يحترم مواعيده.اعتدت أن أترك هامشاً زمنيا يسمح لي بالوصول إلى الموعد قبل أوانه بنصف ساعة. ذهبت إلى هناك مشياً. المشي يوفر عليَّ من الزمن عشرين دقيقة في هذه المسافة. حسبتها من قبلُ مرتين. أربعون دقيقةً مشياً على الأقدام. ستون دقيقة في السيّارة. في مقهى هافانا كان ثمة مصادفةٌ من العيار الثقيل في انتظاري.. ما هي المصادفة؟ كيف تأتي؟ ما أنواعها؟ ما هي المصادفة المجانية؟ ما هي المصادفة العبثية؟

ما هي المصادفة الحتمية؟ نحن نعرف كيف البشرُ يفترقون، حتى إنّ مثل هذه اللحظات محببةٌ عند الكتّاب عموماً، وكتّاب السيناريو منهم على نحوٍ خاص. أعرف الأمر من تجربتي المهنية. ولعلّها لحظاتٌ محببةٌ لدينا نحن معشرَ الكتاب لأنها غالباً ما تكون مُثقلةً بالوجع. أو: هكذا ندّعي. وربما كنا في هذا الادّعاء لا نجانب الصواب. غير أنّ هذا الصواب لا يأتي من فراغ. نحن نحسن التعامل مع الفراق لأننا، ببساطة، نملك تاريخا كاملا حول هؤلاء المتفرقين. وبالتالي نملك سجلا يفيض بتفصيلات مدهشة حول كل منهم، وعلى الأرجح: منهما. الكتابة عن لحظات الوداع سهلة. سهلةٌ ومحببة. الصعب في الكتابة هو لحظة التلاقي. كيف البشر يلتقون؟ كيف الرجل والمرأة يلتقيان؟ كيف تنشأ قصص الحب؟ إنها أصعب لحظات العمل التي واجهتني، أكان في الرواية أو في التلفزيون. انشغلتُ بهذا السؤال في فترةٍ من الفترات. ذهبت، بحثاً عن الجواب، إلى قصص الحب الشهيرة عند العرب. جميل بثينة، كُثَيّر عزّة، قيس ليلى، قيس لبنى، إلى آخر القائمة. لم أعثر في تلك القصص التي صارت خالدةً في أدب العرب ووجدانهم على لحظةٍ واحدة من الشيء الذي أبحث عنه، وإن وُجدت هذه اللحظة فإن التعبير عنها غالباً ما جاء على درجة عاليةٍ من السذاجة. القشيري يترك لنا قصيدةً طويلة تُبكي حتى الحجر وهو يرتحل عن نجدٍ وعن البنت التي اسمها ريّا، ولكننا بالمقابل لا نعثر على كلمةٍ واحدة عند هذا العاشق حول لحظة اللقاء بريّا أول مرّة. كيف رآها؟ ومتى وأين؟ ولماذا تعلّق بها؟ لا شيء من هذا أبداً. أما جميل بثينة، فليته ما نطق شيئا عن لحظة التلاقي، لأنّ ما قيل لا يليق بعاشقٍ مثله عاش قصة حبٍ تكاد أن تكون استثناءاً في قصص الحب العظيمة حول العالم.. وقلنا لها قولاً وجاءت بمثله/ لكلّ سؤالٍ يا بثينُ جوابُ.. ما الممتع في هذا الكلام؟ حتى إنني لا أراه شعراً.. وحتى لو كان شعراً، فماذا أراد أن يقول بهذا الشعر؟ هل كان مثلاً يريد أن يقول: المحبة الحقيقية تأتي بعد العداوة؟! يا إلهي!! حقيقة صغيرة يعرفها حتى الأطفال.. حقيقةٌ صغيرةٌ لا تليق بشاعرٍ من وزن جميل بثينة. والأمر نفسه ينسحب على كُثَيّر لحظة التقى عزّة أول مرّة.. ما ترويه الكتب المتخصصة بهذا الشاعر حول ذلك اللقاء

يصلح لأن يكون مزحة، لا أكثر. الذي نفد بجلده من هذه اللحظة ومتاعبها هو قيس لبنى، فالشاب وقع في حب طليقته.. أي في حبّ ماضيه.. لديه سجلٌ كامل عن الوجع.. مجنون ليلى لا يروي غليلنا في شيء.. وذو الرّمة لا يفعل أيضاً.. بحثت عن جوابٍ على سؤالي عند ابن حزمٍ الأندلسي أو القرطبيّ في كتابه الشهير (طوق الحمامة)، وجدتُ أن لكلّ سؤالٍ يا بثينُ جوابُ أرحمَ من لحظات التلاقي في تلك القصص التي يرويها ابن حزم.. قيل لشابٍ مرّةً: ممن أنت؟ قال: أنا من قومٍ إذا أحبّوا ماتوا. فقالت جاريةٌ سمعته: هذا عِذريٌ وربِّ الكعبة!. وقيلَ لفتىً من بني عِذرة: ما بالُ قلوبِكم كأنها قلوبُ طيرٍ تنماثُ كما ينماثُ الملحُ في الماء؟ أما تتجلدّون؟ فقال الفتى: إننا ننظر إلى محاجرِ أعينٍ لا تنظرون إليها.. كلامٌ رائع.. ولكن أين جميل بثينة ليقول لنا شيئاً من فتنة العينين عند بثينةَ ذاتها؟ فكلاهما من بني عِذرة.. لعلّ جميل بثينة الشاعر العِذري الوحيد الذي ينتمي بالدّم إلى بني عِذرة من بعد عروة بن حزام، ولذا كان خذلانُه لنا غيرَ مسبوق.. اختفى الشاعر يومَ حاجتنا إليه.. اختفى عند لحظة التلاقي، وحضر كالعادة عند لحظة الفراق. ولكنّ حضوره هذا، في حقيقة الأمر، فاق الخيال. فهو وحده من رفع الحجابَ عن سرِّ الهوى.. هو وحده من قال: يهواكِ ما عشتُ الفؤادُ وإنْ أمتُ/ يتبعْ صدايَ صداكِ بين الأقبرِ.. ولكي لا أظلم العاشقين عند العرب كثيرا، أعترف بأني لست مغرما بلحظة التلاقي بين روميو وجولييت عند شكسبير.. حتى لحظة تلاقي تريستان وإيزولدا فقد تم بناؤها على الغيبيات: الشراب السحري.. الحقيقة الأكيدة هي: إننا إلى اليوم لا نحسن التعامل مع مثل هذه اللحظات، لذا فإنها غالباً ما تأتي قليلةَ الصدق، قليلةَ الجذب، قليلةَ الإقناع، كثيرةَ الافتعال. وغالباً ما تكون ممجوجةً. والغالب الأعم تكون ضرباً غبياً من المصادفة، مع أن المصادفة موجودة في حياة البشر بقوة. والكاتب الذكيّ هو الذي يحسن استغلالها. وأعترف بأنني لست من هؤلاء الكتّاب الأذكياء. لقد ابتدعت لنفسي طريقةً للتحايل على هذه المعضلة المزمنة. يقولون: لكل شيخ طريقة. إذن، عليّ أن أبتدع طريقتي. كل بداية جديدة ليست إلّا نتيجة حتميّة لنهاية قديمة. ولكن نهاية قديمة لماذا؟

سؤالٌ صغير كهذا سوف يجبرك على بناء حياة (حيوات) لشخص ما، أو حتى لمجموعة أشخاص. وهذا أمرٌ شاقٌ جداً. والأنكى من ذلك أنه لن يكون له وجودٌ في متن العمل الذي أنت بصدده. بمعنى آخر: جهدٌ مجاني. ولكنني كنت أراه شراً لا بدّ منه. وكنت موفقاً في بعض المحطات مع هذا الشرّ، ولكن ليس في جميعها. مازلتُ بحاجة إلى التعلّم، رغم أنني بالأساس رجلٌ أكاديمي وأدّعي دائماً بأنني مؤَسَسٌ بشكلٍ ممتاز. أفكر أحياناً على النحو الآتي: ما المعيب في اعتماد المصافة حلاً لهذه المعضلة المزمنة؟ لماذا لا تعتمدها في شغلك وتستريح من كتابة التاريخ الذي هو لزوم ما لا يلزم؟! سأفكر بالأمر بجديّة أكثر من المرات السابقات وقد رجعتُ إلى الكتابة التلفزيونية مجدداً.. وصلتُ إلى مقهى هافانا قبل الموعد، مثل عادتي، بنصف ساعة، ولكنني وصلتها فعلاً قبل خمسين دقيقة، فهناك الزمن الذي وفّرته بالمشي. يجب إضافته إلى ما اعتدت من نصف الساعة الحتمي. جلست إلى إحدى الطاولات البعيدة قليلاً عن الواجهة الزجاجية الكبيرة. طلبت قهوةً. أشعلت سيجارة. ورحت أتأمل الناس العابرة. وجوه غائمة. خطواتٌ متهدلة. شارع بورسعيد مغلقٌ بالكامل صعوداً باتجاه بوابة الصالحية. مغلقٌ بالكتل الإسمنتية. المتاح منه هو الجزء الهابط إلى جسر فيكتوريا. بالأضافة طبعاً إلى ما يصبُّ فيه من شارع المتنبي. الوضع في هذا الشارع أفضل بقليل. ولكنّ هذا القليل لا يحمل فرحاً من أي نوع. الفرح الوحيد الذي كان حاضرا في المدينة تلك اللحظة ولدٌ وبنتٌ يجلسان داخل المقهى. كانا يجلسان متقابلين إلى طاولة صغيرة عند انحناءة المقهى مع انعطافة شارع المتنبي حين يصب في شارع بورسعيد. كان يفصلني عنهما قرابة عشرة أمتار. سعدت بتأملهما. من المؤكد أنهما لم يشعرا بنظرتي. كان بصر كلٍ منهما معلّقا بوجه الآخر. إنهما في العمر دون العشرين بقليل. كان صوتهما خفيضاً بالتأكيد. بديا لي مثلَ عصفورين يتناجيان. يا الله كم كنت بهما سعيداً!. وربما فاتني بسبب تلك السعادة ملاحظةُ المشهد كاملاً. نعم، ملاحظة المشهد كاملاً صارت عصيةً على الجميع في هذه الأوقات. سيارة سياحية حمراء اللون تأتي من شارع المتنبي، وتتوقف على نحوٍ شبه عرضاني عند الانحناءة باتجاه شارع

بورسعيد. ظلّ السائق جالساً خلفَ مقود السيارة التي انفتحتْ أبوابها وترجل منها ثلاثة رجال جِسام، ودخلوا المقهى من فورهم. ومع دخولهم انتبهتُ إلى أن اثنين منهما أشهرا مسدسين من خاصرتيهما. والذي لم أفهمه هو أنّ المسدسين لم يكونا في وضعية التصويب. توجه الثلاثة إلى العصفورين المتناجيين. القصة كلها لم تستغرق من الزمن ما يكفي لاستيعاب ما يحدث. ضربة قوية من مقبض المسدس الأول على رأس البنت. وفي التوقيت نفسه تماماً ضربة مماثلة على رأس الولد من مقبض المسدس الثاني. كلا العصفورين فقدَ الوعي. الوحش الثالث كان يحمل قيدين سرعان ما صار كلٌ منهما حول اليدين المطويتين إلى ظهر كلٍ من العصفورين النازفين. وكلُ عصفور كان خفيفاً بما يكفي لأن يحمله أحد الوحوش الثلاثة بيدٍ واحدة. خرجوا بهما من المقهى. كان السائق قد ترجل وفتح صندوق السيارة. وكان صاحب القيدين آخر المغادرين. ألقى نظرةً إلى الاتجاه حيث كنت أجلس. لم يكن ينظر إليّ أنا. من المؤكد أنه لا يبالي بي. من المؤكد أنه لا يبالي بأحد. إذن، هي ليست نظرة تحدٍ للزبائن الذين بلا حولٍ ولا طَوْل. وهكذا فإنني لم أفهم المغزى من نظرته. كان العصفوران قد صارا في القفص. أطبق السائق صندوق السيارة التي صعد إليها الأربعة الجِسام، وفتحتِ السيارة زمورها بالزعيق كما لو كانت سيارة إسعاف، ونزلت باتجاه جسر فيكتوريا. ولعنتُ ذاكرتي التي تستحضر الأشياء بسرعة قياسية. كاد المشهد الدموي أن يتحول عندي إلى كوميديا وقد استحضرتِ الذاكرة مُشهداً سينمائياً بطلُه الممثل الشهير روبرتو دي نيرو. قرر اعتزال العمل مع المافيا، وراح يبحث عن عملٍ شريف. اشتغل في معرض يبيع السيارات الفاخرة. جاءه رجلٌ وامرأة من أصحاب الحلم الأمريكي. جعل يحببهما بإحدى تلك السيارات في المعرض الفخم. راح يسرد المحاسن كلها. وصل إلى صندوق السيارة. فتحه، وقال: انظروا إلى هذا الصندوق كم هو كبير! إنه يتسع لجثتين. أعترف بأنني ابتسمتُ وأعترف بأنني كنت خائناً لذينك العصفورين في صندوق تلك السيارة السياحية الحمراء. ورأيت أنّ الخيانةَ أسهلُ الأفعال التي يمكن أن يمارسها البشر. شعرت من نفسي بالخجل بسبب هذه الذاكرة الملعونة. وعندما زجرتُ

ذاكرتي عن استحضار المزيد من الخيانة عرفت لماذا نظر الرجلُ الثالثُ إلى الاتجاه حيث كنت أجلس، فقد وقعت المصادفة العجيبة أخيراً. كان ثمة رجلٌ يجلس وحيداً إلى طاولة خلفَ طاولتي. على الأرجح أنه كان يجلس إلى الطاولة الوحيدة فوق المسطبة الصغيرة المشرفة على المقهى كاملاً بمستوياته الثلاثة.. عرفت لاحقاً أنه كان المعنيَّ بتلك النظرة، وعرفت أيضاً أنّ العملية كلها قد كانت بإشرافه. ها هو يقترب مني وأنا لا أراه طبعاً، وها هو يضع يده على كتفي، ويقول: مرحبا أستاذ حسن! رفعت بصري إليه، وقلت في نفسي: غير معقول! إنه هو.. ضابط الأمن المتقاعد.. إنه المختار.. قال: تذكرتني طبعاً. قلت: ولو! وهل يخفى القمر؟! قال: طيب أنا مين؟ قلت: شو هالسؤال؟! إنت ضابط الأمن اللي انتحل صفة المختار.. قال: هادا كان زمان. قلت: خير انشالله؟! في شي جديد؟ قال: طبعاً، في شي جديد، دائماً في شي جديد. قلت: لأ ماني متذكر أي شي جديد. قال: إذن، ما عرفتني. قلت: يبدو الذاكرة ما عادت شباب. قال: أنا فاعل الخير. - آ.. معقول؟! بس اللي حكى معي كان شب، ما كان صوتك أبداً. - صح، اللي حكى معك واحد من الشباب اللي عندي، وأنا كنت قاعد جنبه لحظة الاتصال. - شو هالصدفة العجيبة!! أهلا وسهلا! - ممكن أقعد لحظة؟ - طبعاً، ولو! ما أنا أصلاً عم دوِّر عليك.. تفضل! جلس. قلت له: معقول إنت يا رجل؟! والله سممتلي عيشتي. قال: بالعكس، أنا خايف عليك. قلت: طيب شو رأيك نعمل صفقة أنا وإنت.. قال يقاطعني: صفقة شو اللي ممكن تعرضها عليّ؟ نتبادل الأدوار؟ أصير أنا كاتب وإنت ضابط أمن؟! - عندك رغبة تصير كاتب؟ - بصراحة؟ - ما بدك تبطلها هي الصراحة؟! - يا الله على خفة دمك يا أستاذ!. بس يا ريتني كنت كاتب!! بالأول خليني أعترفلك إني أكبر المعجبين بمسلسل الانتظار. أظن إنه هادا أهم مسلسل بتاريخ سوريا. والدليل إني تمنيت صير كاتب لما شفت هالمسلسل.. وسألت نفسي: هل بعد هذا من دليل على أهمية مسلسل الانتظار؟! قلت: شكراً على هالرأي، بس، وقبل ما ندخل بحكاية الخير والشر، قوللي من فضلك، شو اللي صار من شوي هون بالقهوة؟ أكيد إلك علاقة. أكيد بتعرف شو اللي

صار. واضح إنك رجعت للخدمة. فيا ترى شو الحكاية؟ قال: صار متل ما شفت. قلت: اللي شفته كان الدم. قال: الدم أحياناً ضرورة. - ضرورة لشو؟ - لمّا الوطن بيكون في خطر ما لازم نلتفت لشوية دم. - والوطن الآن بخطر؟ - شو هالسؤال الغريب يا أستاذ؟! - آسف! يبدو إني طرحت السؤال بشكل ضبابي. سؤالي هو: الوطن بخطر من هالطفلين؟ - طفلين!!! ممكن أشوف جهاز الموبايل اللي معك؟ - ممكن. تفضل! - أظن هادا أحدث جيل أنتجته شركة سامسونج. - جايز، ما بعرف. - وإنت قلتها. ما بتعرف. وبرجح كمان إنك ما بتعرف تستخدمه. - استنتاجك إلى حد بعيد صحيح. - مع إنك مانك طفل. مع إنك كاتب واسم بالبلد وخبرتك بالحياة كبيرة أو حتى كبيرة كتير. ليش عم تطلع فيني هيك؟! أكيد ما عم تربط كلامي ببعضه. أنا بصراحة اعتمدت على ذكاءك، فلا تخذلني.- يبدو إني ماني ذكي للحد اللي متصوره عني.- الحقيقة يا أستاذ، الطفل اللي لازم نحافظ عليه من الأذى هو حضرتك. وأرجو تكون فهمتني أخيراً. - تحافظ عليه من مين؟! - من هدول اللي سميتهن طفلين، وزعلت على شوية الدم اللي شفته منهن. هدول يا أستاذ موبايلك المتطور هاد ما بيرضوا فيه لعبة بين إيديهن. - هالمرة عن جد ما فهمت. - الحقيقة إنك ما بدك تفهم. عندك موقف سلفي من اللي شفته، وهالموقف هاد عم يكون حاجز بينك وبين الحقيقة. هدول الولدين قادرين يشغلوا محطة فضائية وهن قاعدين ببيوتهن. - ما بعرف ليش ما عندي رغبة أضحك. بعدين حتى لو اللي عم تحكيه صحيح، وين الغلط؟! هادا زمنهن وهي أدوات هادا الزمن. بالعكس، لازم نشجعهن. - نشجعهن على شو؟ - على تطوير أدواتهن طبعاً. - بغض النظر كيف رح يستخدموها؟ - ممكن أعرف شو صارت رتبتك؟ - قلتلك فاعل خير. - حاضر. شوف سيدي فاعل الخير: بتقدر تقول للطبيب الجرّاح إنه ما يستخدم المشرط بغرفة العمليات؟ - مثالك مو ضابط. - مبلى زابط. المشرط ممكن يكون وسيلة للقتل لما بيصير بين أيادي مجرمين، لكن بنفس الوقت هو وسيلة لننقذ فيه حياة البشر في غرفة العمليات. - صح، لذلك عم قول إنه مثالك مو زابط. - مبلى، مثالي زابط. المشكلة بيني وبينك بهاللحظة إنو تنيناتنا متفقين على وجود

المشرط، لكننا مختلفين على الإيد اللي ماسكته. - بفهم من كلامك إنك ضد النظام؟ - بالعكس، أنا مع النظام، ولأني مع النظام ماني موافق على الشي اللي حصل قبل شوي مع الولدين. - شو هالحزورة هي؟! - والله العظيم مانها حزورة. الحكاية وما فيها إنو إنت عطيت لنفسك صلاحية تحديد هوية المجرم وهوية البريء. - شو عم تحكي يا أستاذ؟! ما أنا هي شغلتي. - لساتنا مختلفين. اللي أنا بعرفه إنو هادا من اختصاص العدالة. - ونحن الأمن شو؟ مو نحن العدالة؟ - لأ طبعاً. إنتو من الأدوات اللي بتستخدمها العدالة لتحقيق الغرض اللي عم تشتغل عليه. - معناتا إنت ضد النظام. - عجيب إنك عم توصل لهالصيغة التقريرية حول هويتي. اترك للعدالة فرصة تقول كلمتها. ليش عم تحط نفسك مطرح القاضي، إذا مو مطرح الله نفسه؟! - لأنه لما الوطن بيكون بخطر. - بشرفي ما بحب هي الكلمة اللي اسمها وطن، قلت مقاطعاً، وبالمناسبة في كلمة تانية كمان ما بحبها: التعايش، بتذكرني بالمريض اللي بدو يتعايش مع مرضه، لذلك أرجو إنك ما تستخدمها قدّامي. - لكان شو بتحب؟ بقصد أي كلمة؟ - بحب كلمة البيت، بحب كلمة العيش. - إنت يا أستاذ رومانسي كتير. هالشي واضح بمسلسلاتك. وحماية البلاد مو من اختصاص الرومانسيين. ثم بتقول إنك ما بتحب كلمة الوطن. ماشي. عندك حساب بالبنك ولا لأ؟ - مع إني مو فهمان غايتك من السؤال، بس الجواب: إي عندي. - ببنك حكومي ولاّ خاص؟ - حكومي. - بالليرة ولا بالدولار؟ - بالليرة. - المبلغ كبير؟ - حسب زاوية الرؤية. الشخص الثري ممكن يشوفه مبلغ تافه، والشخص الغلبان ممكن يشوفه ثروة كبيرة جداً. - والحساب موجود من قبل الأزمة؟ - نعم، لوين بدك توصل؟ - وكنت عم تتفرج عَ الليرة وهي عم تنهار؟ - نعم، وبعدين؟ - ليش ما سحبت فلوسك وحولتها لدولار أو يورو؟ - الحقيقة ما بعرف بالضبط ليش. يمكن لأني بحب الليرة أكتر من الدولار. - لكن أغلبية الناس سحبت فلوسها السورية وحولتها لعملة صعبة وربحت مبالغ هائلة. يعني كان ممكن تضاعف المبلغ اللي بتملكه ست سبع مرات وبلحظة وصل الربح لتسع مرات، أو حتى أكتر. ليش ما عملت متل هالناس؟ - قلتلك ما بعرف. يمكن لأني ما

بفكر بعقلية تاجر. ممكن إني ما بحب يجيني فلوس ماني تعبان فيها. هيك فلوس حتى ما رح أستمتع بصرفها، وأنا بحب أستمتع بصرف المصاري. الأسباب كتيرة. - لا أبداً. هو سبب واحد: إنك بتحب الوطن، على عكس ما قلت قبل شوي.- هههههه.. أنا قلت ما بحب الكلمة. والفرق كبير بين اللي أنا قلته وبين استنتاجك بعد كل هالأسئلة اللي أظنك ما كنت بحاجة لإلها لأنك أكيد كنت قادر تعرف هالمعلومات ببساطة. - صح. بعرف الأجوبة. بالأحرى قادر أعرف الأجوبة، لكن كنت بدي أسمعها منك إنت. كنت بدي أسمع منك إنك تركت فلوسك بالبنك من خوفك على عملة الوطن.- أقولك رأيي الرومانسي بصراحة: عملة الوطن الحقيقية هي هدول الولدين اللي رميتوهم بصندوق السيارة، واللي الله أعلم شو رح يكون مصيرهم. - يا سلام! - بالضبط. - هلق إنت آخد راحتك معي بالحكي تماما. مانك خايف على حالك؟ - على ذكر الخوف، من كام يوم الساعة تلاتة بعد نص الليل رن الجرس عندي بالبيت. مرة، تنتين، تلاتة، أربعة.. إنتو؟ -لأ. - أكيد؟ - شو هي أكيد؟! شو خجلانين منك لما بدنا نعتقلك؟! - لما بدكن تعتقلوني؟! يعني هيك احتمال وارد؟ - إلى الآن لأ. - بضمانة شو؟ - ما في ضمانات سوى إنو ما عندك أي نشاط معادي للوطن. زائد.. يعني. فلسطينيتك إلى حدٍ ما بتشفعلك. - فلسطينيتي؟! بس ما شفعتْ لمخيم اليرموك. قصدي فلسطينيته للمخيم. - مو نحن اللي محاصرين اليرموك. فصائل فلسطينية بين بعض. ليش عم تبتسم؟! ما في شي من الصحة بكلامي؟ ثم إنت مو مخيم اليرموك. إنت كاتب فلسطيني. بتعرف كيف رح تكون صيغة الخبر العاجل؟ اعتقال الكاتب الفلسطيني. يعني إذا بينوجد فلسطيني بالأسكيمو وبيسمع الخبر بدو يحتج علينا أكتر من احتجاجه على حصار مخيم اليرموك. ليش عم تعتقلوا كتّابنا؟! مع إنه على الأرجح ما بيكون سمعان باسمك من قبل. ما قلتلي: شو عملت مع الجرس؟ - ولا شي، سوى إني ما فتحت الباب. - برافو! وإياك تفتح بالمستقبل. وإذا بتعمل قفل إضافي بيكون أحسن، وإن كنت خايف ممكن نفكر بشكل من الحماية. - بالبداية خفت شوي، وبعدين تجاوزت اللحظة. - كمان برافو!. سحبت

السيارة؟ قلت: لأ. - ليش؟ - يعني.. - يعني شو؟ ليش سكتت؟ - الأمور ما بتتم بهالفجاجة. - الفجاجة؟ - امرأة جيدة، وأنا بعرفها منيح. - جايز معرفتك هي صار بدها فرمتة. - وجايز إنو جهاز الكومبيوتر اللي عم تعتمدوا عليه بدو فرمتة.- هي ما فهمتها. اشرحلي ياها.-قديش في ناس اعتقلتوهن بسبب تشابه الأسماء؟ - شوجاب هيك سيرة؟ - اللي جاب السيرة إنو هي المرا ما كانت عشيقتي في يوم من الأيام لأنها ببساطة كانت زوجتي. عم قولك جهاز الكومبيوتر تبعكن بدو فرمتة، مو منشان شي، بس منشان ما تعتقلوا بالمستقبل حدا بريء لأنه اسمه بيشبه اسم غير شخص، حاكم نُص الأسماء عند العرب بيشبه النص التاني.- وعلى فرض مانها عشيقتك، هادا كل شي أخدته من نصيحتي لإلك؟! عجيب أمرك يا أستاذ! ما كلفت خاطرك تحسب حساب الأذى اللي ممكن يصيبك من بعد هالتحذير؟!- وليش الأذى من أصله؟! - إنت بتعرف سيارتك بهاللحظة وين موجودة؟ - أكيد لأ. ما بعلم الغيب. - المشكلة إنه هادا الموضوع بالنسبة إلنا مانو غيب. هادا يقين. - إي؟ - السيارة بهاللحظة هي موجودة في داريّا. - داريّا؟! - يعني عند الإرهابيين. - شو عم تحكي إنت؟ - ما بتحب تعرف شو عم تعمل عند الإرهابيين؟ - إرهابيين شو وداريا شو؟! شو بدو ياخدها لهنيك؟ - البزنس.- عفواً؟! - لا عفواً ولا شكراً.. السيارة عم تشتغل ببيع البنزين للعصابات المسلحة، بتعبي بنزين رخيص من كازيات الحكومة وبتبيعه للعصابات بأرباح خيالية. - رزان؟!!! - لأ مو رزان. عشيقها لرزان. اسمه سليم. بتعرفه؟ - لأ. - ونحن هيك قلنا. بيشتغل شرطي عنا بالحكومة. - كمان؟! - إي والله كمان. - وليش تاركه لهادا الشرطي وجاي تحقق معي أنا؟! - هلأ هيك عم حقق معك؟. أصلاً لقائنا كله صار بالصدفة. - الصدفة اللي متل ما تكون موعد. - معك حق. ما عاد في بحياتنا صدف. كلها مرتبة. - بس ما جاوبتني: ليش تاركينه للشرطي؟ - تاركينه ليستوي. بعمرك لا تقطف عن الشجرة حبة فاكهة عجرة. - أوف أوف!! وجدتني أنفخ مهموماً وأنا أتمتم: ليش ما سحبتت فلوسك! ليش ما سحبت سيارتك! ليش انسحبت من بيتك! ليش ما سحبت حالك ومشيت! ليش ما. ..- تصطفل، قال مقاطعاً، ذنبك

على جنبك. بس ممكن تدفع غالي فجأة نتيجة هي اللامبالاة. - هي مو لامبالاة، بالعكس. جايز عندي حبة كسل. جايز. بس أكيد مو لامبالاة. ثم ما أظن رح تصل الأمور معكم لهالدرجة. - ما بتعرف شو بيطلع براسنا فجأة. إلى الآن إنت زلمة عاقل. يمكن ما بتحبنا، لكن بنفس الوقت، ما إلك نشاط معادي، حتى صفحتك ع الفيس فقيرة. شوية أطفال مشنططين هون وهون.. شو أخبارهم؟ - متل ما وصفتهم: مشنططين. مشردين بهالدنيا. كل واحد بديرة. طحين بالشوك. يا ريتني كنت لامبالي متل ما وصفتني قبل شوي!! - بسيطة بسيطة. قربت تنحل انشالله. بالمناسبة، إنت ليش ما بتحبنا؟ - ما فهمت شو يعني ما بتحبنا. ما بحبك إنت شخصياً؟ على سبيل المثال طبعاً. ولا ما بحب هالكرسون المعتر؟ ولا ما بحب الولد والبنت اللي ضربتوهم بهالعنف، واللي تهمتهم، حسب ما قدرت أفهم منك، إنهم ناشطين إعلاميين بالمعارضة؟ ولاّ هالناس التعبانة اللي مارقة بالشارع؟ ولاّ جيراني الدراويش بالحارة؟ يا ريت تحدد بالضبط شو ومين وكيف!- ما عندي رغبة صدق إنك ما فهمت، ومع ذلك، خليني أطرح السؤال بشكل واضح. تعال نتحدث بود. إنسى إنو أنا ضابط أمن، ولا تنسى إنو إنت كاتب. شو هي اعتراضاتك على النظام؟ وأرجو إنك تتحدث بكل أريحية.. كان السؤال مفاجئاً لي. وبما أنني لم أكن أعرف حدود الأريحية التي يقترحها الرجل فقد آثرت السلامة، وكررت مثل الببغاء ذلك السؤال الذي طرحه قبلي عديد المثقفين السوريين على عديد المسؤولين السوريين، من دون أن ينتج عنه أيةُ عواقبَ غيرُ حميدة. قلت: "سوف أسألك أمراً وحيداً." "تفضل! وخذ راحتك تماماً" لماذا منذ عام 1963 يسري العمل عندنا بقانون الطوارىء؟" " ألا تعرف لماذا؟!" "لا، لاأعرف." "فعلاً لا تعرف؟" "فعلاً لا أعرف. أنا جاهل. نوّرني أنت." "يسري العمل عندنا بقانون الطوارىء لأننا في حالة حرب." "نحن في حالة حرب مع من؟" "شو هالسؤال الغريب يا أستاذ؟!" "قلت لك أنا جاهل. نورني أنت." نحن في حالة حرب مع إسرائيل طبعاً." "هادا يعني إنّه إسرائيل في حالة حربٍ معنا." "طبعاً." "إذن، ليش لا يسري العمل في إسرائيل بقانون الطوارىء؟" هنا ضحك الرجل قائلاً: "إنتو

المثقفين مصيبة المصائب." قلت: "هادا صحيح." وسألت: بالمناسبة مرة تانية، شو صارت رتبتك؟." قال وهو يبتسم: "لساتني فاعل خير." - عم أسأل عن جد. - وعم جاوبك عن جد. - متل ما بدك! ابتسمت أنا أيضا، وقلت: سوف أروي لك قصةً. قصة وقعتْ لي أنا بالذات، ومعي أنا بالذات. كنتُ أنا بطلها أثناء خدمةِ العلم. كان نهاراً ربيعياً. خدمتُ العلم برتبة ملازم. كنتُ في ذلك النهار الربيعيّ ضابطاً مناوباً في الكتيبة. وموقع كتيبتنا ليس بعيداً عن الجبهة. ومن اختصاصات الضابط المناوب، كما تعلم، الإشرافُ على طعام جنود الكتيبة المناوبين. الإشراف على استلام الطعام في مطبخ اللواء الذي تعمل الكتيبة ضمن حدوده. ذهبتُ مع بعض الجنود إلى المطبخ العملاق في سيارة الضابط المناوب. كان الطعام في ذلك اليوم لا يليق بالكلاب، فكيف يليق بحماة الديار إذن؟! ومشكلة القائمين على المطبخ معي، أو مشكلتي أنا مع القائمين على المطبخ تكمن في أنني مطّلعٌ على مخصصات الجندي اليومية من البروتينات، والنشويات، والسكريات، إلى أخر العناصر الغذائية الضرورية للبشر، والشباب منهم على نحوٍ خاص. وهذه المعرفة متاحة للجميع كما تعلم، فهي موجودة في منشورات كثيرة متعلقة بالجيش، وليست تدخل ضمن الأسرار العسكرية، بل تدخل في باب التعريف بالحقوق والواجبات. من حق الجندي الواحد أن تتضمن وجبة الغداء الواحدة الخاصة به مئة غرام من اللحم الأحمر، ضمن الوجبة التي غالباً ما تكون نوعاً (أو أكثر) من الخضار المطبوخة بالإضافة طبعاً إلى الأرز والخبز والفاكهة المتوافرة، حسب الموسم، والتي يمكن استبدالها، حسب الموسم أيضا، بنوع من الحلوى الشامية. وبما أنني كنت طوالَ عمري مؤمناً بوجود الفساد حيثما وُجد الإنسان، فإنني كنتُ، ومازلت، مستعداً للقبول ببعض الخسارة في بعض القيم المنصوص عليها في هذه اللوائح أو تلك من هذا المكان أو ذاك. أظن أنّ جميع البشر مستعدّون دائماً لبعض الخسارة من أجل أن تستمر عجلة الحياة بالدوران. حتى تمثال الحرية في نيويورك لم يُبدِ عتراضاً قوياً على فساد رئيسه المنتخب من الشعب حين كذب ذلك الرئيس تحت القَسم في قضية الآنسة مونيكا لوينسكي، وما تعرضتْ له تلك الآنسة

من تحرشٍ جنسي من قبل سيد البيت الأبيض الوسيم طيب السمعة: بيل كلينتون. يبدو لي أنّ هذه هي طبيعة الأشياء. ومحاربة هذه الطبيعة لن تكون أكثر جدوى من حرب دون كيشوت المعلنة على الطواحين الهوائية. كنتُ في ذلك النهار الربيعي مستعداً للتنازل عن عشرة من مئة من حصص جنودي المناوبين معي في الكتيبة، نعم، إنني مستعد لقبول بعض الخسارة، ولكن ليس الخسارة كلها. كنت مستعداً للتوقيع على أنني استلمت المستحقات كافةً، ومع بعض الزيادة أيضا. ولكنني لم أكن مستعداً لقبول خسارةٍ تصل إلى ما يقارب مئة من مئة. هذا ليس عدلاً، فذلك الشيء الذي طلبوا مني في المطبخ التوقيع على استلامه لم يكن طعاماً. كان مرقاً مصبوغاً بلون ما أقرب ما يكون إلى البنفسجي. وكانت النتيجة أنني رفضت التوقيع، بل ورفضت الاستلام. ورجعت إلى الكتيبة، وقلت للجنود: ما في غدا اليوم، وكل واحد يدبر راسه. بعد يومين على تلك الحادثة استدعاني قائد اللواء إلى مكتبه فوراً. نفّذتُ الأمر، وذهبت إلى مكتب سيادته فوراً. كان عنده ضابط الأمن في اللواء، ورتبته رائد. أما قائد اللواء فكان برتبة مقدم. لم يقل لي: اجلس. وهذا ليس من عادته. بقيتُ واقفاً أمامه باستعداد. وهذا ليس من طبعه. لقد دخلت هذا المكتب عديد المرات. وقد تناقشت مع سيادة المقدم في شؤون كثيرة على علاقة بالشعر واللغة العربية، بل حتى بالأدب العالمي أيضاً. وكان يعاملني ندّاً له، رغم إحساسه بالدونية أمام معرفتي التي كان يعتبرها كبيرةً جداً في مسائل ثقافية مختلفة لا يقدر فيها على مجاراتي، ولكنه كان يعترف أحياناً بأفضليتي المعرفية، ويقول: طبعاً لازم يكون في فرق بيناتنا، أنا ما عندي ماجستير متلك. ولكنّ هذه هي المرة الأولى التي يضع فيها سيادته الاعتبارات الثقافية على الرف. الحقيقة أنني كنت معجبا باجتهاده واهتمامه بالثقافة إلى جانب اهتماماته العسكرية. كان ضابطاً محترفاً بكل ما في كلمة الاحتراف من معنى. وكان مع ذلك يهتم بالثقافة، ولم يسبق له مرّةً أن عاملني بهذه القسوة. يضع فجأة جميع الاعتبارات الثقافية على الرف، ولا يقول لي: اجلس يا ملازم حسن. ما هذا؟ سألتُ نفسي. هل أنا في محكمةٍ عسكرية؟ في محكمةٍ ميدانية؟ ما هذا الذي يحدث؟ صحيحٌ أنني الأصغرُ سناً بين

الحاضرين، والأدنى رتبةً، إلاّ أنني مع ذلك أبقى ضابطاً وأستأهل معاملة أفضل من هذه. وأحمل درجة علمية ليست صغيرة. أم تراك نسيت يا سيادة المقدم؟ أيها السيدان! احترما درجة الماجستير التي نلتها بجدارة، حتى إنني حصلت على علامة (ممتاز) بعد أن دافعت عن أطروحة التخرج بثبات جعل كبير أساتذتي يقول لي: أنا فخورٌ بك يا بنيّ! وحتى لو كانت هذه الاعتبارات كلها غير مهمة، فإنّ القضية التي وضعتني في هذا الموقف مهمةٌ جداً، بل وخطيرةٌ أيضا. وهي بالتالي تستأهل النقاش الهادىء، وليس الأحكام المسبقة. إنهم يسرقون طعام الجنود سيدي المقدّم. إنْ كنتَ لا تدري بالموضوع سيدي المقدم فتلك مصيبةٌ، وإنْ كنتَ تدري فالمصيبةُ أعظمُ. قال لي سيادة المقدم: شو هادا اللي عملته بالمطبخ يا ملازم؟ - عملت اللي كان لازم ينعمل سيادة المقدم. - ومين اللي قرر إنو هادا اللي كان لازم ينعمل؟! - أنا سيادة المقدم. أنا كنت الضابط المناوب، يعني كنت الشخص المسؤول، وأنا بتحمل نتائج قراراتي اللي ارتئيتها بهديك اللحظة سليمة. رفع المقدم عن سطح الطاولة مجموعة من الأوراق الكبيرة ولوّح لي بها قائلاً: بتعرف شو هي؟ قلت: قادر أتصور إنها تقارير مخبرين في المطبخ. قال المقدم: أصغر تهمة ضدك بهالتقارير بتوديك لسجن تدمر العسكري. قلت: ذهابي لسجن تدمر ما بيحل المشكلة. المشكلة سيادة المقدم إنو في مين عم يسرق طعام الجنود. وهادا الموضوع اللي لازم ينوجدله حلول، وبسرعة. تدخل ضابط الأمن، وقال: وحياتك سنضرب من دون رحمة وبيد من حديد. أنهى قائد اللواء جلسة المحكمة حين قال لي وهو يمزق تقارير المخبرين: عندك خمستاشر يوم، انصرف لوحدتك. أديّت التحية العسكرية وانصرفت. طاردني صوت ضابط الأمن: ملازم حسن انتظرني برا دقيقة. وانتظرت قرابة دقيقتين خارج المكتب، وأطلّ سيادة الرائد بعدهما، وقال من فوره: سيادة المقدم بيحبك وبيحترمك. - قلت: بس ليش عقوبة الخمستاشر يوم لو كان بيحبني وبيحترمني؟! قال: منشان ما يصيروا ستاش. احمد الله إنو انتهت القصة على خمستاش. اللي عملته اسمه تمرد، يعني كان ممكن يحولك لمحكمة عسكرية. المهم، أنا إلي عندك طلب. - خير؟ - عندكن بالكتيبة شب درويش

بيهمني أمره، واللي فهمته إنه المراسل تبعك انتهت خدمته وتسرح، فياريت تجيبه لهادا الدرويش مراسل عندك! اسمه حمدون عبدالله. - تكرم سيادة الرائد! اعتبر الموضوع منتهي.. كان فاعل الخير ينظر إليّ بضجر.. يبدو أنني أصبته بالملل تماماً. من الواضح أنني راوٍ سيء.. كيف كتبتُ مسلسل (الانتظار) الذي كان فاعل الخير قد أبدى به إعجاباً غير مسبوق لدرجة أنّه تمنى أن يصير كاتباً؟! أنا نفسي شعرت بالضجر من روايتي الهزيلة. صرتُ بحاجة إلى معجزة لإخراجي من هذا المأزق. بالعادة نلجأ أثناء الكتابة إلى واحدة من مجموعة حلولٍ جاهزة. رنين الموبايل مثلاً أحد هذه الحلول. هذا في الكتابة. أما أن يتآمر الواقع، أو بالأصح: يتواطأ لإنقاذك، فهذا أمرٌ أكثر من رائع. رنّ موبايل فاعل الخير. ردّ على المتصل: أيوا؟.. مفهوم. أوكي. وأغلق الخط، ونهض، وقال: مضطر أمشي. وأصرّ على أن يدفع ثمن القهوة التي شربتها، وقال مبتسماً: مو على حسابي، ضيافة من حكومة الجمهورية العربية السورية. وصافحني، وانصرف. ووجدتني سعيداً بمغادرته، ومضطراً قبل ذلك على التوقف عن سرد القصة التي وقعت لي مع المطبخ الذي كانوا يسرقون فيه طعام الجنود. أرجو المعذرة! التوقف ناتجٌ عن خللٍ من المصدر. سأحاول معاودة الإرسال في وقتٍ لاحق. إلى أين ذهبتَ يا فاعلَ الخير؟! سوف أترك الحديث عن الجيش وأذهب إلى مكان آخر. جامعة دمشق من عمر جامعة القاهرة تقريباً. كلاهما قديم. ولكنْ لا أثر لكليهما بين أفضل خمسمئة جامعة حول العالم.عديد الجامعات الإسرائيلية متوافرة بين المئة الأولى. هل أستمر في المقارنات التي مثل السجائر تسبب أمراض القلب والشرايين؟ هل أتحدث عن مآخذي على النظام في مصر بدلاً من سوريا؟ هل هذا مسموح في لوائحكم؟ يبدو أنه ممنوعٌ أيضاً. بحكم الأُخوّة على الأقل. أخوّة التخلف. إذن، ليس لديّ اعتراض على أحدٍ بينكم. أعترض على التخلف، فقط على التخلف. فهل هذا مسموح؟ إلى أين ذهبتَ يا فاعلَ الخير؟! الحقَ أقول لك: إنه زمن العار.. يبدو أنني سأكون مجبراً بعد حينٍ قريب على الإيمان بأنّ اليهودَ شعبُ الله المختار حقاً. أما الآن فإنني على استعدادٍ للإيمان بالتآمر السويدي على الفلسطينيين لولا أني رأيت وسمعت ما

ينقض ذلك تماماً خلال سبعةٍ وعشرين يوماً قضيتها في ذلك البلد. وحتى لو أنّ ما رأيتُ وما سمعتُ كان مخادِعاً، يظل عدمُ إيماني بمثل هذه المؤامرة السويدية قوياً، والسبب في ذلك بسيطٌ للغاية: هل حق العودة مرتبط بالبعد عن فلسطين أو بالقرب منها؟ وقبل هذا: هل الفلسطينيون في البلدان العربية يمارسون فعلاً حقّ الحقِ في المطالبة بحق العودة؟ أظن أن مجرد البحث عن أجوبة على أسئلة كهذه لن يكون إلا مضيعةً للوقت، أو حتى مثارةً للسخرية. وأستطيع أن أجزم بأكثرَ من ذلك: إن الفلسطيني في السويد وفي الغرب عموماً (مستفيداً من الحقوق المكفولة بالدساتير والمحمية بالقوانين) قادرٌ- وإنْ لم يفعل فهذا ذنبه هو وليس ذنب السويد بحالٍ من الأحوال- على المطالبة بحق العودة أكثرَ بمليون مرّة من الفلسطيني المقيم في دول الجوار الفلسطيني، حيث تسود ديكتاتورياتٌ لا تفصّل القوانين إلاعلى مقاس أقدامها.. أشعلتُ سيجارة ثانية، وطلبت فنجاناً آخرَ من القهوة في انتظار أحمد الذي حضر في تمام الرابعة. ناقشته بالذي يؤرقني، واتفقنا على استعادة السيارة من رزان بسرعة، وبيعها بسرعةٍ أيضاً. وهذا ما حصل. كانت السيارة مهبّشةً تماماً. هذا ما قاله لي أحمد على الموبايل من بعد أن استعادهامن رزان. قلت له: أرجو أن تبيعها بأي ثمن.لا أريد أن أراها.

استوقفني على الرصيف، وقال لي:

ما تذكرتني أستاذ؟

كان متهدلاً، رثَّ الملابس، ومن دون أسنانٍ أمامية في فمه

ظننته في الحقيقة متسولاً

وأعترف بأنه أثارَ عندي نفوراً

وقلتُ في نفسي لنفسي:

السؤال التاني رح يكون:

معك ميتين ليرة أستاذ؟

قلت له:

لا والله بلا زغرة ما تذكرتك.

اشتغلنا أنا وحضرتك فيلم سوا.

أنا وإنت؟ أي فيلم؟

فيلمك الأول: غابة الذئاب.

الحقيقة هادا كان فيلمي التاني. وإنت شو اشتغلت بغابة الذئاب؟

كنت عامل إضاءة بالفيلم، مع الأستاذ جورج الله يرحمه. أحلى مدير تصوير بتاريخ سوريا.

وهنا وفي لحظةٍ قصيرةٍ جداً تشقلبتْ نظرتي إلى هذا الإنسان الذي يقف أمامي، رُغم أنّ جورج لطفي الخوري لم يكن لي صديقاً. غيرَ أنّ علاقتي به كانت طيبةٌ.. ولم أعد أخشى إلاّ أن يكونَ السؤالُ التالي: معك متين ليرة أستاذ؟.

اشتغلنا فيلم سوا

هذه النديّةُ رائعة

يجب الحفاظُ على تماسكها

لا يجوز أن يكون السؤالُ التالي: معك متين ليرة أستاذ؟

شعرت بأنّ العالمَ كلَّه سوف ينهار عندئذٍ

كان ثمّةَ انفجاراتٌ في البعيد القريب. وكان ثمّةَ طائراتٌ حربيةٌ في السماء، وأشعةُ الشمسِ كانت عاموديةً على رؤوسنا.

وجدتني أمسك الرجل بذراعه مثلَ صديقٍ عتيق، وأسحبه برفقٍ إلى الظلِّ وأنا أقول:

تعيش وتترحم.. تعال نوقف بالفي

وحضرتك لسه كنت شب زغير، والصبايا بيحوموا حواليك.. بصراحة كنا نحسدك.

اتركني من الصبايا، واحكيلي عن حالك.. شو عامل هالأيام؟

والله ولا شي يا أستاذ. البلد شوفة عينك. شغل ما في. وحتى لو في شغل ما بياخدوني. بتعرف أستاذ، الإضاءة بدها شباب.

طيب شو بتعرف تشتغل غير الإضاءة؟

ولا شي. مصلحة حبيتها طوال عمري.، وما خطرلي يوم أتركها، قامت هيِّ تركتني.

وكيف عم تدبر أمورك؟ من وين عم تصرف؟ وخاصة بهالغلا؟

مستورة أستاذ.

قديش يعني مستورة؟

والله يا أستاذ ما بعرف شو بدي جاوبك.. مستورة.. الحمد لله.

يا سيدي دائماً الحمد لله.. لكنْ قوللي: أنا كيف بقدر أساعدك؟ أحكيلك مع شي منتج؟ مخرج؟ مدير تصوير؟ قصدي منشان شغل، أو بقدر أساعدك بطريقة تانية مثلاً؟

ومن جديدٍ تشقلبتْ حالي، وصرت أتمنى لو أسمع منه:

معك ألفين ليرة أستاذ؟.

ولكنه لم يقلها

أطلتُ معه الحوار عَمْداً

حدّثني عن ابنه الذي يخدم العَلَمَ، والذي لا يعرف مصيرَه

عن بيته الذي هجره تحتَ القصف

عن ابنته الجامعية التي رسبت للمرة الثانية في امتحانات السنة الثالثة

مع إنه البنت شاطرة.. لكن الظرف شوفة عينك

عن زوجته التي لم تمت بالقصف، فماتت من الحزن على بيتها المهدوم

عن إيجار المنزل الذي يكسر ظهره

والله أنا لا بدي بيت ولا بدي حيط.. مستعد نام بالشارع.. بس عندي صبية.. شو أعمل؟

حدثني بأشياء كثيرة

ولكنه لم يقل لي أبداً ما قد كرهتُ، أو ما قد تمنيتُ سماعَه

2015 12 - 16

الأرق

يقولون عني إنني كائنٌ ليليّ. جميع من عرفني، عن قرب، في هذه الحياة ينعتني بهذه الصفة. أنا الذي لا ينام الليل. زرتُ عديد الاطباء لهذا الأمر. أعييتُ ذلك العديد كلّه. أعييتهم إلى حد الاستسلام. سألني آخر من زرته منهم: "هل تمارس حياتك بشكل طبيعي؟" "نعم." "إذن، هكذا خلقك الله، فلا تراجع أي طبيب بعد اليوم." "شكرا!" وانصرفتُ. كانت هذه الزيارة قبل خمس سنوات تقريبا. كنت- وما أزال- أسهر كل ليلة حتى الشمس، أو حتى ما بعد الشمس، ثم لا أبالي إن أغفيت ساعة من الزمن أو إن خرجت من المنزل لغرض ما. كنت أقضي الليل غالبا في أحد أمرين: الكتابة (وأمزق في الصباح أكثر الورق الذي كتبته في الليل)، أو السهر في دمشق القديمة (ودمشق القديمة هي الجزء المفضل عندي من العالم). ولم أكن أتوقع أن تأتي عليّ هذه الاوقات السوداء التي نعيشها الان.؟ سهرَ اليومَ في دمشق بعدما انقلبتْ من مدينة لا تنام الليل إلى مدينة لا تسهر في غير النهار. هذه مشكلة عويصة بالنسبة إلى رجل مثلي تصادق مع السهاد طوال حياته. وهناك مشكلة عويصة ثانية: إنني لا أكتب، رغم أن الكتابةَ (التلفزيونية) مهنتي ومصدرُ دخليَ الوحيد. منتجو الدرامة التلفزيونية المتبقّون في البلد لا يسألون عني، ولهذا فإنني غائب عن الشاشة منذ مسلسل (الغفران) الذي انتهيت من كتابته أواخر عام 2010، رغم أني أنجزت من بعده مسلسلاً تحت اسم (الملعونون)، ولكن هذا العمل لم يتم تصويره. لم يرَ النور. ولا أعرف اليومَ مصيره. كتبته بالاشتراك مع صديق عمري (نجيب

نصير)، الذي شاركته أو شاركني في تأليف عديد المسلسلات التلفزيونية، والتي ربما كان أكثرها شهرةً مسلسل (زمن العار). نجيب نصير نفسه لم يعد موجوداً في البلد. هاجر منذ عامٍ ونصف عام تقريباً. اتخذ قرار الرحيل غداةَ دهموا منزله ذات ليلةٍ، من بعدَ أن أخذتهم العزّةُ بالإثم. لم يتركوا شيئاً في المنزل على حاله. عن أي شيء كانوا يبحثون؟ لم يعثروا على أي شيءٍ من ذلك الشيء. ومع ذلك فإنهم لم يخرجوا بلا شيء، فقد أخذوا بعض النقود (كل النقود التي وجدوها في المنزل)، وأخذوا بعض الأغراض الثمينة إلى حدٍ ما. ومن حسن الحظ أنهم لم يتنبهوا إلى اللوحات التي تملأ الجدران، والتي هي ثروة طائلة. هذا المكان حيث يقيم صديقي نجيب هو، في حقيقة الأمر، ليس منزلاً فيه بعض اللوحات الثمينة، بل هو متحفٌ يقطنه أحد البشر. من الواضح أن زائري الغفلة لم يكونوا على درايةٍ بقيمة تلك الرسومات الأصلية. والحمد لله أنهم كانوا يجهلون قيمتها، فبسبب ذلك الجهل لم تغادرِ اللوحاتُ جدرانَها. أخذوا بدلاً منها ما يعرفون قدْره، ومن ضمنه ساعةُ يدٍ سويسرية الصنع ثمينةٌ إلى حدٍ ما، تشبه ساعةً حملتها حول معصم يدي اليسرى سنواتٍ كثيرة. ساعة بسيطة بلا أية تعقيدات. يسمونها: كلاسيك. حزامها من الجلد الأسود. وميناؤها أبيضُ تماما بعقربين أسودين. ولا شيء آخر. ظلّ نجيب سنواتٍ كثيرةً يبحث عن ساعةٍ تشبه ساعتي. وظلّ عاجزاً عن العثور على شبيهةٍ لها في متاجر العالم المختلفة. وأنا أيضا لم أعثر على ساعةٍ تشبه ساعتي في متاجر العالم المختلفة إلى أن وجدتها أمامي فجأةً ومن دون أيّ قصدٍ في أحد متاجر (كوالا لامبور). اشتريتها من قبل حتى أن أسأل عن سعرها. وحملتها إلى دمشق في علبتها الأنيقة هديةً لأحد أصدقاء العمر، الذي لم يحملها حول معصمه مرّة واحدة. سألته يوماً عن السبب، فقال: أنتظر مناسبةً ما جميلة. والمناسبة الجميلة لا تأتي. وتظل الساعة حبيسةَ العلبة الأنيقة في انتظار أولئك الأشاوس الذين اقتحموا المنزل باحثين عن شيء لا أعرفه. وعلى الأرجح أنهم ما جاؤوا يبحثون عن أي شيء. لقد كانت تلك الزيارة رسالة إلى الرجل من بعد أن تمّ اعتقالُ ابنه عند باب كليّة الفنون الجميلة. هانيبال نصير. ولدٌ غايةٌ في اللطف والشهامة. أعرفه مذ جاء إلى هذه

الدنيا البئيسة. طالبٌ في سنته الأولى في كليّة الفنون الجميلة. اعتقلوه لأنه وقف في ساحة الكليّة يحمل لوحةً كَتَبَ عليها بخط يده: (أوقفوا القتل). فقط.هذا ذنبه كله. بماذا يستطيعون اتّهامه؟ إرهابي؟ تكفيري؟ وهّابي؟ لا يمكن لتهمةٍ كهذه أن تكون قابلةً للتصديق، فالولد مسيحيٌ الأب، ومسيحيٌ الأمّ أيضاً. هو الآن في أرمينيا. سوريا تأكل أبناءها. سوريا ترفس أبناءها بعيداً بعيدا. من أجل ماذا يحدث هذا كله؟ وأيّة مؤامرة كونية ملعونة هذه؟! لماذا يُضطرُ كاتبٌ مثلُ نجيب نصير على العيش في المنافي؟! هذا الكاتب كنزٌ لا ينضب. كنزٌ - إن ضاعَ - يصعبُ تعويضُه.أنا أعرَفُ الناسِ به. وهذه هي شهادتي. أتسقط أخباره. تواصلُنا قليلٌ، رغم القفزة الهائلة في وسائط الاتصال. أسمع أنه يتعاطى الكحول بكثرة، وأنه موشك على الاكتئاب. ولا أعرف كيف أساعده على الخروج مما هو فيه. ولكنني أعرف أنّ الواجب يفرض عليّ أن أفعل شيئا ما من أجل مساعدة واحدٍ من أصدقاء حياتي. أفكر بالسفر إلى بيروت قريباً. أغلبية الأصدقاء يقولون لي: سفرتك هذه سوف تكون بلا جدوى، فالرجل يائسٌ تماماً من الحياة. وأنا أقول لنفسي: هذا وحدَه سببٌ وجيه للسفر. التقيته آخرَ مرّة في بيروت بعد رحيلي عن القاهرة صيفَ عام 2013. دعاني على العشاء في أحد مطاعم شارع الحمرا. شاهدتُ نهمه للكحول. ولم أعترض بشيء. لم أقدم له أية نصيحة. أعرف أنّ المُصابَ أكبرُ من أن تداويه الكلمات، مهما كانت صديقة. ثم إنني أنا نفسي كنتُ غارقاً في بلبلة الأفكار وفوضى المشاعر. أنا نفسي كنت في حاجة للمساعدة. فاقدُ الشيءِ لا يعطيه. قلت له ممازحاً: "لا تحزن على الساعة، فهأنذا قد صرت مثلك." وعرضتُ عليه الساعة التي تطوّق معصمي. إنها لا تشبهني في شيء. ربما كانت أمريكيّةً أو إيطالية.لا أعرف. ساعةٌ قويّة، ولكنها تفتقر إلى البساطة.أجبر نفسه على الابتسام، وقال: "أين تلك السويسرية الكلاسيكية إذن؟ هل تعطلت؟" "لا، لم تتعطل.كنتُ أجلس مرّةً مع إحدى النساء.لاحظتُ أنّ المرأة بلا ساعة حول معصمها.كان هذا قبل عام تقريباً. سألتها عن السبب. قالت إنها تتحسس من السوار المعدني في الساعةً اليابانية التي تملكها، وأنّ هذا الوقت ليس مناسباً لشراء ساعةٍ جديدة وأنها بالكاد

تتدبر مصاريف المنزل. كانت المصيبة في دمشق قد أخذت انطلاقتها المحمومة نحو الهاوية بعد تفجير خليّة الأزمة. خلعتُ الساعة مِن حول معصمي، وقدمتها لها." "وأخذتها؟" "نعم." "هل هي امرأةٌ جديدة؟" "لا." "أنا أعرفها إذن." "نعم تعرفها. إنها إحدى زوجاتي السابقات. رزان" صمتَ لحظةً قصيرةً، وقال: "لا بأس في أن نظل ندفع مقابل لحظات الماضي الجميلة ما حيينا. ولكن ماذا عن المستقبل؟! - وصمت لحظة قصيرة وأضاف - الصورة كما ترى." وكاد أن يبكي من قتامة هذه الصورة التي أرى، ولكنه دارى دموعه بغبّةٍ كبيرةٍ من العرق.. المستقبل.. هذه الكلمة باتت مخيفة. مَنْ الذي سوف يصنعه؟! أين هم أطفال سوريا؟ إنهم في الخيام لاجئون. في العراء. في البراري، أو في قيعان البحار المظلمة. حتى أؤلئك الذين حالفهم الحظ واستطاعوا الوصول إلى بلدانٍ تعترف بحقوق الإنسان، وبقدسية الطفولة، سوف يكونون غائبين عن هذا المستقبل. كان يمكن - حين يكبرون - أن يكونوا رجالاً صالحين ونساءً صالحات.أعرف هذا الأمر من معرفتي بأطفال العائلة الذين تفرقوا في أرجاء المعمورة. أعدادهم كبيرة، ولكنني - رغم ذلك - أعرفهم فرداً فرداً، وعلى نحوٍ جيد. وهم جميعاً أصدقائي على الفيس بوك. أو يكادون أن يكونوا الأصدقاءَ الوحيدين عندي على الصفحة. أتابعهم يومياً. ألتقط أخبارهم وهم نيامٌ بعد، فالكل يتزاحم من أجل مراسلتي ومحادثتي، وأنا لا أستطيع عدم الإذعان برغبتهم، ولكنني، في الوقت نفسه، لا أقدر على مجاراتهم فيما يهرجون. توصلت مؤخراً إلى حلٍ معقول بالنسبة إليّ، وليس بالنسبة إليهم. صرت لا أفتح النت قبل السادسة صباحاً.أضمن أنهم نيامٌ في مثل هذا الوقت من اليوم، حتى أؤلئك منهم الذين في كندا يكونون قد صاروا نياما. يكتب لي ذلك الولد الوسيم الذي اسمه كنان بالإنجليزية من (أونتاريو) الكندية يقول إنه قد بدأ يتقن رمية النقاط الثلاث في لعبة كرة السلة.إنه مازال في الثانية عشرة من العمر.إذن، من المؤكد أن معايير اللعبة لدى الأطفال في تلك البلاد مختلفة عن معاييرها عند الكبار والمحترفين.وأما شقيقه سامي الذي يصغره بعامٍ واحدٍ فقط، فيبلغني بأنه حاز في فئته العمرية على بطولة المدرسة بالسباحة. أكتب تعليقا هنا وآخر

هناك. أقول لبطل السباحة: أتمنى أن أعيش إلى يومٍ أراك فيه على منصة التتويج في الأولمبياد.أما ابن السادسة من العمر في القاهرة فلا ينفكّ يدعوني كل يوم إلى مشاركته في لعبة (المزرعة السعيدة) التي أسمع بها ولا أعرفها.وأما ابنة التسع سنوات في السويد فقد شاطرتْ والديها القناعة بضرورة عدم الاحتفال بعيد ميلادها تضامناً مع الجائعين من أطفال سوريا. ولكنها، مع ذلك، طالبت أباها بهدية في هذه المناسبة، وعندما سألها أبوها: "ما هي الهديّة التي تريدينها بالضبط؟" قالت: "عمي حسن." وابتسم الأب وابتسمت الأم من طرافة الطلب، ومن قبل أن يهبط عليهما الحزن بسبب الطلب ذاته الذي كان مدعاة للابتسام قبل قليل. إنه فرق السرعة بين جيلين.تماماً مثل فرق السرعة بيني وبين رشا.اتصلتُ بها بالموبايل السوري في أولى الليالي بعد عودتي إلى دمشق. لم تكن البنت تعلم بنيّتي على العودة. بل إنها كانت تظن بوجودي في القاهرة (وكنت قد صرت في بيروت)، وتستغرب من عدم اتصالي بها أسبوعاً كاملاً، أو أكثر، الأمر الذي جعلها مشغولة البال. حتى عندما اتصلتْ بي على رقمي المصري (وأنا في بيروت) لم تحصل إلاّ على المزيد من انشغال الذهن. في أول أيامي ذاك اتصلتُ بالبنت باكراً على غير العادة. لم يكن الليل قد انتصف إلا قبل نصف ساعةٍ فقط. فوجئت البنتُ بالرقم السوري. ولكنها عملت حسابا لخيبةٍ ما قد تكون في الطريق. سألتْ: "هل حوّلتَ رقمك السوري إلى رقم دولي؟ " قلت: "لا." قالت: "ماذا تقصد ب لا؟ "قلت: "أنا في دمشق." قالت بسرعةٍ، بخوفٍ، بعفوية: "كذّاب." سامحتها على هذا النعت الذي وصفتني به، فقد كنت أعرف منشأه، وأعرف مؤدّاه.أما هي فلم تسامح نفسها على تلك الكلمة إلى اليوم. قلت لها وقد تعمدّت بعض الضحك: "صايرة مؤدبة كتر بغيبتي! خير؟! شو اللي جرى بهالكام شهر؟" "ببقى بجاوبك عن هاد السؤال بعدين، بس بالأول قللي الحقيقة.وين إنت هلأ؟ " " أنا بدمشق." مصرّ يعني؟" ولك يا بنتي أنا بدمشق.- ثم بالفصحى - واللهِ إنني موجودٌ الآنَ في دمشقَ." وساد صمت لنحوِ من نصف دقيقة، أظنني سمعت خلاله صوت دموع البنت تجري من عينيها السوداوين الوسيعتين. راحت بعد ذلك الصمت تعتذر عما

قالته لي قبل قليل.ثم انفجرتْ بالبكاء. ولم أعرف كيف أهدئها، فاقترحتُ عليها أن تغسل وجهها وتستريح، وأن اكلمها غداً. وأغلقتُ الخط.. عدتُ إلى دمشق مرهقَ الذهن والبدن. قميصي الكحليّ كان ملطخاً ببقعٍ بيضاء كبيرة متداخلة ببعضها مثل رسوماتٍ سريالية. إنه ملح بيروت. وصلتُ دمشقَ عند العصر تقريباً. كان صديقي عبد يقف،على الرصيف أمام البناء حيث يقيم، في انتظاري. كنا على اتصالٍ لحظةً بلحظة مذ وطأتْ قدماي الأرضَ السورية. أو: مذ شعرتُ بأنني قد رجعت إلى الحياة بعد بضعة شهورٍ من موتٍ سريريّ اسمه: المنفى. تصافحنا. تعانقنا. وما تعاتبنا، فليس بيننا ما يستوجب عتاباً، رغمَ أنه كان قد أجّل سفره عن دمشق بعيداً في انتظار أن أحسم قرار عودتي إليها. دخلنا إلى المنزل.وقفتُ تحت الدوش قرابة عشر دقائق اغتسلت خلالها من ملح بيروت وكآبة المنفى. خرجت من الحمّام وكأنني إنسان لا أعرفه، رغم القصف العنيف الذي ابتدأ فجأة غير بعيدٍ عنّا. شربنا القهوة، وتحدثنا كثيراً. وفي المساء خرجنا إلى الطريق. اشترينا بعض ما نأكله. وعند الساعة التاسعة تقريباً كانت الشوارع قد أصبحت بلا أهلٍ، بلا ناسٍ. وهذه كانت صدمتي الكبيرة في ذلك اليوم الأول عندما اتصلتُ برشا وعندما انفجرتِ البنتُ بالبكاء وعندما رجوتها أن تستريح في انتظار غدٍ. ولكنّ البنتَ لم تستجب لرجائي، فها هو موبايلي يرنّ للمرة الأولى في دمشق الجديدة. نظرتُ إلى الشاشة، ولم أتفاجأ بالمتصل. إنها رشا." شو يا بنت؟هديتي؟ " "وينك إنت هلأ؟" "قلتلك بالشام." "بعرف بالشام. بس وين؟ بنفس الأوتيل اللي كنت نازل فيه قبل ما تسافر ع القاهرة؟" "لأ." "وين إذن؟" "في بيت أحد الأصدقاء." "وين ساكن هادا الصديق؟" "ولك يا بنتي شو حكايتك؟" "بدي شوفك هلأ." "مجنونة إنتي؟ الساعة تسعة ما كان في حدا بالشوارع، فما بالك الساعة وحدة بعد نص الليل؟" "طيب شو أعمل أنا؟" "شو تعملي بشو؟" "اشتقتلك. ابتسمتُ. فيم العجلة على اللقاء؟ لا شيء سوى: فرق السرعة. لقد بات هذا الفرق كبيراً.البنت كثيرة الجوع، شديدة الظمأ إلى الحنان المفقود.وهذه هي الحكاية كلها، فهي لم تطلب مني يوماً أي شيء آخر، ولم تعرض علي يوماً أيّ شيء آخر. وأنا لم أعرض عليها مرةً شيئا،

ولا كذلك قد طلبتُ منها شيئا.عادت تلحّ في السؤال: "طيب شو اسمه صديقك؟" "آهه!! لوين عم تستجريني؟" "يعني هو مشهور؟" "بالضبط. هو شخص مشهور بالبلد، لذلك انسي الموضوع. ما رح قولك اسمه. وتعالي نتفق على موعد بكرا." واتفقنا على موعدٍ في غد. وفي الغد جاءت في الوقت المناسب. في النهار حتماً، فلا ليلَ في دمشق. التقينا في كافتيريا على الرصيف. ذهبتُ إلى الموعد باكراً كعادتي. طلبتُ قهوةً، وشرعتُ أدوّن بعض الملاحظات على دفترٍ صغير اشتريته قبل قليل مع قلم تغدو الكتابة به ضرباً من الأشغال الشاقة، فالحبر فيه كثير التقطع. قلمٌ صيني. تطير الفكرةُ من الرأس بين كلمة وكلمة. الأقلام اليابانية السلسة اختفت من الأسواق أو شبه اختفت. أدوّن ملاحظات حول انطباعي الأول بعد العودة.ما حاجتي إلى هذه الملاحظات التي كان بعضُها استباقياً؟ كيف سيكون اللقاء برشا بعد شهورٍ من الحنان المفقود؟ أتذكر أنني كتبت على إحدى الصفحات في ذلك الدفتر الصغير عبارة كنت أنوي أن أبوح بها إلى البنت: "الفقدُ مشتركٌ يا صغيرتي، فأنا بي ظمأ إلى الحنان أيضاً.أنا مثلك تماماً يا رشا." في الحقيقة أن تلك الملاحظات التي دوّنتها في تلك الجلسة كانت تفتقر إلى الترابط. إلى الانسجام. كانت محكومةً بالتشتت. لماذا أسجل هذه الملاحظات التي ينقصها الوعاء الحاضن؟ الفكرة التقليدية التي صارت مملّة: الأرض والمرأة.لا جديد يُقال بعد. موضوعة غدت بائتة. ما الذي كنت أفعله بالضبط إذن؟ لم أكن أعرف الجواب تماماً في ذلك الوقت. ولكنني أدركت بعد حينٍ قصير أنني ما رجعت إلى دمشق من أجل رشا، بل إنني ما رجعت إلا من أجل أن أكون شاهداً على قيامة هذه المدينة التي تحتل المرتبة الثالثة بين أقدم مدائن الأرض بعد حلبَ وأريحا، والمركز الأول بين أقدم العواصم المأهولة في جميع الكون. دمشق أمُّ الدنيا. ونحن أطفالَها تائهون فيها، ضائعون.لا نعرف إلى أين نمضي، ولا نعرف ما يخبىء لنا الغد من مصير. قلب المدينة مازال بخيرٍ إلى حدٍ بعيد. النظامُ يفرض سيطرةً واضحةً على هذا القلب. ومعركة دمشق بين الجيشين: الحرّ والنظاميّ، والتي كانوا يتحدثون عنها كثيراً في المواقع الإخبارية المختلفة على الإنترنت لا تبدو وشيكة. بعض المواقع يسمّي تلك

المعركةَ المرتقبة: زلزال دمشق. مازالت المعارك محصورة في الأحياء الجانبية للمدينة، مع امتدادات تلك الأحياء إلى الأرياف المتاخمة.الطائرات الحربية تجوب السماء بالطول وبالعرض. يصعب مشاهدتها في الشمس بالعين المجردة. ويسهل سماع دويّ انفجارات الصواريخ التي تقصف بها شرق المدينة وشمالها وجنوبها. وحده الغرب هادىء أو شبه هادىء. مرقت، فجأة، إحدى تلك الطائرات على ارتفاعٍ منخفض. رفعت بصري إلى السماء بسرعة. استطعت أن أراها في اللحظةَ الأخيرة من ثلم بين بعض المباني. استطعت أن أميز نوعها بسهولة.كان من المواد المقررة علَينا في (خدمة العلَم) التمييزُ بين الطائرة الصديقة والطائرة العدوّة من نظرة واحدة، حتى وإن كانت خاطفة. وهذه التي مرقت تواً سوفياتية الصنع، قديمة الطراز. تنتمي إلى جيل ستينات القرن العشرين.ابتعدتْ سريعاً. توقفتُ عن ملاحقة الطائرة، ورجعتُ بنظري إلى الأرض فوقع بصري على رشا. كانت مشرقةً أكثر مما ينبغي. كانت وضّاءةً، ريّانةً، لا تكاد تمشي على الأرض. كانت ما تزال في طرف الشارع. نهضتُ من قعدتي وتوجهت صوبها. كانت تحمل في يدها اليمنى كيساً من النايلون أنيقاً. وحين وصلتُ إليها ووصلتْ إليّ ارتمت عليّ وعانقتني. كان عناقها لي عنيفاً، وأكثر. كان لا يخلو من وحشيّة. أحسستُ بالخجل، فنحن في الطريق، وفي وضح النهار، والشهود كثيرون، وربما كان مِنْ بينهم مَنْ يعرفني. قلت لها: "ولك عيب يا بنت! قالت: "ليش عيب؟" وسألتُ نفسي: فعلاً، ليش عيب؟ ولم أهتدِ إلى جوابٍ سريع. ولكنها ساعدتني بالتقاط طرف الجواب من دون أن تدري. قالت: "ثمّ أنا البنت مو إنت." قلت: صح، إنتي البنت، بس أنا شايب." ابتعدتْ عني بضعة سنتمترات، وجعلتْ تتأمل عينيّ من خلف النظارة الطبية حولهما. ارتبكتُ في لقاء العين بالعين. والبنت لا تبالي بارتباكي.أصابع يدها المحررة تروح تعبث بشعري." شو صابك؟! " أسأل مستغرباً، فترد ضاحكة: "تسلملي هالشيبة! " ولست أعرف من حقيقة ما قد حدث تلك اللحظة سوى أنني اتخذت قراراً يقطع العلاقة بهذه البنت الناضرة. لقد صارت هذه البنت، فجأةً، عبئاً ثقيلاً عليّ لا أقدر على تحمل أوزاره، فقد عادت

هرمونات الذكورة إلى النشاط فجأةً من بعد طول بياتٍ في خلايا بدن الذئب العتيق. لقد اشتهيتُ جسدها حين لقاء العين بالعين. هذا أمر لا إنصاف فيه. وهذا أمرٌ لم يحدث بيني وبينها في أيّة مرّةٍ سابقة.أظنها قد أحست بتباريح ما ألاقي، فهدأتْ قليلاً، وحاولتْ مداراة الموقف. لكنها لم تنجح. قالت لي بعد أن جلسنا: "هذه لك." وقدمتْ لي كيس النايلون الأنيق. قلت: "ما هذا؟ قالت: "حلويات شاميّة." "وهل مازال ثمة من يصنع الحلويات الشامية في دمشق؟" "نعم. ومازال ثمة من يشتريها أيضاً." وأضافت: "في المناسبات العظيمة طبعاً. إذن، عودتي إلى دمشق مناسبة عظيمة! ولكن ما الثمن؟ بحر الحنان الذي جفّ إلى آخر قطرةٍ فيه؟! ما الثمن؟ وهل أنا قادرٌ على أن أدفع؟ ليس أنا، بل قلبي المتعب. ضميري المثقل بالآثام القديمة. أنا لست ثعلباً. لم أكن ثعلباً في يوم من الأيام. أنا الآن ذئب هرِمٌ لا أكثر. لست ذئب البحار. لست ذئب البوادي. أنا ذئب شائخٌ بات ينتظر الضربة الأخيرة من قبل أن يهوي صريعاً. المسألة كلها: متى وكيف وأين ومن أين.لا أقول: لماذا؟ الجواب واضح. المرايا لا تكذب. يجب الانتهاء من هذه العلاقة بالسرعة الممكنة. كنت أعاود النظر إلى ساعتي اليدوية خلال جلستنا بين حين وحين. يجب الانتهاء من هذه العلاقة حتماً. هذا ما كنت أفكر به خلال ارتباكي الذي دام ساعتين أو أكثر.. يا نسيمَ الروح قولي لرشا - لم يزدني الوِردُ إلا عطشا. (مع الاعتذار للحلاّج على هذا التصرف.) سألتني: "لماذا تنظر إلى الساعة كثيراً؟هل أنت على موعد ما؟" "لا، لستُ على موعدٍ مع أحد. إنني أفكر بك فقط. أفكر بعودتك إلى منزلك البعيد قبل الغروب." وكانت حجتي واهية، فنهارات الصيف طويلة. قالت: "مازال في النهار متسع من الوقت كبير. "من الأفضل أن نسلك درب السلامة." قلتُ. ولا أظنها اقتنعت بكلامي، رغم موافقتها عليه بعد ساعتين من الكآبة والصداع الذي كنتُ أقسر نفسي على تمثيله. حاولتْ أن تسد منافذ النجاة أمامي.قالت: "ثمة صيدلية في الجوار. هل أحضر لك مسكّنا؟" "لا شكراً! لا أحب الأدوية، ولا أتعاطاها. لم أكن قد حدثتها بعدُ بما أصابني في القاهرة عندما سكنت الذبحة قلبي، وعندما صرت أتعاطى من الأدوية الكثير كل يوم. كلّ شيء فيّ

كان كاذباً، مرتبكاًفي ذلك النهار بعد لقاء العين بالعين.استسلمتِ البنتُ أخيراً لارتباكي، وافترقنا. كان ذلك أكثر لقاءاتنا بؤساً. ولكنه كان اللقاء الذي فضح دافعي الحقيقي للعودة إلى دمشق.هذه البنت لا تمسك بأيٍ من خيوط حياتي. دمشق وحدها من يمسك بخيوط حياتي جميعاً، رغم أنها باتت بلا ليلٍ، بل إنّ ليلها قد صار مرعباً في بعض الأحيان، حتى وهو في أولّه. تناولت قبل يومين طعام الغداء في مطعم الكمال في شارع 29 أيّار. كان غداءً متأخراً بعض الشيء. غادرت المطعم في حوالي السادسة مساءً. انصرفتُ باتجاه السبع بحرات، ثم انعطفت إلى شارع الباكستان. وصلت إلى ساحة عرنوس. شربت قهوةً في كفتيريا(كولومبوس). ذهبت بعد القهوة إلى ساحة عبد الرحمن الشهبندر. إلى هنا الوضع مقبول.أخذت اتجاه الشمال صعوداً باتجاه ساحة الميسات.هنا بدأتِ الريبةُ تفعل فعلها، فقد كنت في الشارع الطويل وحيداً. كنت وحيداً تماماً.لا بشر، لا سيارات. ما من أثرٍ يشير إلى أنّ الحياة قد مرّت من هنا ذات حين. صحيحٌ أننا في عزّ الشتاء وأنّ النهاراتِ قصيرة. ولكنها لم تكن يوماً قصيرةً إلى حدّ اختفاء الخلق جميعاً من قلب المدينة.غير معقول.نظرت إلى الساعة حول معصمي. كان العقربان يشيران إلى تمام السابعة والنصف. ماذا يحدث؟ هل وقع أمرٌ جللٌ في المدينة بينما كنت أتناول طعام الغداء؟ شعرت ببعض خوفٍ. وبسببٍ من ذلك الخوف تخيّلت أنني سمعت أصواتاً آدميّة. هكذا يبدأ التشويق في أفلام الرعب عادةً. كانت أصواتاً خفيضةً تحمل رائحة مؤامرةٍ ما. من المؤكد أنّ هذه المؤامرة تستهدفني أنا، فما من أحدٍ سواي في الطريق. وتخيّلتُ أنني قد سمعت وقع خطواتٍ أيضاً. تلفتّ من حولي بحذر، ولكن ما من أحد، لا إنسٌ ولا جان.ومع ذلك رحتُ أغذّ في السير. كنت أعلم بوجود حاجزٍ للجيش في نهاية الطريق قبل الساحة مباشرةً. صار هدفي أن أكون في مرمى بصر الجنود. رحت أسرع الخطى أكثر فأكثر، حتى صرت مرئياً لهم.هنا فقط زايلني الخوفُ.اقتربت من الجنود كثيراً إلى أن صرت بينهم. وهناك توقفت.نظروا إليّ غير فاهمين سبب توقفي. نظروا إلى بعضهم.اقترب مني أحدهم.أظنه برتبة ملازم، وقال لي: "خير يا عم؟ " قلت: "ركبتي عم توجعني." وبدا أنه لم يفهم ما شأنه

بركبتي، فهو ليس طبيباً. قال: "سلامتك.. شوف دكتور." قلت: "بكرا انشالله. بس المشكلة إنو ماني قدران أمشي للبيت." قال: "وين بيتك؟" قلت: "في شارع صلاح الدين." قال: "شو بقدر أعمل؟" قلت: "توقفلي تكسي." قال: "شوفة عينك. في أي سيارة بالطريق؟ "وما إن أكمل عبارته حتى ظهرت سيّارة أجرة قادمةً من جهة الجسر الأبيض.وكانت بعكس طريقي. توقفت السيّارة للتفتيش. غير أنّ الضابط الشاب لم يفتشها. قال لسائقها، وكان رجلاً كهلاً: "بتوصل العم لشارع صلاح الدين." حاول السائق للحظةٍ، لولا الخوفُ من العسكر،أن يحتجّ على هذا الطلب، أو هذا الأمر، لأنه ذاهبٌ في الاتجاه المعاكس لصلاح الدين. ولكنّ الضابط الشاب قطع عليه الطريق حين قال لي: "الله معك عم." فتحتُ باب السيارة الأمامي وصعدت. وانصاع السائق للأمر الواقع. ولكنه طلب من الضابط أن يسمح له بالحركة عكس السير نحواً من خمسين متراً. قال له الضابط الشاب: "خالف متل ما بدك، المهم توصل العم لقدام بيته." وصلت إلى شارع صلاح الدين.التيار الكهربائي مقطوع.لا أثر للناس في الطريق. وحدها أشجار الأرصفة تلوح مثل أشباحٍ غريبة الملامح.أجرة التكسي تضاعفت ست مرات عما كانت عليه قبل عامينِ. ست مرّاتٍ في حال كان السائق لطيفا والزبون بخيلا، فما من قواعدَ واضحةٍ تحكم عملية التسعير. تناولت من جيبي قطعة نقدية تعادل عشرة أضعاف المبلغ المطلوب. مددتها للسائق الكهل وأنا أشكره على التضحية بوقته من أجل ركبتي الموجوعة. وفي الحقيقة أنني كنت أدفع ببعض السخاء ثمن خلاصي من ذلك الكابوس الذي عشته قبل نصف ساعةٍ فقط. فوجئت بالسائق يرفض النقود. لم أفهم. سألته: "بدك كمان؟" سارع يقول كمن يدفع عن نفسه تهمة ثقيلة: "أعوذ بالله!! شو عم تحكي يا أستاذ؟" "أصبح خود حقك وخليني أتيسر." "بدنا الرضا أستاذ. ما بدنا غير الرضا. بس يا ريت تقولو لابن أخوك الله يحميه إنو يتوصى فيني. حاكم بالنهار هادا الحاجز بالذات كتير صعب." "مين ابن أخي؟" "مسؤول الحاجز. سيادة الملازم الله يحفظو لشبابو." هنا جعل الأمرُ يتضح أمامي. ربما فهم الكهل الخائف المسكين من كلمة "العم" التي كررها الضابط الشاب مرارا صلةً بالقربى

أكيدةً بيني وبين ذلك الضابط، رغم أنّ هذه الكلمة كثيرة التداول في مجتمعاتنا العربية. نقولها لأي رجل يكبرنا بجيل في الزمن، أو حتى بنصف جيل، ومن المؤكد أنّ السائق الكهل يعرف هذه الحقيقة جيدا، ورغم هذا فقد تعمد أن يصرفها بمعناها المباشر. من يدري؟ لعلّها تصيب!! فزحمة السير في نهارات دمشق لا تعادلها زحمةٌ في جميع مدائن العالم.وهذا أمرٌ طبيعي.نصف شوارع المدينة مغلقٌ بالكتل الإسمنتية.. وأما النصف الآخر فهو مقطّع الأوصال بالحواجز العسكرية التي تفتش كلّ شيء، فتسرق من الناس أكثر من نصف وقتهم القصير أصلاً، والسائق الكهل يطمع بمعجزةٍ ما تساعده عند ولو واحدٍ فقط من تلك الحواجز الكثيرة. قلت له: "سوف أتصل بابن أخي وأجعله يتوصى بك إنْ أخذت النقود، وإلا فإنني لن أتصل." أمسك بطرف القطعة النقدية الورقية من دون أن يتوقف عن التحديق في وجهي. كان كمن يطالبني بتنفيذ ما تعهدت له به. فهمت إلى ما كان يرمي من تلك النظرة. قلت: "سوف أتصل به بعد قليل، فقد نسيت الموبايل في المنزل." ورجوت ربي ألا يفضحني، فالجهاز في جيب السترة التي أرتديها. واستجاب ربي لرجاء عبده الشقيّ. ولكن الرجل حاول الاعتراض على حكمة الخالق جلّ وعلا. قدّم لي موبايله. ابتسمت وقلت: "لا أتذكر الرقم.. لكنني وعدتك، وأنا اعتدت على تنفيذ الوعود، فلا تخف. دقائق قليلة ويرحب بك ابن أخي عند الحاجز." وترجلتُ من السيارة. ورحت أغوص في عتمة الرصيف مستعينا بالولاّعة الصينية العجيبة راجياً ربي هذه المرة عدم الوقوع في حفرةٍ مفاجئة. فالحفر في شوارعنا وأرصفتنا تتوالد كما الفطور في الغابات المطيرة. وانصرف الرجل الكهل بسيارته من بعد انتظارٍ قصير. السيارةُ اليومَ في دمشق باتت عبئاً على صاحبها، ولهذا قررت بيع سيارتي بعدما استعدتها من الزوجة القديمة. كان الكشف الصادر عن الشرطة حول هذه السيارة، والذي حصل أحمد على نسخة منه، نظيفٌ تماماً.. ليس لهذه السيارة أية مشكلة مع الشرطة. والعكس صحيحٌ أيضاً. ورغم هذا، فقد كانت السيارة مصيبة متحركة على أربع عجلات. الشرطة في هذه الظروف الدموية تبدو وكأنْ لا عمل لها. العمل كله عند أجهزة الأمن الأخطبوطية. لا شيء في البلد ليس تحت المراقبة. وسيارتي

ليست استثناءً. مَنْ هذا الشرطي الذي يقودها؟ ولماذا؟ والسؤال الأهم: إلى أين؟ ومِن أين؟ كان يستخدمها في نقل البنزين إلى مَنْ تسميهم الأجهزة الأمنية: العصابات المسلحة.. في الأحياء المحاصَرة طبعاً. وسوى ذلك: كان على وشك أن يبيع السيارة عشية اعتقاله وفي حوزته تسعة آلاف دولاراً أمريكياً. وقد اعترف بأنه كان يسعى للهروب إلى ألمانيا طلباً للجوء. أما المرأة فقد فوجئتُ بها حرةً طليقة. رأيتها مصادفةً في الطريق.. وقد أزعجتني رؤيتها. مجرد رؤيتها، حتى وإنْ كانت بريئةً تماماً.أما هي فقد نظرتْ إليَّ بابتسامة لا تنقصها الشماتة. أظن، وليس كل الظن إثم، أنها لم تكن بريئةً عند أجهزة الأمن، بل عميلةً لها في تسلسم الشرطي الذي قبّل الأحذية العسكرية، علَّ ذلك يشفع له من الاعتقال، أو مما هو أسوأ من ذلك. وعندما سألت عن مصيره قالوا لي: انس الأمر، فقد أصبح الرجل في خبر كان. وخبر كان كما نعلم جميعاً منصوبُ دائماً، أو مصلوب.

اليوم نزلت قذائف مدفعية كثيرة على الشام
مش أول مرة
ولا رح تكون آخر مرة
بتنحبس بالبيت؟
لا والله
بدي أطلع.. طلعت مرتين
الصبح
والمسا على براد
قبل المغرب بساعة تقريباً
تمشيت بالشوارع القريبة من مركز المدينة
رحت للشعلان
اشتريت شوية غراض
شفت زعرور على بسطة
السنة هاي ما أكلت زعرور
وأنا بحب الزعرور
فاكهة لذيذة
والأهم: مفيدة جداً للقلب والشرايين
حتى بتساعد على النوم الهادىء
مرحباً!
أهلين!
بقديش الزعرور؟

بألف.

ألف؟ خير انشالله؟ على شو الألف؟ مستورد؟

لا أستاذ شو مستورد؟ من خير بلادنا.

وإنت قلتها: من خير بلادنا.. شجرة زغيرة بتنبت بالبرّية لحالها.. يعني لا حدا زرعها ولا حدا سقاها، فعلى شو الألف؟ بقديش كان سعرها الموسم الماضي؟

هلأ أنا شو دخلني بالموسم الماضي؟

إنت ما دخلك، بس كترة غلبة مني.

أخي نحن ولاد اليوم.

وبكرا بتصير الكيلو بألفين وبتقوللي: نحن ولاد اليوم.

بكرا؟! عم تحكي عن بكرا أستاذ؟! ضمنان تعيش لبكرا؟!

وسمعنا دويَّ انفجارٍ غير بعيد.. ضحك البائع، وقال:

خلينا باليوم أستاذ، واليوم الكيلو لسه بألف.

والله معك حق.. عطيني نص كيلو.

هي هيَّ شغلتك؟!

هيْ هيّ.. مو قلتلك أنا كتير غلبة؟

والله يا أستاذ معك حق بكل شي قلته.. بس المشكلة إنك عم تنسى النقل.. الغلا كله سببه النقل

أعطيني كيلو

البياع مسك هالكيس وصار يعبّي

قلتله:

أنا طلبت كيلو واحد بس، إنت شو عم تعمل؟

إي أستاذ! فرقها زودها نص وقية

طيب، أمري لله.

وضع الكيس ع الميزان الرقمي
وبعدين عطاني ياه، وقال:
ألفين ليرة أستاذ
ليش؟
تنين كيلو
مضبوط، تنين كيلو.. شفت الرقم، بس أنا طلبت واحد كيلو
إي لا تدقق أستاذ، خلي الولاد ياكلوا ويشبعوا
فكرت:
بدي أقوله إنه أنا ما عندي ولاد، وأحكيله قصة حياتي؟
والله مش مستاهلة
قلتله:
معك حق، خلي الولاد ياكلوا ويشبعوا
ودفعت الألفين ليرة، ورحت إلى منزلي، وما في كهربا، والدنيا حريق، والزعرورات، للأسف، رح يخربوا قبل ما يرجعوا الولاد من المدرسة.

2013 - 10 - 13

نظريات الدرامة

كانت رزان قد اتصلتْ بي فجأةً على الموبايل بعد طلاقي من زوجتي الأخيرة بزمن يمكن اعتباره قصيراً. يبدو أنّ عديد النساء كنّ ينتظرن لحظةَ الطلاق تلك. فها هنّ يبادرن إلى الاتصال بالجملة، بمن فيهنّ تلك البنت الطيبة، الفقيرة، الحلوة، التي اسمها رشا، والتي لا تتوانى عن اتهام القشيري باللصوصية. حين خابرتني البنتُ أولَ مرّةٍ عند الفجر أكّدتْ لي أنها لا تزعج باتصالها أحداً آخر في المنزل، لأنني وحيدٌ تماما، من بعد ما طلّقتُ زوجتي قبل أسابيع قليلة. قلت لها وقتئذٍ: "معلوماتك ليست دقيقةً يا آنسة، فأنا لم أطلق زوجتي.الذي حدث هو العكس تماماً. زوجتي هي مَن طلّقني." ضحكت البنت في ذلك الفجر، وقالت: "هل صارت النساءُ قوّاماتٍ على الرجال؟!" قلت: "إني أخاف اللهَ ربّ العالمين." لقد كانت رشا فائقة الوضوح أمامي. وهذا أمرٌ غيرُ مفهوم. فالبدايات تتسم دائماً بالكذب والتصنع. لا أعرف بدايةً مختلفة. أما هذه البنت فقد كانت فائقة الوضوح، رغم كونها طازجةً في العلاقة معي بعد. هنا تكون البراءة مفقودة في السائد. إذن، ما هذا الوضوح؟ ما من تاريخ بيننا. ربما كان مردُّ ذلك إلى كونها لا تطلب شيئاً، ولا تعرض شيئاً. كانتَ تريد لقاء الكاتب الذي حفرت كلماتُه في روحها عميقاً حين شاهدت مسلسل (الغفران).هذه إفادتها.أتذكر أنني قلت لها في لقائنا الأول: "أعرف أنّ البنات يسعين وراء الممثلين وليس وراء الكتّاب." قالت: "أنا لستُ من هؤلاء البنات، فلا أهتمّ بشأن الذي نطق بالكلام أمام الكاميرا. يهمني من صاغ هذا الكلام المدهش. مذ شاهدتُ ذلك المسلسل

بدأتُ أهتم بك مثلما بدأت أحلم بهذه اللحظة التي أعيشها الآن معك في هذه الكافتيريا." كانت البنت فائقة الوضوح.وهذا أمر رائع، رغم أنه متعبٌ جداً. يجعل خياراتك قليلة. يجعل قراراتك ضعيفةً ومترددة. أكثر من سبعة شهورٍ انقضت على ذلك النهار الذي اتخذت فيه قراري المفاجىء ببتر العلاقة مع هذه البنت. سبعة شهور وأنا أقنع نفسي- كل يوم - بأنه لم يبقَ في الكرْم غيرُ الحطب. سبعة شهورٍ وأنا أكذب على نفسي وعلى رشا أيضا. وما سبب ذلك الكذب غيرُ وضوحها الفائق. أعترف بأنني بتّ أخاف عليها من ذلك الذئب الشائخ الذي يسكنني. ذلك الذئب المحتضر، والذي يصحو من سكرة الموت بين حينٍ وحين ويجيل النظر في الأرجاء من حوله بحثاً عن فريسة سهلة التقطيع على أنيابه التي نخر السوسُ حتى جذورَها. يا نسيمَ الروح قولي لرشا.. ليت بقية النساء كنّ معي كذلك! عندما سألتني رزان على الموبايل إن كنت أرضى لقاءها.قلت لها: "بالتأكيد أرضى،فنحن لسنا أعداء،حتى إنني أتذكر الخوالي معك من الأيام بين وقتٍ وآخر.ولا أتذكرها إلا بحب." والتقينا في مقهى هافانا. وشكتْ لي الأيام وَغدرَها. واشتكت من زواجها الثاني الذي احتضر توّاً، ووصفته بالعاثر. وتمنت لو أن عادت بنا الحياة إلى تلك الأوقات العذبة "عندما كنا سويةً أنا وأنت." كانت كمن ينشد المغفرة، من دون أي اعترافٍ بأي ذنب. وكأنّ علاقتها الجسدية بواحدٍ من أصدقاء عمري لا تدخل في باب الخطايا، ولا كذلك مساكنتها لأحد الرجال في الوقت الذي تتحدث فيه لي عن حبها الذي لم يفتر يوماً. كانت تراهن على جهلي بهذه المسائل، أو حتى على استغبائي. وهذا مغيظٌ لي أكثر من سواه. ولكن كان من السابق لأوانه معرفة هذه الأشياء التي تبرع صديقي بتقديمها لي بعدما عرف بإمكانية عودة العلاقة إلى مجاريها السابقة مع المرأة القديمة. اتصل بي بالموبايل وطلب لقائي على نحوٍ سريع. والتقينا. وبرر ما سيذيعه من أسرار بكونه صديق عمري، ويخاف عليّ من التورط بعلاقةٍ مع امرأةٍ لعوب. وفي الحقيقة أنه لم يستخدم كلمة لعوبٍ في وصفها، بل قال: مومس.. قلت لها يوم لقائنا الأول بعد طول فراق: "ولكنّ الموتى لايرجعون إلى بيوتهم في المساء. قالت: "قرأت هذا الكلام في إحدى

رواياتك التي كتبتها بعد طلاقنا. وأعتقد أنك كنت تقصدني أنا." لقد كنت أقصدك أنت فعلاً. والآن قولي لي: ماذا كان سيحدث لو رجعتْ بنا الحياةُ إلى تلك الأوقات التي كانت عذبةً، بل حتى كثيرة العذوبة؟" قالت: "كنت سأرفض الطلاق. وكنت سأقاتل من أجل ذلك بلا رحمة." وصدقتها.. صدقتها بلا حدود، وقلت: "لا أرى ساعة حول معصمك.هل هذا على علاقةٍ بغدر الأيام؟" "لا. عندي ساعةً يابانية، ولكنّ حزامها المعدني يسبب الحساسية." خلعت ساعتي السويسرية من يدي، وقلت للمرأة التي كان لي معها أوقاتٌ عذبة: "أعطيني يدك لو سمحت!" ومدّت يدها، ووضعتُ الساعة حول معصمها، وقلت: "هذه لا تسبب الحساسية." وتذكرتُ اللحظة التي ارتفعتْ فيها الزغاريد الكثيرة من حوالينا - هي وأنا - عندما وضعتُ إسورةً ذهبيةً حول معصمها وخاتم الخطوبة حول أحد أصابع الكف اليمنى في يد هذه المرأة التي كانت نادرة الحسن بين النساء. كانت في العشرين من عمرها وقتئذٍ. يا الله كم كانت امرأةً جميلة! لقد عشنا معاً تسعاً من سنين. ثم كان الطلاق. حدث هذا قبل تسعة عشر عاماً. مازالت امرأة جميلة إلى اليوم، رغم بعض علامات التقدم في السن. بعض السُمنة في الجسد الذي كان ينضح بالغواية الرشيقة. بعض التجاعيد الصغيرة تحت العينين. بعض الشيب في شعرها المصبوغ.الصبغة لا تغطّي الشيب بل تفضحه عندما تخفي بياضه وتحيله إلى لونٍ آخر غير محدد الصفات، رغم أنه ينبئنا بعدم انسجامه مع اللون الأصلي الذي لا يخفي نفسه أيضا. كنت أتأملها من بعد هذه الغيبة الطويلة، وكان لديّ شعور غريبٌ، ولكنه ثابت: نحن لم نفترق لأكثر من يومين اثنين فقط. ذهبتِ المرأةُ إلى منزل والديها لأن أمها كانت مريضة. وها هي تعود الآن إلى بيتها. وأظن أنها كانت تفكر بالطريقة ذاتها، فقد ظهرت في عينيها، رويدا رويدا،غلالةٌ من دمع شفيف.ولكنّ المشكلة أنّ تطوراتٍ كثيرةً وقعت في هذين اليومين. أين أذهب برشا؟ لا أستطيع أنْ أتخلى عن هذه البنت التي أجزم في الصباح من كل يوم أنها تمسك بخيوط ما تبقى لي في هذه الحياة، ثم في المساء أجزم بأنّ هذه البنت لا تمسك بأيٍ من خيوط تلك الحياة المتبقية. قلت لرزان وأنا أنظر في عينيها: "لن أتخلى عنك.هذا

وعد.والآن قولي لي: ما حقيقة وضعك؟ ما حقيقة احتياجاتك؟ دعينا نبدأ باحتياجاتك المالية. قولي ولا ترحميني، وأعدك بأن أجعلك في غير ما حاجةٍ عند العاشرة من صباح غدٍ." والتزمتُ بالوعد الذي قطعته على نفسي أمامها. وسافرتَ إلى القاهرة. وتخليتُ عنها، لأنني في الحقيقة رجعتُ إلى دمشقَ بسبب رشا، وليس بسبب رزان، التي كنتُ قد صارحتها بأنَ أحداثاً كثيرةً وقعت في ذينك اليومين اللذين غابتهما عن البيت. وحدثتها عن رشا. وفي الحقيقة أنني خجلتُ لاحقاً من تلك الصراحة. وما مردُّ خجلي أمام رزان إلا احترامي لـ(سر السعادة). لا يجوز أن نبصق في ماضينا، فإننا نكون عندئذٍ كمن يبصق في روح الوجع. أم تراني أجلد نفسي على ذنبٍ لم أرتكبه؟ أظن أنني كذلك. الصراحة خيرٌ من الغموض. قالت لي بعد أن اجتمعتْ برشا مرّةً (قبيل مصارحة "الصديق" لي بما ينغّص عليه علاقته بي): ولكنها طفلة. قلت: أعرف. قالت: إذن ماذا؟ قلت: لا أعرف.. قالت: ما الذي يحدث معك؟! ألا تكفينا المصائب التي من حولنا؟ ما الذي يحدث معك؟! ما الذي يحدث في هذه المدينة؟!. وهأنذا الآن أفكر بالسؤال ذاته.. ماذا يحدث في هذه المدينة غيرُ تقلباتٍ عنيفة وانعطافات حادة؟ انعطافاتٌ لا يقدر على القيام بمثلها حتى (شوماخر) صاحب الأرقام القياسية في سباق السيارات. ولكنَ شوماخر يتبارى مع الآخرين في ميادين الرياضة وليس في حلْبة الشرور. وهذا فارقٌ مخيف.نحن نتسابق في الرداءة. إلى أين وصلنا يا الله؟ وماذا زرعنا لنحصدَ هذا الخراب كله؟! لن تحصد القمح إن كنتَ قد زرعتَ شعيراً. ولن تحصد شعيراً إن كنتَ قد زرعتَ زيواناً. هذا أمرٌ يعرفه حتى الأطفال الصغيرون. إذن، علينا أن نغيّر شيئاً ما في صيغة السؤال: مادام الجَنْيُ هذه الكوارثَ فما طبيعة الشرور التي زرعنا؟ الأمر يحتاج إلى بحث مستفيض.إننا غالباً ما نتباهى بأنَ دمشقَ أقدمُ عاصمةٍ مأهولةٍ في العالم. وهي كذلك فعلاً. ولكنّ هذا الكلام يحمل في طيّاته إهانةً لنا كبيرة.نحن الأقدم. إذن، نحن أصحاب الخبرة الأكبر.هذا ما يقوله المنطق. منطق الحياة. منطق التاريخ. فالخبرات تراكمية. ما الذي تراكم لدينا في واقع الحال؟ أتحدث عمّا قبل الكارثة. لدينا واحدة من أسوأ البنى التحتية في عواصم الدنيا.أظن أن دمشق

في عام 2010 أي قبل الحرب) احتلت المركز (157) في عالم الإنترنت بين تلك العواصم. لدينا شبكة كهرباء فائقة التخلف. أما هذا الاختراع العجيب الذي اسمه طرقات فإننا نتحدى به شوماخر نفسه، وليُحضِر معه من شاء من المتسابقين الأقوياء إلى حلْبة تخلفنا. سوف نصرعهم جميعاً بالضربة القاضية. وبسرعةٍ قياسية. لدينا من التخلف ما يسمح لنا بتنفيذ هذه المعجزة التي ليس فيها غيرُ إعجاز التخلف. نقول إننا أول مَن بنى المساكن الجميلة. آلافَ الأعوام نبني أجمل مساكن الدنيا: المنزل الدمشقي، الذي هو جوهرُ العمارة العربية والإسلامية، وجوهر فن الأرابيسك حيثما كان. حتى تلك التحفةُ المعمارية في مدينة غرناطة الإسبانية، والتي تُشتهر باسم (قصر الحمراء) ليست، في حقيقة الأمر، إلا منزلاً دمشقياً بأبعادٍ معمارية عملاقة. لم أعثر خلال جولتي في ذلك القصر على تفصيل واحد غيرِ معروفٍ لديَّ. والسبب في ذلك بسيط: أنا قادمٌ من دمشق وليس من نيويورك مثلا أو طوكيو أو مونتريال. كان القصر في ذلك اليوم يغصُّ بالسائحين الأمريكيين واليابانيين والألمانيين والفرنسيين، ومن جميع جنسيات الأرض.الجميع كان مندهشاً من سحر المكان، منشغلاً بالتصوير إلى حدود الهبل بكل واحدٍ من التفصيلات التي يمرّ بها أو تمر به. لا يريد أن يفوته شيءٌ من هذه الفتنة الآسرة. وحدي كنت في القصر بين جميع الحضور غيرَ ذي دهشة. من المؤكد أنّ الأبعاد المختلفة قد لفتت انتباهي بقوة. أما التفصيلات فإنني أحفظها عن ظهر قلب. سبق لي أن أقمت عامين كاملين في أحد المنازل الدمشقية القديمة. وكنت أحلم دائماً بشراء منزلٍ في ذلك الجزء المفضل عندي من العالم. ولكنَّ الأسعار كانت تسبقني على الدوام بخطوةٍ، أو بخطوتين أحياناً. ما من عمارة عربية أو إسلامية حول الأرض ليس فيها رائحةُ دمشق، حتى (تاج محل) نفسُه يعبق بتلك الرائحة الزكية. وقد عشتُ هذه اللحظةَ بنفسي، واستمتعتُ بها.. مئات السنين، بل الآلاف منها، ونحن نبني أجمل مساكن الأرض. وفجأةً (في نصفِ قرنٍ واحدٍ فقط) نجد أنفسنا مُقمَّطين بالأحزمة العشوائية. والأنكى من هذا كله أننا مازلنا نتغنّى بالياسمين الدمشقي. أكثر من نصف سكان دمشق (أكثر من ثلاثة ملايين إنسان) يقيمون في منازل غير صالحة

للاستهلاك الآدمي. منظر هذه المنازل ضارٌ حتى بالبصر، فهو يجرح العين بفجاجته. كيف نمت هذه العشوائيات؟ من الذي سمح ببنائها أصلاً؟ عشرات الأسئلة المعيبة. وكلُّها قبل وقوع الكارثة. أما وأنّ الكارثة قد وقعت فلم تعد المسألة في العيب وحدَه. لقد صارت المسألة أولاً في الشر الذي بات يسكننا. دمشق التي نتغنى بها لم تعد موجودة. بقي منها اسمها العريق ونساؤها الجميلات. ولا شيء آخر. فلولا أنّ في دمشق رشا ومثيلاتها لقلت: لقد باتت هذه المدغينة ملعونةً تماما. ولكن حتى رشا.هل هي في مأمن من التشوّه أو حتى من الانقراض؟ !هل هي في مأمنٍ من الذئاب الشابّة منها أو الشائخة؟ اتصلتْ بي قبل فيلم الرعب بقليل.كنت أتناول القهوة في الكفتيريا بعد. قالت: "صباح الخير!" ضحكتُ. فعن أيّ صباحٍ بعد العِشاء تتحدث هذه البنتُ المجنونة؟ ردّت على ضحكتي تقول: "يبدأ صباحي أنا عندما أسمع صوتك." قلت لها: "ليت الوقتَ كان نهاراً!" قالت: "لماذا؟" قلت: "اشتقت إليك يا رشا." وماذا بعد؟ أوليس هذا الاشتياق ضرباً من العيب الذي أتحدث عنه؟ أوليس جزءاً من التخلف؟ من الشر؟ فكيف يمكن لفتاةٍ مقبلةٍ تواً على الحياة أن تقاوم خبرة رجلٍ صارت الحياةُ وراءَه؟! وهو فوق ذلك يملك عليها سلطاناً اسمه: الثقافة. أو ليس هذا ضرباً من استغلال النفوذ، حتى وإنْ كان تحت مسمى الثقافة؟ فتاةٌ مقبلةٌ ورجلٌ غائرٌ. الربيع والخريف. هذه المثنوية الأزلية. رواء الصّبا الغضّ في مقابل التغيرات الفيزيولوجية الفظيعة التي يسميها الأطباء: عكسيّة. فتاة لم تبرح الطفولةَ إلا قبل حينٍ من الزمنِ قليلٍ كثيراً في مواجهة بهلوان يقدم لها خدائعَ الحياة على نحوٍ يثير الإشفاقَ حيناً والإضحاكَ حينا.رجل يستطيع أن يتحدث ساعاتٍ طوالاً عن البون الشاسع بين القشيري وبين مجنون ليلى. "القشيري،على قلّة إنتاجه، لا عديلَ له بين شعراء الغزل العِذريّ عند العرب.بل إنه بلا عديل بين شعراء العصر الأموي قاطبةً. لا تنصتي بعد اليوم إلى أساتذتك الجامعيين يا رشا، فهؤلاءِ متخمون بالجهل.تريدين أن تعرفي طبعا وجه التفرد لذلك الشاعر الذي مات في الثالثة والعشرين من عمره.هذا حقك بالتأكيد.هذا واجبي كذلك.إذن، اسمعيني قليلاً." والقليلُ يصير كثيرا.والبنت تنصت

بحواسها جميعا لكلّ التّرهات التي طالما أتقنها هذا المثقف في مراتٍ سابقة. إنها الوصفةُ المضمونةُ النتائجِ ساعةَ نصب شباك الغواية.إنها الوصفة السحرية بين شروق الشمس وأفول القَمر.اشتقت إليك يا رشا.أم تراني كاذبالا أم إنني ذئبٌ بلغ من العمر عِتيّا وآن له أن يتلقى الضربة الأخيرة ويهوي إلى قاعٍ سحيقٍ لا قاعَ له؟ أظن أنه يجب عليّ أن أكون سعيدا لأن هذه المدينة قدَ صارت بلا ليل.أسئلة كثيرة تدور في رأسي كل يوم عن هذه المدينة التي باتت بلا ليلٍ.لا سهر.لا كتابة. كثيرون هم الذين يسألونَني: كيف تقضي الليل هذه الايام إذن؟ أقيم، منذ شهور عدّة كما أسلفتُ، في منزل صديقي عند سفوح جبل قاسيون حيث تتموضع على قممه المتعددة مختلف المدافع وراجمات الصواريخ التي غالبا ما تنقضّ على أهدافها ليلاً، كأنّ بها حياءً-على رأي المتنبي. يرتجّ المنزل على وقع الانفجارت، حتى ليكاد يرقص، وأروح مع الاصوات أخمّن الأهداف وأتخيّل ما يمكن أن يكون قد حلّ بها، وأحاول التعرف على أنواع المدافع مستعينا على ذلك بخبرة صغيرة، قديمة، تعود إلى (خدمة العلم)، فقد صدف أن خدمت في سلاح المدفعية. لم أخض أية حروب. ولكننا كنا نجري المناورات بالذخيرة الحيّة بين حين وحين. إذن، أسمع، أفكر، أخمّن، ثم عندما يأتي الصباح أكون قد تعبت من العبث، فأنقبر في الفراش غيرَ مبالٍ بأي وقتٍ لنومٍ أو استيقاظ:؟ شيء عندي أعمله.هي ليلة من العمر وانسلخت بلا طائل، رغم أن ليالي العمر معدودات. بئس العمرُ هذا!!! في ليلتي الفائتة - ولست أعرف كيف أو لماذا- حصل أمر غريب عن عادتي في الشهور الاخيرة: استطعت أن أفكر وأتذكر وأكتب. تذكرت أيام الدراسة في المعهد العالي للسينما في موسكو. تذكرت،على نحو خاص، مادة اسمها(نظريات الدرامة). تذكرت الاستاذ الذي كان يدرّسنا تلك المادة. تذكرت يوم الامتحان (ا؟متحانات في روسيا السوفياتية ليست تحريرية، ولا جماعية. كلها شفهية، وكل طالب على حدة). دخلت القاعة، واقتربت من الطاولة حيث يجلس الاستاذ. لم يقل لي: اجلس (وهذا مؤشر سيء طبعا). نظر إليّ وابتسم وقال: "هات دفترك." (مؤشر سيء آخر، فالاستاذ لا يطلب دفتر الامتحانات، الذي يملكه الطالب إلا بعد انتهاء

المقابلة). قدّمت الدفتر للأستاذ، وقلت له: " ألن تسألوني شيئا؟ " قال: "لن أتعب نفسي معك." وكتب على الدفتر ما رآه مناسبا، ووضع توقيعه، وأعاد الدفتر إليّ. قلت: "هل تسمحون لي يا حضرة البرفسور أن ألقي نظرة على العلامة؟ " قال: "تفضل." فتحت الدفتر، فوجدت في خانة العلامة: (مقبول). وهذه العلامة تعني: ناجح بأدنى الدرجات. ابتسمت وقلت له: "لماذا هذه المقبول وأنتم لم تسألوني ولو سؤا؟ واحداً؟! قال: "لانك طالب مشاغب." قلت: "شكرا حضرةَ البروفسور! هل أستطيع الانصراف؟" "تفضل." وضعت الدفتر الصغير في جيب قميصي، وغادرت القاعة.. في ليلتي الفائتة تذكرت أنني لم أكن طالباً مشاغبا؛ كنت شاباً صغيراً مقبلاً على الحياة بنهم. وكنت عنيداً في بعض المواقف. تذكرت أن علاقتي بأستاذ (نظريات الدرامة) كانت شائكة. وكان لي علاقة شائكة أيضا بأستاذ مادة (الفلسفة) وبأستاذ مادة (الألحاد) وبتلك الاستاذة الشقراء الجميلة التي كانت تدرسنا مادة (علم الجمال)، وبالسيدة العجوز التي تدخن الكثير من السجائر وتدرسنا مادة (السينما والأدب). وعدا هؤلاء الخمسة كان ثمة واحدٌ وعشرون أستاذاً لواحدةٍ وعشرين مادةً مختلفة، ربطتني بهم علاقةٌ طيبة، حتى إني حصلت على علامة (ممتاز) غير مرّة. إذن، لم أكن طالبا مشاغبا، أو غبيّا، أو كسولاً. فأين المشكلة مع بعض الاساتذة؟ أين المشكلة مع أستاذ (نظريات الدرامة) مثلاً؟ ربما كنت أهابه أكثرَ من اللزوم، شأني شأنُ بقية طلاب صفي. كان عددنا أربعةَ عشرَ: سبعة شباب وسبع صبايا، وكلنا في عمر الورود بعد. كنا قابلين للتقصف بسهولة. وأستاذنا شخص مشهور. مؤلفاته في الاسواق تلقى رواجا واسعا. كان أحد كبار المثقفين في الحقبة السوفياتية المتأخرة. ولكنه كان متعاليا على طلابه الذين مازالوا في حقل الثقافة يَحْبون بعد. لا يقدرون على المشي بعد. وكان هذا الرجل المشهور يطالبنا بالذهاب إلى الاولمبياد والاشتراك في سباق الماراثون. وربما كان يطالبنا بأكثر من ذلك: التتويج بالميدالية الذهبية، فنحن نستحقها حتماً، ما دام هو أستاذنا أو مدربنا. طلبك هذا يفتقر إلى العدل يا حضرة البرفسور. قررت يوماً- في إحدى المحاضرات - أن أكون مشاكسا بحكم عناد الشباب. قلت له: " يا حضرة

البرفسور! أنتم تسمونها نظريات، ولكنكم تتحدثون عنها بوصفها قوانين.أ؟ ترون في هذا تناقضا ما؟ " ردّ علي يقول: "الدرامة التي نعرفها هي نتاج تجربة البشر منذ سوفوكل الاغريقي وحتى ميلر الاميركي مرورا بشكسبير الانكليزي ومولبير الفرنسي وإبسن النرويجي وتشيخوف الروسي." رحت أهز برأسي موافقا على صحة هذا الكلام، وسألت: "وماذا بعد؟" تنهد البرفسور وقد بدأ يضيق بي ذرعا، فقد كان يكره الأسئلة من طلابه، وقال: "هذه الدرامة عرفناها جيدا، وفي التالي يمكننا الحديثُ عن قوانينَ من نوع ما.- واستدرك، وأضاف - ولكنْ.. - واستدرك مرة ثانية - ولكنّ التجربة الانسانية لم تستكمل دورتها." "إذن، ماذا؟" " إذن، الحياة مفتوحة على كل الاحتمالات. ومادامت كذلك فلا يمكن للنظرية أن ترقى إلى مستوى القانون، فقد تفاجئنا الحياة في أية لحظة بأمر ينسف الكثير من القواعد التي بنيناها خلال أكثر من ألفي سنة." " أمرٌ مثل ماذا حضرة البرفسور؟ الحرب مثلا؟ لقد خبرتها البشرية جيدا. أنتم هنا في روسيا أكثر الناس درايةً بويلات الحروب من بعد أن عشتم صراعاً دموياً مرعباً مع النازية الألمانية.أريد أمثلة حضرة البروفسور عن طبيعة ذلك الشيء الذي يمكنه أن ينسف القواعد التي بنيناها خلال أكثر من ألفي عام.السلطة مثلاً؟ العبودية؟ الحب؟ لديكم في أوروبا قصتان عن الحب أتعبتا عيون البشر حول الأرض من البكاء. لديكم روميو وجولييت. ولديكم الأهم منها: تريستان وإيزولدا.أظن أن جميع الأمم قد خبرت الحب جيداً. نحن العرب على سبيل المثال كان عندنا قبيلة اشتهرت بأن الشباب فيها والصبايا كانوا يموتون حين يعشقون.هذه القبيلة اسمها عِذرة.وقد ظهرت لدينا سلسلة طويلة من الشعراء اسمهم العِذريون، رغم أنهم لا ينتمون بصلة قربى إلى تلك القبيلة." لقد تعمدت الاستفاضة في الحديث.كنت مستعداً أن أقول أي كلام من أجل إغاظة البروفسور المغرور الذي وقف وسْطَ القاعة مكتّفاً ذراعيه حول صدره يتأملني (باستخفافٍ حتماً)، أما زملائي فقد كانوا سعداء بجراءتي، كانوا يبتسمون لي ولو بعيونهم فقط."هل انتهيتَ يا ولد؟ " قال البرفسور وهو يشملني بنظرة فيها الكثير من عدم الرضا.. " انتهيت من ماذا حضرة البرفسور؟ " " من محاضرتك عن

تاريخ الحب حول العالم." " محاضرة؟.أنا؟.أبداً.. لم أقصد شيئاً من هذا." " ألم تكن تقرأ علينا درساً في تريستان وإيزولدا، وأولئك الشباب والصبايا الذين كان يقتلهم الحب؟ " " لا أبدا حضرة البرفسور.كنت أريد أمثلة حول طبيعة ذلك الشيء الذي قد يجعلنا ننسف تعب آلاف السنين.فقط أمثلة.أريد أمثلة حضرة البرفسور." " تريد أمثلة. حسناً.ولكن قل لي: هل تعرف أحداً من هؤلاء الشباب والصبايا الذين يموتون من العشق، والذين أستطيع أن أراهن بأنك لست منهم؟ أظنك تنتمي إلى فصيلة بعيدة عن الموت حباً. أظنك من هواة التسكع بين النساء.أليس كذلك؟ " إلى حدٍ ما حضرة البرفسور." "إلى حدٍ ما! يا سلام! وماذا تعني هذه ال إلى حدٍ ما؟ هل نحن أمام نصف حقيقةٍ مثلاً؟ أو إننا نتحدث عن ربع حقيقة؟ أليس ثمة قانونٌ واضحٌ يحكم علاقتك بالنساء؟ ألا تملك مثل هذا القانون؟! " " أظن أنّ أمراً كهذا لا يخضع لقانون ثابت. " أيّ أمرٍ هو؟ هل تستطيع أن تحدده بالضبط؟. نعم أستطيع. الحب. المرأة." "وبماذا تختلف الدرامة عن المرأة؟ " " لا أعرف حضرة البرفسور.لا أعرف أوجه الاختلاف بين الاثنتين، ولا أعرف أوجه التشابه أيضاً. برافو! والأصح طبعاً ليس برافو.هل تدري لماذا؟ لأنك تملك نصف حقيقة، ثم لا تبذل أيّ جهدٍ للبناء على ما تَملك. هل هو نوعٌ من الكسل مثلاً؟ " لا حضرة البرفسور، إنني لست كسولاً. " إذن أنت مشاغب أو فوضوي." " لستُ فوضوياً ولستُ مشاغباً أيضاً. " لستَ كسولاً، ولستَ مشاغباً، ولستَ فوضوياً، فمن تكون؟ لماذا لا تحاول بناء شيء على ما تملك من معرفة؟ " " لم يخطر الأمر ببالي يوماً. " إذن، متى سيخطر ببالك؟ حين تقع في هوى بنتٍ من هؤلاء الذين يموتون حين يعشقون؟! " " لا أظنّ بوجود مثل هذه البنات في زماننا المعاصر. " كيف وصلتَ إلى هذا الاستنتاج الغريب؟!! قلت إنها قبيلةٌ. والقبيلة بالضرورة مجموعةٌ كبيرةٌ من الناس. أين ذهبتْ جيناتهم؟! لا يمكن أن تكون قد تبخرت. وبالمناسبة أمر هذه القبيلة العربية ليس سراً، عديدُ الكتاب الأوريبيين كتب حول هذه الظاهرة الغريبة،وبالمناسبة أيضاً، ماذا أنت فاعلٌ لو وجدتَ نفسك عالقاً في الغرام مع واحدةٍ من هؤلاء البنات؟. " لا أظن بوجود

هؤلاء البنات اليومَ حضرةَ البرفسور. لا تظن!. رائع.. جوابٌ رائع يعفيك من أية مشقة في التفكير! هذا ليس جيداً! ويفضّ البرفسور اشتباك ذراعيه حول صدره ويستدير منصرفاً إلى كرسيه المريح على المنصة الكبيرة وهويردّ بتعاليه المعتاد على أسئلتي الصبيانية: "تكون مخطئا أيها الفتى إذ تعتقد بأن الهوّةَ كبيرةٌ في الدرامة بين النظرية وبين القانون. إنها ليست سوى خيطٍ رفيع جدا عليك أن تملك بصراً حديديا لكي تراه. وحين تراه يجب أن تحافظ عَلى بصرك حديديا من أجل ألا تفقد ذلك الخيط، لانه سوف يساعدك في الوصول إلى خلاصك." " خلاصي من أي شيء يا حضرة البرفسور؟ " "ومن أين لي أن أعرف ماذا تخبئ لك الحياة؟! الشيطان وحده يعلم ذلك. وفي جميع الاحوال أنت لست طالبا في كلية الرياضيات أو الفيزياء.إنْ كنتَ تبحث عن سهولة العيش فاذهب إلى هناك.هناك الحياة سهلة.هناك القوانين واضحة.. واضحة، صارمة، باردة، محايدة، وبالتالي الحياة عندهم سهلة جداً.. سهلة إلى حد أنهم قادرون، ببساطة،على بناء محطات الفضاء، وقادرون، ببساطة أكبر،على الوصول إلى المريخ في الزمن القريب، قادرون على القيام باكتشافات هم يسمونها مذهلة، وأنا أسميها هراء، فإنني أتحداهم جميعا أن يحضروا الان إلى هذه القاعة وأن يكتشفوا ما في نفس طالبي المسكين الذي يقف أمامي عاجزاً عن معرفة الفرق بين النظرية وبين القانون. تذكر دائما أيها الفتى أنك لا تتعاطى الرياضيات أو الفيزياء. تذكر دائما أنك هنا. وهنا الامور معقّدة، فهنا قد يجتمع الشيءُ وضدُّه في سلةٍ واحدة، ويكونان برفقةٍ طيبةٍ جدا. عليك أن تتأقلم مع هذا الوضع، رغم غرابته." وبقيت لا أفهم، فكانت النتيجة: طالب مشاغب ناجح بعلامة مقبول.

واتس أب

ولك وينك لك نجيب؟!

شووووو مشتقلاااااقك.. مشتقلك ومشتقلك ومشتقلك.

لهيك عم تنساني؟

ولا رحت عن بالي لحظة.. بربي قبل ربع ساعة كنت عم أتذكر اليوم اللي حكيتلي فيه حادثة بيتهوفن مع غوتة. وأبداً ماني نسيانك يا صديقي. إنّما صاير عم أكره التلفونات والواتسات والإيميلات.

يعني ما خطرلك تكره إلاّ هيْ الشغلات؟! ليش عنّا طريقة تانية للتواصل؟

يمكن ما عنّا، لكن بالأفكار والمودّة ما انقطع تواصلي معك لحظة. إنت كيفك؟

لا بأس. لساتني ببيت عبد اللطيف.. رح يرجع للشام بعد حوالي أربعين يوم، وساعتها رح روح للفندق.. المهم هلأ إنتَ. طمّني عنك. أو خليني أكون واضح أكتر، وأسئلتي محددة أكتر. طمنّي عن: الصحة والفلوس.

عم رقّع مسلسلات وماشي الحال. هلأ عم رقّع مسلسل بسعر فنطزة. وبهاليومين ببعتلك.

تبعتلي شو؟

ببعتلك كام ألف دولار. لا تعتبر حالك وحيداً، فنحن مازلنا سوا. شو أخبار بيت صحنايا؟

حبيبي نجيب!. وضعي المالي مش سيء. أنا بدي أتطمن عنك، وفقط. بيت صحنايا ساكنة فيه أسرة من مخيم اليرموك.

لأ رح أبعتلك فلوس.

لا تبعت شي. بعدني صامد. وإنْ احتجت ذات يوم رح أتذكرك.. بالمناسبة، كتيرين ع الفيس عم يسألوني إنْ كان بيني وبينك خلاف.

الفيسبكيون يصطفلوا. بس خلاف شو اللي ممكن يصير بيني وبينك؟

لأننا ما عدنا عملنا شي سوا.

حق مع الناس. وأنا من جهتي مازلت آمل إنو نتابع مشروعنا. لكن يا ريت تطلع من الفيس. ولا تقوللي إنك تعلقت فيه وصرت عريق بهالمجال ولآخر الموشح إيّاه.

لا عريق ولا هوا. يا دوبني بعرف أفتح النت.

والنسوان؟ طمني عن النسوان.

النسوان بهالمصيبة اللي نزلت على سوريا أكتر من الهم ع القلب.

مصائب قومٍ عندَ قومٍ فوائد.

لا فوائد ولا هم يحزنون.

ليش بقى؟

لأنّه هالمصيبة ولّدتْ مصيبة تانية.

ألا وهيَ؟

هي إنّه هالنسوان كلهن بدهن منك شي واحد.

لا تقوللي فلوس.

لا لا، أبداً مو فلوس. بالعكس تماماً. شغلة كتير بعيدة عن الفلوس.

شوقتني.

الكل عم يفتش عن الحنان.

إي وين المشكلة؟

المشكلة عندي أنا. فاقدُ الشيء لا يعطيه.

ما عم أفهم.

بعد جلسة أو جلستين مع امرأة ما بحس إنه اللي عندي تجاهها هو مجرد شفقة.

شفقة لك حسن؟!!! امرأة وشفقة؟!!! كيف زبطتْ معك هيْ؟!!!

ليش أنا قلتلك زبطت؟ مجرد إني عم أحكيلك اللي بيصير معي.

العمى على هالقصة!

ما كل وحدة فيهن عندها ألف حكاية بتبكي.

يعني بفهم إنك عايش بلا امرأة؟

بالضبط.

مو خبرية. والحل؟

قول هلأ عم أكتب، وما كتير عم فكر بالنسوان.

شو عم تكتب

عم أكتب مسلسل للتلفزيون بعنوان: الندم

الكتابة ممكن تكون حل مؤقت، وبس. لكن قوللي: وين راح نبع الحنان اللي كنت طوال عمرك بتتميز فيه عن بقية الشلّة؟

والله يا نجيب الهيئة إنه الينابيع كلها جفّت بهالمصيبة اللي نحن فيها.

طيب صحتك شو عاملة؟

متل ما أنا يوم افترقنا ببيروت قبل سنة وشوي. لا أحسن ولا أسوأ. بالمناسبة، إنت ما حكيتلي عن صحتك.

وأنا كمان متل ما تركتني قبل سنة وشوي، لكنْ بتعرف شو؟ عم حس حالي غاضب وخرفان.

2013 - 3 - 15

تذكرت في ليلتي الفائتة أن أتذكر (نظريات الدرامة). ليس لديّ مراجع، فأنا لا أقيم في منزلي. وفي الوقت نفسه لا أحسن التعامل مع الكومبيوتر والانترنت بأكثر من تقليب صفحات الفيس بوك. إذن، عليّ أن أعتمد على ذاكرتي فقط. وبالاعتماد على الذاكرة أستطيع أن أقول بكل جراءة: لا وجود لهذه النظريات مطلقاً.. نحن ندّعي وجودها من أجل الالتفاف على بعض المسائل الدرامية الشائكة. فقط ندّعي ذلك. وأعترف بأكثر من هذا: خلال عام دراسي كامل قضيته محاضِراً في طلاب دبلوم علوم وفنون السينما لم أستخدمَ مصطلح (نظريات الدرامة) مرة واحدة، رغم أني أحاضر في مجال السيناريو حصراً. يقولون: لكل شيخ طريقة. هذا قول صحيح طبعاً، ولكن ليس هنا مقامه، فهم يقولون أيضاً: لكل مقام مقال. والدرامة في المقام الاول ليست علمَ المنطق حسب، بل علمُ الحياة جميعةً. أي هي أولاً: علم النفس. علم الروح. فمن يستطيع تأطير هذه العلوم الجوّانية كلها في قوانينَ أو حتى في نظريات؟! وحدَه الله على ذلك قدير. فلا تضعْ نفسك مكان الله إذن. لكن، ورغم ذلك كله، حاول أن تجتهد. حاول، ولو على سبيل تزجية الوقت، أن تتذكر.. تذكرتُ في ليلة الأمس أولى تلك النظريات بسهولة: (الضغط والاستجابة)، وبسهولة أيضا تذكرت الثانية: (غباء حروف العطف)، والثالثة: (محاكاة الحياة-الخدعة الكبيرة)، والرابعة: (السحر الكامن في حرف؛ إذ الفجائية)، ثم الخامسة: (الهدف الادنى والهدف الاسمى)، والسادسة: (الاقناع والامتاع). وهنا بدأت الذاكرة تعاني قليلاً، فأشعلتُ سيجارةً، وساعدني النيكوتين سريعاً.استطعت أن أستحضر (غبار العمل) و(القدرة الكلية) و(الحتمية والمصادفة) و(قوة الصمت)، والعديدَ سواها.تذكرت نحو ثلاثَ عشرةَ من تلك النظريات التي أصرُّ لى كونها افتراضية، حتى لو احتجَّ عليّ جميع أساتذة الدرامة حول العالم. وبناءً على ما تذكرت، شرعتُ بأمر بدا لي مسليّا في البداية، فهو-على الاقل- يلهيني عن ارتجاف البيت من

قذائف قاسيون، فالقصف في ليلتي الفائتة كان عنيفا على نحو غريب. وضعت على الطاولة مجموعة من الاوراق الكبيرة، ومجموعة من الاقلام الملونة. رسمت الجداول المختلفة. رسمت بعض الخرائط. وشرعت بتطبيق النظريات التي تذكرتها على المأساة السورية الراهنة. استحضرت جميع اللاعبين: النظام، المعارضة، الجيش العربي السوري، الجيش السوري الحر، العصابات المسلحة، الشبيحة، حزب الله، داعش، أبو الفضل العباس، جبهة النصرة، باراك أوباما، بوتين، إيران، السعودية، مخيم اليرموك، قطر، الموت في بلاد القمح جوعاً، إسرائيل، الرؤوس المقطوعة، حفلات الاغتصاب الجماعية، الخ. ..لم أنس أحدا، ولا نسيت شيئا. أو: هكذا ظننت. ولكن، ما هذه الخلطة العجيبة؟! وزّعت الجميع على الجداول المناسبة ضمن العلاقات التي من المفترض أنها سويّة. وبناء على تلك العلاقات والمصالح وضعت عديد السيناريوهات، ورحت أختبر النتائج المحتملة. لم أنجح في الوصول إلى أية نتيجة مقنعة. كيف هذا؟! إما أنّ نظريات الدرامة تكذب، كونها ليست قوانين، وإما أنّ الخلطة المأساوية أكبر من التصديق. صرفت وقتا طويلا في محاولة اكتشاف مكمن الخلل. غير أني لم أصل إلى مطرح مقنع. لم أنجح في أيٍ من السيناريوهات التي وضعتها. كان يوجد دائماً ثغرةٌ ما يتسرب منها الشك إلى سلامة ما أصل إليه من استنتاج. وهكذا، لم يعد الامر بالنسبة إليّ مسليًا. صار تحديًا شخصيا، فأنا رجل أكاديمي، ومن واجبي أن أبرهن عن كفاءةٍ ما، أمام نفسي على الأقل، حتى وإنْ كانت النظريات افتراضيةً فعلاً. غيّرت خطة العمل. رحت أحاول أن أجد للمأساة السورية عديلاً دراميًاً مناسباً. استحضرت أهم الدرامات التراجيدية في الادب العالمي. استحضرت (أوديب) و(هاملت) و(لير) و(ماكبث). استحضرت (إليكترا) واستحضرت (الحِداد يليق بإليكترا) و(كلُّهم أبنائي) و(رغبة تحت شجرة الدردار). لكنّ هذه جميعها لم تساعدني في شيء.غيّرت اتجاه البحث من جديد.استحضرت الحروب العالمية والحروب الاقليمية والحروب الاهلية والحروب الصليبية. استحضرت شارلي شابلن ومحاولاته المستميتة من أجل كسر منطق الحياة. استحضرت مباريات كرة

القدم الشهيرةَ بمنعطفاتها الدرامية الحادّة مثل مباراة (البرازيل-إيطاليا) في موندیال1982.. ماذا جرى وقتئذ؟! وكيف انهزم من كان عصيّا على الهزيمة؟! الدهاء في مواجهة المهارة. المهارة البرازيلية تعلن استسلامها أمام الإيطاليين الأكثر دهاءً بين الجميع. والدهاء خبرة. والخبرة عمل تراكمي. برافو إيطاليا! ربما كانت شمس (توسكانا) أجمل الشموس التي رأيتها في حياتي. أما القمر - معذرةً إيطاليتي الحلوة - فإنه ليس يليق بغير دمشقَ القديمة. النظريات التي أمامي تجيب عن كل ما مرّ بي من استفسارات إلى الآن. إذن، لماذا لا تصدقني القولَ في الحالة السورية؟ غيّرت اتجاه البحث مجدداً. استحضرت الكوارث الطبيعية من زلازل وبراكين وفيضانات وتسونامي. بلا فائدة تُرجى. استحضرت الكوارث التي وقعت بفعل أخطاء البشر مثل انفجار مفاعل (تشيرنوبل) وانفجار مفاعل(فوكوشيما)، وهذه أيضا لم تساعدني، فماذا أفعل بعد؟ استحضرت كل شيء، وكل أحد. بقيت أجاهد حتى الشمس من أجل سد الثغرة التي كانت تعلن عن نفسها في كل مرة. وفي كل مرة لم يكن أمامي سوى الخيبة. كنت كمن يقبض على الريح. تعبت في ليلتي الفائتة. كثيرا تعبت، بلا طائل. تعبت حتى أيقنت بأن المأساةَ السورية عصيّةٌ على الدرامة وعلى نظرياتها.عندئذ، تذكرت كلام البرفسور حول أن التجربة الانسانية لم تستكمل دورتها، وبأن الحياة قد تفاجئنا بأي شيء لا يخطر على بال. وأيقنت في النتيجة بأنني قد كنت طالباً غبيّاً لا يستحق النجاح بأكثرَ من: مقبول. وحمل إليّ هذا اليقينُ بعض العزاء. تركت الورق والأقلام الملونة. تركت وجع القلب. ألقيت بالذاكرة إلى سلّة المهملات.ألقيت بجسدي المنهك على السرير، ورحت أجاهد في الحصول على إغفاءةٍ، مهما كانت قصيرة. ولكنني كنت كمن يطلب المحال. لقد كان النوم عصياً عليَّ كما المأساةُ السوريةُ على الدرامة ونظرياتها.أم أنها ليستْ عصيّة؟ أم لعلّني ارتكبتُ خطأً أو خطأين في غبار العمل؟ التقارير كلها تفيد بوجود مقاتلين من ستين جنسيّة يتحاربون على أرض سوريا. من المؤكد أنني قد أضعت بعض عناصر المأساة وأنا أرسم الخرائط الملونة،وأضع السيناريوهات المختلفة، ولهذا كان الإخفاق لي حليفا. سوف أعيد الكرّة، ولكن ليس الآن. ما أريده الآن ليس

إلاّ غفوةً أسرقها من فم الزمن. تقلّبت في الفراش كثيراً.ماذا أفعل يا ربي؟! النوم.. هذه النعمة.. هذه المتعة.. هذه اللذة.. هذه النشوة.. كيف أصل إليها مرّةً من دون عناء؟! بعض الناس يدخلون في النوم ببساطة صعبة التصديق.أعرف شخصاً يدخل في النوم ورأسه مازالت في الطريق إلى الوسادة. سألته مرّة: "كيف تفعل ذلك؟ "قال: "هذه موهبة من الله سبحانه وتعالى." وأضحكتني كلمة موهبة التي استخدمها. ردّ على ضحكتي بجدّية، وقال: "لماذا تضحك؟. كلّ إنسان موهوبٌ بما خُلقَ له.. وأنت، ببساطة، لم تُخلق للنوم." مِن أجل أيّ شيْ خُلقتُ إذن؟ وأيّ عذابٍ هذا الذي خُلقتُ من أجله؟! قالت لي رشا مرّة: "أنا وأنت لم نُخلق للنوم." قلت: "إذن، من اجل أيّ شيء خُلقنا أنا وأنت يا رشا؟" قالت: "من أجل أن نحرس النيام." وقالت: لايجوز أن ينام الجميع في وقت واحد، فمن ذا الذي يحرس الكونَ عندئذٍ؟! مَن ذا الذي يحرسُ الكائناتِ إنْ كان الجميعُ نياما؟! ورزان قالت لي مرّةً شيئاً مشابهاً. تركتْه لي هديةً في دفتر البلاهة. ونقلتُه بدوري، مع بعض التصرف، إلى سرِّ السعادة.. رجعت أقرأ سرّ السعادة وانتابني شوقٌ إلى رزان، رغم انكشاف أمرها الذي بدا لي مقززاً، وتصورت للحظة أنني ربما كنت قاسياً في الحكم على هذه المرأة، حتى إنني (للحظة أيضاً) أحسست بعدم الرضا عن نفسي، فهذه المرأة واحدٌ من فصول حياتي. والحياة حلم. الحياة مسرحيةٌ في فصول. لا يمكن للمسرحية أن تكون جميلةً لو أسقطنا منها أحدَ فصولها، مهما كان هذا الفصل موجعاً أو قبيحا. الحياة سلسلة لا يمكن الحفاظ على وحدتها لو انتزعنا منها واحدة من الحلقات. لن أمارس المزيد من الحماقة. يكفيني الإحساس بالوجع الذي عشته لحظةَ حدثتها عن رشا. أظن أنّها قد استشعرتْ الغرابة في صوتي ونبرته. ومن المؤكد أنها قالت في نفسها: هذا ليس حسن. إنها تحفظني عن ظهر قلبٍ أيضاً مثلما أحفظها. إلى أيّ دَرْكٍ دفعتِ بي يا رشا؟! إنك يا رشا مثلُ فاعلِ الخير.. لقد قال لي: أنت الطفل الذي يجب علينا أن نحميه وأن نحافظ عليه. أترين يا رشا؟ أنا الطفل وليس أنت.. أنا الطفل الذي في طور الكهولة. وقالت لي هناء يوماً: أنت الطفل الذي خلقه اللهُ وقال: هذا حسن. نطقتْ بهذا الكلامِ مرتين. المرة

الأولى في ربيعنا الوحيد، والمرة الثانية في خريفنا الوحيد أيضا. وهذا هو زمن علاقتنا. حتى إننا لم نتعدَّ الخريف إلاّ قليلا. ثمانية شهور هي غصّة الحياة. ليت تلك الشهورَ الثمانيةَ في الحياة ما كانت!

دمشقُ
اليومَ
في عزِّ الظهيرة
الشوارعُ مزدحمةٌ بالمركبات والناس
خطواتٌ متهدلة
نظراتٌ غائمة
والحرُّ شديد
امرأة أربعينيةٌ تمشي على الرصيف وحيدةً،
تقول جملةً يتيمةً وتعيدها:
الله يكون بعون اللي إلو معاملة عند الدولة
رجلٌ خمسيني يسألُ نفسَه أو يسألنا:
أنا شو نسيت بالبيت؟!
امرأةٌ شابةٌ تبكي بحرقةٍ والموبايلُ على أُذنها:
ليش كل هالقسوة؟! أنا شو الذنب اللي عملته؟!
وفي الصيدلية
كان الصيدلانيّ يقول لهذا وذاك وهذه وتلك:
هادا الدوا مو موجود
أما المقهى فقد كان يغصُّ بالناس
ولا أعرف إنْ كانت مجردَ مصادفة:
الجميع كان يمسك بنبريش أركيلة.

2015 - 8 - 8

هناء

التقيتها أول مرة في منزل أحمد - صديق لي منذ المدرسة الثانوية.. درس الطب في جامعة دمشق، وتخصص في الجراحة العامة، وتزوج بزميلةٍ له اسمها ليلى متخصصة بالأمراض النسائية، وأقاما في منزلٍ مستأجر في حي المزرعة، وسافرا لاحقاً إلى بريطانيا، ومازالا يعملان هناك في أحد مشافي مدينة ليدز.أو ربما صارا الآن على المعاش.لا أعرف. فقد كان آخر اتصالٍ بيننا قبل تسعة أعوام تقريبا.كانت هناء قريبةً بالدم لطبيبة الأمراض النسائية. أتذكر جيداً أنها لم تَلفت انتباهي بشيء خاص في ذلك اللقاء المسائي. كان يوم ثلاثاء. قضيت في منزل صديقي قرابة ساعتين أو أكثر بقليل. خرجت بعدها إلى الطريق، ورجعت إلى منزلي. وأتذكر جيداً أنني نسيت تلك الصبيّةَ تماماً. لم تمرق ببالي ولو مرةً واحدة طوالَ أسبوعٍ كامل، هي المدّة التي فصلتْ زيارة منزل صديقي التالية عن الزيارة السابقَة. كان يوم ثلاثاء أيضاً. والأمر بالنسبة إليّ مجرد مصادفة. وعرفت لاحقاً أنّ الأمر بالنسبة إلى هناء لم يكن كذلك. هي نفسها صارحتني بالحقيقة. ها هي أمامي من جديد. ومن جديد لم تلفت انتباهي إلاّ قليلا. فكّرت: ربما كانت تقيم عند قريبتها لسببٍ أو آخر. لم أسأل عن الموضوع، فهذا شأنٌ عائليٌّ لا شأنَ لي به. عرفت أنها تدرس الهندسةَ في جامعة دمشق، وأنها توشك أن تنهي عامها الدراسيّ الثالث. قال أحمد عنها ونحن الأربعة نشرب القهوة: بالمناسبة، هناء تنظم الشعر أيضاً. قلت لها: برافو! ابتسمتْ، وابتسامتُها عذبةٌ، وقالت: برافو على ماذا؟ قلتُ،وكنت منشغلاً بابتسامتها: والله لا أعرف.هي كلمة تُقال.وفي

جميع الأحوال، برافو عليكِ! ضحكتِ البنتُ، وسرّني ذلك. وغادرتُ المنزل. ولم أرجع إليه إلاّ في الثلاثاء التالي، ومن جديد هي بالنسبة إليّ مجرد مصادفة، حتى إنني لم أكن أفكر أيّ أيام الأسبوع هذا؟ وأتذكر أنني لم أتذكر البنتَ بعد تلك الابتسامة إلاّ قليلا. لم أتفاجأ بوجودها في منزل ذلك الصديق، فقد كنت أظن أنها مقيمةٌ هناك. وعرفتُ لاحقاً أنّ هذا الأمر أيضاً ليس كذلك. قالت لي، وكنا وحيدين في الصالون: ما هو يومك المفضل بين أيام الأسبوع؟ ابتسمتُ وقلت: هل هي مقابلة تلفزيونية؟ قالت: فلنفترض أنها كذلك. قلت: في هذه الحال، ليس للمقابلة ما يبررها. - لماذا؟ - لأكثر من سبب. أنا لست مشهوراً، وهذا يعني أنه لن يكون عندك مشاهدون. - لنفترض أنك صرت مشهوراً، وأظن أن أعمالك في المستقبل سوف تلقى نجاحاً، فكيف تجيب عندئذٍ عن هذا السؤال؟ - لا اظن بأنني سوف أجيب عنه عندئذٍ لأنني سوف اكون منشغلاً عن وسائل الإعلام، بالشغل، وعلى العموم، أنا لا أحب الظهور على أجهزة الإعلام. - لماذا تسدّ أمامي المنافذ؟! هو سؤالٌ بسيط، وهذه ليست مقابلة تلفزيونية.ما هو يومك المفضل بين أيام الأسبوع؟ - مادمتِ تصرّين على السؤال وعلى الجواب الذي لا أعرفه، والذي لم يخطر ببالي مرّةً، دعيني أقل لك إنّ أجمل أيام الأسبوع عندي هو ذلك الذي أنجز فيه عملاً جيداً. - هذا يعني أن عليّ أن أختار بين السبت والأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة. - بالضبط، هذا ماعليكِ أن تفعليه. - لماذا تضحك؟- لا أعرف، يبدو لي أنك بنتٌ ظريفة. - ربما كنتُ بنتاً ظريفة، ولكنّ هذا ليس جواباً عن سؤالي البسيط: أيّ أيام الأسبوع هو المفضل عندك؟ - ليس عندي يومٌ مفضل، فجميع أيام أسبوعي سواء. - خسارة! - لماذا هو خسارة؟ - سوف أصنع لك القهوة. ونهضتْ من فورها، وانصرفتْ، ولكنها توقفتْ بباب الصالون، وتلفتت نحوي وقالت: قبل ان أنسى، يومي المفضل هو الثلاثاء. وغادرتْ. رحتُ أنظر إثرَها حائراً. تبدو بنتاً ظريفة فعلاً، وتبدو كمن يضرب لي موعداً ثابتاً: الثلاثاء من كل أسبوع، فاليومُ هو الثلاثاء، وتذكرت أنّ لقاءينا السابقين كانا أيضاً في يوم ثلاثاء. ولكن، ما دامت تقيم هنا فما همَّها

ثلاثاءُ من أربعاء؟هي تعلم أنّ ربّ البيت صديقي، وأنني قد أزوره في أيّ يوم من أيّام الأسبوع. ما الحكاية إذن؟ لماذا الموعد من أصله، إن لم أقل لماذا يومَ الثلاثاء تحديدا؟! الإجابة عن حيرتي كانت بسيطة. زيارة منزل صديقي التالية جاءت يوم الإثنين التالي. لم تكن هناء موجودة. قلت لصديقي وزوجته: أتذكر أنكم كنتم ثلاثة أشخاص، فأين ثالثكم؟ تعمدتُ أن يبدو السؤالُ عفوياً، بريئاً، ومن دون أية نوايا سابقة أو لاحقة. قال لي صديقي: هناء لا تقيم عندنا، بل في بيت الطالبات، غير أننا نحتجزها هنا عندما تزورنا في المساء وتقضي السهرة معنا، نمنعها من العودة ليلاً إلى سكنها البعيد عنا.إذن، هذه البنت كانت تضرب لي موعداً ثابتاً للقاء. سوف أتأكد الأمر في ثلاثائي القادم. ليس غداً، بل الثلاثاء الذي يليه.ووجدتني منشغلاً في التفكير بهذه البنت التي لم أكن أعلم بعدُ أنّ كلَّ الوقت الباقي لها في هذه الدنيا هو أربعةُ أعوامٍ فقط، وبأنّها سوف تموت بالسرطان في سويسرا زوجةً لرجلٍ ثريّ.. نعمْ، لقد كانت تضرب لي موعداً. ففي الثلاثاء التالي كانت على الوعدِ. بل إنها هي مَن فتح لي الباب. ابتسمتْ ونحن بالباب بعدُ، وقالت: كنت واثقة من أنك سوف تأتي، تفضل! استوقفتني وأنا بالكاد قد عبرت عتبة المنزل، وقالت بصوتٍ خفيض: هذه لك.. وأعطتني مغلفاً صغيراً، استلّته من جيب سترتها، ودسّته في يدي.. [عزيزي حسن!. واسمح لي انْ ألفظ اسمك مثلما أشتهي، وبخاصةٍ أنني أكتب هذه الكلمة للمرة الأولى. ولكن ماذا أفعل وقد راودني شوقٌ إليك، واستبدّ بي، ولم أجدك أمامي. وكيف أجدك أمامي في مثل هذه الساعة المتقدمة من الليل؟ إنها الرابعة صباحاً. ماذا تراك تفعل الآن؟ تكتب؟ تقرأ؟ تدخن سيجارة؟ ماذا تفعل؟ أنا في هذه اللحظة أقرأ قصائد محمود درويش.تصور أنّني أنشغل بالشعر، رغم أنّ امتحانات الفصل الدراسي الثاني باتت قريبة. لا تضحك. لا تستغرب.مجنونة أنا. بالمناسبة، لقد صار عندي ملفٌ كامل حولك. إنني دائمة السؤال عنك. يبدو أنّ أمري قد انفضح لدى صديقك وزوجته. وأنا طبعاً لا أبالي. أما صديقك فأظنه متحمساً لاهتمامي بك. إنه مع زوجته يتحدثان عنك بمودة كبيرة. يقولان إنه سوف يكون لك شأنٌ في المشهد الثقافي في البلد، ويقولان

إنك لا تنام الليل. لماذا لا تنام الليلَ يا عزيزي؟ هل أنت مريض؟ أرجو أنك لست كذلك! سوف أتألمُ لو كنتَ مريضاً. يقولان عنك أيضاً إنك تملك ذاكرةً رائعة (بالمناسبة، هذا الأمر ليس جيداً)، ويقولان إنك شخصٌ ذكيٌّ ولمّاح، وأنا أتصورك كذلك، ولكن في هذه الحال يظهر عندي سؤالٌ صعب: هل تراك لم تلتقط إشارتي عندما قلت لك إنّ يوميَ المفضّل هو الثلاثاء؟ ألم تنتبه إلى أنني كنت أطلب إليك موافاتي في ثلاثائنا القادم؟ أم إنّ أمري لا يهمك؟ إن كان أمري لا يهمك، فلسوف أتألم أيضاً. أَصْدِقْني القول.ألم تلتقط الإشارة، أم إنك كنت بي لامباليا؟ أم كان عندك شغلٌ طارىء مثلاً منعك من القدوم إليّ في ثلاثائنا الماضي؟ أرجو أن يكون هذا الاحتمال الأخير هو السبب الذي شغلك عن المجيء. على أية حال، ما فات لا يعود، لذا لا جدوى من العتاب، وما آمله اليومَ بسيطٌ جداً: لا تخذلني مرة ثانية. أرجوك!! أتمنى أن تكون بخير. دائماً. هناء].. قرأت هذه الرسالة عشرين مرّةً أو يزيد بعد أن رجعت إلى منزلي تلك الليلة، ووجدتني منشدّاً إلى ثلاثائي القادم. وجدتني منشدّاً إلى هذه البنت التي بدت لي أكثرَ من ظريفة. هي مَن فتح الباب لي هذه المرةَ أيضا. قالت والابتسامة تملأ وجهها: شكراً! (كلما تذكرتُ تلكَ اللحظةَ شعرتُ إلى اليوم بوخزةٍ في الصدر) وقالت: لحظة من فضلك! وأردفتْ بصوتٍ خفيض: إنهم لا يسمحون لي بالعودة ليلاً إلى مسكني، رغم أنّ البلد أمانٌ، ولكنني هذه الليلة سوف لن أذعن برغبتهم، وأنت سوف تكون شهماً وتتبرع بمرافقتي. هل أستطيع الاعتماد عليك؟ كانت الابتسامة قد اختفت من وجهها، وكان في عينيها رجاء. وجدتني مذعناً لها، وعاجزاً عن عدم طاعتها. أومأتُ لها بعينيّ أن نعم، تستطيعين الاعتماد عليّ، فأنا بأمركِ آنستي!! وهكذا كانت السهرة تلك الليلةَ في منزل الطبيبين مبتسرة. لقد خطّطتِ البنتُ لكل شيء.

هل يسمعني أحد
كفَّ عن الصراخ أيها البحّارُ الشجاع
لا أحدَ يسمعك
فقد مات الجميع

2015 - 5 - 17

الليل مع هناء

خرجنا سويةً إلى الطريق.كان منزل أحمد وليلى بعيداً عن سكن طالبات جامعة دمشق.حاولتُ أن أستوقف سيارة أجرة، فاحتجّت البنت على ذلك من فورها، وقالت: شو عم تعمل؟! قلت: كيف شو عم أعمل؟ مو بدك تروحي لسكنك الجامعي؟ قالت: مبلى، بس مو هادا كان هدفي من شهامتك اللي اعتمدت عليها. - شو كان هدفك إذن؟ - ثم ليش التكسي من أصلو؟! ما نحن شباب، وبالمناسبة قديش عمرك؟ - تسعة وعشرين أو أقل بشوي. - وأنا واحد وعشرين، والطقس متل مانك شايف اكثر من رائع. هادا أجمل ربيع عشته في حياتي. - ما عم أفهم.. شو اللي بدك ياه بالضبط؟ - بدي نمشي، عندك مشكلة مع مشي هي المسافة؟ - لا، ما عندي مشكلة. المشكلة عادةً في الذي تحتذيه المرأة بقدميها. ضحكتْ، وقالت: لا تخاف عليّ حسبت حساب لهادا الشي كمان. وعرضتْ عليّ ما كانت تحتذي. كان حذاءً بلا كعبٍ تقريباً. إذن، لقد خططتْ للأمر كله، أما أنا فعليّ التنفيذُ فقط. كان أمامنا قرابةَ أربعةِ كيلومترات نقطعها من حيّ المزرعة إلى حيّ المزّة. لم أكن من يرسمُ خارطة الطريق. كنت مجرد مرافقٍ لا أكثر. كنت عبدَ آنستِه التي تتحكم بالمسار كما تهوى، فصارت الطريق بطول سبعة كيلومترات ثمّ صارت تسعة، ولكنها في النهاية بلغت العشرين، أو حتى تجاوزت هذا الرقم. أظن أن البنتَ قد رتّبتْ للمسألة على نحوٍ لا مكان فيه للخطأ. كانت تطيل الطريق، ولم أكن أعلم في البدء لماذا، فقد مشينا مسافةً غير قصيرةٍ صامتين تقريباً. كانت قد سألتني: إنت بتحب الربيع؟ - لأ. أنا بحب الخريف. -

كيف هيك؟! إنت عم تفاجئني. - بفهم من كلامك إنك بتحبي الربيع؟ - أنا بحب الربيع كتير. - هذا حقك، وبالتالي ما عم تفاجئيني. - كيف؟ - من دون كيف. لو بتقوليلي مثلاً إنك ما بتحبي الدّراق، أو مثلاً ما بتحبي المشمش بل تحبين الخوخ لقلت لك أيضاً إنك لا تفاجئينني. - كلمة بالفصحى وكلمة بالعامية! ماني فهمانة شي. إنت عم تحكي مع حالك؟ - لا أبداً. عم أحكي معك. أنا ما بعرفك وإنتي ما بتعرفيني، فليش حتى يفاجئك حبي للخريف؟! - آهه! - بالضبط آهه.. قلت مقلداً إياها، فرمقتني شزراً، وقالت: الهيئة إنك شب مغرور. قلت: جايز، ما بعرف. وتابعنا طريقنا.. كنا مثل غرباء في الليل. قالت لي من بعد صمتٍ طال كثيراً: ليش ساكت؟ قلت: لأني ما بعرف شو لازم أقول.قالت: قول يللي عم تفكر فيه بهاللحظة، شو اللي مرق براسك مثلاً ونحن عم نمشي؟ قلت ضاحكاً: كنا في قلب المدينة تقريبا. وكان المفترض إنو نروح إلى المزّة في الغرب، فكيف ممكن تفسري لي وجودنا الآن في شرق المدينة؟ أنا وإنتي شو عم نساوي هون في باب توما؟!- حقيقي هادا اللي كنت عم تفكر فيه؟! من المؤكد إنك عم تمزح.- يمكن كنت عم أمزح، ويمكن كنت أهبل كمان. واضح إني ضحية مخطط ما.. وضحكنا، وقالت: إذن، شو اللي مرق في رأسك ونحن عم نمشي؟ - في الحقيقة تذكرت قصيدةً لامرىء القيس، وتذكرت على البعيد منها أغنية أمريكية كانت شهيرةً إلى وقت قريب. - أي أغنية تذكرت؟ - سترينجرز إن ذي نايت. - بعرفها. أغنية جميلة. لكن ليش تذكرتَ هي الأغنيةَ تحديداً؟ نحن، قصدي أنا وإنت، غرباء في الليل؟ - هيك تراءى لي. - يمكن تكون على حق لغاية هاي اللحظة، رغم إني عم أشعر بخلاف شعورك إنت، حاسّة كما لو إني بعرفك من زمان. من حياة سابقة مثلاً. - بتؤمني بالتقمص؟ - لأ. وإنت؟ - كمان لأ، رغم إيماني بأن لا شيء يفنى ولا شيء يولد من عدم.- على سيرة الأغاني، بتحب فيروز؟ - أظن كل الناس بيحبوا فيروز.- أرجو إنك تجاوب على قد السؤال - حاضر، نعم أحب فيروز.- شو هيّ أغنية فيروز المفضلة عندك؟- أوه! إنك تصعبّين عليّ الحياةَ يا أمَةَ الله.. ضحكتِ البنتُ وقالت: ولماذا أصعّبُ عليك الحياةَ

يا عبدَالله؟! إنه سؤالٌ بسيطٌ جداً يا سيدي.- يمكن يكون سؤال بسيط، بس أنا ما فكرت فيه من قبل.- طيب رح مرقلك هي، وخلينا ننتقل. قاطعتها من فوري: ما فهمت، شو هي اللي مرقتيلي ياها؟ - يعني، إنت شب وسيم ومن حقك تنسى أحياناً. - أنسى شو؟ - أغنية فيروز المفضلة. - بس أنا ما نسيت. أنا ما فكرت بالموضوع من أصلو. بعدين لحظة شوي، شو حكاية شب وسيم؟! ما إنتي كمان بنت حلوة. - عن جد بتشوفني حلوة؟ - طبعاً. - الله يجبر بخاطرك، طمنتني. طوال الوقت كنت عم فكر إنو هادا الشب هلأ بدو يضل ضارب علي بوز. - بالمناسبة إنتي بنت غريبة هه! - كيف؟ - ليش بدي أضرب عليكي بوز؟ إنتي فعلاً بنت حلوة. - يعني أنا وإنت متعادلين؟ - ما بعرف بشو متعادلين وبشو مو متعادلين، بس إنتي بنت حلوة، وحلوة كتير كمان. - عال! معناها رح أرمي مركّبات النقص بالزبالة. ليش عم تضحك؟! - يبدو إنك حلوة وبنفس الوقت ظريفة، إذا ما قلنا نغشة. - لا هيْ ولا هيْ، أنا بنت هنيّة. الكل بيقول عني هنيّة. يعني اسم على مسمّى. - وأنا بتسمحيلي أنضم لهادا النادي اللي اسمه الكل؟ - بالتأكيد بسمحلك، وإذا بتحب بطرد الكل وبخليك لحالك بالنادي كلو. - لأ، لا تطردي حدا، لأنو مو من حقي أحتكر الهناءة. - تسلم يا سيدي! وهلأ مننتقل لموضوعٍ آخر. قل لي من فضلك: شو هيّ أجمل رواية قرأتها؟ من المؤكد إنك قرأتَ كتير من الكتب، غلطانة أنا؟ - أكيد قرأت بعض الكتب، أما أجمل الروايات فكانت اللي ما أكملت قراءتها. - كيف هيك؟ ما فهمت. - هيّ روايةٌ ممنوعة، مو هون، لأنها أصلاً غير مترجمة للغة العربية، هي رواية روسية، ولكنها ممنوعة في روسيا من التداول. كنا نحصل على أجزاء مبعثرة منها، وكنا، أقصد نحن الطلاّب، نتداول هي الأجزاء المبعثرة سرّاً. - شو اسم هاي الرواية؟ - ماستر ومارغريتا، بمعنى: المعلم ومارغريتا. - ماستر ومارغريتا، المعلم ومارغريتا، وهلأ قل لي لو سمحت: شو هو لونك المفضل؟- هاهاها.. رجعنا إلى الفوازير والحزازير والأحاجي؟! - ليش عم تضحك مني؟ كيف بيتعارفوا الناس؟ كيف بيكتشفوا بعضهم؟ مو بمثل هالأسئلة الزغيرة هي؟ - الحقيقة مبلى، المهم دائماً هو التفصيلات،إنتي على حق. أنا آسف! شيء من قبيل

تراكم الحقائق المختلفة. - شو معني هالحكي؟ - لا تنشغلي بالأمر. مصطلح منستخدمه في الدرامة.- وشهد شاهدٌ من أهله. - بعتذر مرة ثانية. الأزرق لوني المفضل. - أحسنت! الأزرق يليق بك. أحسنت الاختيار.وأنا رح أكافئك على حسن اختيارك.- تكافئيني كيف؟!- شو هو عصيرك المفضّل؟ ولا تقللي إني عم أصعّب عليك الحياة.- لا ما رح أقول هالشي، المفضل عندي هو عصير البرتقال.- إذن، أنا أدعوك لتناول عصير البرتقال. وقبل هيك ليش عم تطلع إلى ساعتك يا سيدي؟ شو أهمية الوقت؟ ولا إنت ما بتحب الصعلكة الليلية؟ - في الحقيقة أنا بحب كل أنواع الصعلكة، ولكن اليوم عنّا مشكلة أنا وإنتي. - مشكلة شو لا سمح الله؟! - أنا تعهدت بمرافقتك إلى سكنك، ومش إلى أي مكان آخر. - تعهدت بهالشي بناءً على طلب مني. - صح، ولكني مع ذلك تعهدت بالأمر. - تعهدت بالأمر لمين؟ - كيف لمين؟ للناس اللي ائتمنوني عليكي.- شلون يعني ائتمنوك علي؟ شو أنا بضاعة؟ - لأ، ولو كنتي بضاعة كنت ضحّيت فيكي. ما عندي مشكلة. بدفع التعويض. - شو عم تحكي إنت؟ ثم إنو صديقك مانو وصي عليّ، ولا زوجته وصيّة عليّ، حتى إنها مو بنت عمي متل ما إنت بتظن. أبوها ابن عم أبي. - درجة القرابة مانها مهمة في وضعنا الراهن. - ليك، أنا ماني طفلة، أنا بالغة راشدة، والقانون السوري بيضمن لي حرية اتخاذ القرارات الشخصية. اسأل أي محامي بدك ياه. - هلأ لا تفوتيني بزواريب شمال ويمين، خلينا بموضوعنا. - من الآخر، شو بدك؟ - بدي نأجل الصياغة ليوم تاني، بيكون الموعد سلفاً بيني وبينك. ما بكون أخدتك من عند حدا. - وشو الفرق؟ - الفرق إني بكون مرتاح نفسياً. حتى إنتي بيفرق معك الموضوع. - كيف؟ - يعني لما بكون مرتاح بكون قادر أدللك. - وشلون بدك تدللني؟ - يعني بسمحلك مثلاً.. تبوسيني. - ها ها ها.. يا الله شو إنك كريم! دخلك إنت على طول هيك؟ - شلون يعني على طول؟ - يعني مع كل البنات ولا بس معي أنا؟ - الحقيقة هادا طبع. - بفهم منك إنو مع بنات موسكو كمان كنت هيك؟ - عم قولك هادا طبع. بعدين شو يعني بنات موسكو وبنات دمشق؟ بالعالم كلو البنت بنت. وهاد مو حديثنا هلأ. خليني أوصلك لبيت الطالبات

قبل ما تتأخري عن الموعد. - شو أهمية إني أصل لبيت الطالبات في الموعد أو ما أصل؟ لتكون ضجرت من رفقتي؟ مو كنت تقول عني حلوة ونغشة وظريفة؟ ولاّ ما عدت عم تشوفني هيك؟!- مبلى إنتي هيك وأكتر، لكن هادا موضوع مختلف.- لأ مانو مختلف. هادا الموضوع هو جوهر الحكاية. - أي حكاية؟ - الحكاية التي عم نعيشها بهاللحظة أنا وأنت. - هادا المشوار صار اسمه حكاية؟! - طبعاً، إنت كنت متآمر معي. -لا حول ولا قوة إلا بالله. اسمعي يا بنتي.. - ما بحب هاي الكلمة، قصدي ما بحبها منك إنت، لا تستخدمها معي مرة ثانية. - ما في داعي للانزعاج، أنا بستخدم هاي الكلمة في مخاطبة نساء كثيرات. هيّ عندي مثل أداة نداء. - ما بحبّ أدوات النداء. بقصد منك إنت. - ماشي، بتؤمري آنسة هناء.. - ما بحب كلمة آنسة. - صبرٌ جميل واللهُ المستعان! طيب، هناء. - هيك ممتاز. - عظيم، اسمعيني..
- لا ما رح أسمعك، ولا تفكر بالأمر، تعال نشرب عصير البرتقان.أنا أدعوك لتناول كأسٍ منه في هذا السناك، نجلس لهديك الطاولة الزغيرة على الرصيف. ها ها ها صرت أحكي متلك كلمة فصحى وكلمة عامية.- ممكن تشرحيلي ليش العناد؟! - لأني خطّطت لهادا الأمر، وما بدي ياه يفشل. - إنتي بدك مخططك ينجح، أنا شو ساوي بهالحالة؟ - ماني شايفتلك أي مخرج غير إنك تعلن استسلامك. هادا أفضل إلنا نحن التنين. - أوكي، بنشرب عصير البرتقان. - لوين إنت رايح؟ عم تبحث عن إهانتي؟ أنا اللي عازمتك، أنا اللي بدفع، أنا اللي بجيبلك العصير لعندك.- وأنا شو بعمل؟- بتقعد لهديك الطاولة الزغيرة البعيدة، وبتلف رِجل على رِجل، ورح يكون مسموح لك تستمتع برؤيتي وأنا عم أخدمك. رح تعمل هالشي؟- بحاول يا هناء. بحاول.- وهاي جبتلك العصير، كنتَ عم تراقبني؟- نعم.- استمتعت؟ - نعم.- إنت بتفرحني بهادا الجواب، والآن قلي لو سمحت: مين هو شاعرك المفضل؟ - بالمطلق أو بين المعاصرين؟ - هذا وذاك. - بالمطلق المتنبي شاعري المفضل. - برافو! وأنا كمان مثلك، والمعاصرين؟ - هناك أكثر من واحد: بدر شاكر السياب، محمود درويش، أمل دنقل. - بتفضّلهم حسب هذا التسلسل اللي ذكرت؟ - في المرتبة الأولى، بدر شاكر السيّاب،

نعم، رغم إنوّ مشروعه ضلّ ناقص، الموت خطفه قبلَ الأوان متل ما بتعرفي، أما في المرتبة الثانية فهناك بعض الأرجحة.. ضحكتِ البنتُ، وقالت: شو هيّ بورصة؟! - لأ طبعاً، بس اللي عم يصير شي غريب، قصيدة محمود درويش عم تتراجع، وما بعرف ليش. يمكن حصل هالشي بسبب النجومية الهائلة اللي أصابها الرجل، عم قول يمكن، ماني متأكد، بينما، في الوقت نفسه، أمل دنقل عم يصعد بثبات. - بتعرفهم شخصياً؟ - لا. ما سبق إني التقيت فيهم.- خسارة!- ليش؟ -ما بتحب تلتقيهم؟- إنْ كنتِ تقصدين السعي إلى اللقاء فالجواب هو: لأ.- أنا شخصياً ما عندي مانع أسعي للقاء محمود درويش.- ما بتفاجئيني بهاي الرغبة.- كيف؟- أغلبية بنات العرب عندهن أمنيتك، لأنو هادا الشاب صار نجم العرب الأول، وفضلاً عن ذلك، هو شاب وسيم.- أنا ما بدي أسعى إلى نجوميته، ولا إلى وسامته، عندي شاب أكتر منه وسامة.- هذا ممتاز. - ما رح تسألني من بيكون هالشب؟ - لأ ما رح أسألك. - ليش؟ - لأني ماني فضولي.- بس انا شايفة إنك فضولي جداً في هي اللحظة، لكنك عم تجاهد في إخفاء سرّك. واضح إنك مانك عصيّ الدمع. يالله اسألني. ليش عم تضحك؟ - ما بعرف ليش، يمكن عم أضحك من حالي. شو الله ورطني بهالسهرة؟! - مانك مبسوط معي؟ - هيئتك بنت حلوة وطيوبة فعلاً، بس أنا ماني مرتاح للظرف. - رجعنا للفيلم من أوله؟! - أوف أوف!! - سلامتك من الأوف! - شكراً! - أنا ناطرة سؤالك. - أي سؤال؟ - هو سؤال واحد ما في غيرو. - آ.. إي.. الشب اللي.. - الشب اللي شو؟ - الشب اللي عندك واللي أكتر وسامة من محمود درويش. - وين السؤال؟ -السؤال: من يكون هذا الشاب؟ - ما هذا السؤال الغريب؟! من سواك أنت؟. وساد بيننا صمت، رغم أنّ ردّها لم يفاجئني. كنت أتوقع سماعه، ولكننا مع ذلك، أو حتى بسبب ذلك، رجعنا غرباءَ في الليل. طال صمتنا دقيقتين أو أكثر. شربنا العصير كمن يتخلص من مهمّةٍ مملّة. نهضنا، وانصرفنا. راحت البنت تقودني باتجاهٍ لا علاقة له ببيت الطالبات.رحنا نوغل في دمشق القديمة. ووجدتني لامباليا. كنت مرتبكاً فقط من بعد ما قالته عن الوسامة التي " لديها ". لم أكن فرحاً،

ولم أكن حزيناً.. فقط، كنتُ مرتبكاً. ومرقَ ببالي خاطرٌ شرير: هذه البنت ليست سويّةَ العقل. وربما صرت، في نتيجة ذلك، لامباليا تجاهها. وفكرت: هي أمسيةٌ وتنقضي، ثم يذهب كلٌ منا في حال سبيله، ويا دار ما دخلك شر.هكذا رحتُ أقنع نفسي.كلّ شيء يخصّ هذه البنتَ صار فجأةً سيّان عندي. إذن، لماذا أجدني مرتبكا؟ هل كنتُ أكذب على نفسي؟ ربما كنت كذلك فعلاً. ولم أكن أعلم في ذلك الليل مع هناءة أنّ هذه البنتَ سوف تكون لي غصّة العمر كله. قالت لي: ليش ساكت؟ - لأني ما بعرف لوين رايحين. شو اللي آخدنا باتجاه الجنوب؟! توقفتِ البنتُ عن المشي غيرَ مباليةٍ بملاحظتي، أو حتى احتجاجي، فتوقفتُ. نظرتْ إليّ بعينين عميقتي الغور، وقالت: ليش ما بتطرح عليّ أسئلةً مثل اللي سألتك ياها؟ ما قلت لي إنوّ التفصيلات هي الأمر الأهم في الدرامة؟ ما كنت عم تتحدث عن تراكم الحقائق المختلفة؟ إذن، ليش ما بتسألني شيء من حقيقتي؟ ما بتحب تعرفني؟ ما بتحب تعرف لوني المفضل، أغنيتي الفيروزية المفضلة؟ ما بتحب تعرف ليش رغبانة بلقاء محمود درويش؟ ولاّ عم تغار منه؟- كيف أغار منه؟ ومن أجل أي شيء؟- مو من أجل أيّ شيء، من أجلي أنا، وأنا ماني شيء، أنا بني آدم، امرأة، أنثى. بتريد إثبات على هالحكي؟ ولاّ أمري لسه ما بيهمُّك؟ - ما بعرف.- كيف ما بتعرف؟! ما بتعرف حقيقةَ شعوركَ تجاهي الآن؟ بهي اللحظة؟ - فعلاً ما بعرف. حاسس حالي مرتبك، ولا مبالي، ويمكن إني كذّاب كمان في حقيقة مشاعري تجاهك. بشو لسه بدك ياني أعترف؟! معك حق، غيران من محمود درويش. بيرضيكِ هذا الاعتراف؟- طبعاً بيرضيني، لأنو يعني إنك مهتمٌ فيّ، هادا إذا ما كنت بتحبني كمان.- لا، أنا ما بحبك.- إذن ما في مبرر للغيرة.- نعم، ما في مبرر للغيرة، ولهيك ما عم أشعر فيها، روحي لوين ما بدك، مبسوطة هيك؟-لا، ماني مبسوطة. - حيرتي ديني، شو بدك؟! صرختُ بها، فردّت عليَّ بصراخٍ أيضاً: بدي ياك تهتم فيني. عم أطلب المستحيل؟! كتير عليّ هالطلب الزغير؟! والتفتَ إلينا بعضُ المارة على قلّتهم، ولكنّ هناء لم تكن تبالي بأحد، فتابعتْ تقول بصراخ: عم أطلب أمر تعجيزي؟! - لأ اللي عم تطلبينه مانو

تعجيزي، بس أنا شخصياً ماني معنيّ بهادا الطلب. سلام! واستدرت منصرفاً عنها. وفاجأتها هذه الحركة. لم تكن تتوقع مني ردّ فعلٍ كهذا. قالت إثري: ليش عم تهرب؟ قلتُ من دون أن ألتفت إليها: عم أهرب من صراخك. قالت: إنت كنت البادىء بالصراخ. - نعم، والتفتُّ إليها وتابعت، هادا صحيح، أنا كنت البادىء، لكننا صرنا فرجةً للناس، فشو منتظرة مني؟ منتظرة أستمر في هاللعبة السخيفة؟ - طيب خلص ما رح أرفع صوتي، توبة، لن أرفع صوتي، ولكن ارجع إليّ على رأي نزار قباني، هل تحبُّ نزار قباني؟. ووجدتني أبتسم مرغماً. رجعت إليها، وقلت من فوري: شو بدك؟ لكن بهدوء. قالت: نعم بهدوء، بس اسمعني منيح، عم تسمعني؟ - نعم. - صوتي عالي هيك؟ - لا. هيك منيح. - ممتاز، أنا بدي ياك تنسى محمود درويش، أصلاً أنا حابة أشوفه بسببك إنت، لأني عرفتك من خلال قصائده أكثر مما عرفتك في منزل صديقك مع بنت عمي، لما كنت ترفض تخبرني بيومك المفضل بين أيام الأسبوع. محمود درويش عمل هالشي نيابة عنك. بدك تفهمني في نهاية المطاف؟ انشغلت عشية الامتحانات فيك إنت. وحضرتك عم تسدّ المنافذ أمامي. لمين ألجأ إذن؟ لمين إذا مو لمحمود درويش؟ ما بقدر ألجأ في هادا الموضوع لأمل دنقل، نعم هو شاعر مدهش، لكنه ما بيلزمني معك، حتى المتنبي معك ما بيلزمني. وحده محمود درويش بيجاوب عن تساؤلاتي البسيطة. في قصائده عثرت عليك. في قصائده عرفت الولد الفلسطيني، وعرفت أنك الطفلُ الذي خلقه الله وقال: هذا حسن.. وجدتني ضعيفاً كما لم أكن من قبلُ أمام امرأة، وقلت: ماشي، رح أعترف.- عم أسمعك.- خايف يصير أمرك مهم بالنسبة إلي يا هناء. - وليش الخوف؟ إنت مثلاً ما بتحب البنت اللي. ..لا مو هادا اللي قصدت قوله، اللي قصدتو. ..(وقاطعتْ نفسها) لكن قل لي لو سمحت: كم مرةً حبيت بحياتك؟ - يا إلهي! شو هالأسئلة التعجيزية؟! - إذن، إنت عرفت الحب كتير مرات. هادا اللي بقدر أفهمه من دهشتك؟ - نعم، عرفت بعض النساء، شو يعني؟ - يعني ولا شي، أنا مسامحتك. - عفواً؟! - لاتهتم لكلامي. - كيف لا أهتم؟ - لأنّو هادا جزء من الماضي.. وجدتني أضحك، وقلت لها: إنتِ

كيف بتخلطي الحابل بالنابل؟! شو علاقتك فيّ وبالماضي اللي بيخصّني؟! هادا ماضيَّ أنا. أنا وحدي، وإنتِ أصلاً ما كنتِ فيه موجودة. - أظن صار لي علاقة بكل التفصيلات التي بتخصّك. - ما عم أفهم. بأي صفة؟ - أنا ما طلبت منك تظهر في حياتي. - بعدني ما عم أفهم. ممكن تشرحيلي كيف وشو وليش؟ - طبعاً ممكن، إنت جربت الحب كتير مرّات، وأنا سامحتك مو على هيك، هادا ماضيك اللي بتقدر تقوللي عنه: ما إلك علاقة فيه. رح أتظاهر بأنو ما إلي علاقة بماضيك. ماشي. بس أنا سامحتك على شيء آخر. سامحتك على عدم المساواة اللي بيناتنا. ليش عم تنظر لي بهي الغرابة؟ اللي عم قوله مانو واضح؟ وصمتتْ لحظةً قبل أن تضيف: في كتير شباب حبّوني من قبل. وصمتتْ من جديد، وصمتُها لم يكن يرضيني. رحت أحدّق فيها بإصرارٍ كمن يتوسلها المزيدَ من البوح. استجابت لنظرتي المستجدية أخيراً: كتير من الشباب حبوني، لكن أنا ما حبيت منهم حدا. وتركتْني واقفاً في مكاني. ابتعدتْ عني بضعَ خطواتٍ، وجلستْ على حرف مسطبةٍ أمام أحد البيوت الدمشقية العتيقة في تلك المتاهة الفاتنة التي يسمونها الشام القديمة، والتي صارت بعدَ تلك الليلةِ النائية البعيدة مع هناء المكانَ المفضّل عندي من العالم. وقفتُ أتأمل البنت من مطرحي. ولا أنا، ولا هيَ، ولا أحدَ في الوجود كان يعلم بأنّ كلَّ الزمن المتبقي لهذه الصبيّة الناضرة في الحياة لا يزيد عن أربعة أعوامٍ إلاّ قليلا، وبأنها سوف تفارق تلكَ الحياةَ الحلوةَ من قبل أن تبلغ خمسةَ وعشرينَ ربيعا أو خريفا. بقيت أتأملها لحظةً طالت بعضَ الشيء. كنتُ لها مجانبا. بماذا تراها تفكر الآن؟ سألت نفسي. كانت ليلةً قمراء. وكانت الأضواء تختلط ببعضها من السماء والأرض فتصنع مشهداً انطباعياً طاغياً في رقّته. وفي الجو من حولنا تضوع أزهار الياسمين والليمون مخلوطةً بعبير أزهار النارنج الفوّاحة من باحات المنازل الدمشقية الوسيعة، فتضفي على الكون سعادةً تبعث على الرعشة في القلوب التي أضناها السفر بحثاً عن سعادة ضائعة. كانت الحركة في الطرقات قد انعدمت او تكاد. وساد سكونٌ مهيبٌ على الخليقة. ومن مكان ما انساب صوت جارح في عذوبته بين نسائم الربيع الطرية الهائمة من حولنا في جميع المطارح: ليه تلاوعيني وإنتي

نور عيني.. أم كلثوم.. لا بدّ وأنّ الليل قد انتصف. لم أنظر إلى الساعة حول معصمي. لم أكلّف نفسي عناء النظر، فهو سوف يقطع عليّ متعة التملّي من هذا الرواء الذي له شكل أنثى شابةٍ غلبها الحزنُ مثلما غلبها الفرح. أي عذابٍ يسكن هذه البنت؟ أيّ عذابٍ تعيشه؟. ربما كان عذاب الجوى. بدت لي بنتاً رقيقةً لو هبّت عليها نسمةٌ من ربيع لكسرتها إلى نصفين. جعلتُ أتأملها مليّاً وأنا أسأل نفسي: أتراها في خجلٍ أو في ندمٍ من بعد القبض عليها متلبسةً بجريمة الحب الذي لم تعترف به صراحةً؟ كانَ عليّ أن أساعدها في الخروج من هذا الأسى الذي غرقتْ به، ولم أعرف ماذا أقول. وفكرت: ليس مهمّاً ما تقول. قل أيّ كلام.. اسمعي الشاكي وارحمي الباكي قضّى طول عمره قلبه يهواكي.. اقتربتُ منها، وقلت: أكيد تأخرتِ عن موعد الرجعة لبيت الطالبات. لأي ساعة بيضل الباب مفتوح؟ قالت من دون أن تنظر إليّ: ما بدي أرجع لبيت الطالبات. - لكان شو بدك؟ - ولا شي، رح أبقى بالشوارع طوال الليل. ثم إنّو الطقس حلو متل مانك شايف. - وفي هالحالة، إنتِ بتراهني على شهامتي. - براهن على إنك ما رح تتركني وحيدة بالطريق، ومع ذلك باستطاعتك تروح إنْ كنت رغبان بهالشي.- لا ما عندي هيك رغبة. متل ما بدك، ما رح أتركك بالطريق وأمشي. - ليش؟ لأنك مؤتمن عليّ؟ - هي نقطة مهمة بدون شك. - إذا كان هادا هو السبب اللي رح يخليك تضل جنبي، فأنا بفضل إنك تروح وتتركني وحيدة.- كان صوتها ينضح بالوجع والمرارة. قلت: بدك ياني أتجاهل سبب مهم متل هاد؟! قالت: بدي ياك تهتم فيني أنا، مو بوعدك لصديقك مع بنت عمي. قلت: رح أنسى حكاية الأمانة، وما بقى جيب سيرتها، أمرك آنسة هناء.. وجلستُ لها على حرف المسطبة مجاورا. قالت: شكراً!. شكراً على تفهمك! وصمتتْ من جديد لحظةً قصيرةً قبل أن تضيف بصوتٍ ضَعْضَعَهُ الانفعال: هي أول مرّة لإلي.. ولكنها لم تقل مرّتها الأولى مع ماذا، فمَنْ أنتِ يا هناء؟. حمامةُ الأَيْكِ أنا.. بل غصّةُ العمرِ أنتِ.. إيه جرى بينِك في الهوى وبيني؟! السؤال الذي لم أعرف عنه جواباً إلاّ بعد فوات الأوان، فقط بعد فوات الأوان عرفتُ أنَّ (حبليَ السُريَّ: حبلُها المقطوع). ولم تقل مرتها الأولى مع ماذا.

بل قالت: قل لي من فضلك، كيف تفهم سؤال المتنبي الشهير: أطويلٌ طريقُنا أم يطولُ؟ قلت: هل يشغلك هذا السؤال؟ قالت: نعم يشغلني كثيراً، ودائماً. - لماذا؟ - لأنني أريد أن أعرف الحقيقة. - أية حقيقة؟ - كيف أية حقيقة؟ حقيقة الطريق. أطويلٌ طريقنا أم يطولُ؟ قلت: ربما كان الجوابُ موجوداً عند المتنبي في القصيدة ذاتها. - أين في القصيدة ذاتها؟ - أظن أنّ البيتَ الذي تلا السؤالَ مباشرةً قد جاء بالجواب. - لا أعتقد بذلك. - هل تتذكرين ذلك البيت؟ - نعم بالتأكيد.. وكثيرٌ من السؤال اشتياقٌ/ وكثيرٌ من ردّه تعليلُ. - إذن؟ - هذا جوابٌ ليس عن ذاكَ السؤال، رغم أنه مشغولٌ بشكلٍ جيد، ولكن لا يمكنني أن أعتبره جواباً عن السؤال الوجودي الكبير الذي سبقه. هو كلامٌ جيدٌ بذاته ولذاته، أي إنه منفصلٌ تماماً عمّا سبق، حتى إنني لا أستطيع أن أضعه في محل نصب حال، أو في محل رفع خبر أو صفة لما مرَّ قبلَه. هذا البيت يقول إنّ كثرةَ السؤال سببها كثرةُ الاشتياق للمسؤول عنه. وهذه حقيقةٌ صغيرةٌ يعرفها جميعُ العشّاق حولَ العالم. نحن نسأل كثيراً عمّن نحب، بل إننا نخترع الأسبابَ من أجل أن نفعل ذلك. إنني أعرف هذا الأمرَ من تجربتي الشخصية، فقد سألت عنك كثيراً في الأسابيع القليلة الفائتة، لأنني، ولستُ أخجل من هذا، كنتُ دائمةَ الاشتياقِ إليك. ولكنني في هذه اللحظة لا أسأل: لماذا كثرةُ السؤال، فقد صرتُ أعرفُ الجواب. إنني أسأل: أطويلٌ طريقُنا أم يطولُ؟. - الحقيقة يا هناء هي أنني لا أملك جواباً عن هذا السؤال الذي أراه بعد حوارنا الآن تعجيزياً. كنت أظن الجوابَ حاضراً في البيت التالي. ولكن من الواضح أنني كنت مجانباً للصواب، حتى إنني أجدني مديناً لكِ بالشكر.- لا أنتظر منك شكراً على شيء، لا أنتظر منك شكراً على أيّ شيء، ولن أنتظره في المستقبل أيضاً، ولكن كم هو ظالمٌ هذا المتنبي! - نعم، إنه ظالم، وربما كان قد ملأ الدنيا وشغل الناس بهذا الأمر تحديداً. - تقصد أنه شغلنا بظلمه. - أظن ذلك، فها قد مرَّ ألفُ عام على رحيله عن الدنيا، وها نحن مازلنا نناقش، في ضوء القمر، أحدَ الأسئلة الكبيرة التي رماها في وجوهنا وذهب إلى قبره غيرَ مبالٍ بما نعاني بسببه. أليس هذا قمة الظلم؟ أليس كان الأجدى بنا، ونحن الشابّان

الصغيران، أن نتحدث بأمورٍ تناسب ضوءَ القمر بدلاً من الحديث عن رجلٍ ينام ملىء جفونه عن متطلباتنا الماديّة والروحيّة؟!- هل تحب القمر؟ - نعمُ إنني أحبُّ القمر. - ها قد التقينا على شيءٍ ما أخيراً. - فهل كنا مفترقين؟ - ألم تقل إننا غرباء في الليل؟ - كنت أقول هذا. انتبهي إلى كلمة كنت التي نعربها فعل ماضٍ ناقص. - ليس دائماً. - ماذا تقصدين؟ - إنها تأتي أحياناً فعل ماضٍ تام. - لم أسمع بهذا من قبل. - كيف ذلك؟ ثم من منّا الكاتب؟ أنا أم أنت؟ اسأل وتأكد الأمرَ بنفسك.- إنْ كان ما تقولينه صحيحاً، فهل أستطيع أن أعرف من أين لك هذه المعرفة؟ - إنني مهتمة بالشعر، وأنا لست مجرد قارئة. - إذن؟ - إذن، من واجبي أن أعرف اللغة العربية على نحوٍ جيد، فاللغة هي سلاح الشاعر الأول. ولكن قل لي من فضلك: ماذا لو عاد الرجل الظالم إلى حياتنا المعاصرة من جديد؟ كيف سيكون شكل السؤال عندئذٍ، رغم أنّ المسافة بين دمشق والأندلس لم تعد إلا خمس ساعاتٍ فقط؟. - هل تعرفين؟ - ماذا؟ - هذه المرّةَ أنتِ تصعبّين عليَّ الحياةَ فعلاً. - أنا آسفة! لا أريد أن أصعّب عليك الحياة. لا أحبُّ ذلك. تعالَ ننس المتنبي. - نعم، هذا أفضل لنا نحن الاثنين. - ثم إنني في الحقيقة أريد أن أطلب منك شيئاً. هل أستطيع الطلب؟ - نعم بالتأكيد، ماذا تريدين؟ - هل؟.. هل تسمح لي أن ألمس كَفَّك؟ - عفواً؟! - أريد أن ألمس كَفَّك براحة يدي. هل يمكنني ذلك؟ - ما هذا السؤال؟ طبعاً يمكنك ذلك. بل إنني أرحبُّ به.. كنتُ أجلس في يسارها، وكانت يدي اليمنى إليها أقربَ من اليد الثانية. نظرتْ إلى يدي التي تجاورها، وبدا عليها التردد. قلت: ماذا؟ قالت: أليست اليسرى أفضل؟ - أفضلٍ بماذا؟ - إنها أكثرُ قرباً إلى القلب. - وما شأنُ القلب هنا؟. وعادني الشكُّ بسلامة عقل هذه البنت، التي راحت تحتجّ على سؤالي الذي بدا لها قاسياً: كيف ما شأنُ القلب؟! كيف تقول هذا؟! - القلب يا عزيزتي مجردُ عضلة تضخُّ الدمَ إلى أنحاء البدن. - فقط؟ - فقط. - يا إلهي! كيف تتلفظ بكلام لا يشبهك؟! - بل إنّ هذا الكلامَ يشبهني كثيراً. - ماذا تريد أن تقول لي بهذا الكلام؟ هل تريد أن تقول إنني لا أراكَ على نحوٍ صحيح؟ - لا أعرف كيف تنظرين إليَّ، ولكن هذا أنا. - لا، هذا ليس

حسن. - لماذا تظنين كذلك؟ - لأنني أقدّس قلبي. - ممتاز، وأنا لا أحتجُّ على هذه القدسية التي لا أرى لها رابطةً بقناعتي حول وظيفة عضلة القلب في أبداننا. ثم إنّ هذا ما يقوله العلم. - ربما كنتُ أدرى منكَ بالذي يقوله العلمُ في هذا الموضوع، ولكن هل العلمُ يجزم بموقع الروح من البدن؟ أليس من الممكن أن يكون القلبُ هو المركز؟ - لا أعرف. ربما كنتِ على حق. على أية حال، هذه يدي اليسرى افعلي بها ما تشائين، مع أنّ اليدَ اليمنى أنسبُ للخطوبة، هذا إنْ كنتِ تطلبينَ يدي طبعاً. - لا إنني لا أطلب يدك. - لا تجرؤين على ذلك بعد؟ - بل إنني أجرؤ على ذلك وأكثر. - إذن، ماذا؟ - إذن، لن أكون لك زوجةً في يومٍ من الأيام. لماذا تضحك؟ - في الحقيقة إنني أضحك بلا سبب، أو ربما كنت أضحك من السذاجة التي أنا عليها، فقد ظننت لوهلة أنك تحبينني. - بل إنني أحبك فعلاً. - لحظة من فضلك، ما هذه الحزورة الجديدة؟ كيف تحبينني وكيف تجزمين في الوقت نفسه بأنك لن تكوني لي زوجةً في يومٍ من الأيام؟! - أين الحزورة في هذا؟ فأنا امرأةٌ تقدّس قلبها. - ما حكايتك مع القدسيّة؟ وما علاقة قدسيّة قلبك بالزواج إليّ من عدمه؟ - كيف ما العلاقة؟ أنا لا أستطيع أن أدنس المقدّسات. لماذا رجعتَ تضحك؟ - أنا آسف! أرجو المعذرة! هذه يدي اليسرى إنْ كنتِ ماتزالين تريدينها. - طبعاً مازلتُ أريدها، ولكن لماذا لا تتوقف عن الضحك؟ هل عادتك اللامبالاة تجاهي؟ - إنها في الحقيقة ليست لامبالاة، ولكنَّ هذا أول أيامنا، هذه أولى أماسينا، وبالتالي نحن مازلنا على البر. - لا، نحن لسنا على البر. إنني أتحدث عن نفسي على الأقل. أنا معكَ لستُ على البر، بل إنني في قلب الموج. - حسناً، لن أدخل معك في حزورةٍ جديدة. هذه يدي، افعلي بها ما تريدين. اقطعيها إنْ شئتِ. - لا، لن أقطعها، بل سوف أحتضنها براحتيّ، ولكنّ المشكلة هي أنني لا أعرف كيف أفعل ذلك، فهذه مرّتي الأولى. - مرّتُكِ الأولى مع ماذا؟ - مع يد أحد الشباب. المرة الأولى التي ألمس بها يد رجل. - كيف ذلك؟ فأنت تصافحين الجميع، لقد تصافحنا أنا وأنت عديدَ المرات. - إنني لا أتحدث عن المصافحة، فهذه من الواجبات الاجتماعية التي نمارسها على نحوِ روتيني. أنا الآن أتحدث عن الرغبة. هذه

مرّتي الأولى مع الرغبة. - هل أفهم من كلامك. - اسمح لي أن أقاطعك بالقول: نعم، لم يسبق أن كان لي أية ملامسة جسدية مع أحد الشباب، لذا أتوقع منك بعض المساعدة. - مساعدة من قبيل ماذا؟ - وكيف لي أن أعرف؟ فهذه مرّتي الأولى، بينما تبدو أنت خبيراً بمثل هذه المسائل. - في جميع الأحوال إنني لست زير نساء كما قد تظنين، ثمّ إنني لا أعرف كيف أساعدك، فهذه مرّتي الأولى أنا أيضاً مع فتاة تعيش أولى مرّاتها. ولكن، يمكنني أن أقترح عليك شيئاً ما ليس من تجربتي مع النساء، بل بوصفي كاتب سيناريو. - إنني أسمعك. - اسمعيني ونفّذي ما أقول، فربما كان لكِ ذلك مفيداً. هل ستنفذّين؟ - وأنا، هل أستطيع أن أثق بخبرتك؟ - لا، فأنا أكاد أكون بلا خبرة، ولكنني، مع ذلك، رجلٌ أكاديمي. - نعم، لقد تذكرت، أنت رجلٌ أكاديمي، وهذا يكفيني، وسوف أنفذّ ما تقول. - إذن انهضي من هذه القعدة. نعم، هكذا. والآن خذي بيدي. الكف بالكف.. نعم، هكذا، ممتاز!. صار وجهانا متواجهين على مسافةٍ شديدة القرب. بدا لي الأمرُ مثل لحظة صدام قطارين متقابلين بات حتمياً. نظرتُ في المحجرين الوسيعين، فأيّ العينين رأيت؟ كانت البنت تحدّق بي كمن يستكشف حدودَ عذابه. شعرت برهبة من تلك النظرة. كنت أخطط لأمرٍ نكتبه عادةً في السيناريو في مثل هذه المواقف: الفتى القابضُ على يد البنت يشدّها إليه فتصير جالسةً في حضنه. هذا في الكتابة. أما في الواقع، فالذي جرى كان مخالفاً. لقد شعرت بالرهبة من نظرة عينيها تسألني: أطويلٌ طريقنا أم يطولُ؟ كانت كمن يستكشف حدودَ عذابه، فلا يتبدّى أمامه لذلك العذاب من أفقٍ مهما كان نائياً. كانت بنظرة عينيها كمن يستكشف خطَّ النهاية الذي يسعى العدّاءون بكل طاقتهم للوصول إليه. أحسستُ برعشةٍ موجعةٍ في بدني تسري، فتراجعتُ سريعاً عن فكرة الارتماء في الأحضان، بل إنني رأيتها فكرةً ممجوجةً ومبتذلة، ووجدتني أتمتم: بماذا تشعرين؟ - في بدني رجفةٌ تسري. - وهل هي رجفةٌ ممتعة؟ - إنني أتوجع. - سوف تعتادين الأمر. - أعتاد الوجع؟ فهل الوجع عادة؟ - لا، ليس تماماً. الوجع ليس عادة، ولكنّ اعتياد الوجع يصير عادة. إنه يصير مثل الهواء الذي نستنشق، ومثل الماء الذي

نشرب. الإنسان قادرٌ دائماً على التعايش مع الألم. إذن، تعايشي مع ألمك، ولكن افعلي ذلك بصمت. هل ستفعلين؟ - سوف أحاول. - هذا جيد، والآن ساعديني على النهوض، أو تظاهري بذلك على الأقل. رائعٌ ما تفعلين! ولكن لا تتركي يدي. نعم، هكذا، ومن الأنسب أن تكون الأصابع ببعضها مشتبكة، كما لو كانت تلتحم في عناقٍ لا فكاكَ منه. جميلٌ ما تصنعين أيتها الحُلوةُ أنتِ! جميلٌ جداً. هذه الكف السخينة، الآنَ عرفت سرَّ الوجع، فهذه الطراءةُ موجعة.. خذيني الآنَ حيث يطيب لك الذهاب يا غصّة العمر أنت..
قضينا تلك الليلةَ متسكعيْن بعدما خرجنا من الشام القديمة. قادتني هذه المرّة إلى الشمال. ماذا لنا في الشمال يا هناء؟ قالت: هل سمعت النبأ؟ - أيّ نبأ يا حُلوةَ الحُلواتِ يا هناءةُ؟ - الإسبان يطالبون برفات محيي الدين بن عربي. - وما حاجة الإسبان إلى رفات رجلٍ انتقل إلى رحمة ربه قبل قرونٍ عدة؟ - بيقولوا إنه مواطن إسباني، ومن حقهم يحتفوا فيه، وبيتهمونا بأننا ما عم نحتفي فيه على قدْر ما بيستحق فيلسوف عظيمٌ مثلُه من تبجيل. تعال نروح إلى ضريحه. - ضريح ابن عربي داخل المسجد اللي بيحمل اسمه. - بعرف. - بعرف إنك بتعرفي، لكن المسجد الآن مغلق، ما من وقت لصلاة في هذه الساعة من الليل، وحتى لو كان المسجد مفتوح فما رح يسمحوا لك بالدخول وإنتي حاسرة الرأس، لأ ولابسة بنطلون جينز كمان. - ليش عم ترفض تلبّي لي هادا الطلب البسيط؟ ليش عم تحرمني من هي المتعة؟ - أنا عم أحرمك من هي المتعة؟! كيف؟ ممكن تقولي لي كيف؟ - لا ما رح أقولك. منأجل الزيارة لغير مرة. - بتسمحي لي بسؤال؟ - نعم، أسمح لك، فأنا بنتٌ كريمة. - هل أنت من المتصوفين أيتها البنت الكريمة؟ - لا. - إذن،ما سبب رغبتك الملحاح بزيارة ضريح ابن عربي؟ - ما بعرف، بس أنا ماني متصوفة. بتريد إثبات على هالشي؟.ليش عم تضحك؟ - بسبب الإثبات اللي إنتي بصدده. شو حاجتك إلى الإثبات؟ التصوف مانو جريمة تحتاج إلى أدلة على البراءة منها. مانو جريمة، ولانو مرض، ولا عدوى طبعاً. - واثق من إنك ما بتريد إثبات على كوني مو متصوفة؟ -الأمر عندي متل بعضه. - كيف ممكن يكون الأمر عندك متل بعضه؟ - قلت لكِ هاي مانها جريمة،

فلشو الإثبات من أصله؟ - لأنو هيك أنا بدي. - مازال وصلنا لهيك أنا بدي، خلص فداكي العمر كلو! تفضلي، شو إثباتات البراءة عندك على عدم التصوف؟. - غمّض عينيك. - منشان شو؟ -لأني ما بتجرأ على هالشي وإنت عم تشوفني. - ما بتتجرأي على شو؟ - أرجوك تغمّض عينيك! عم أطلب المستحيل؟ - لا، أبداً، وليكنني غمّضت عيوني.. فماذا بعد؟. لا شيء بعدُ إلاّ قُبلةَ الندم. يا الله كم كانت قبلةً لذيذة! قالت لي هناء بعدها: إنها مرّتي الأولى. وأشاحت بوجهها عني. قلت: ما بك؟ هل أنت نادمة؟ قالت: لا. ربّما كنت خجلة قليلاً.. وصمتتْ لحظةً قبلَ أن تضيف: أظن أنّ هذا الأمرَ فوق طاقتي على الاحتمال.-أيّ أمر هو؟ - هذه القبلة موجعة. - كيف موجعة؟ - لا أعرف. إنني أتألم. أظن أن هذا الأمر فوق طاقتي. هذه القبلة، أو ذلك الشيء.. - أيّ شيء هو يا هناء؟.- تعالَ لا نتحدث بالموضوع.. وبدا لي أنّ البنت تتألم حقاً. كيف أواسيها؟ قلت محاولاً التخفيف عنها: ربما كان الأمر كذلك لأنها المرة الأولى، سوف لن تكون كذلك في مرّةٍ ثانية. قالت: لا أظن بأنني سوف أكون قادرة على مرةٍ ثانية.. لم تكن تنظر إليّ. وكان بيننا صمت، وحيرة. كنا في أحد الأزقة الفرعية في حيّ الشعلان. تركتني واقفاً على الرصيف،ومضت إلى طريقٍ رئيسةٍ من جهة حديقة السبكي.غير أنها توقفت بعد قرابة خمسة وعشرين متراً، والتفتت إليّ. كانت كمن يقول لي: ماذا تفعل عندك؟! ووجدتني أنفذ الأوامر وأتبعها.اقتربت منها،وقلت: ماذا أصابك؟ - لا أعرف.. ولم يكن الحزن يبرحها. كان عليّ أن أفعل شيئاً ما للتخفيف عنها. مددتُ يدي تطلب يدها. لم تمانع. اشتبكت الأصابع ببعضها من جديد. كنت بذلك الفعل أحاول أن أبثّ فيها بعضَ الشجاعة على طريق التعايش مع الوجع، ولعلّ ذلك قد خفف عنها العبء قليلا، فها هو مزاج البنت يتحسن رويداً. كانت دمشق واحدةً من المدن التي لا تنام الليل في جميع فصول السنة. كان بمقدورك أن تحصل على علبة سجائر أو سندويشة أو فنجان قهوة في أي وقت، ومن دون عناء. تناولنا بعض هذه الأشياء هنا أو هناك. ومشينا في جميع شوارع المدينة، وقطفتِ البنتُ أزهارَ الياسمين العاطرة عن عرائشها المتمددة على جنبات

الأرصفة في وجائب الأبنية السكنية، وأهدتني منها قبضةً كبيرة، وسألتني عن زهرتي المفضّلة، وحكت لي عن أغنيتها الفيروزية المفضّلة، وغنّت شيئاً منها: عهدك بقلبي قديم، عهد الصّبى الغالي، ليل القمر والنسيم، بعذن على بالي. يا الله كم كان صوتها شجياً ورقيقا!! وشربنا شاياً، والبنت جرّبتْ تدخينَ سيجارتها الأولى، وتشردقتْ بالدخان، وأطفأتْ السيجارة، وقالت: ليس حسن.. وتناولنا شطائر السبانخ أيضاً أمام فرنٍ صغير ساهرٍ على الرصيف في هدأة الليل.. ومشينا في طريقٍ مقمرٍ، تَثِبُ الخطوةُ فيه قبلنا، وضحكنا ضحكَ طفليْن معا، وعَدَوْنا فسبقنا ظلّنا.. إبراهيم ناجي! سلامٌ على روحك الحلوة يا صديقي!. حاولتُ تلكَ الليلةَ عناقَ هناءَ فامتنعتْ، رغم أنها عانقتني. لقد سمحتْ لنفسها تلكَ الليلةَ بما حرّمته عليّ. نعم، لقد أجازت لنفسها أن تقبّلني. وندمتْ فيما بعد على تلك القبلة طوالَ ثمانية شهورٍ قضيناها معاً قبل أن تختفي من حياتي فجأةً، وإلى الأبد.

توادعتُ مع صديقي في ساحة عرنوس بعد المساء
وكان بي صداع شديد
ربما كان ضغط الدم عندي مرتفعا
من الأفضل عدم تعاطي المسكنات جزافاً
من الأفضل معرفة حقيقة الضغط في الشرايين أولاً
كانت قذائف المدافع تعبر سماءَ المدينة ذاتَ اليمين وذاتَ الشمال
رحت ألوب على صيدلية مناوبة
فاليوم هو الجمعة
الحركة في الطرقات خفيفة
رغم أنّ الليل مازال في أوله
فكرت بالذهاب إلى حيٍّ الشعلان
هناك يوجد عديد الصيدليات
وربما كانت إحداها مناوبة
عبرت شارع الحمرا (جمال عبد الناصر)
صرت عند طرف حيّ الروضة
عند زاوية حديقة السبكي
مشيت بمحاذاة سور الحديقة الشرقي
ما هذا يا ربي
سور الحديقة تغير شكله بالكامل
من الذي غيّره
من الذي استعاض عن السور الأخضر الجميل

بهذا الحديد الأسود البارد
كان يطيب لي الجلوس على حرف هذا السور في الأماسي الربيعية
لقد كان لي هنا يوماً ذكرى جميلة
فهنا كان لي أيضاً وقتٌ من
الليل مع هناء
هنا تجرأتِ البنتُ وقبّلتني
كنا في قطعة الليل الأخيرة
ليلةٌ قمراء بعيدةٌ
طقس ربيعي
وهناء كانت تحب الربيع
هنا
هنا تماماً
عند هذه البلاطة من الرصيف
ما هذا أيضاً
حفرةٌ خلفَ البلاطة
وخلفَ السور
حفرةٌ كبيرة
طويلةٌ
عريضةٌ
عميقةٌ
أخندقٌ هذا
أم
أساسٌ لمنشأةٍ ما
ولكن كيف؟

بناءٌ داخلَ الحديقة التي انتُزعت منها المقاعد
أو مساندُ المقاعد على الأقل
هنا تماماً
خلفي
وخلف هناء
وخلف قبلتنا اليتيمة
خلال شهورٍ ثمانية قضيناها معا
قبل أن تختفي البنتُ من حياتي فجأةً
وإلى الأبد
من هدم سوري
قفا نبكِ
لا
لا وقت للبكاء
رأسي يؤلمني
وهذا الوجع شديد
تابعت مسيري
دخلت في شارع الشعلان الرئيس
المحال التجارية مغلقٌ معظمُها
أما القليل المتبقي فيمكن حصره
محلٌ يبيع المكسرات
وقف أمام واجهته رجلٌ وامرأة
أظنهما كانا يتناقشان في ما ينويان شراءه
الأسعار باتت كاوية
ولكن المناسبة تستأهل بعض الترف

ذكرى زواجهما الرابعة أو الخامسة
وهذا السيناريو الركيك من عندي طبعاً
ربما اكتشفا فجأةً أنّ من واجب كلٍ منهما أن يحب الآخر ويحتفي به
في لجّة الأسى التي غرقنا بها جميعاً
محلٌ يبيع الشاورما وقد تجمع أمامه ستةٌ من الناس أو سبعة
بنتٌ مراهقةٌ على الرصيف تنزّه كلبها الأبيض الصغير
ورجلٌ في مقتبل العمر يقود سيارةً بسرعة جنونية
ربما كان يستعد لأن يتسابق مع شوماخر
صيدليات الشارع كلها مغلقة
محلٌ يبيع النظارات الشمسية
فارغٌ تماماً من الزبائن
وصاحبه يسمع عبد الحليم حافظ
اليومَ اكتشفتُ أنني لم أشتر في حياتي نظارةً شمسية
فكرت هذا المساءَ بشراء واحدة
ترددتُ قليلا
جلستُ على الرصيف أمام المحل
دويُّ المدافع يتردد صداه في أرجاء المدينة
أمسكتُ رأسي براحتيَّ من خشيةٍ أن يتكسرا
ولذتُ بالسكينة
وأمانة يا دنيا أمانة
تاخدينا للفرحة أمانة
وخلي الحزن يبعد عنا
وقولي للحب استنى

2015 - 9 - 13

لم يكن لي بها أيُّ اتصالٍ خلال ما يقرب من ثلاث سنواتٍ عاشتها في سويسرا زوجةً لرجلٍ لم تره يوماً قبل الزواج، ولا هو كان قد رآها، بل إنها لم ترَ حتى صورته. هو رأى صورتها، وقال لأهله: هذه تناسبني، فخطبوها له من أهلها، ووافق أهلها الذين يعرفون أهله. لم يكن بمقدور الرجل المجيء إلى سوريا، فقد كان هارباً من خدمة العَلم. الجميع راضٍ. ولكن هل توافق هناء على هذا الزواج؟ عرضوا عليها صورة الرجل، فقالت: لا أريد أن أراها، ولا أريد متابعة الدراسة، فأنا موافقة على هذا الزواج.. الأمر كلّه تمَّ في أقل من ثلاثة أسابيع، ارتحلتْ بعدها البنت إلى سويسرا.. كان الاتصال بيننا خلال تلك السنوات الثلاث من طرفٍ واحدٍ فقط. تواصلتْ بي مرتين. في المرة الأولى أرسلتْ إليّ هديةً، من دون أن تترك لي على الطرد البريدي عنواناً لها في تلك البلاد المحايدة. وفي المرّة الثانية بعثتْ إليّ رسالة كتبتها وهي على سرير الاحتضار.

لم أعثر في تلك الرسالة على كلمةٍ واحدة منها حول وقائع ما قد حصل
كلُّ الذي في رسالتها إليَّ كان
أربعةَ أبياتٍ من شِعر ابن حزم القرطبي:

أغارُ عليكَ من إدراكِ طَرفي - وأُشفقُ أنْ يُذيبَكَ لَمْسُ كَفّي
فأمتنعُ اللِقاءَ حَذارَ هذا - وأعتمدُ التلاقي حينَ أغفي
فروحيَ إنْ أنمْ بكَ ذو انفرادٍ - مِنَ الأعضاءِ مُستترٍ ومَخفي
ووصْلُ الروحِ ألطفُ فيكَ وقعاً - مِنَ الجسمِ المواصِلِ ألفَ ضِعفِ

ارتحلتْ هناء عن دمشق وأنا لست في المدينة. كنت قد التحقت بخدمة العلم. وكانت الخدمة بعيدةً عن العاصمة. وفي أولى الإجازات لي خلال الخدمة كانت المفاجأة في انتظاري.. أيّ خائبٍ أنا؟!.لا، إنني لست رومانسياً كما تظن يا فاعلَ الخير. بل إنني بعيدٌ عن الرومانسية، إنني مغروسٌ في وحل الأرض، وقد قلت هذا الكلامَ من قبلُ مرارا، والدليل عندي على ذلك أقوى من دليلك على أهمية مسلسل الانتظار. الدليل عندي هو: إنني مازلتُ على قيد الحياة التي فارقتها هناءُ قبل سنينَ كثيرةٍ جداً. وهذا أسوأ ما في المسألة. إذن، توقفْ عن فعلِ الخير. أرجوك أن تتوقف. هذه العضلة التي يسمونها القلب صارت عندي شبهَ مهترئةٍ يا فاعلَ الخير. إذن، دعني وشأني لو سمحت!

اليوم بطريقي لمقهى هافانا اشتريت علاّقة مفاتيح من بسطة على الرصيف
الحقيقة ما بعرف منشان شو اشتريتها
يمكن عملت هالشي لأن أول هدية إجتني بحياتي كانت علاّقة مفاتيح
كنت بعدني طفل
فرحت يومها كثير بالهدية
رغم إنه ما كان عندي أي مفتاح لأي باب في هالدنيا
اليوم، وأنا عم أشرب قهوتي، تأملت العلاّقة كتير
وسألت نفسي:
منشان شو اشتريتها؟
وتبسمت من حالي
فعلاً منشان شو؟!
أنا هلأ بخريف العمر
أو يمكن حتى صرت من العمر في الشتاء
ما تغير شي
أبداً
رجعت متل ما كنت وأنا طفل
ما عندي أي مفتاح لأي باب في هذه الدنيا.

عَتبةُ الألم ..

مادمتُ فلسطينياً لا دخل له بما يجري في سوريا، إذن، لماذا يموت الفلسطينيون السوريون تقتيلاً وتجويعاً؟! أليس في هذا اعترافٌ - ولو كان مبطّنا - بأن الفلسطينيّ السوريّ سوريٌ أيضا؟! لقد أقمتُ فترة غير طويلة في مدينة السادس من أكتوبر في ضواحي القاهرة. كان هذا اقتراح ابن أخي اللاجىء مثلي. وأعترف بأنها كانت فكرة صائبة: مغادرة الفندق والإقامة في مكان بعيد عن أعين الناس، ليس لكوني خارجاً عن القانون، فلم يكن لي أية مشكلة شخصية مع البوليس أو القانون، أو حتى مع الناس العاديين. مشكلتي كانت مع نفسي، مع خوفي، مع إحساسي الدائم بأن شخصٌ غير مرغوبٍ بوجوده في مشهد الآخرين، فأنا المنبوذُ و" المبصوقُ في وجهي".. كنت لا أغادر المنزل إلاّ فيما ندر. وقد بقيت كذلك حتى نزلت الذبحة بقلبي. كانت أغلبية ساكني العمارة من السوريين، وأغلبية الأغلبية من مدينة حمص. كنت الفلسطيني الوحيد في البناء.عالجني من ذبحة القلب طبيب دمشقي في عيادة مخصصةٍ للسوريين.أما جيراني الحماصنة فلم يتركوني في أزمتي لحظة واحدة.صاروا يعودونني كل يوم. وكانوا يتأكدون كل يوم أيضا من أنني أتعاطى الادوية التي وصفها لي الطبيب في مواقيتها الصحيحة. وأكثر من ذلك: كانوا يحملون إليّ الطعام الذي تعدّه زوجاتهم في مطابخ بيوتهم. كنت أقيم بلا امرأة، فقد مرّ أكثرُ من عام على الطلاق بيني وبين زوجتي يوم سكنت الذبحة قلبي،والتي ربما كان سببُها الرئيسُ نفسياً كما قال الطبيب المُداوي وأظنه كان على حقٍ تماماً في تشخيصه هذا. حاولتُ الاحتجاج على

سلوك جيراني الحماصنة، ولكنهم رفضوا حججي واحتجاجاتي على نحو قاطع: "ما بيصير تضل تطلب أكل جاهز من المطاعم. ما بيصير تضل تاكل نواشف. ولو يا ابن الحلال!! ما نحن أهلك! شو فلسطيني وشو حمصي؟!" شكراً أبو محمد! شكراً أبو عادل! شكراً أحفادَ خالد! نِعمَ الاهلُ أنتم! أترى يا سيدي الكولونيل؟ أهلٌ نحن. فكيف يقتل المرءُ أهله؟ لماذا تحاصرون المخيم سيدي؟ وهل رأيتَ ما رأيتُ؟ هل رأيتَ صورة ذلك الطفل الفلسطيني في مخيم اليرموك يرضع من ثدي كلبةٍ نافقة في الطريق؟ ماذا أصابك أنت لحظتئذٍ، إنْ كنت قد رأيتَ الصورة؟ أنا لم أقدر على مقاومة التقيؤ. تقيأتُ على الكومبيوتر، وعلى الطاولة، وعلى ملابسي، وعلى الأرض، والكرسي، والسجادة. لم أتمالك نفسي عن ذلك إلى حين الوصول إلى الحمّام الذي عندما وصلته، وصرتُ أمام المغسلة، اكتشفتُ أنّ بطني باتت خاويةً تماماً، فتقيأتُ أحشائي. هذا ما حلّ بي أنا، فماذا أصابك أنت؟هل تقيأتَ مثلي أو ماذا حلّ بك تماما؟ فقط لا تقل لي إنك قد كنت سعيدا بتلك الصورة، لأنني عندئذٍ سأكفر بكل شيء، سأكفر بفلسطين ذاتها، وسوف أعلن براءتي منها، وتنازلي عنها كاملةً ما دامت هذه البشاعات تتم باسم الدفاع عن فلسطين نفسها. أيّ منطقٍ هذا؟! أنا حقاً لا أفهم. حتى نظرياتُ الدرامة وقفت عاجزةً أمامَ هذا المنطق العجائبي، فالفلسطينيون في مخيم اليرموك باتوا هياكلَ عظمية، وأكثر. هل تحرير فلسطين يقتضي هذه الضرورة؟! الناس في اليرموك باتوا أشباح هياكل عظمية تهيم في عتمة الخرائب مثل شخوص أفلام الرعب الهوليودي، ففي المخيم يموت الناس جوعاً سيدي الكولونيل. لن أذكّرك طبعا بالمعضمية وغيرها من المطارح المنكوبة. سوف أبقى في المخيم لكي لا تقول لي: شو دخلك؟. دمار وجوع ومرض وعطش وقيظ وصقيع وكلاب شاردة بين الدمار تنبح مستجديةً طعاماً أو دواءً. نباحها شديد الإيلام سيدي. سمعتها من منزلي، ذات ليلةٍ، هائمةً في بساتين داريّا فلم أبرأ من وجع الروح إلى اليوم. هل جرّبت وجع الروح يوماً؟ إنه شديدُ الإثم سيدي. إنه أكثر إيلاماً من ذبحة القلب، وعضّة الأفعى. كانت تلك الكلاب جائعةً، مذعورةً من شدّةِ القصفِ، مجروحةً في الرأس أو البطن أوالقوائم. تروح

وتجيء في فوضى من الهلع. لا تدري ما تفعل. تبكي. تنبح. تشتكي. تستغيث. ولكن.. ما من مسيح. كانت بردانة مثل ليلى. والبرد كالمرض، كالوحدة، كالإهمال، كالجوع، مهينٌ لحيوانيتنا. ومهينٌ لإنسانيتنا أيضاً. وبالمناسبة سيدي، لقد عثرتُ على ليلى أخيراً.أوه! آسف! أعتذر، فأنا لا أقول الحق. الحق هو أنني لم أعثر عليها أخيراً، بل إنني قد عثرت عليها في أول أيام عودتي إلى دمشق. ثمة تقريرٌ صدر قبل شهرين تقريبا عن إحدى الهيئات الدولية حول أجمل نساء الأرض.هل قرأته؟ أو: هل سمعت به؟ جاءت المرأة السورية في المرتبة الثالثة بعد المجرية التي كانت الأولى، وأظن أن آلنمساوية احتلت المرتبة الثانية. لن أحتجّ على النتيجة حتى لو كانت ظالمة.هكذا اعتدت أن أتصرف في جميع المسابقات التي كنتُ طرفاً فيها (بحكم المهنة طبعاً).على أية حال، المركز الثالث ليس سيئاً فهو يخوّل صاحبه الصعود على منصّة التتويج.الميدالية البرونزية لا بأس بها أيضاً.لماذا أقول هذا الكلام؟ لأنني صرت أخجل من نفسي عندما أكون في شوارع دمشق.امرأةٌ شابّة، جميلةٌ تقف في البرد مستندةً إلى عامود كهرباء، أو إلى جدارٍ أو بابٍ أو شجرة، أو حتى إلى شجيرة. تقف صامتةً، مكسورةَ النفسِ، من دون أن تمدّ يدها طلباً لمساعدة، ومن دون حتى أن نسمع صوتها.هي لا تطلب شيئا، وهي بالمقابل لاتعرض شيئاً.أنا وأنت نعلم علم اليقين أنها ليست مومسا، ولكنها قد تكون كذلك في يومٍ لم يعد بعيداً، فالجوع، كما تعلم، كافرٌ يا سيدي. إنه كالخوف والتشرد مهينٌ لأرواحنا. فأنا وأنت نعلم جيداً أنّ المصيبة التي نزلت علينا جميعاً قد كشفت المستور. الناس في بلدنا المنكوب كانت تعيش حياتها يوماً بيوم، بغض النظر كيف: غاضبة، راضيةً، قانعةً، خانعةً، أو خليطاً من هذا كله. وبغضّ النظر عن كيف: لم يسبق أن رأينا هذا المشهد في شوارعنا في أي وقتٍ من الأوقات.ألم يكن لدينا متسولون فيما مضى؟ بلى. بالتأكيد. ولكنهم كانوا قلةً، ولا يتواجدون إلا في أماكن محدودة. وكنا نعرف أنهم يمتهنون التسول، فنمرّ بهم، من دون حتى أن نلتفت إليهم.ألم يكن لدينا مومسات؟ بلى بالتأكيد. هذه، كما يقولون، أقدم مُهنة في التاريخ.أين كنّ يتواجدن؟ أنا شخصياً لا أعرف. ولكننا الآن لا نتحدث عن متسولاتٍ أو

مومسات.إننا نتحدث عن بنت البلد المستورة. والمصيبة هنا أننا لا نتحدث عن بنت واحدة أو عن خمسٍ أو خمسين.الله وحده يعلم عددهنّ الحقيقي.عندما أضع قطعة نقدية (ورقية بالتأكيد) في يد إحدى هؤلاء البنات فإنني أشيح ببصري متحاشياً ليس رؤية انكسارها، بل رؤية انكساري أنا.انكسار قلبي المكسور أصلاً. وأنصرف مصمماً على الاعتكاف في المنزل لأستريح من هذا العذاب.ولكنّ فكرةَ الاعتكاف-وللأسف الشديد-مستحيلةُ التنفيذ. بالأمس صادفتُ ثلاثاً من هؤلاء البنات في شوارع دمشق. بالأمس ودّعني أخي الصغير وارتحل إلى تركيا. ليس إلى الأبد كما قال لي. ولكنني أعرف أنه لن يعود. بالأمس بقيتُ وحدي. ما من إنسانٍ بين جميع العائلة الكثيرة العدد قد ظلّ لي هنا. بالأمس جرّبتُ صنفاً من الخوف لم أكن أعرفه. بالأمس كان الأمس كئيبا. بالأمس كان النهار حزينا، وبالأمس كان الليل عليّ ثقيلا. كانت أمي تقول: (الليلة السعيدة من العصر بتبان)، أما ليتلي الكئيبة فقد رأيتها منذ الصباح. كان بي صداعٌ مذ استيقظت من نوم قصير متعثر. لست من مرضى الصداع، غير أنني كنت مصدوع الرأس كثيرا يومَ البارحة، وكان بي وهنٌ، ودوخةٌ خفيفة. لم أذهب إلى الطبيب.اكتفيُت بمشورة أحد الصيادلة في قلب المدينة بعدما ودّعت أخي الصغير. قال لي الصيدلانيّ: أغلبية الناس في دمشق يشكون أعراضا كهذه التي تشكو منها." أعاد السبب في ذلك إلى الوضع العام في البلد، وأعطاني علبة دواءً. وضعتها في جيب سترتي، ودفعت ثمنها وانصرفت. ونسيت، والأصح طبعاً تناسيت أن أستخدم منها شيئا. كنت قد قلت لنفسي: (بالناقص حبة دوا، سيما إنو الكل عم يعاني نفس الأعراض.) وقلت لنفسي أيضاً: (الأمر مرتبطٌ بالنوم السيء فقط). في الليل اكتشفت أنني كنت أكذب على نفسي. في الليل اكتشفت أنني محمومٌ إلى حد الهلوسة. في الليل اكتشفت أنّ للحمّى بعضَ الفوائد، فقد أغفيتُ مرارا. ولكنني للأسف الشديد استيقظت مراراً كذلك. وكنت أرتجف. لم يكن بمقدوري أن أتحرك من الفراش من أجل علبة الدواء التي اشتريتها في النهار. لقد باتت الحمّى ليلتَها الفائتةَ في عظامي. والاستعارة من المتنبي واضحة، رغم أنني لا أقول غيرَ حقيقةِ ما عانيت شخصياً.

بهداك اليوم الخريفي من عام 2006، وقبل المغرب بشوي حسيت بنغزة في الخاصرة. فوراً فهمت شو ناطرني. سبق وعشت هيك لحظة عدة مرات.. بهداك الخريف اللي قبل تمن سنين كان العرض الأول لمسلسل الانتظار.. النغزة بعد المغرب تطورت لموجات متعاقبة من الألم، ثم الألم الشديد.. قالتلي زوجتي: خليني آخدك عَ المستشفى.. قلتلها: رح أقاوم. وما بدي مساعدة الدكاترة والأدوية.. قالت: كيف يعني ما بدك مساعدة الأدوية؟! شو هالمنطق العجيب! ثم إنه الأدوية لشو عملوها؟ مو لمساعدة المريض؟ قلت: مبلى، وأنا مش مريض. أنا فقط موجوع.. قالت: يا سلام! كيف يعني موجوع ومش مريض؟! هاي ما سمعتها غير منك. قلت: البحصة بالكلية أو بالحالب هي مجرد وجع. وجع ابن كلب، نعم، لكنه مجرد وجع، وصعب تصنيفه تحت أي نوع من المرض.. قالت: ليش كيف بيكون المرض إذا ما كنّاعم نتوجع؟. قلت: ما بعرف، ثمّ بلا نكد. شايفتيني متحمل؟! قالت: ما هو أنا عم أحكي لأنك مانك متحمل.. قلت: ما بدي مستشفيات ودكاترة، وجعي وبعرفه، ورح أتخلص منه بطريقتي.. كنّا جالسين في الصالون.. نهضتُ من قعدتي، وذهبت إلى غرفة النوم. ارتديت ثياب الخروج.. لحقتْ بي زوجتي إلى هناك.. قالت: شو عم تعمل؟! قلت: بدي أطلع أمشي. المشي لمدة طويلة أفضل أدوية القولنج الكلوي.. قالت: ما بدك تشوف المسلسل؟ قلت: لأ.. قالت: شو حكايتك مع هادا المسلسل بالذات؟ اليوم الحلقة التناش وإنت لهلأ ما شفت منه غير عشرين دقيقة. شو حكايتك؟ قلت: ما عندي حكاية. عم أنزعج من فواصل الإعلانات التجارية، ثم إنه المنتج قريباً رح يبعتلي نسخة كاملة من المسلسل على أقراص بجودة عالية. بشوفه بعدين على مهلي. قالت: أوكي، منبقى نشوفه سوا، بس خليني هلأ آخدك عَ المستشفى.. قلت: ما بدي مستشفيات ولا عاد تناقشيني بالموضوع.. وخرجتُ من المنزل. ورحت أمشي.. مشيت أربع ساعات أو

أكتر شوي. ومع إنه المشي الطويل هو فعلاً العلاج الأمثل للقولنج الكلوي، إلا إني ما استفدت منه بشي هداك اليوم.. رجعت للبيت قبل نص الليل بحبة.. استقبلتني زوجتي بالعتاب: شغلت بالي.عالقليلة كنت خد معك الموبايل.. قلتلها: أنا آسف، الموبايل نسيته. آسف إذا شغلت بالك! قالت: طبعاً شغلت بالي، ثم إنه رن كتير بعد ما انتهى عرض الحلقة، فوق الستين رنّة، هلأ بدهن يظنوا إنك متكبر عليهن.. قلت: الموبايل أنا نسيته، وأسفي إلك إنتي فقط لأني شغلت بالك، أما شو بدهن يظنوا الناس فهي مشكلة أنا بحلّها بعدين.. قالت: كيف حاسس حالك هلأ؟. قلت: أسوأ من المغرب.. قالت: خليني آخدك عَ المستشفى.. قلت: فوتي نامي.. قالت: شلون يعني أفوت أنام وإنت بهالحالة؟! قلت: حالتي فعلاً سيئة، لكني لسه قادر أقاوم، وإنتي ما رح يطلع بإيدك تعمليلي شي، لذلك فوتي نامي، ولما بعجز عن المقاومة بصحيكي.. قالت: كلمة شرف؟. قلت: كلمة شرف.. الساعة أربعة الصبح لقيت نفسي أمام أحد خيارين: إما برمي حالي من البرندا وبموت وبرتاح من الوجع، وإما بصحّي زوجتي من نومها.. أخدت بالخيار التاني.. دخلت لغرفة النوم، وجلست على حرف السرير، وحطيت إيدي على كتف المرأة الغفيانة، وناديتها باسمها.. صحيتْ بسرعة.. قالتلي: شو؟. قلت: ما عاد فيني أقاوم.. خلال ثواني كانت قايمة من الفراش.. لبست تيابها بدقيقة.. ويا دوب غسلت وجهها.. ومشطت شعرها كيف ما كان.. وأخدت رزمة فلوس من غرفة المكتبة ورمتها بشنطاية الإيد.. ومسكت دراعي وساعدتني بنزول الدرج والوصول للسيارة.. بيتنا كان في صحنايا، والمستشفى اللي رايحينله بحيّ العدوي.. زوجتي كانت عم تسوق بسرعة عالية.. قلتلها: ديغول كان يقول لسائق سيارته لا تسرع فأنا مستعجل.. قالت: ومين هادا ديغول بلا زغرة؟. ما قدرت أضحك من سؤالها بسبب الوجع.. فعلاً مين هادا ديغول؟! ما هيّ معها حالة طارئة.. قلتلها: أنا آسف! قالت: على شو؟. قلت: على كل شي، حتى على وجودي بهالحياة.. قالت: هانت.. شوي ومنوصل.. كانت الطريق طويلة للمستشفى اللي منتعالج فيه عادةً.. وزوجتي زادت من سرعة السيارة.. أكيد كذا رادار لقطنا بالصور، وخاصةً

على أتوستراد درعا.. قلت لزوجتي وأنا عم أحاول اضحك وألهي نفسي عن الوجع: كم مخالفة عملتي بهالمشوار؟. قالت: إي مندفع المخالفات، المهم نقصّر مدة الوجع. ثمّ مو لهيك انوجدت المصاري؟ مو هيك إنت دائماً بتقول؟. قلت: مبلى.. وبقيت عاجز تماماً عن الضحك.. وصلنا أخيراً إلى المستشفى.. عاينني طبيب الإسعاف المناوب.. طلع بنفس التشخيص: قولنج كلوي.. سألني إذا بدي نام عندهن.. قلت: طبعاً بدي نام.. طلب من زوجتي تعمل إجراءات تسجيل الدخول وتدفع سلفة للمحاسب.. وعطاني إبرة مسكن بالعضل.. دقائق معدودة واختفى الألم.. اختفى نهائياً.. خرجت من المبنى.. جلست على حرف الرصيف.. وشعلت سيجارة.. كان طلع النهار.. إجت زوجتي لعندي.. جلست جنبي على حرف الرصيف.. سألتني: كيف حاسس حالك؟. قلت: حاسس إني رجعت بني آدم.. قالت: معقول إنت؟! معناها قديش كنت عم تتوجع؟! قلت: البني آدم ما بيستاهل الوجع، وأنا بهاللحظة عم أحكي عن الوجع مو عن المرض.

البني آدم بيستاهل العافية في بدنه وفي نفسه.. قالت: المهم إنت هلأ منيح، وما رح نختلف عَ الباقي.. هادا كله صار بشهر تشرين الأول عام ألفين وستة.. لكن نحن هلأ بربيع ألفين وأربعتاش.. بقلب الليل.. ما عندي حدا أصحّيه من النوم.. ولا حتى عندي سيارة.. ولا عندي مسلسل عم ينعرض على شي محطة.. وبالتالي جهاز الموبايل ما رح يرن ستين مرّة، وعلى الأرجح ما رح يرن ولا مرّة وحدة. اللي كانوا يتصلوا للسلام والاطمئنان هاجروا. وغير هيك: أكيد ما في تكسي بشوارع دمشق بهالصقيع وبمثل هاي الساعة وهاي الظروف الأمنية الفظيعة.. هاي الليلة أنا فعلاً لازم أقاوم.

في الهلوسة زارتني فصول الحياة جميعها. زارتني نساء الحياة، أشياء الحياة، أطفال الحياة. في الهلوسة زارتني كوابيس الحياة، أظنني كنت أعاني اختناقا في الصدر أشدّ إيلاماً من ذبحة القلب. ولعلني كنت أسأل: هل هي النهاية؟ وكنت أجاهد في رفض الفكرة. سوف أقاوم. سوف أقاوم. سوف أقاوم. لو كانت النهاية فلن يعلم بموتي أحد قبل شهر وأربعة أيام: موعد رجعة صديقي عبد اللطيف من السفر، هذا إنْ رجع في وقته طبعاً. وأظنني قد صرخت طالباً النجدة. وأيقظني صراخي. وتلفتّ حواليَّ وأدركت أنّ ما مرّ بي لم يكن أكثر من كابوس سخيف. وحمدت الله على ذلك. وصفنت مرتجفا من الحمّى. ورأيت بعد صفنتي أنني كنت جباناً أكثر مما ينبغي، لأنّ أسوأ ما في هذه الحياة، في حقيقة الأمر، هو أنني مازلتُ على قيدها.

الأسبوع الماضي في متل هادا اليوم
عند العصر
في قلب دمشق
كنت رايح لمطعم الكمال في شارع 29 أيار، مع إنه ما إلي نفس للأكل
وصلت ساحة الشهيد يوسف العظمة (المحافظة)
انعطفت يساراً
صرت بمحاذاة المدخل الرئيس لمبنى التأمينات الاجتماعية
بهاي اللحظة بالذات وقع الانفجار
بين مطعم الكمال وبين سوبر ماركت سُندس
يعني على بعد تلاتين متر على الأكثر من مكان تواجدي
وباللحظة نفسها انقسم الناس اللي كانوا على الرصيف في منطقة الانفجار إلى قسمين:
أحياء
و
أموات
خفت؟
ارتعبت؟
أظن الجواب:
نعم.
احتميت بالمدخل العريض لمبنى التأمينات الاجتماعية، تماماً كما فعل عشرات المارّة.

الانفجار كان قوي، رغم إنها مجرد قذيفة هاون
لكن واضح إنها من العيار الثقيل.
واضح بالنسبة إلي أنا على الأقل
سبق وخدمت العلم في سلاح المدفعية
مرت دقيقة أو أكثر على الانفجار
والناس استوعبت الصدمة أو كادت
فابتدأ بعضهم بمغادرة مدخل المبنى
شفت من واجبي ممارسة مسؤولية ما، فصرخت بالجميع
وطالبتهم بعدم مغادرة المدخل
أو على الأقل بعدم الذهاب في الاتجاه المودي إلى مطعم الكمال
تقديري كان أنّ هناك قذيفة ثانية في الطريق
أظن الموجودين سمعوا كلمتي
والتزموا مكانهم
لكن مرت عشر دقائق والانفجار الثاني لم يقع
بدأ العقد ينفرط شيئاً فشيئاً
الناس ما عادوا صدقوني
أنا نفسي ما عدت صدقت نفسي
خرجت من مدخل البناء وألقيت نظرة باتجاه الشمال
هناك حريق ضخم بجوار المطعم
سيارات الإطفاء وسيارات الإسعاف كانت تزعق في الطرقات المختلفة
وما إن شرع رجال إحدى سيارت الإطفاء بالتعامل مع الحريق
حتى وقع الانفجار الثاني
كان أيضاً قذيفة هاون
وكانت قذيفةً من العيار الثقيل كذلك

ومن جديد انقسم الناس في المكان إلى:
أحياء
و
أموات
أنا ما بعرف مين اللي عم يرمي هذه القذائف على دمشق
وما بعرف من أين تُرمى
لكن اللي بعرفه بشكل منيح، أو حتى أكتر من منيح
إنه منطقة مطعم الكمال ليس فيها أي هدف أمني أو عسكري
إلاّ إذا اعتبرنا الهدف هو:
المركز الثقافي الروسي على الرصيف المقابل
لكن حتى هذا المركز ليس هدفاً بحالٍ من الأحوال
فهو مغلق تماماً منذ سنتين أو أكثر
هذه الحرب عبثية
وهذا الموت عبثي
تركت مكاني وذهبت في الاتجاه المعاكس
عبرت ساحة الشهيد يوسف العظمة
نزلت في شارع بورسعيد
قصدت مقهى هافانا
كانت الانفجارات في دمشق تتوالى
يبدو أن القسم الأكبر بينها كان من نصيب حي الشعلان
مرة ثانية: ماذا يوجد في حي الشعلان غير الأسواق التجارية؟
ومرةً ثانيةً أيضا:
هذا الموت عبثي
خرجت من مقهى هافانا قبل المغرب بشوي

عرجت على إحدى الصيدليات من أجل الأسبرين المخصص للسيولة الدموية عند مرضى القلب

كانت الصيدلية فارغة

جرت دردشة بيني وبين الصيدلاني حول الانفجارات اللي هزت دمشق هداك اليوم

دخل مريض بوصفة طبية قلبية

الدواء مفقود

دخل شابٌ وطلب مقوياً جنسياً

هذه العقاقيرُ متوافرة بكثرة

استغربتُ أنّ شاباً صغيراً يحتاج إلى مثل هذه الأدوية

وفكرت:

ربما كان مريضاً بالسكري

أو ربما كان غير مريضٍ بشيء

ولكنه يحتاج إلى مساعدة العقاقير في هذه الظروف المأساوية

وفي جميع الأحوال غبطته في سري على كونه مازال راغباً بممارسة الحياة

خرجت من الصيدلية

كان الظلام قد هبط على المدينة

صعدت ثانيةً باتجاه ساحة الشهيد يوسف العظمة:

الناس في الطريق قلّة

وكان أمامي على الرصيف امرأة تغني بصوتٍ مرتفع:

ميّل يا غنّام ميّل بات الليلة هين

وفي الحقيقة أنّ صوتها كان عذباً

ولكنها شرعتْ فجأةً تشتم هذا وتشتم ذاكَ من المارّة

أظنها فاقدةً عقلها
شتمتني
رحت أغذُّ الخطى
تجاوزتها
صرت في الساحة
وفجأةً ناست الأضواءُ جميعاً
ثم انطفأتْ
لم أستوعب ما قد حصل
هل وقع هجومٌ على محطة توليد الطاقة التي تغذي المدينة بالكهرباء؟
لا أعرف
ومن شارع 29 أيار،
ومن قلب الظلام
خرج موكبٌ عرائسي
مجموعةٌ من السيارات الحديثة
أبواقها تنفخ في السماء
ونساؤها يزغردن
والرجال فيها يصفقون
دمشق
مدينة الفانتازيا الواقعية
وصلت إلى مطعم الكمال
كان قد عاد يعمل
وكان مضاءً بالمولد الاحتياطي
دخلت إليه
وجدتني الزبون الوحيد هناك.

ولكنني سرعان ما غادرت المكان وقد بدأت موجات الحمّى تتعاقب على بدني العليل

استوقفت سيارة أجرةٍ أقلتني إلى المنزل
التيار الكهربائي مقطوعٌ كالعادة
وقفت بشباك الصالون
وألقيت على مدينتي تحية المساء
لكنَّ أحداً لم يردَّ عليَّ التحية
الشوارع كانت خاوية تماما
في السماء هدير طائرات
وعلى الأرض زعيق سيارات إسعاف
مَنْ مات هذا اليوم
ومتى يجيء في الموت دوري؟

مذ رحلت هناء وأنا مصابٌ بهذا اليقين: كلُّ الوقت الذي عشته من بعدها كان إضافياً. كان وقتاً بديلاً من ضائع.. زارتني بالأمس مثلما كانت في تلك الليلة الربيعية البعيدة.. يا الله! أربعونَ عاماً انقضت على ذلك الربيع حينَ قالت لي: أنت الطفل الذي خلقه الله وقال: هذا حسن.. وزارتني أيضاً كما كانت في ذلك الخريف الذي قبلَ أربعينَ عاماً.. كان الليل قد استوى. وكان ثمةَ نسائمُ طريّةٌ تحوّم في الطرقاتِ من حولنا، وتهمس للناس والشجر بأنّ الخريفَ قد جاءكم بالمسرّة. فها هي الغيوم تسبح من فوقنا. غيومٌ تعروها ظلالٌ بنفسجيةٌ مخادِعة، وتنذر بزحفٍ سرّيٍ من الأوهام الكبيرة إلى جهاتِ القلبِ جميعا، فتجعلَه مثلَ مرآةٍ مصدّعة. قلتُ لها: أنا بحب الخريف. قلتلك هالكلام قبل مرة. بتتذكري؟ قالت: بتذكر، وبتذكر قلتلك أنا بحبّ الربيع. (مازال هذا الجوابُ إلى اليوم يحيّرني كلمّا تذكرته، فكيف يحبُّ الربيعَ مَنْ يرتجي الموتَ؟!). قلت: أنَا ما بحبُّ الربيع.. ومضينا على غير هدىً في شوارعِ المدينة. لم يكن لدى البنت مشكلة مع الليل، لأنها مثل رشا ليست من هذه المدينة. كانت كلما سهرنا معا تصاحبني إلى منزل أحد الأصدقاء. ونبيت ليلتنا هناك. كنا ثنائياً مُرَّحباً به. ولكننا لم نكن نبيتُ الليلَ في فراشٍ واحدٍ، ولا حتى في غرفةٍ واحدة. لم تكن البنت تسمح بوقوع أمرٍ كهذا في حالٍ من الأحوال. ذهبنا في ذلك الليل الخريفي نتسكع في أسواق دمشق العتيقة. كان الوقت قد تقدم قليلاً. والطقس مال إلى البرودة قليلا. كانت المحال التجارية كلُّها مغلقة. سوق الحميدية، سوق الحرير، سوق النسوان، سوق البزورية، سوق القباقبية (كانت ماتزال قائمة)، سوق العصرونية، سوق المسكية (هذه أيضاً كانت بعدُ قائمة).. وثمة قرصةُ بردٍ جعلتْ تجوبُ المدينة، وكانت البنت تتعربش بذراعي، وتلتصق بي كثيراً، على غير عادتها. بدت لي بذلك السلوك كمن يخاف أن يفقد شيئاً ما غالياً.أم تراها كانت تبحث عن الدفء مثلاً؟ سألتُ نفسي. وسألتُ نفسي أيضاً: إلى أين تمضي

هذه العلاقة بنا؟ لم يسبق لي أن عشت علاقةً مشابهة. وأعترف اليومَ بأنني لم أعش لاحقاً مثل هذه العلاقة. أبداً. كانت هناء شديدة التميز عن جميع نساء حياتي. بل أستطيع أن أقول: هذه البنت لم تكن عندي من نساء الحياة، بل إنهاغصّة حياتي الوحيدة. كان سلوكها يبعث على الحيرة في نفسي. وربما كان في حيرتي تلك دوافعُ قويةٌإلى مزيدٍ من الحبّ إلى هذه البنت السمراء ذاتِ العيون العسلية والشعر الأسود والقامة المستقيمة واللكنة الريفية الخفيفة في منطوق لغتها الشاميّة. وقفنا لحظةً أمام تحفة دمشقَ المعمارية: مسجد بني أمية، ثم اتجهنا شمالاً، فشرقاً. مررنا بضريح صلاح الدين. تجاوزناه. تجاوزنا السور الشمالي للتحفة المعمارية.أخذنا اتجاه الجنوب هذه المرّة عبر الأزقة الضيقة المتعرجة. وصلنا إلى مفترق الطريق. الجنوب مغلق أمامنا بالبيوت العتيقة. الشمال وراءَنا. الشرق يأخذنا إلى القيمرية. الغرب يقودنا إلى النوفرة. كان في الغرب ثمة أضواءٌ ساهرة. إنه مقهىً شعبي. تعال نشرب شاي. قالت لي. قلت: تعالي. جلسنا على المقهى، وطلبنا شاياً. قالت هناء للنادل مبتسمة: بدي أسخن شاي بالعالم. قال النادل: بأمرك يا آنسة! وانصرف. والتفتتِ البنتُ إليّ، وقالت: شبك؟ عم تصفن كثير اليوم. شو في؟. قلت: عم أفكر. قالت: عم تفكر فيني، مو هيك؟ قلت: مبلى هو هيك فعلاً. قالت: بعرف، أنا كمان عم أفكر فيك. قلت: إنتي بتحيريني يا هناء، أنا بحبك كل يوم أكتر من اليوم اللي سبقه، بينما إنتي. قالت: أنا شو؟ ليش سكتت؟ قلت: ما عم أفهمك. قالت: بس أنا عم أفهمك وعم أحبك. وقلت لك هالشي من قبل مراراً. أحبك حبين: حبَّ الهوى/ وحباً لأنك أهلٌ لذاكَ. قلت: وأنا ما بدي حبّين. بيكفيني منك حبّ واحد. قالت: لكنْ هادا اللي إلك عندي. حبّان، فيا بتقبلهم سوا أو بترفضهم سوا. مو مسموح لك الاختيار. قلت: هل مسموح لي أنْ أسأل من جديدٍ إنْ كنتِ متصوفة؟ قالت وهي تبتسم بثغر شائق العذوبة: كيف ممكن أكون متصوفة وأنا سهرانة معك في الطريق بعز الليل، ومن دون حجاب حتى؟! - إذن، ليش كنتي تلحّي عليّ بزيارة ضريح ابن عربي؟! وليش بتستشهدي دائماً بشعر رابعة العدوية؟ - بستشهد بهذا الشعر لأنه بيناسب عواطفي تجاهك. - لكن رابعة قالت هادا

الكلام بمناسبة مختلفة تماماً. - أنا ما بتهمني مناسبة رابعة. هادا شأنها هيّ، ومو شأني أنا. وقبل ما تطرح المزيد من الأسئلة العبثية، خليني أضيف الآتي: أهلي ما رح يعترضوا عليك بشيء، فلا تسمح لذهنك إنه يروح بعيد حول أسباب اعتذاري عن الزواج لإلك. - إنتي بهادا الكلام بتدفعيني مش إلى الذهاب بعيداً، بل إلى أبعد من البعيد. وهمّتِ البنتُ بالردّ، ومنعها من ذلك مجيء النادل حاملاً الشاي الذي قالت هناء تصفه: هادا أسخن شاي شربته بحياتي. ابتسم النادل وقال: نحن بالخدمة يا آنسة! وانصرف. التفتت هناء بعد انصرافه إليّ وقالت: شو هو الشي اللي أبعد من البعيد اللي كنت بدك تحكي عنه؟ قلت: ما بتزعلي؟. - لا ما رح أزعل، ولا رح أغضب، قول ولا تتردد، أنا أصلاً ما بقدر أغضب منك أو أغضب عليك. ما بقدر على شيء متل هاد، إنت روحي يا حسن. إذن، كيف بيغضب البني آدم من روحه؟ ليش سكتت؟ بتحب أقسم لك على هالشي؟ - لا، ما بدي ياكي تقسمي، ولكن، يا ترى؟ يا ترى إنتي؟.. إنتي بنت سوية؟ - إنْ فهمت سؤالك على نحوِ صحيح، نعم أنا بنت سويّة، بمعنى أنثى سوية. هادا هو الشي اللي عم تسأل عنه؟ - نعم، هادا اللي عم أسأل عنه. شكراً على الجواب الذي بيدفعني إلى استنتاج مانو كويس. - وشو ممكن يكون هادا الاستنتاج اللي مانو كويس؟ - إنك بترفضي مبدأ الزواج. - استنتاجك خاطيء، أنا ما قلت إني رافضة الزواج. اللي قلته إني رافضة الزواج لإلك. بس. ليش عم تنظر لي بغضب؟ عم تعاقبني على صراحتي؟ - شو بفهم من كلامك؟! ممكن تتزوجي إلى رجلِ آخر؟! - نعم، ممكن أتزوج إلى رجلِ آخر. ممكن أتزوج إلى رجلِ ما بعرفه، وما بحبه. أنا أصلاً ما رح أقدر أحب من بعدك. وكيف ممكن أحب رجل آخر بينما أنا بحبك إنت؟ - إنتي بدك تجننيني؟!! - ليش عم تصرخ؟ ما كنا هاديين وعين الله علينا! ثم أنا ما بد ي جننك، بالعكس حبيبي، أنا بدي ياك تكون كامل مكمّل. سلامتك من الجنان! سلامة عقلك! سلامة قلبك! سلامتك يا عمري إنت يا حسن! - مو الهيئة إنو بدك سلامتي، أكيد عندك سر وما عم تحكيه، لو صحيح بدك سلامتي كنتي بتقولي كل اللي عندك، ومنتناقش، وبوعدك إنو نتناقش بهدوء.

- أكيد عندي سر، بس ما فيني قوله. - ليش؟ - لأنك ما رح تفهمني. - وليش عم تحكمي سلفاً إنو ما رح أفهمك؟ جربيني. - حتى لو فهمتني، فأكيد رح تعتبره سر سخيف، وما رح تقتنع فيه، أنا متأكدة إنك رح تعتبره سبب تافه. بعرفك كيف بتفكر. بس الحقيقة هو بالنسبة إلي مانو تافه أبداً. لذلك أرجوك لا بقى تضغط عليّ. - هناء حبيبتي! - ما بقدر أحكي، ما بقدر، ما بقدر. وانخرطت البنت بالبكاء فجأة. كان بكاءً صامتاً. رحت أتأملها بمزيدٍ من الحيرة. لم أكن أتصورها بهذا الضعف من بعد تلك الثقة التي أبدتها طوال حديثنا كله. غطّتْ وجهها براحتيها من دون أن تتوقف عن البكاء الصامت، فتوقفتُ عن الإلحاح عليها لمعرفة حقيقة ما تخفيه عني. كان يهمني تلكَ اللحظةَ أن تهدأ. ولن تهدأ من دون أن أصمت. بقيت أتأملها وهي تغطّي وجهها براحتيها. ولم أكن أعرف في تلك الليلة الخريفية أنّ عدّادَ الزمن يمشي بسرعة، وأنّ ما بقي لهذه البنت في الحياة هو ثلاثة أعوام فقط. وكيف لي أن أعرف؟ كنت سأحبسها في قلبي، وفي روحي بعيداً عن عيون الموت. كنت سأقاتل الموتَ من أجل إنقاذها من بين براثنه.. كلام فارغ، كلام فارغ، كلام فارغ، إنك لن تستطيع حمايتها من جيناتها الموروثة، والموت سوف يدركها أينما كانت، سوف ينتزعها منك، حتى لو حبستها في بروجٍ مشيّدة. لم أكن أعلم بأنها ستموت بالسرطان. ولكنني أعلم، بعدما علِمت بموتها، أنّ السرطان لم يأت من فراغ. إنه مجرد حجّةٍ للموت المبكّر، أما ذلك الموت نفسه فقد كان حتمياً، وسببه السرُّ الذي أخفته عني في ذلك المساء الخريفي، والذي ظننتُ للوهلة الأولى، بعدما صارحتني به في مرّةٍ لاحقة، أنه سببٌ سخيفٌ فعلاً، غير أني، وبدوام التفكير به لشهور عديدة ثم لسنوات عديدة، أدركت أنه ربما كان سبباً وجيهاً للموت إلى حدٍ بعيد. مرض هذه البنتِ لم يكن السرطان، أو إنّ السرطان جاء نتيجة المرض الأساس: العشق. وهكذا وجدتني فجأةً متورطاً في جريمة قتل لا يمكن للقانون أن يعاقبني عليها. التقرير الطبي واضح جداً: السرطان. المتهمُ حاضرٌ بقوةٍ تعادل قوة براءتي، رغم أنني لست بريئاً في حالٍ من الأحوال. فأنا لم أعرف كيف أدافع عن البنت. ولم أعرف كيف أدافع عن نفسي، وعن حبنا المشترك. أو لعلّه لم

يكن مشتركاً. ربما كان حباً من طرفٍ واحد فقط. من طرف هناء طبعاً، التي رحلتْ عن هذه الدنيا ولم تترك لي فيها إلاّ الحسرةَ التي لا تبرح نفسي إلى اليوم.. نهضتِ البنتُ في ذلك الليل الخريفيّ من قعدتها فجأةً، وانصرفت مندفعةً كمن يهرب من شرٍ مستطير. كانت تماماً كمن يهرب لملاقاة مَلَك الموت وقد لاح أمامها عند أول الزقاق، وتركتني في مكاني ذاهلاً. راحت تصعد الدرجاتِ المؤديةَ إلى البوّابة الشرقية العملاقة لتحفة دمشق المعماريّة. لم أستوعب لوهلةٍ ما يحدث. ها هي تنعطف شمالاً باتجاه الجنوب. أيةُ متاهةٍ هي دمشقُ القديمة!! نهضتُ ولحقتُ بها، من دون أن أدفع ثمن الشاي الذي شربنا (دفعتُ المبلغ بعد ثلاث سنواتٍ تقريبا). كانت البنتُ سريعة الخطو كمن يعدو. دخلتْ في زقاقٍ لا يفضي بها إلى غير مزيدٍ من المتاهة. كنت أناديها. وكانت ترفض أن تسمع ندائي. كانت الناس الساهرة قلةً قليلة. ولكنّ الذى جرى أمامهم لا بدّ أن يكون قد لفت انتباههم. أدركتُ البنتَ أخيراً في زقاقٍ شديدِ الضيقِ يحاذي قصرَ العظم من شرقه. أمسكتُ بمعصم يدها اليسرى. وربما فعلتُ ذلك ببعض الخشونة. توقفتْ. نظرتْ في وجهي بعينيها الدامعتين. نظرتْ إلى قبضة يدي حول معصمها. قالت: أترك إيدي. لم أستجب لطلبها. قالت: عم توجعني. قلت: أنا آسف! وحررتُ معصمها من قبضتي. قالت: شكراً!. وتأملتني لحظةً قصيرةً، ثم ارتمتْ عليّ وأجهشتْ ببكاءٍ بدا لي شديدالمرارة. رحت أمسدّ رأسها.. ظهرها.. هدأتْ قليلاً.. قالت بصوتٍ نهنهه البكاء: شو بدك؟ قلت: ما بدي شي. قالت: مبلى بدك. قلت: بدي تهدي. قالت: أنا منيحة، هلأ صرت منيحة. خليك عم تضمني. لا تتركني. قلت: ما رح أتركك، ما رح أتركك. ثُمَ ماذا؟ ثُمَ ماذا؟ ثُمَ ماذا إن علموا بموتك لحظةَ موتك، أو إنْ أجّلوا تلك المعرفةَ شهراً وأربعةَ أيام؟ أيّ فرق سوف ينجم عن تلك المعرفة؟ في الحالين سوف تكون نائما ولن تشعر بشيء. أم تراني. ..؟! لم أكملِ السؤالَ من رعبٍ أصابني عندما استولدَ السؤالُ المنقوصُ سؤالاً آخرَ: ماذا لو استعصى عليَّ النومُ بعد الموت؟! ماذا سيحلّ بي عندئذٍ؟! أية عقوبة هذه يا ربي؟!! سوف يشفق عليَّ أيّوبُ نفسه، وسوف يشفقَ عليَّ سيزيف نفسه، وسوف يقول: حرام،هذا كثير! وسوف

يدعو لي بالرحمة. سوف تكون هذه عقوبةَ الحياةِ الأكثرَ قسوةً في تاريخ البشر. حرام! والله حرام يا ربي، فأنا لم أرتكب من الذنوب ما يجعلني أدفع هذا الثمن كله.البشرية جميعها لم ترتكب من الذنوب ما يبرر هذا العقاب على أحد أفرادها. ووجدتني أستغيث من احتمال وقوع هذا الأمر الخيالي. ساعدني يا الله! وزجرتُ نفسي عن هذا الجنون. ورأيت الحمّى بغيبوباتها أقلَّ إيلاماً من هذه اليقظة المرعبة، فاستسلمتُ لها طائعاً. وفرشت لها ما فرشَ المتنبي من طوايا وحنايا، فعافتها وظلّتْ في عظامي. ما ضريبة الوجود هذه يا ربي؟! لماذا؟! من أجل أيّ شيء؟! أمِن أجل أن نظل أحياءً في هذه الدّار الفانية؟! وهل هذه الدّارُ تستحق أن ندفع مقابلها الأثمانَ التي اليومَ ندفع؟! عادتني الهلوسات. زارني ابن أخي. ذلك المواطن السويدي منذ ربع قرنٍ وأكثر.قال لي: "جئتُ إلى دمشقَ لأصطحبك معي بعيداً عن هذه المدينة وهذا البلد." قلت له: "إذن جئتَ يا بن أخي تطلب مني أن أغادر هذه الروح الشقيّة إلى مطارح أكثرَ شقاءً.؟، لن أطيعك. ليس هذا ما أريده يا مروان." " ماذا تريد إذن يا عمي؟" "أريد أن أنام." زارتني أمي. جاءت مريضة مثلما كانت يوم فارقت الحياة. قالت لي معاتبة: "ليش هيك عامل بحالك؟." " شو عامل يا أمي؟ مريض. كل الناس بتمرض" "ما عم أحكي عن المرض. ليش تارك دقنك طويلة؟ ليش ما بتحلقها؟." "ما بعرف. يمكن ما بحب أوقف قدام المراية." قالت: "ولك يمّا شو اللي بتخاف تشوفه بالمراية؟" زارتني هناء أيضاً وأيضاً.. جاءتني مثلما رأيتها آخر مرة. حزينةً كانت في آخر مرّاتنا. لماذا أنت حزينةٌ هكذا يا هناء؟ لماذا أنت حزينةٌ هكذا يا حبيبتي؟ كنا نتناول طعام العشاء في أحد المطاعم. كان ذلك عشاءنا الأخير. كنت في صباح اليوم التالي مسافراً لنحوِ من مئتين وخمسين كيلومتراً عن دمشق. كنت سألتحق عند الصباح بخدمة العلم. قلتُ لها: ما بك؟! إنني لستُ ذاهباً إلى السجن، بل إلى خدمة العلم. جميع الشباب يخدمون العلم. هذا واجبٌ، وأكثر، ثم إنني سوف أخدم ضابطاً بسبب الشهادة التي أحملها. الصعوبة سوف تكون في دورة الأغرار فقط، حيث الإجازات ممنوعة لخمسةٍ وأربعين يوماً، وبعد هذه المدّة تصير الأمورُ أكثرَ سهولة، فأين المشكلة

إذن؟. ولماذا أنت حزينةٌ إلى هذه الدرجة؟! قالت: لا أعرف، اخشى أن تكون هذه مرّتنا الأخيرة!- ولماذا هذه الخشية؟- أشعر بنفسي مريضة.- كيف مريضة؟. متى؟ أقصد منذ متى؟ وما طبيعة هذا المرض؟ أعني.. مم تشكين بالضبط؟ ما الذي يؤلمك؟- لا شيء.- كيف لا شيء؟ تقولين مريضة!- نعم إنني مريضة، ولكنني لا أعرف ما الذي يؤلمني بالضبط. - كيف ذلك؟ لا أفهم. أين الوجع؟ حددي لي مكانه على الأقل: الرأس، الصدر، البطن، أم إنه مرضٌ نسائي مثلاً؟- لا شيء من هذا كله.- لماذا تشغلين بالي؟! مادمتِ تتألمين، فلا بدّ من موضعٍ للألم، إذن حددي لي موضع الألم. طلبي بسيطٌ جداً، إنه مثل تحديد يومكَ المفضل بين أيام الأسبوع.- هل مازلت تذكر؟- وكيف أنسى؟! لذلك قولي لي أين موضع الألم؟ إنه طلب بسيط جداً.- بل هو طلبٌ صعبٌ جداً، فما من موضعٍ في جسدي يؤلمني، ولكنني، مع ذلك، أتألم. إنني لا أعرف ما أعاني. منذ ذلك الوقت وأنا مريضة.- منذ أيّ وقت؟- منذ تلك السهرة عندما كنت أسألك عن يومك المفضل بين أيام الأسبوع. ثم منذ تلك الليلة التي راهنتُ فيها على شهامتك، ورحنا بعد ذلك نتسكع حتى الصباح في شوارع المدينة. منذ تلك القبلة الليلية الموجِعة وأنا أتألم. ربما كنت أتألم من الفرح. وربما كنت أتألم من الحزن. أنا لا أعرف من حقيقة ألمي غير أنني أتألم. ولا أخفيك أنني مستغربة كيف اجتزت الامتحانات التي كانت على الأبواب وقتئذٍ. كانت آلامي مبرّحة، وما تزال كذلك. ليس غيابك ما يشغل بالي الآن. المسألة بالنسبة إليّ ليست في حضورك أو غيابك، فأنت دائمُ الحضور عندي، حتى لو ابتعدتَ عني آلاف الكيلومترات. المسألة لم تعد بالمسافة التي تفصلني عنك، أخشى أنني لن أصمد طويلاً. - ولكن يجب أن تصمدي. - سوف أحاول. سوف أحاول. - هل تعدينني بذلك؟ - نعم، أعدك بأن أحاول، ولكنني لا أضمن النتائج.. وكانت النتائجُ سفرَها المفاجىءَ، وزواجَها المفاجىء.. مَنْ أنتِ يا هناء؟ سألتها يوماً. قالت: أنا حمامةُ الأيْكِ، نشوةُ الحبّ، أنشودةُ المطر.. بل أنتِ ذبحةُ القلبِ يا هناءُ، ووجع النفس، وغصّةُ العمرِ أنتِ.. من أيّ شيءٍ كانت تهرب؟! ماذا كانت حاجتي إلى غصّة العمر هذه؟ قالت لي من قبل: أنتَ

ظهرتَ في طريقي، أنتَ ظهرتَ في حياتي. لماذا لا يكون العكس هو الصحيح؟ فالغصّة عندي أنا، وليس عندك أنتِ يا هناء.. بعد الامتحانات سافرت إلى أهلها لتقيم عندهم، كعادتها بعد كل سنة دراسية، شهراً أو بعض شهر. بعد أسبوع من غيابها عن دمشق وصلتني منها رسالةٌ فرحتُ بها كما يفرح الصغار بالهدايا في صبيحة العيد. فتحت المغلف بمنتهى اللطف والهدوء والأناة والرأفة. تعاملت معه مثلما يكون شيئاً قدسياً. على ماذا عثرت في داخله؟ ورقة صغيرة يتيمة فيها بيتان من إحدى قصائد ابن الدُّمَينة: وقد زعموا أنّ المحبَّ إذا دنا/ يملُّ وأنّ النأيَ يَشفي من الوجدِ. بكلٍ تداوينا فلم يُشفَ مابنا/ على ذاكَ قربُ الدارِ خيرٌ من البُعدِ.. وبعد يومين اثنين على تلك الرسالة، أيقظتني أمي من النوم. لم أكن قد أغفيت إلا قبل عشرِ دقائق فقط. قالت لي: إجاك ضيف. نظرتُ إلى الوقت في ساعتي اليدوية على الكومدينو بجواري. تمام الثامنة صباحاً.- ضيف شو يمّا بهالساعة؟ قلت أحتجّ على أمي. قالت: وحدة بنت. - ما تكون. قاطعتني أمي تقول: لأ وحدة جديدة، أول مرة بشوفها. ذهبتُ إلى ضيفتي. ما هذه المفاجأة؟! ما هذا الفرح! ما هذه البهجة التي أصبتُها! ولكن مهلاً! كانت البنت حزينة، بائسةً، متألمة، رغم أنه لا يليق بها غير السعادة.- ما بك يا هناء؟ ما بك يا حبيبتي؟-لا شيء. الآن لا شيء.- ما معنى الآن؟ - الآن وقد رأيتك.- تعالي نفكك هذه الألغاز واحداً واحداً.- ليس في الأمر أية ألغاز. اشتقت إليك. لم أقدر على مقاومة هذا الاشتياق. قلت لأبي إنني مضطرة على السفر إلى دمشق من أجل استخراج بعض الأوراق للتسجيل في السنة الدراسية الجديدة. أنا منيحة، لكن سفر أربعمية كيلومتر بالباص خلاك تشوفني تعبانة.- شو بفهم من هالكلام؟- اعزمني عالفطور بشي مطرح، وبعدين بتوصلني عالكاراج.لازم أرجع اليوم، هيك وعدته لأبي.. يا إلهي! مَنْ ظهر في طريق مَنْ؟! مَن اعترضَ حياةَ مَن؟! ارحمني يا الله! ها هي رشا أيضاً تزورني في الهلوسات، وها هي تقول لي: لا تخف. سوف تنجو من هذه اللعنة.- فهل أنا من الملعونين يا رشا؟ - ألا تنظر إلى وجهك في المرآة عادةً؟! ما الذي تخشى رؤيته على صفحة المرأة يا صديقي؟. لا أخشى شيئاً. لا أخشى شيئاً. لا

أخشى شيئاً. ونهضتُ أقصد المرآة كي أرى وجهي. وجدتني مستيقظا. لا أريد أن أنام. سوف أقاوم. سوف أقاوم. سوف أقاوم. ذئبٌ عتيق أنا.. ذئب عتيق. ذئب عتيق. لن أنظر إلى المرآة حتى وإنْ كنتُ من الملعونين. ما أحتاجه هو علبة الدواء.كم الوقتُ الآن؟ ما حاجتك إلى الوقت أيها المسكين؟! نعم، هذا صحيح. الوقت ليس مهمّاً. بل إنّ الوقت لم يكن مهمّاً في أي يوم من الأيام، ولا في أيّ وقتٍ من الأوقات. السترة حيث تختبىء علبة الدواء لا تبعد عنك سوى ثلاثة أمتار. ماذا تنتظر إذن؟ هل بلغتَ من الضعف ما يجعلك عاجزا عن المضيّ ثلاثةَ أمتارٍ ذهاباً ومثلَها إياباً؟ لا يبدو عليك أنك سوف تقاوم. بل إنني سوف أقاوم. لن أستسلم. لن أستسلم. لن أستسلم. ولن حبو. سوف أمشي الأمتارَ الثلاثةَ بثبات. لن أحبو. لن أحبو. لن أحبو. تحركتُ من قعدتي. صارت قدماي على الأرض. لفّتْ بي الدنيا. تمهلْ يا شيخ! تنفسْ بعمق. اهدأ قليلا. استرخْ لحظة. نعم. نعم. نعم. والآن هيا يا بطل! هي ثلاثة أمتارٍ فقط ويتنازل لك (أوسين بولت) عن ميدالياته الذهبية كلها. هيا إلى العمل.برافو! برافو! برافو! ها هو ذلك الشاب الجامايكي لأسمر يعلن في مؤتمرٍ صحفي، يشاهده العالم كلُّه، أنّ ثمة كهلاً فلسطينياً سرعُ في العدْوِ منه، وأنّ هذا الكهل يستحق، عن جدارة، لقب أسرع رجلٍ في العالم.وها هو يقول صراحةً بتخليه عن اللقب وعن الميداليات الذهبية لكثيرة التي حصل عليها في أولمبياد بكين وكذلك في أولمبياد لندن إلى ذلك رجل الكهل الذي ترجُّ الحمّى جميعَ بدنه. لقد نجحتُ في الذهاب وفي لإياب. صرتُ في الفراش من جديد، وعلبة الدواء في قبضة يدي الضعيفة مرتجفة. ولكن لماذا هذه العتمة؟ يا الله! نسيتُ أن أشعل النور. كنت منشغلا بتحطيم أرقام بولت القياسية، فنسيت أنّ بي حاجةً إلى الضوء. لا بأس. ثمة ضوءٌ صغيرٌ بجانبك. وهذا الضوءُ يفي بالغرض الذي أنت مقبلٌ عليه. أشعلتُ النور. من حسن حظي أن ثمة قنينة ماء معدني بجواري على سطح الكومدينو. فتحتُ علبة الدواء. تناولتُ منها شريطاً.ابتلعت حبتين من لعقار. لا أعرف إنْ كانت الحبتان أقلَّ من الجرعة الموصى بها أو أكثر. لم قرأ النشرة المرفقة بالدواء. شربت من الماء نغبةً. واسترحتُ من هذه المَهَمّة

التي استنفدت بقايا ما لديّ من طاقة. لن أعود إلى النوم تحت أيّ ظرف. سوف أصمد ريثما يبدأ العقار بالعمل. كم الوقت الآن؟ وضعت نظارتي الطبيةَ على عينيّ. بضعفٍ فعلتُ ذلك. وبضعفٍ أيضا رفعت ساعتي اليدوية عن سطح الكومدينو وقرّبتها من وجهي. تمام الرابعة. من المبكر بعدُ إلقاءُ نظرة على الفيس بوك والاطمئنان على أطفال العائلة حولَ العالم. ماذا أفعل إذن لمقاومة العودة إلى الهلوسة؟ حسناً.. أرجعُ ولو قليلاً إلى العادة التي كنتُ قد أقلعتُ عنها. أتصفحُ بعض المواقع الإخبارية. ماذا يكتب الشبابُ هذه الأيام؟ الموبايل الذكيّ أيضا بجواري. صرتُ قادرا على الإفادة من هذا الذكاء، ولو جزئياً. ما أخبار مخيم اليرموك؟ سنرى. فتاة فلسطينية في رام الله تدعو ناشطي الفيس بوك من الفلسطينيين للتبليغ عن موقعٍ سوري مؤيد للنظام في دمشق لأنه، أي الموقع، يدعو صراحةً إلى قتل جميعِ الفلسطينيين الموجودين على الأرض السورية. لم أصدق هذه البنت. ذهبت إلى الموقع المشار إليه. قرأت كلاماً غريباً بالنسبة إلى سوريا. تهديد صريح للفلسطينيين بالويلات: (ما يجري في مخيم اليرموك ليس إلا مقدمة أيها الفلسطينيون الأوباش.. الفيلم لم يبدأ أيها الفلسطينيون الأنذال.. سوف ترون العجب.. سوف نحرق حتى آخر طفل فيكم.) ما هذا؟ لا أصدق ما أقرأ. هذا الكلام يتماهى تماماً مع الشعار الإسرائيلي الشهير: الفلسطيني الجيد هو الفلسطيني الميت، ويتماهى كذلك مع المقولة التي صارت اليومَ دارجةً على ألسنة المصريين: أنا أكره الفلسطينيين لله في الله. سمعتها في مصر كثيرا، رغم أنني لم أسمع في حياتي عن كراهيةٍ في الله. هناك حب في الله. غيرَ أنّ خفّةَ الدّم التي يتمتع بها المصريون تجعلهم يتلاعبون باللغة على نحوٍ مثيرٍ للدهشة. على أية حال، المصريون لا يتحدثون عن القتل. يجب الاعتراف بأفضليّةٍ ما يتمتعون بها مقارنةَ بهذا الموقع السوري الذي لا أصدّقه.لا يمكن لهذا الموقع أن يكون سورياً. ثمة خطأ ما في مكانٍ ما. على الأرجح أنّ بي خللاً. في عينيَّ مثلاً، أو في قدرتي على الاستيعاب. من المؤكد أن الخطأَ عندي أنا. مازلت أهلوس بفعل الحمّى. أعود إلى البنت في رام الله. يستجيب لدعوتها شابٌ فلسطيني في النمسا، وآخر في المكسيك، وآخر في الولايات المتحدة، وآخر في جزر

القمر، وآخر وآخر وأخر. ما هذا؟ إنهم يملأون الدنيا. وكأنني أتفاجأ بهذه المعلومة! وكأنني أتفاجأ بالفلسطينيين قد تحولوا إلى (اليهود الجُدُد). أعود إلى الموقع الدّاعي صراحةً إلى القتل والإبادة. أحاول التدقيق ببعض المعطيات فيه. وضعي الصحيّ تحسن قليلاً. يبدو أنّ الدواء جعل يقوم بوظيفته التي صُنعَ من أجلها. يبدو الموقع سورياً.يبدو مؤيداً للنظام، فهو يستثني من القتل الفلسطينيين المؤيدين لهذا النظام. هؤلاءِ فلسطينيون جيّدون. هكذا يقول الموقع، الذي يبدو ضعيفاً.أظن أنّ الشباب والصبايا من الفلسطينيين حول العالم سوف يقضون على هذا الموقع بسرعةٍ قياسية. أظنه موقعاً بلا جمهور غفير. هذا النَفَسُ لا يشبه أنفاسَ السوريين. سوف يكون موقعاً بلا حماية.القضاء عليه شديدُ السهولة. ورغم قناعتي هذه، شعرت ببعضٍ من خوفٍ. يبدو أنّ الخوف قدري. انتقلتُ إلى موقعٍ آخر.الفلسطينيون المحاصَرون في مخيم اليرموك يبعثون رسالةً إلى السيد بانَ غي مون الأمين العام للأمم المتحدة يطالبونه فيها العمل على تنفيذ قرارات الشرعية الدولية المتعلقة بحق عودة الفلسطينيين إلى أرض آبائهم. يحثّونه على التحرك بسرعة لأنهم ما عادوا يقدرون على البقاء في سوريا. ماذا سيفعل السيد بان غي مون من أجلكم أيها الفلسطينيون الحزانى؟! سوف يبدي الرجل قلقه الذي اشتُهِر به. ثم لا شيء، فما من أحدٍ - فيما أعتقد - يقدر على فعل شيءٍ حين يتعلق الأمر بإسرائيل. أذهب إلى موقعٍ ثالث. خبرٌ يلفت انتباهي بقوة. خبرٌ بعيدٌ كليّةً عن مآسي مخيم اليرموك.بعيدٌ حتى بمقاييس المسافة التقليدية.هناك على بُعدِ عشرة آلافِ من الكيلومترات أو أكثر عن المخيم المنكوب يخوض الفلسطينيون معركةً من نوع مختلف كثيراً عن جميع المعارك التي خاضوها طوالَ تاريخهم المليء بالمعارك الخاسرة. كيف سيكون أداؤهم في هذه المعركة الغريبة؟ الجالية الفلسطينية في تشيلي تملك نادياً رياضياً اسمه (بالستينو). أتذكر أني سمعتُ مراراً باسم هذا النادي المتواجد في العاصمة سانتياغو.المفاجىء في الخبر أنّ هذا النادي يتصدر الدوري التشيلي الممتاز بكرة القدم. أما الخبر نفسه فهو الآتي: السفارة الإسرائيلة إلى تشيلي تلجأ إلى القضاء بداعي أنه - أي النادي - يعادي الساميّة. والأدلّة على هذا العداء أنّ

اللاعبين فيه يلعبون مبارياتهم مرتدين ملابس رياضية لها من الألوان ما لعلم فلسطين المزعومة. وهناك دليلٌ آخرُ أيضاً: شعار هذا النادي الذي يحمله اللاعبون على قمصانهم هو خارطة دولة إسرائيل، ولكن من دون هضبة الجولان. لقد أعاد الفلسطينيون التشيليون هضبة الجولان المحتلة إلى أصحابها السوريين من دون أية حروب. إنهم لا يريدون حروبا، ولا يسعون إلى إشعالها. يريدون أن يلعبوا كرة القدم. فقط. ولكنهم، بمصادفةٍ غبيةٍ ما، راحوا مع كرة القدم يمارسون العداء للساميّة. والأدلّة على هذا العداء كثيرة، وكلها من فصيلة ألوان القميص وشعار الأرض المتنازع عليها منذ أن تغرّب إبراهيمُ في أرض الفلسطينيين أياماً كثيرة. معركة لا أعرف كيف سيخوضها فلسطينيو تشيلي، رغم أنّ أداء رئيس النادي يبدو جيداً. أعطى توجيهاته للطاقم المشرف على اللعبة بإبعاد اللاعبين تماماً عن هذه المعركة التي هي ليست معركتهم.معركتهم تنحصر ضمن المستطيل العشبي. يجب المحافظة على الصدارة. يجب الفوزُ ببطولة الدوري الممتاز، فالمعركة الحقيقية لن تكون في القضاء، بل في الملاعب. وهذا الأمر يتطلب الاستعداد الجيد. والتركيزُ الذهنيّ جزءٌ كثير الأهمية من هذا الاستعداد. لقد شاهدتُ بعض الصور ومقاطع الفيديو لهؤلاء الشباب وهم يتدربون.كلّ ما فيهم يوحي بالثقة ويبعث على التفاؤل. يبدون في مطالع العشرينات من العمر. يشبهون شباب مخيم اليرموك كثيراً. يذكرونني بالفتى عامر. إسرائيل تتحرك بسرعة في مواجهة هؤلاء الشباب.الدعوى القضائية، كما أتصورها أنا، مجرد خطوةٍ استباقية. يزورني فجأة مثل هذا السيناريو الذي ربما بدا خيالياً. أقتنع به ولو قليلا، فمن يدري إلى أيّ مدىً يمكن لهؤلاء الشباب الصغار أن يذهبوا؟ قد يفوزون ببطولة الدوري التشيلي. وهذا يرشحهم أوتوماتيكياً للعب أمام الأندية البرازيلية والأرجنتينية والأرغويانية وسواها من الأندية الأبطال في دول أميركا الجنوبية للمنافسة على لقب بطل القارّة اللاتينية. فماذا إنْ فازوا ببطولة أميركا اللاتينية للأندية؟ ما الذي سيحدث بعدئذٍ؟ سوف يذهب هؤلاءِ الشبابُ إلى التنافس مع أحد أكبر كبار العالم مثل برشلونة أو بايرن ميونخ أو ريال مدريد على لقب بطولة العالم.ولكن ماذا سيحدث إنْ فازوا على برشلونة أو بايرن

ميونخ وريال مدريد؟ هل هو سيناريو خيالي؟ نعم، إنه كذلك. ولكن هل من فرصة لهذا السيناريو الخيالي أن يكون ممكن الحدوث في الواقع المعاش؟ لا مستحيلَ في كرة القدم.حقيقةٌ صغيرةٌ يعرفها حتى الأطفال الصغار من كثرة ما ردّدها على مسامعهم المعلّقون الرياضيون في محطات التلفزة المختلفة.. لا أعرف كيف سيكون شكلُ العالم لو فاز الشباب الفلسطينيون بكأس أندية العالم؟ وكيف يفوز بكأس العالم شبابٌ ينحدرون من بلدٍ لا وجود له على خارطة العالم؟! كيف سيشرح السيد باراك أوباما هذا اللغز للشعب الأميركي؟ الأمر يبعث على حيرةٍ عظيمة. أظن أنّ الجميع سوف يكون في ورطة. ورطة أخلاقيةٌ على الأقل. ما العمل إذنً من أجل تفادي وقوعِ مثلِ هذه الورطة؟ الأمر بسيط. الوصفة السحرية. مُجرَّبة. مضمونةُ النتائج. لم يشفع لفيلسوف فرنسا الأكبر في القرن العشرين شيء.لا اسمه.لا شهرته.لا خدماته الكبيرة التي قدّمها بسخاء للبشرية جمعاء. حتى سنُّهُ العاليةُ لم تشفع له بعدم المثول أمام القضاء الفرنسي بتهمة العداء للسامية. لم يشفع له شيء بعدم إدانته في ذلك القضاء. لستُ الآن في معرض الدفاع عن فيلسوفٍ من وزن روجيه غارودي. جئت بقضيته مثالاً على ما يمكن أن يكون في انتظار نادي (فلسطين) التشيلي. تهمة العداء للسامية جاهزة. إذن، المعركة ليست في الملاعب أولاً، بل هي في القضاء. لغاية هذه اللحظة على الأقل. لا أعرف بماذا يفكر رئيس النادي بهذا الشأن. وفي الوقت نفسه، لا أستطيع أن أقدّم له النصح، فأهلُ مكّةَ أدرى بشعابها. ولكنني أحاول أن أتصور نفسي في موقع هذا الرجل.أحاول ذلك، رغم ما ألاقي من وهنٍ بدني وذهني نتيجة الحمّى التي مابرحت تقيم في عظامي. من المؤكد أنني سأبدأ من الاعتراف بقوة العدو على جميع الصُعُد، وفي جميع العالم. فمن الاعتراف بقوة العدو تكون البداية السليمة. ولكن من الإيمان بعدالة ما تدافع عنه تكون البداية الرائعة للمعركة. سننتظر. وسنرى.أشعر بتحسن ملحوظ، حتى إنني أشتاق لفنجانٍ من القهوة.أخرج من الفيس بوك.أهمّ بالنهوض من الفراش على مهل.يرنّ الموبايل وهو مازال بين يديّ بعد.إنها رشا طبعاً. صباح الخير!.صباح الخير!. -شبك؟. صوتك مو عاجبني. - يمكن عندي سخونة، بس أخدت دوا وصرت أحسن. - أحسن

مو معناها منيح. - مزبوط. اللي عم تحكيه مزبوط. شو أعمل؟ - لا تعمل شي. ارتاح. بس ارتاح.- جاي ع بالي فنجان قهوة - مو غلط. ريته صحة انشالله. لكن حاول تشرب القهوة وإنت بالفراش. - بأمرك أنا يا ماما! - هههههههههههه ما رح تبطل هالكلمة؟- ما بتعرفي الأيام شو بتخبي.جايز أبطلها هي والسيجارة سوا. - ليش؟ عندك إدمان عليها؟ - والله الهيئة يا رشا إنو عندي إدمان عليكي إنتي؟ - وأطبق الصمتُ للحظة. تصبح على خير! قالت البنت بصوتٍ مشتتٍ من الانفعال. وأغلقتِ الخط. هل ارتكبتُ غلطاً عندما بحتُ لها بهذا السر الصغير؟ فكرت بطلبها على الموبايل من أجل توضيح شيءٍ ما، أو من أجل استيضاح شيءٍ ما. وكدت أفعل. غير أني تراجعت في اللحظة الأخيرة. تراجعت عن الاتصال، وتراجعت عن الرغبة بالقهوة. لففت بالحرام واللحاف جسدي الموهن وخلدت إلى السكينة. ولكنّ أفكاري تظل ناشطة مثل دوّامة. إنها لا تعرف السكينة. لا تريد السكينة. لا تحب السكينة. أيّ مسكينٍ أنا؟! وأشفقتُ على نفسي. أو: في الحقيقة أنني افتعلتُ ذلك الإشفاق. إنها آليّة الدفاع الذاتيّ البائسة. الندم. العيب.الشرور. استغلال النفوذ. سوف أعتكف في المنزل.أقرر من جديد، رغم معرفتي المسبقة باستحالة تنفيذ قرارٍ كهذا، فثمّة أسبابٌ كثيرة تفرض علينا الخروج إلى الطريق.عندما عالجني الطبيب الدمشقيّ من ذبحة القلب في القاهرة، قال لي: من المهم جداً السيطرةُ على ضغط الدم، فهو عندك مرتفع كثيراً، يجب مراقبته باستمرار. كلّ يوم إن أمكن.وأنا أعمل بنصيحة الطبيب، ولكن ليس دائماً.أقيم في منزل صديقي وحيداً، فزوجته الأجنبية،وهي صديقتي أيضاً، تعاني مرضاً عضالاً بات الاستشفاء منه في دمشقَ مستحيلاً،أو شبه مستحيل، في ظروف الحرب، مما اضطر الزوجين على السفر إلى بلد المرأة الأصلي طلباً للعلاج.إذن، ما من أحدٍ في المنزل يساعدني في شيْ، حتى في قياس ضغط الدم.وهكذا أصير مضطراً على الخروج من المنزل كلّ يوم تقريباً.أذهب إلى صيدلية بذاتها،يعمل فيها، وربما كان يملكها،شابٌ كُرديٌ لطيفُ الملقى.أمكث عنده نحواً من خمس دقائق،يقيس ضغط الدم في شراييني، ويعطيني في بعض الأحيان بعض المعلومات أو النصائح عن كيفية التعامل مع

ضغط الدم المرتفع.أخرج بعدئذٍ إلى الطريق لأتمشى ولو نصف ساعة.وهذه من أوامر الطبيب.قبل عشرة أيام، وعند المساء، فعلتُ الشيءَ نفسَه.كنت في شارع ابن العميد الموازي لشارع صلاح الدين.رحت أمشي بعد الصيدلية على الرصيف باتجاه الغرب، ومن خلفي في الشرق غير البعيد كان ثمة أصواتُ انفجاراتٍ قويّة خمّنتُ أنها في حيِّ القابون،وعرفت لاحقاً أنها كانت قصفاً جوّيا على مدينة دوما.وفي الحقيقة أنني لم أكن أفكر بالقصف الذي بات من مفردات حياتنا اليومية،وعلى الأرجح أنني لم أكن أفكر بأي شيء، ومع ذلك فقد كنت ذاهلاً، شأني شأنُ جميع من هم في الشارع، والمدينة،والبلد. وبسببٍ من ذهولي لم أعرف أبداً كيف ظهرتْ هذه المرأةُ أمامي. ظهرت أمامي مباشرةً.لم تكن تبعد عني أكثر من نصف خطوة،حتى إني لوهلةٍ شعرتُ بالخوف من عمليةٍ مدبّرةٍ للاعتداء عليّ، فتراجعتُ إلى الخلف قليلاً وأنا أتلفتّ من حواليّ.لكنّ المرأة لم تتحرك من مطرحها،ولم تتلفت في أي اتجاه.ظلّت تنظر إليّ، وبإصرار.إنها في أواخر العشرينات من العمر، وأظنها تستحق أكثر من الميدالية البرونزية لولا بعضُ الشحوب في لون بشرتها، والذي من المؤكد أنه من نتائج سوء التغذية. رحنا ننظر إلى بعضنا نحواً من نصف دقيقة. قالت لي أخيراً: "لا تقول إنك ما بتقدر تساعدني." قلت وقد بدأت أطمئن لها، ولوقليلاً: "شو بدك؟" ردّت على سؤالي بكلمةٍ واحدة: "منظفات." "شو؟!" "مانك سمعان بالمنظفات؟ صابون، دوا غسيل، شامبو، فلاش، ديتول.. المطرح اللي انتقلنالو مانو نضيف والولد والبنت صرلهن جمعتين ما تحمموا.لا تقول إنك ما بتقدر تساعدني." قدّرت وأنا أتأملها أنها حديثةُ النزوح من أحد الأحياء المنكوبة وأنها حصلت على مأوىً ما قريباً من هنا، ومن لهجتها قدّرت أنها شاميّة،أي أنّ للنظافة عندها الأولوية التي تسبق جميع الأولويات، فقد حدث في حياتي أن كنت متزوجاً بامرأة شامية.اقتربتُ منها خطوة وأنا أمدّ يدي إلى جيبي، فما كان منها إلا أن أجفلتْ وتراجعتْ إلى وراء أكثر من المسافة التي كنتُ قد تقدمتُها.لم أفهم شيئاً.كانت تنظر إليّ مثل لبوةٍ جريحة.قلت لها: "شبك؟" قالت: "أنا ماطلبت مصاري.أنا بدّي منظفات." "إنتي بدّك منظفات والمنظفات بدها مصاري."

قلت بنزقٍ، وأضفت من فوري: "إنتي هبلة شي؟" "أنا بدّي منظفات." عادت تقول وكأنها لا تعرف من اللغة غير هذه الكلمات القليلة.وجدتني أتمتم: لا حول ولا قوة إلا بالله.وقلت في نفسي: من وين إجتني هالمصيبة؟ قالت وكأنها تقرأ أفكاري: "أنا ما بدي مصاري. بدي منظفات.هي الدّكان جنبنا.فوت إنت اشتريهن." كنا نقف قريباً من دكانٍ على شكل (ميني ماركت) عصريّ. نقّلتُ بصري بين الدّكان وبين المرأة، وكدت أنفخ من الهم:قلت لها: "أنا ما بعرف أشتري.أو جايز أشتري شغلات ما تعجبك." "اشتري متل الشغلات اللي بتشتريها لبيتك.ومتأكدة إنو رح تعجبني." ووجدت نفسي أعلن الاستسلام أمام عنادها مرغماً. دخلت إلى الدكان.البضائع متوافرة بكثرة.عجلة الاستيراد لم تتعطل.البضائع التي كانت متواجدةً في الأسواق قبل الكارثة، ما زالت موجودةً إلى اليوم. التغيير الوحيد الذي طرأ عليها هو: فوضى الأسعار. مثالٌ على هذه الفوضى: ثمة دواءٌ ألماني اسمه (كونكور) يحظى بشهرة واسعة حول العالم بين مرضى القلب عموما،ومرضى الذبحة الصدرية على نحو خاص. لم أسمع بهذا الاسم، رغم شهرته،قبل حزيران - يونيو من العام 2013 عندما نزلت الذبحة بقلبي وأنا في القاهرة. وصف لي الطبيب المعالج يومئذٍ أدويةً عدّة.بعضها باستخدام مؤقت، وأحدها (كونكور) مدى الحياة: حبة واحدة في المساء كل يوم. وأكد مرارا على"كل يوم". خرجتُ من عيادة الطبيب وعجتُ على صيدلية قريبة، واشتريت الأدوية الموصوفة. دواء(كونكور) في مصر تنتجه شركة محلية بترخيصٍ من الشركة الام. سعر العلبة الواحدة (عشرون حبة): واحدٌ وعشرون جنيهاً مصريا. وأترجم الكلام إلى لغة مفهومة من الجميع: سعر علبة الدواء الواحدة ثلاثة دولارات أمريكية. فقط. رجعت إلى دمشق ومعي علبتان من هذا الدواء. لم أحمل الكثير منه لانني لست من هواة التخزين. وهذا أو؟. أما ثانياً، فقد كنت على ثقة من أن شركة أدوية سورية ما تصنع هذا العقار مادام ذائعَ الصيت. دخلت في أحد النهارات إلى صيدلية في مركز المدينة أسأل عن دواءٍ سوريٍ يشبه دواءً ألمانياً اسمه (كونكور). قالت لي الصيدلانية الشابة إن هذا الدواء الشبيه لم يعد يُصنع في سوريا.كانت تنتجه شركتان، باسمين تجاريين مختلفين،

إحداهما في حمص والثانية في حلب. والشركتان توقفتا عن العمل بسبب الاحداث. قلت لها: "ما الحل؟" قالت: "ليش عم تبحث عن بديل؟ خود الكونكور نفسه." "موجود؟" "طبعا موجود.بس تهريب." وجلبت لي علبة من الدواء الشهير. إنها العلبة ذاتها التي كنت أشتريها في القاهرة. العلبة ذاتها تماما: (صنع في مصر بامتياز من شركة ميرك - ألمانيا). قلت للصيدلانية: "الله يبشرك بالخير!- ومددت يدي إلى جيبي - شو بتؤمريني؟" قالت: "السعر مكتوب على العلبة."نظرتُ إلى السعر المكتوب على أحد جوانب العلبة. كان مشطوبا بالحبر الاسود الكثيف، وكان مكتوبا بجانبه بخط اليد وبحبر أزرق (4600) ليرة سورية. كان سعر صرف الدولار الأمريكي في ذلك الوقت 175 ليرة أو نحو ذلك. فلنقل 200، وثلاثة دولارات مضروبة بمئتين يكون الحاصل 600. قلت للصيدلانية: "أظن في غلط بالسعر. "قالت: "وين الغلط؟ ليكو مكتوب، وبخط واضح. أربع تالاف وستمية ليرة. "قلت: "بس هادا السعر مانو واقعي. أنا كنت أشتري العلبة بأقل من ستمية ليرة." "وين؟" "بالقاهرة." "صح. في القاهرة. بس إنت الان في دمشق." وأضافت بلهجة نزار قباني الخطابية: "هذي دمشق وهذي قوانينها." أعترف أني شعرت بالخوف من"هذي دمشق"، فهل دمشق شَرَكٌ وقعتُ فيه راغباً؟!هل هي مصيدة جئتها اختياراً؟! أم أنني سألقي بالمسؤولية، كما أفعل عادةً، على امرأةٍ ما من نساء الحياة؟ نظرتُ إلى الصيدلانية الشابّة، وشعرت منها بالغيظ، رغم جمال وجهها وعذوبة صوتها، فازددتُ خوفاً. ما الذي يحدث في هذه المدينة؟! أعترف بأني قادر على دفع مثل هذا المبلغ لكي أحمي قلبي من أوجاع ذبحة محتملة. ولكن ماذا عن الاخرين ممن ابتلاهم الله بذبحة الصدر؟ ماذا عن أغلبية هؤلاء الاخرين في هذي البلاد؟! الفرق بين السعر الواقعي والسعر الوهمي كبير جدا. أربعة آلاف ليرة بالعلبة الواحدة،وهذا دواء مدى الحياة. من أين جاءت هذه الآلاف الاربعة؟! وإلى جيوب من هي ذاهبة؟! وهذي دمشق. والصيدلانية الشابّة تتحدث عن الامر بخفّة،أو حتى بمرح وشاعرية،كما لو كان كل شيء بخير. القذائف لا تسقط على الطرقات، والناس في هناءةٍ، والقمر يلقي عليهم بظلاله الارجوانية كلَّ ليلةٍ بينما هم

يتغازلون، والعصافير تزقزق طول الليل بدلاً من هدير المدافع وانفجارات الصواريخ،وما من مصيبة أوقفت معامل الادوية عن الانتاج،رغم حاجتنا اليومَ إلى الدواء أكثرَ من أي وقت مضى. والذي عرفته لاحقاً أن سعر العلبة الواحدة من هذا الدواء، بنسخته السورية، كان قبل الكارثة(78) ليرة فقط.أي ما يعادل نصف ثمنه في مصر.إذن،عن أية قوانين تتحدث هذه المرأة الصغيرة البلهاء؟! من المؤكد أن قوانينَ المافيا أكثرُ رحمةً بالناس من "هذي" القوانين التي تحكم أوجاعنا.

الخاسر يكسب

نهارَ أمس

في أحد شوارع دمشق

باص نقل داخلي ضرب سيارة سياحية صغيرة وأوقع بها أضراراً جسيمة. تمَّ تقدير كلفة إصلاحها بأربعمئة ألف ليرة.. هاج صاحب السيارة وماج.. تجمهر الناس.. راحوا يواسونه.. لم يهدأ.. لم يتركوا كلمة عطفٍ أو تعاطف إلاّ واستخدموها.. بلا جدوى.. تعطل المرور.. حضرت الشرطة.. محضر تحقيق.. هرج.. مرج.. شتائم من كل صنف.. هيجان الرجل المنكوب.. كان يصرُّ على تعويضه عن الخسارة الفادحة التي لحقت بسيارته.. قال له أحدهم: " إنت الربحان، فليش عم تصرخ؟!" وتابع وسط ذهول الحاضرين: "قديش حقها سيارتك؟" "مليونين." أجاب الرجل المنكوب ذاهلاً." "شايف؟- تابع الرجل الغريب كلامه- إنت هلأ ربحان مليون وستمية ألف. " كل هالخسارة وبتقوللي ربحان؟!!!" "طبعاً ربحان. ما كان ممكن تنزل عليها قذيفة هاون وتهفيها من الوجود متل ما صار بسيارتي؟"

المهم بالموضوع إنه صاحب السيّارة المنكوبة هدي بعد كلام الرجل الغريب الحكيم.. ومين عارف؟ يمكن شعر بالسعادة لأنو طلع فجأة ربحان مبلغ كبير من غامض علمه

مثال آخر حول التغيير الحاصل في الأسعار: علبة السجائر التي كنت أشتريها سابقاً بخمسين ليرةً سورية (وهي سجائر سويسرية) صار ثمنها اليوم أربعمئة ليرة. وهذه ليست مهرّبة.إنه سعرها الرسمي النظامي. مازلت أدخن السجائر، رغم أنّ الطبيب قد أمرني بالإقلاع عنها لأنها جزءٌ من الدّاء.وفي الحقيقة أنني تركتها مرتين.في المرّة الأولى رجعت إليها مرغماً.لم أستطع مقاومة أعراض الانسحاب.أما في المرة الثانية، فقد رجعت إليها طائعاً وقد اكتشفت أنها، في هذه الظروف، جزءٌ من الدواء. كلّ الذي حصل أنني أقلعتُ عن الترف.لم أعد أشتري السجائر السويسرية بعدما صارت غالية جداً، وأنا بلا عمل.منتجو الدرامة التلفزيونية المتبقّون في البلد لا يسألون عني. صرت كاتباً فائضاً عن حاجة الناس.عجلة إنتاج الدرامة التلفزيونية لم تتعطل هي أيضاً. لقد أنتجوا في الموسم الفائت أكثرَ من عشرين مسلسلاً. ولكنّ النتائج في أغلبها جاءت أسيفة. وهذا شيء ليس مفاجئا في غياب أبرز الكتّاب الذين منحوا هذه الدرامة جوهر الألق الذي طالما اشتُهرت به. جميعهم اليومَ في المنافي. سوريا ترفس أبناءها المبدعين.ترفسهم بعيداً إلى الشيطان.نعم إنني غائب عن الشاشة. وإنني بلا دخل.أعرف أنني لن أجوع. مازلت أملك المال الذي يلزم للعيش غير المهين. وحتى لو أفلست يوماً، فإنّ شباب العائلة المنتشرين حول العالم سوف لن يسمحوا بوقوع أمرٍ كهذا، رغم أنهم هم أنفسهم بحاجة للمساعدة في هذا التيه الذي فُرِضَ عليهم فرضا. على أية حال، هذا الارتفاع المجنون في الأسعار لاينطبق على الأدوية وحدها أو على السجائر وحدها، بل ينسحب على جميع السلع، بما فيها حليب الأطفال، بل ينسحب حتى على ما تنتجه الأرض السورية من خضار وفاكهة. قد تتفاوت النسبة في الارتفاع بين سلعة وسلعة. قد تصل إلى ألف على مئة في بعض المواد. وأنا إلى الآن لا أتحدث عن الأسعار في الأحياء المنكوبة أو المحاصرة.ارتفاع الأسعار هناك يصل إلى عدة آلاف على المئة بالمواد

كلها.إننا أمام نسبةٍ في التضخم غير قابلة للتصديق: ثمانمئة على المئة في المتوسط، وهذه الزيادة قد حصلت في غضون أقل من سنتين اثنتين. بينما الزيادة التي حصلت على الدخل في هاتين السنتين لاتتجاوز ثلاثين من مئة.إذن كم تبلغ خسارة الإنسان السوري العامل من دخله الذي كان بالأساس متدنياً؟ صدقوني: لا أعرف كيف أحسب هذا الأمر. أترك عملية الحساب لكم، أو لبعضكم على الأقل.ولكنّ الأمر الذي ليس بحاجةٍ إلى حساب هو الآتي: إن استمرت نسبة التضخم بالارتفاع على هذه الوتيرة عامين آخرين أو ثلاثة أعوام على أبعد تقدير فلن يكون للقنابل ما يبررها، ولن يكون للحصار والتجويع مًا يبرره.الناس سوف تموت من دون أسلحة.الناس سوف تموت من الفاقة. ولن ينجو من هذا الموت إلا اللصوصُ الذين يقتاتون على دم الشعب وعرقه.. يبدو أنني ابتعدت عن قصة المنظفات وليلى. نعم،لقد كان اسمها ليلى. ومازال.

وربما ابتعدت عنها عمداً. لقد التقيتها مرتين بعد ذلك المساء،وسوف ألتقيها في غدٍ أيضاً. ولكن هل سأشفى إلى غدٍ من هذه السخونة التي عادت ترجّ بدني؟ سنرى. هكذا قال التنين مرّةً. وعندما قرر الحديث مرةً ثانية، عاد وقال: سنرى.

بتعرفي لك رانيا؟ حصل معي شي غريب لمّا التقينا آخر مرة.. بالبداية كل شي كان حلو وظريف وناعم وحنون. اللحظة كلها كانت بتشبهك: لمّا التقينا بالكفتيريا، ولمّا رحنا بعدين للمطعم نتعشى، أو بالأصح نتغدا، مع إنه الدنيا صارت ليل. حتى الطقس يومها كان بيشهبك: ناعم ولطيف، أو يمكن أكتر من هيك، يمكن كان في بالكون كلّه شي غامض وحلو متل أسرارك الزغيرة اللي ما بعرفها.. لمّا طفّينا الموبايلات متل العادة.. لمّا طلبت الوجبة.. لمّا رحنا نحكي بالأدب والسياسة والدرامة.. لمّا بقيتِ خمس دقايق تبحبشي بجزدانك عن ولأعتك الحبيبة.. لمّا يئستِ من إنك تلاقيها، كمان متل العادة لك رانيا.. يا الله شو كنت فرحان وأنا عم أتطلع عليكِ وإنتِ عم تكوكشي بغراضك! بصراحة كنت بعرف النتيجة سلفاً: رح تاخدي ولأعتي الصينية العجيبة، وتحتفظي فيها بعد ما تشعلي سيجارتك، وأرجع أنا أسرقها منك.. كل شي كان حلو.. كل شي كان بيشبهك.. وأنا كنت مستمتع.. وبقيت الأمور عندي هيك للحظة ما سمعنا الانفجار اللي لا عرفت طبيعته ولا عرفنا وين وقع بالضبط.. ردّة فعلك، رغم إنها كمان بتشبهك، إلاّ إنها لخبطتني: لمّا فتحتِ الموبايل تتصلي وتتطمني.. هون بلّشت عندي اللخبطة.. أوكي.. الانفجار هالمرّة بعيد عنّا شوي، أو كتير.. ما بعرف.. لكن المرة الجاية شو؟ وبهاللحظة هاي بالذات طلع براسي السؤال اللي بيوجع: يا ترى ممكن يكون هادا عشاءنا الأخير أنا ورانيا؟ لقاءنا الأخير؟ مرّتنا الأخيرة؟ أنا بعرف إنه في شي بالدنيا اسمه: المرّة الأخيرة.. تماماً متل ما في شي اسمه: المرّة الأولى.. وفي جميع مناحي الحياة: الصداقة، الحب، العمل، الزواج، الدراسة، إلخ. إنما الشي الطبيعي إنه الإنسان ما بيعيش حياته وهو عم يفكر بالشمس الأخيرة، والليلة الأخيرة، والعشاء الأخير، والمصافحة الأخيرة، والكلمة الأخيرة.. هادا الشي الطبيعي.. لكن واضح إنه الوضع من حولنا هوّ اللي مو طبيعي.. الانفجار بدمشق - أي

انفجار – ممكن يحدث في كل مكان وأي زمان، وقذيفة الهاون شرحو.. وما حدا فينا على راسه ريشة.. لذلك السؤال كان عم يكبر براسي طوال السهرة.. لمّا طلعنا للشارع.. لمّا رحنا نشرب قهوة بالكفتيريا اللي ع الرصيف

لمّا اشتريتلك بالطريق ولاّعتين صينيتين.. بتعرفي ليش اشتريتلك ولاعتين؟ لأني كنت متأكد إنك رح تضيعي وحدة منهن بعد ربع ساعة.. أمانة لك رانيا ما صرتِ مضيعة التنتين؟. ههههه.. ولا يهمك صديقتي.. بشتريلك بدالهن المرّة الجاية (هادا طبعاً في حال كان هناك مرّة جاية).. بعدين لمّا تمادينا وضلينا سهرانين ع الرصيف لنص الليل.. ولمّا وصّلتكْ لباب بيتك.. ولمّا توادعنا.. ولما قلتلك ونحن عم نتصافح: بس تصيري بالبيت حاكيني.. ولمّا حاكيتيني بعد دقيقة، وقلتيلي: أنا صرت بغرفتي.. ولمّا قلتلك: تصبحي على خير!. ولمّا أنا رجعت لغرفتي بالفندق.. السؤال عن المرّة الأخيرة ما غاب عن بالي لحظة وحدة لغاية الآن.. يا ترى كانت قهوتنا الأخيرة؟ مصافحتنا الأخيرة؟ ولاّعتنا الأخيرة؟ رصيفنا الأخير؟ مكالمتنا الأخيرة؟ إلى الآن هيّ هيك.. بس هاد شي طبيعي.. ما صرلنا تمانية وأربعين ساعة مفترقين.. ومع ذلك، هادا لسه مانه أمر حاسم بالمسألة.. لأنه دائماً في بالحياة شغلة اسمها: التمانية وأربعين ساعة الأخيرة.

2014 - 11 - 27

ليلى والمنظفات.ليلى والذئاب، وهي غيرُ ليلى العامرية (نسبة إلى عامر وروحه التي ربما كانت تائهةً في ظلمات بحور الغرباء) ابنة مخيم اليرموك.أظنها بردانة وجوعانة أيضا. ومن يدري؟ ربما تعرضت للاغتصاب مرةً أو مرارا، ففي المخيم بات كل شيء عليلاً من بعدما كان ينضح بالعافية. مخيم اليرموك هو المدينة العربية الوحيدة النظيفة من الأميّة. هذا ليس استنتاجاً.إنها الإحصائيات من يقول ذلك. مخيم اليرموك أنجب أطباءً متميزين في مختلف الاختصاصات. مخيم اليرموك أنجب عديد العلماء. مخيم اليرموك أنجب مثقفين من الوزن الثقيل. ثمة منزلٌ واسع في مخيم اليرموك أعرفه على نحوٍ أكثرَ من جيد. وثمة في هذا المنزل الواسع مكتبةٌ ربما كانت الاكبر والاغنى بين المكتبات المنزلية في دمشق، وسوريا، وجميع الارض التي يسكنها الناطقون بالضاد.إنها مكتبة يوسف سامي يوسف(أبو الوليد)،الذي كان لي أخا ثم صار لي أبا مذ مات والدنا وأنا طفل صغير.ارتحل أبو الوليد عن هذه الدنيا قبل تسعة شهور من اليوم.ارتحل في الشتات الثاني.كان لاجئا فلسطينيا في مخيم اليرموك جنوب دمشق، فصار لاجئا فلسطينيا في مخيم نهر البارد شمال طرابلس اللبنانية. مات في منفاه الجديد.ترك وراءه سبعة أبناء،وعدداً من الأحفاد كبيراً، وترك مكتبة يصعب تقديرُ ثمنها. ذكرياتي مع أخي الكبير أو أبي الصغير أكثرُ من كثيرة. ومن بين هذه الذكريات مكتبته التي ربما كانت كنزاً هائلاً، والتي ورثتها عنه، رغم وجود الابناء والاحفاد. فقد أوصى بها الرجل إلى أخيه. قال لابنائه،غير مرة: "المكتبة من بعدي يرثها أخي حسن.هذه وصيتي." وأنا، بوصفي الوارثَ الوحيدَ لهذه المكتبة العملاقة،أعلن أنني (في حال تمكنت من الحصول عليها) أتبرع بمحتوياتها للمكتبات العمومية في دمشق. لن آخذ من تلك المحتويات إلا شيئا واحدا فقط: المخطوطات التي لم ينشر منها أبو الوليد شيئا في أي مكان أو زمان.وبهذه المناسبة سوف أبوح بسر عن هذا الرجل. سر لا يعرفه عنه أحد

سوى أخيه حسن: يوسف سامي يوسف كان شاعراً أيضاً. لم يحدث مرة أن أطلعني على مخطوط أيٍ من مؤلفاته الكثيرة. كان يهديني مؤلَفه ناجزاً في كتاب مطبوع.ولم يكن يسألني بعد ذلك رأيي في الكتاب، أو حتى إن كنت قد قرأته. وبالمقابل، كان ثمة أمر معاكس يحدث مع كل قصيدة كتبها.كان يعطيني مخطوط القصيدة لاقرأه، وكان يهمه سماع رأيي بها.وأظنه كان محقا في الحالين.ما حاجته إليّ وهو يكتب (اللحظة الطللية) أو (تلك الأيام) أو (رعشة المأساة) أو (ما الشعر العظيم؟) أو عندما يجعل من نفسه ندّاً لابن جِنّي في (مدخل إلى فلسفة اللغة العربية)؟ إن من اختار منازلةَ رجل من الوزن فوق الثقيل مثل (ابن جنّي) لن يكون بحاجةٍ إلى مشورة كاتب (روائي-تلفزيوني) بالكاد يعرف اللغة العربية.هذا شيء أكيد. أما حين تنعكس الاية، فربما أصير ذا جدوى.أظنه كان يفكر على هذا النحو. سألته غير مرّة: "متى تنوي نشر شيء من هذه القصائد؟" وغير مرّة ردّ عليّ: "لن أنشر منها شيئا منفردا.

سوف أنشرها مجتمعة في ديوان واحد.وسوف يكون ديواناً صغيراً، فالقصائد ليست كثيرةً كما تعلم. "ولكن متى؟" "مازال في الوقت متسع." "بصراحة يا أبوالوليد أنا لا أفهمك." "الأمر بسيط يا أخي.سوف يكون ديوان الشعر آخر ما أنشر في حياتي،إذ سوف أعلن بعد ذلك اعتزال الكتابة، بينما أنا الآن قادر على العطاء فلماذا أنشر قصائدي؟وفي جميع الأحوال مازال في الوقت متسع كما قلت لك قبل قليل." تحدث مراراً عن المتسع من الوقت، من دون أن يخطر بباله في يوم من الايام هذه النهاياتُ السريعة. هذه النهاياتُ المفاجئةُ بانعطافاتها الحادة المضنية. فمن ذا الذي كان يتوقع أن لا يكون ثمة متّسعٌ من الوقت لأي شيء غيرِ الموت، حتى من دون فرصةٍ للوداع؟!

هنالك

في يوم الخوف العظيم

تترك الخلقَ للخالق

وتكون وحدَك

تغفر

تنسى

تنشغل بمدينتكَ الفاضلة

تبنيها على مهلِ

بلا خوفٍ

ولا أسوار

بلا أبوابٍ ولا أسلاك

ثمّ تنادي في البشر، في جميع البشر، حتى في اليهود منهم والعرب:

مَنْ دخلَ مخيمَ اليرموك فهو آمن.

مخطوطات القصائد لا تبعد عني الآن أكثرَ من سبعة كيلومترات، ولكنها تبدو لي أبعدَ عنّي من الصينِ. أسأل نفسي السؤال ذاته كل يوم: هل المكتبة مازالت صامدة؟ ألم تسقط على المنزل قذيفة غبيّة رماها جندي أعمى في لحظة ماجنة؟ ألم يقتحم اللصوص أو قاطعو الطرقات ذلك المنزلَ الواسعَ في مخيم اليرموك؟ ألم يستبيحوا جهد نصف قرن من الزمن أنفقه أبو الوليد من عمره يخدم الثقافة العربية قبل أن يجبروه على الشتات الثاني حيث مات، وحيث دُفن، وحيث وجدتني في حاجة إلى موافقة الجيش اللبناني من أجل أن أزور قبره وأقرأ الفاتحة إلى روحه التي طالما أنهكها الشتات؟ في منزله المستأجر في مخيم نهر البارد قادتني ابنته إلى الغرفة التي قضى فيها شهور الشتات الثاني الاليمة. الغرفة التي لفظ فيها أنفاسه الاخيرة. كانت الغرفةُ عاريةً تماماً. ليس فيها أثر لكتاب. تملكتني قشعريرةٌ في مواجهة هذا العريّ. كلُّ إنسانٍ يشبهُ موتَه، ولكنّ هذا الموتَ؟ يشبهُ صاحبَه. في منزله الواسع في مخيم اليرموك كان يتناول عشاءه باكرا. وعشاؤه كان صحنا صغيرا من اللبن الرائب مع كسرة خبز، أو كسرة خبز مع بضع حبات من الزيتون. وكان بعد العشاء يذهب إلى كتبه، ويغيب بينها حتى موعدِ نومه في الواحدة بعد منتصف الليل. وكان يستيقظ في السادسة صباحاً كلّ يوم، حتى وإن كان مريضا. يشرب قهوته الصباحية ويرجع إلى كتبه. كلُّ إنسانٍ يشبهُ موتَه، ولكنّ الموجعَ في الحكاية هذه المرة أن هذا الموتَ كان قهراً. الغرفة عارية تماما.؟ كرسي، ؟ طاولة، ؟ رفٌ في حائط يحمل ولو كتاباً واحداً. ؟شيء إلا سريرٌ يصلح لأحد أمرين: النوم، أو الموت.. فقط. فأين الكتب؟ ربما كان هذا هو السؤال الذي كان يلحّ عليه وسط ذلك العريّ من حوله وهو يلفظ أنفاسه الاخيرة. هكذا رحت أفكر وأنا أتأمل السرير العاري. كل شيء كان عاريا. حياتي كلها بدت لي تلك اللحظةَ عارية. لم تدمع عيناي أمام القبر الذي تُغيّبُ حفرتُه جثمانَ من صار لي أباً من بعد أن كان لي أخا. لم إِشعر برهبة الغياب أمام القبر، غير

أني شعرت بالرعب في مواجهة الأنفاس الأخيرة لشيخ أهانوه حتى السُكْرِ يومَ أجبروه على أن ينهي حياته مشردا مثلما ابتدأها وهو طفل بعد. هل إهانةُ الشيخ أكثرُ قسوةً وبشاعةً من إهانة الطفل؟ لعلني رحت أجري مقارنة بين إهانتين.أي الاثنتين أكثرُ رحمةً أو أقلُّ إيلاما؟! لا أعرف. جرّبت الأولى ولم أجرّب الثانية. لعلني رحت أتصور كيف الأمر يكون وكيف كان مع أبي الصغير.لعلني تصورته شيئا حيوانيا خالصا وليس يليق بآدميتنا نحن البشر.فليس يليق بالبشر إلا الكرامةُ. وكرامةُ الشيخ لا أثمانَ تعدلها، فغطّت عينيّ غشاوة من دمع سميك، وشعرت بوخزاتِ وجعٍ في أجناب رأسي. وجع فوق طاقتي على الاحتمال. والمرأةُ الشابّةُ بجواريَ أحسّتْ بما أعاني من فظيع الألم فاحتضنتني بقوة فجأة وهي تنشج وتقول وتكرر القول: "سلامة راسك عمي! سلامة راسك عمي حبيبي!" وقادتني إلى شرفة المنزل الوحيدة.كلانا كان بحاجة إلى الهواء. كلانا كان بحاجة إلى إنسانيته المغتصبة. أخي يوسف!أرجو لكتبك أن تصمد. أرجو لمكتبتك أن تقاوم هذا الجهل وهذا القهر. سوف أوزّع الكتب على المكتبات العامّة لتبقى الثروةُ التي تركتَ في متناول جميع الناس.وسوف أنشر القصائد.هذا وعد. وهو قبل الوعد واجب عليّ طالما أنني أملك حق التصرف بمحتويات المكتبة، فالحق هو الواجب كما علمتني هذه الحياة الملعونة. آمل أن أقوم بواجبي تجاه الرجل الذي كان ينوي طباعة قصائده قبل أن يعلن اعتزال الكتابة، بحيث يكون آخر ما نشر يوسف سامي يوسف في حياته قد نشره بعد موته. قد تكون قصائد عادية جداً تشبه مئات أو حتى آلآف القصائد التي قرأناها، ثم نسيناها بمجرد الانتهاء من قراءتها. قد تكون كذلك. ولكن. من يدري؟ ربما كان في هذه القصائد جوابٌ عن سؤال: ما الشعر العظيم؟ لعلَّ هذا قد كان آخر الأسئلة الكبيرة التي انشغل بها أبو الوليد بعد أكثر من نصف قرن على اللبنة الأولى التي وضعها في أساس المكتبة العملاقة والتي كنتُ عليها من الشاهدين. حدث هذا في عام 1958. في صيف ذلك العام بالتحديد كان يوسف دون العشرين من عمره بثلاثة شهور. كان يخدم في كتيبة عسكرية تُعرف باسم (كتيبة حرستا).شيء من قبيل قوات النخبة. أو حتى نخبة النخبة، فقد كانت المهام الموكلة لهذه

الكتيبة: العمل خلف خطوط العدو. كان يوسف طويل القامة، عريض المنكبين، وكان في الحقيقة صاحب قوة بدنية هائلة. في صيف عام 1958 (وما أقوله ليس تأريخا.. مجرد ذكرياتٍ بعيدة.) كان في لبنان حربٌ أهليّة.وكان النظام طرفاً في تلك الحرب، فقد كان رئيس الجمهورية الراحل (كميل شمعون) يتزعم هذا الطرف.أما الطرف المقابل، أو المعارض فقد كان يتزعمه الراحل (كمال جنبلاط) والد السياسي اللبناني المعروف السيد (وليد جنبلاط).أعلنت الولايات المتحدة انحيازها للنظام اللبناني، وأعلنت الجمهورية العربية المتحدة (ولم يكن قد مضى على ولادتها إلا شهورٌ معدودات) انحيازها للمعارضة اللبنانية.أرسلت الولايات المتحدة أسطولها السادس إلى بيروت.ولعلّ هذه الخطوة قد أربكت حسابات جمال عبد الناصر، فالشأن السياسي شيء والعمل العسكري شيء آخر.أمر الرجل بإرسال قوات النخبة من ريف دمشق إلى بيروت أيضا.وربما وجّه أمراً إلى قادة تلك القوات باستجرار المارينز إلى حرب الشوارع.وهكذا وجد يوسف نفسه في شوارع بيروت فجأة. ليس لديّ تفصيلات حول القتال الذي كان يجري ذلك الصيف في بيروت.لديّ ذاكرتي الدمشقية فقط. في أحد نهارات ذلك الصيف، بين العصر والمغرب، كنت عائداً إلى منزلنا في مخيم اليرموك من مباراة طفولية خائبة بكرة القدم في ملعب المخيم. في ذلك اليوم شاهدت أمراً لم أشاهده في حياتي مرتين.لقد رأيت أمي في الطريق بلا غطاء رأس.كانت تبكي وتلطم وجهها وتنوح، بل تولول.أرعبني المنظر، فرحتُ أبكي أنا أيضا من دون أن أعلم السبب الذي جعل أمي في هذه الحال التي لم يخطر يوماً ببالي احتمالُ وقوعها.لم تكن قد رأتني بعد.لكن وما إن وقع بصرها عليّ حتى اندفعتْ نحوي وضمّتني بقوةِ من هو موشكٌ على فقدان أغلى ما يملك، من دون أن تتوقف عن العويل."يمّا شو في؟" سألتُ بصوت مرتجف من الخوف الذي صرتُ له فريسةً طيّعة. أظنها لم تكن تراني، رغم أنها تضمّني إليها بعنفٍ لا علاقة له بحنان الأمومة بقدْر ما هو نابعٌ من غريزة البقاء.ولكنها مع ذلك ردّت على سؤالي. كان صوتها مرتجفا يختنق بالدموع: "يوسف مات يا حسن.. أخوك مات يمّا.. أبونا مات يا حبيبي.. كمان مرّة صرنا أيتام خيّا.. شو

أعمل إنا يا ربي؟!. أنا شو أعمل؟! يا جماعة الخير حدا يقوللي أنا شو أعمل.. " وتوقفتْ فجأةً عن عناقي.تركتني مشلولاً من هول فكرة أن يكون أبي الثاني قد مات أيضاً، وأن أكون قد أصابني اليُتمُ مرتين في عدد قليل من السنين.رفعتْ أمي يديها إلى السماء،وراحت تحتجّ على أفعال خالقها: "إحنا شو ساوينالك يا الله؟!. شو الذنب اللي عملناه تحت عرشك تتنزل علينا كل هالمصايب؟!." وحدّي الله يا أم يوسف.إنتي مرا مؤمنة يا أم يوسف.وحدّي الله وامسحي وجهك بالرحمن.كان الجيران يواسونها.ينصحونها بألا تكفر بالله الذي ما من أمر يصنعه إلا وله فيه حكمة.ولكنّ المرأة الثكلى لم تكن ترى أية حكمةٍ في موت ابنها البكر الذي لم يبلغ العشرين من عمره، والذي تعقد عليه الآمال كلها في انتشال أسرتها الصغيرة الفقيرة من براثن حياةٍ لا مكان فيها للرحمة الآدمية. مَنْ الذي حمل إليها نبأ مقتل يوسف في أحد شوارع بيروت؟لا أعرف.راحت المرأة فجأةً تركض. لقد كانت ملتاثةً تماما.رحتُ أركض خلفها أحاول أن أعيدها إلى المنزل. تعلّقتُ بذيل ثوبها. اكتشفتُ أنني أكثرُ ضعفاً من عمل أيّ شيء لانتشال أمي من لجّة الأسى الذي غرقنا فيه كلانا على حين غرّة." لوين رايحة؟ بس قوليلي لوين رايحة.. منشان الله يمّا ترجعي عَ البيت!" كنتُ أستجديها من خلال الرعب الذي أحكم عليَّ قبضته. لقد احتلني بالكامل.كنت أستجديها العودة.أستحلفها بالله. برحمة أبي في قبره. بلا فائدة. رجعتْ لا تسمعني.لا تراني. كانت تركض باتجاه حيّ الميدان.أقرب أحياء دمشق إلى المخيم.أعرف هذا الطريق على نحوٍ جيد.هناك مدرستي. لم يكن في المخيم مدارسُ تلكَ الأيام." يمّا شو في بالميدان؟.خلينا نرجع عَ البيت.. أبوس رجلك يمّا." لم أكن قادراً على عمل شيء غير انتظار معجزة من السماء.ولم أكن أعلم أنّ المعجزة تنتظرني على الطريق إلى حيّ الميدان.لقد ظهر خالي فجأةً أمامنا.كان رجلاً قويّ البنية. كان عائداً مشياً من المدينة.لم يكن من مواصلات تربط دمشق بمخيم اليرموك.استطاع الرجل الشاب القوي، ببعض الصعوبة، أن يسيطر على أخته التي توشك أن تفقد عقلها.كانت تقول له: "سمعت خيّا؟.سمعت شو صار فينا؟" قال لها: "سمعت، سمعت.وببشرك إنو الخبر اللي وصلك مش

صحيح.يوسف بعدو طيب.موجود بالمستشفى، بس بعدو طيب.وانشالله بيرجعلك بالسلامة عن قريب." كانت معلومات خالي أكثر صحةً من معلومات الشخص الذي حمل النبأ القاتل إلى أمي. كان يوسف يرقد في أحد مستشفيات بيروت.وكان الأطباء اللبنانيون قد أجروا له أكثر من عمل جراحي بعد أن أصيب بثلاثة أعيرةٍ نارية في إحدى المعارك الدائرة رحاها في شوارع تلك المدينة. وأمي لم تصدّق أخاها،رغم أنه أقسم لها بالله على صحة أقواله. ونذرتْ أمي أن تشعلَ شمعةً في مقام "ستنا زينب" لو كان ما يقوله أخوها صحيحا. ربما كانت تلك هي المرة الأولى التي سمعت فيها عن "ستنا زينب" أعرف زينب بنت الجيران التي تكبرني بخمس سنوات.كانت صبيةً جميلة مكتملة الأنوثة. وكنت أنا في ملامح الطفولة بعد. سألتُ أمي لاحقا عمن تكون "ستنا زينب" التي ستشعل شمعةً في مقامها. قالت لي: "ستنا زينب بنت سيدنا محمد." وعندما كبرتُ قليلاً وعرفت قصة "ستنا زينب" حاولت أن أصحح لأمي معلومتها هذه.قلت لها: "ستنا زينب حفيدة سيدنا محمد، مش بنته." قالت لي: "اخرس إنت.. شو فهمك؟" وخرست طبعاً، ثم لم أعد إلى مناقشتها في الأمر.كانت النفوس قد هدأتْ.كان يوسف قد عاد إلى الدار سالما. عاد بإجازةٍ طويلة من أجل النقاهة. وعاد بمئة ليرةٍ مكافأةً أمرَ له بها قائدُ الكتيبة تقديراً له على شجاعته في الميدان. كان نصيبي منها خمس ليرات.قطعة نقدٍ ورقية أمسكها بيدي للمرة الأولى. كان في السابق يعطيني ربع ليرة، وحين يكون كريما يعطيني نصف ليرة. فقط في عيد الفطر وفي عيد الأضحى كان يعطيني ليرةً كاملة. وفجأةً خمس ليرات من قطعةٍ ورقية، ومن دون عيد.احتجّتْ أمي على الأمر وحاولتْ إقناعه بالعدول عنه. ولكنه لم يتراجع.وغيرُ الإجازة والليرات المئة،عاد الشاب الصغير من بيروت حاملاً صندوقين من الكتب، رأت فيهما أمي عبئا على منزلنا الضيّق، ورأيتُ فيهما نوعاً من العبث.ما هذه الأسماء الغريبة؟ كنت أسأل نفسي. جان بول سارتر- ت.س.إليوت -فيدور دوستويفسكي - وليام شكسبير - سألته مرّة: "ما هذه الأسماء؟" قال: "ألا تعجبك؟" قلت: "إنها تشبه أسماء الأدوية." وفي الحقيقة أنني لم أكن أعرف من أسماء الأدوية شيئاً غير الأسبرين والسلفات يازول.

ضحك أخي، وأصابع إحدى يديه تلعب بحلقات شعري الخرنوبي. ولا أمي ولا أنا كنا نعلم بما يضمره والدنا الصغير. لم نكن نعلم بأنه كان يضع اللِبنةَ الأولى في صرح المكتبة العملاقة التي تركها وراءه في مخيم اليرموك، حين أجبرته القنابل العشوائية على اللجوء ثانيةً. وكان لجوءاً لا عودة منه هذه المرّة. في اللجوء الأول عامَ 1948 كان في العاشرة من عمره، أو دون العاشرة بقليل، ولكنه تجاوز المحنة. كان قادراً على تجاوزها.كان قويا بما يكفي من أجل ذلك، حتى إنه كان يحملني على كتفيه طوالَ الطرقات في البراري المختلفة. أما اللجوء شيخاً، فقد كان مهيناً إلى حدود الموت قهراً. فأين المكتبة التي أنفق بين محتوياتها أكثر من نصف الوقت الذي عاشه في هذه الدنيا غير المأسوف عليها؟! صندوق الكتب التالي جاء من العراق هذه المرّة. كان في ذلك البلد انقلابٌ عسكري ضد انقلابٍ عسكري.ربما كان هذا في عام 1960،وكان الانقلابيون الجدد في وضع ميداني لا يُحسدون عليه. وكانوا من دعاة الوحدة العربية. فاستنجدوا برائد القومية العربية. (جمال عبد الناصر) طبعاً.. قالوا لنا ونحن أطفالٌ بعد: جمال يريد أن يضمّ العراق إلى الجمهورية العربية المتحدة.وصفّقنا من الطرب.. وحدة ما يغلبها غلاّب. مصر، سوريا، وها قد جاء دور العراق. وقريباً تحرير الجزائر، ثم حفل التتويج بتحرير فلسطين السليبة.. وتغنّي أم كلثوم: بغدادُ يا قلعةَ الأسودِ.ونسكر من نشوة الحلم وهو يغدو حقيقة. الوحدة العربية يبنيها جمال حجراً حجراً. يبنيها أمام أعيننا. كان التاريخ يمشي في الطرقات بيننا.صناعته حيّة.بثٌ مباشر.وجمال لا يخذل دعاة الوحدة العربية في العراق. أرسل في مساعدتهم قوات النخبة المرابطة في ريف دمشق، وكان يوسف مازال في الخدمة.وها هو أخي الأكبر يجد نفسه مقاتلا في ضواحي بغداد، أو حتى داخل بغداد نفسها. لا أعرف.. هل جميع الدروب تقود إلى فلسطين؟ لست أدري. حتى إنني لم أفكر بهذا السؤال في ذلك الوقت. كان يشغل بالي شيء آخر: ألاّ يطرق أحدٌ بابَ منزلنا.ألاّ يأتينا من يقول لأمي: "مات يوسف." كانت عيني على أمي طوال الوقت. وكانت أذني على باب المنزل طوال الوقت. كنت لا أنام الليل من خوفٍ يسكنني على نفسي، على أمي،وعلى

أخي الذي لا نعرف عنه شيئاً سوى أنه يبني الوحدة العربية في العراق. حتى إنني قضيتُ عديد الليالي ساهراً في الحارة.أجلس على مصطبةٍ طينيةٍ صغيرةٍ بجوار باب المنزل من أجل أن أكون أنا من يتلقى الصدمة الأولى وليس أمي.لم أكن أقدر على رؤيتها ملتاثةَ العقل مرّة ثانية. وربما كانت تلك بدايات الأرق الذي مازال يعيش معي إلى اليوم.صرتُ حارس الصمت، حارس الليل،حارس الخوف. كنت أقسر نفسي على الصحو.أعدّ النجوم كل ليلة. وأتعب من العدّ، أو يزلّ لساني وعقلي بالعدد الذي وصلت إليه، فأعاود الكرّة من جديد. في البداية كان الليل يرهبني. الخواء. العتمة. نباح كلب أظنه عواء ذئب كانوا يخيفوننا منه كثيرا. ذئب يجوب البساتين في الغوطة ليلاً. ومخيم اليرموك الحديث العهد في الوجود لم يكن إلا مجموعةً من المنازل الطينية الصغيرة المبعثرة بين تلك البساتين.والذئب يسعى إلى الثأر. يبحث عن القصاص من قاتل ابنه الوحيد الذي لا يعثر عليه إلى اليوم، وقد يأكل أحدَ الأطفال يوماً إن يئس من الوصول أخيراً إلى المجرم الحقيقي.الثأر أعمى.كانوا يقولون.وكنا نصدقهم.وكنت أشعر بالخوف.وأظل مع ذلك مرابطاً مثل كلبٍ وفيّ في حراسة المنزل من الغريب الذي قد يأتي إلينا حاملاً النبأ المشؤوم. أن يأكلني الذئب أرحم عندي ألف مرّة من رؤية أمي تائهةَ العقل، حاسرةَ الرأس في الطرقات، شاردةً، تركض وراء سرابٍ ما. كل أشياء الليل كانت ترهبني.حتى مواء القطط صار مخيفا، فأهرب إلى النجوم وأعيد عدّها. أظن أنّ مجموع النجوم التي عددتها أكبر بكثير من تلك التي نستطيع رؤيتها بالعين المجردة. ويعاودني العواء.عميقاً يأتي، بعيداً، يتردد في الأرجاء السكينة، مثل رجع الصدى. حزيناً كان يأتي، ملتاعاً، باكياً. أنصت جيداً.أحاول أن أفهم ما يقول الأب المحروق الفؤاد.إلى ماذا تراه يرمي من وراء ذلك البكاء كله؟! وأفكر: لعلّه يناديني.لعلني كنت ابنه القتيل! هل ناديتني يا أبي؟ أنا هنا، فتعال يا أبي، تعال. أنا بخير، ابنك بخير، جرْوُكَ الصغيرُ بخير، فتعال.أنا لا أستطيع الذهاب إليك.فمن ذا الذي يحرس المنزل إنْ تركتُ أنا هذهِ المصطبة؟! إذن، تعال يا أبي، تعال.صغيرك يا أبي في انتظار.. لم يحدث في العراق شيء من ذلك الذي حدث في لبنان.رجع الشاب،الذي أوشك

على الخروج من الخدمة، إلى أهله سليماً معافى. أما أنا فبقيت أميناً في حراسة الليل، متصادقاً مع السهاد، منصتاً إلى عواء الذئب يبحث عني أنا ابنه القتيل. مازلت إلى اليوم أسمع نواح الذئب المكلوم عليّ يتردد صداه في جنبات رأسي.رجع يوسف إلينا معافى، ولكنه جاء بما جعل أمي تبدي المزيد من التذمر: الكتب.كان الشاب ماضياً في مشروعه بكل ثبات. ما من شيء كان يمكن أن يثنيه عن تنفيذ ما برأسه، من دون أن يعلم بأنّ القنابل العشوائية على مخيم اليرموك سوف تفعل ذلك في شيخوخته وبأنها سوف تقضي على كل ما بنى خلال أكثرَ من خمسين عاماً، وبأنها سوف تهينه إلى حدود الموت قهراً. نعم. يوسف سامي يوسف مات قهراً. هذه هي إفادة شقيقه حسن سامي يوسف. إنني أقدّم هذه الإفادة، بل هذه الشهادةَ، إلى جميع من يهمّه الأمر، فلسطينياً كان أو سورياً.. أعود إلى ليلى.رضختُ لأمرها، ودخلتُ إلى ال (ميني ماركت). لماذا أرضخ دائماً لأوامر النساء؟ لا أعرف.جميع نساء الحياة حكمنني إلا واحدة: أمي.إنها المرأة الوحيدة التي تمردتُ عليها بين جميع اللواتي مررنَ بي أو مررتُ بهن.وربما كان مردّ ذلك التمرد إلى كون هذه المراة أمي. كنت أعرف أن الأم هي المرأة الوحيدة التي تحبنا من دون مقابل.من دون أي مقابل.حتى النقود التي كنت أعطيها لها كانت توزعها هنا وهناك، على المساكين حيناً وعلى أطفال العائلة أحيانا. كان ثمة تمثيلية تقع عندنا كل شهر.كل شهر. وكانت العجوز تبدو سعيدةً بها.الأطفال يسرقونها، ولكن بإرادتها، بل حتى بتحريضٍ منها.كانت تقرضهم النقود. كانت تقرضهم مبالغ لا يمكنهم سدادها بحالٍ من الأحوال.ثم تعلن إفلاسها أمامي.. وتروح تروي لي تفصيلات الحكاية. التفصيلات ذاتها التي سمعتها من قبل عشرات المرات إن لم يكن المئات منها، فقد كان الأطفال يتجددون باستمرار.كلما كبر بعضٌ حلّ محلَّه بعضٌ جديد. "يمّا علاء ابن أخوك هالشهر أخد مني.. "وأقاطعها: "يمّا احسبي فلوسك على مهل واعطيني النتيجة." وتروح العجوز تحسب على أصابعها، فقد كانت امرأةً أميّة.وكنت أراقب عينيها وأبتسم.أظنها كانت تحسب بخبث عجائزنا الخبيرات.ومن المؤكد أنها كانت في المحصلة تضاعف النتيجة النهائية التي تصل إليها. تبلغني بالرقم، فأضاعفه

من عندي مرّتين أو ثلاثاً." تكرمي يمّا! هاي فلوسك مرتين.. ضلي إعطي الولاد.. ضلي ساعدي اللي بتشوفيه محتاج من الناس.. تكرمي يمّا!" وأعطيها النقود، وتقول متظاهرة بالإشفاق عليّ وعلى تعبي: "مش كثير هيك يمّا؟" "لأ يمّا مش كثير.. اليدُ العليا خيرٌ من اليد الدنيا.. حديث نبوي شريف.. انتبهي هه! حديث نبوي شريف." نعم كنت أعطيها الكثير من النقود.ولكنني اليومَ لا أتذكر أنني أعطيتها أيّ شيء آخر في جميع حياتي. ما لبيّت شيئاً من الذي كانت تحلم أن تراني عليه: زواجي، طلاقي، دراستي، مسكني. حتى إنني لم أكن أستشيرها في هذه الأمور، ولو من قبيل الكياسة على الأقل. دائماً كانت تجد نفسها معي أمام الأمر الواقع. كانت دائماً آخر من يعلم بأنّني لستُ في البلد.حسن في إيطاليا، في الهند، في ألمانيا، في الصين، في لندن. وكانت دائماً تقول: "ما حكى لي إنو بدو يسافر." وكانت تبكي بصمت. لم أعلم بدموعها هذه إلا بعد أن ماتت.حتى في موتها لم أكن ابنا بارّا. لم أستجب لطلبها الأخير.حدث هذا قبل نصف ساعة فقط من رحيلها عن الدنيا. كان الوقت ظهراً. كنت أستعدّ للخروج من المنزل. كنت أعبر الصالون. مررت بباب غرفتها المفتوح. كانت تجلس متربعة على سرير المرض وبين يديها مسبحتها الطويلة، تسبّح بحبّاتها التسع والتسعين خالقَها.. "صباح الخير يا حجة!" أشارت لي بيدها أن تعال. لم يتوقف لسانها عن التسبيح بالله وحمده، فاكتفت بالإشارة من يدها تدعوني إليها. "مستعجل يمّا. عندي موعد كثير مهم. بس بوعدك إني ما أتأخر." وخرجتُ من المنزل. كان عندي غداء عمل مع أحد المنتجين حول أحد المسلسلات التلفزيونية. ترى ماذا كانت تريد مني حين أشارت لي بيدها أن أوافيها إلى فراش الموت؟ ربما كانت تشعر بقرب النهاية! ربما كانت تريد أن تودعني، أن تعانقني لآخر مرّات العمر. ربما كانت تريد أن تحتمي بي من الخوف.. ربما كانت تريد أن تُحمّلني وصيتها الأخيرة.. ومن يدري؟ ربما كانت تريد أن تطبع على وجنتي قبلة الوداع عشيةَ سفرٍ في اتجاهِ واحدٍ، وتقول لي " الله يرضى عليك يمّا!" وربما كانت تريد هذه الأشياء مجتمعة.هذه المتعة الأخيرة في الحياة. وأنا أحرمها متعة الحياة الأخيرة لأن عندي غداء عمل. أيّ ابنِ بارِ أنا؟!غداء

عمل. هذا هو الموعد الذي أهمُّ من أمي. جاءني الخبر وأنا في المطعم. لا أستطيع إلى اليوم أن أغفر لنفسي ذلك السلوك. ترى ماذا كانت تريد مني حين أشارت إليّ أن تعال يا ولدي، تعال؟! لقد حرمتها ذلك النهارَ متعة حياتها الأخيرة، ولكنني حرمتُ منها نفسي أيضاً. يبدو أنني لم أكن أستحق تلك المتعة. هذا ما أومن به الآن. كنت ابناً عاقاً بوالدته. لا أتذكر اليومَ أنني اصطحبتها ولو مرةً واحدة إلى أحد مطاعم الغوطة مثلاً.الغوطة القريبة بمطاعمها الكثيرة في الهواء الطلق. نتناول غداءنا في أحد مطاعم الريف الجميلة. لم يحدث شيء من ذلك أبداً. ورغم هذا، كان لي على لسانها عبارةٌ واحدة: "الله يرضى عليك يمّا!" كانت أمي المرأةَ الوحيدةَ القادرةَ على الغفران، لذا كانت المرأة الوحيدة التي تماديتُ في اضطهادها. أما بقية النساء، فلا غفرانَ بلا ثمن.وأحياناً، لا غفرانَ مهما كان الثمن. ولهذا صارت طاعةُ النساء عادةً لديّ ثابتة. لا أقدر على عدم تنفيذ أوامرهن. وهأنذا أطيع اليومَ هذه المرأةَ الغريبةَ التي لا أعرف بعد أنّ اسمها ليلى. توجهتُ إلى قسم المنظفات. ماذا أشتري؟ المنزل الذي انتقلتْ إليه المرأةُ ليس نظيفا. إذن، يلزمني هذه وهذه وهذه وهذه. الصبي والبنت لم يستحمّا من أسبوعين. إذن يلزمني هذه وهذه وهذه وهذه. وما داما منذ أسبوعين بلا حمّام فربما كانا منذ أسبوعين بلا طعام. إذن لا بأس ببعض الزيتون، ولكن لا بأس ببعض الجبن أيضاً. الجبن الأبيض صار مغشوشاً. لم أستسغ له طعما. على الأرجح أنه مصنوعٌ من حليب البودرة وليس من الحليب الطازج. وهذا شيْ محتملٌ جداً، فدمشق الآن تعيش من دون سلّتها الغذائية (الغوطتان): الشرقية والغربية.كنت أشتري كيلو الجبن الأبيض بمئةٍ وخمسين ليرة.وكان الطعم لذيذا. اليومَ صار بلا طعم والسعرُ تضاعف عشْرَ مرّات. فنحن نعيش من دون الغوطتين.كلاهما محاصر. أو: ربما كانت دمشق هي المحاصَرة بغوطتيها في انتظار معركة دمشق، أو ما يسمّيه بعضُ النشطاء: زلزال دمشق. إننا في حصارٍ، فكيف نعيش إذن إلاّ بقدرتنا العجيبة على احتمال الألم؟ ليس هذا وقت الأسئلة. لا بأس ببعض المعلبات كذلك. ولكن مهلاً! هل تملك من النقود ما يكفي؟ رحت أطمئن إلى حقيقة المبلغ في جيبي. إنه يكفي بما فيه الكفاية. هناك

طفلان. إذن، لا بأس ببعض الشوكلاتة. ولكن مهلاً مرّة ثانية. هل هذه وظيفتك؟ أظن أنها وظيفة الجميع. وأنا من هذا الجميع. لن أرمي إنسانيتي في الزبالة. مازلت أملك الكثير. لن أرمي إنسانيتي في الزبالة. لن اضطر قريباً إلى إرسال نداء استغاثة إلى كندا. إلى السويد. السويد أقرب. لن أرسل نداء استغاثة إلى أيّ المطارح التي يتواجد فيها أحدٌ من شباب العائلة. من السابق لأوانه فعلٌ كهذا. ولكن عندما أصير في حاجةٍ فإنني لن أتردد في إرسال نداء الاستغاثة ذاكَ إلى أحد الشباب.وهذا الذي تصله استغاثتي يتصرف. يبلغ أخوته الأمرَ وأبناءَ عمومته.يعقدون اجتماعاً عاجلاً على سكايب أو على أية وسيلة اتصال لا أعرفها. يتدارسون احتياجات عمّهم المالية.يتوازعون المبلغ المطلوب. يقتطعونه من مصروف أولادهم، ويرسلونه إلى دمشق على وجه السرعة. يقيمون لي دخلاً شهرياً ثابتاً.لا أريد أن أصل إلى هذه النقطة. يسمونها: نقطة اللاعودة. لن أصل إليها. لن أصل إليها. لن أصل إليها.مازلتُ قادراً على المقاومة. مازلتُ قادراً على الصمود. مازلت قادراً على الهذيان. وهذا مؤشر جيد. يبدو أنّ السخونة قد عادتني. سوف أتصرف. سوف أتصرف حتماً.ذئب عتيقٌ أنا. لم يحن وقت الضربة القاضية.لم يحن وقتُ الهاوية.. سنرى، سنرى، سنرى. ما زلتُ قادراً على المضيّ قُدُما. مازلت قادراً على المضي قُدُماً بثبات. لديّ من الخبرة ما يكفي لهذا وأكثر.لن أستسلم.لن أستسلم. لن أستسلم. لن أرمي إنسانيتي في الزبالة.لا بأس ببعض القهوة.لا بأس ببعض الشاي. لا بأس بعلبة سجائر.من يدري؟ربما كانت المرأة من المدخنين.هذه السخونةُ لا حياءَ فيها. مع عدم الاعتذار من المتنبي.أنا آسف يا رشا! عاودي الاتصال. أرجوكِ أن تفعلي. أو انتظريني قليلا. فقط انتظريني. سوف أصحو قريبا. هذا وعد. لن أمرض ثانيةً. هذا أيضا وعد. ولكن مهلاً. لحظة لو سمحتم! ما هذه العتمةُ فجأةً أو حتى فجاءةً؟ أم إنّ التيار الكهربائي قد انقطع؟ مسكين هذا التيار!! كم مرّةً في اليوم يقطعونه؟! من المؤكد أنهم عديمو الشفقة.سوف أتناول ثلاث حبات من الدواء. ربما كانت هذه هي الجرعة الموصوفة في النشرة. ومن يدري؟ربما كانت أربعاً. نعم، هذه أفضل الجرعات. أين الولاّعة الصينية الساحرة؟ ها هي بجواري. كل شيء تحت

السيطرة. الحمد لله. الحمد لله. الحمد لله.أربع حبات. جرعة ماء. شقيقي الصغير تركني ورحل.شقيقي الصغير قال لي إنه عائدٌ قريباً، ولكنني أعرف بأنه لن يعود. ماذا يحدث في سانتياغو؟ تدربوا جيداً يا أولاد. الطريق طويلة. لا تقرأوا المتنبي. إنه ليس أكثر من بائع للخردة. أنت يا رشا على حق.أطويلٌ طريقُنا أم يطولُ؟ ماذا تفعلُ يا أبا الطيِّب؟ تذكّر وتؤنث على هواك. وتطرح علينا أسئلةً وجوديةً تظنّ أنْ لا طاقة لنا على الإجابة عنها. الطريق يا أبا الطيب ليستْ تطولُ.إنها طويلة. فقط.الأمر واضحٌ جداً. فلماذا الفلسفة؟ الطريق يا أولاد طويلة. الطريق إلى فندق الفرسان الثلاثة طويلة جداً.طويلة، شاقة، تتراكم فيها العقبات الجِسام.رأيتكم تتدربون بمرح. سعدتُ بمرحكم. انسوا مخيم اليرموك. اتركوه على صفحات الفيس بوك في منازلكم. أمامَكم عملٌ جبّار، فانتبهوا لعملكم.اعملوا ما يجب عمله. اتركوا البقية للآخرين. أنتم لم تُخلَقوا لهذه البقية. كيف سوف تشرح المسألة للشعب الأميركي سيدي الرئيس؟ ماذا ستقول عن موطن هؤلاء الأولاد؟ هل هبطوا من الفضاء مثلاً؟ أم تراهم خرجوا من باطن الأرض السابعة؟ لستُ أدري لماذا لديّ هذا التصور عنك سيدي الرئيس. أظنك لم تقرأ مارك توين، مع أنه كاتب أميركي. بالمناسبة، أنصحك بقراءته. لن تندم.بل سوف تشكرني على هذه النصيحة. اقرأ روايته الشهيرة: توم سوير، وأنصحك أكثر بقراءة روايته البسيطة الساحرة: الحَمَلُ الضائع.سوف تُدهش من تعاطفه الهائل مع الأطفال والزنوج والنساء والمهرجين، ومختلِف المستضعفين في الأرض، وبإمكانك أيضاً أن تقرأ مذكراته المدهشة: اهربوا، لقد انفضح أمرُنا. أستطيع أن أزودك بقائمة مؤلفاته. راسلني على الخاص.أين رشا؟ يا نسيم الروح قولي لرشا.يا ربي! ماذا يحدث؟ ما أهمية أن يعلموا اليومَ بموتي؟ وما أهمية أن يعلموا به بعد شهر وأربعة أيام؟ المهم الوحيد عندي هو القبر.يا له من اختراعٍ جميل!أظنني كتبت عن القبر مرّة. متى كان ذلك؟ في أية رواية؟ هل الذاكرة تخونني؟أتذكر أنني كتبت عن عدالة القبر.نعم. ولكن أين؟ سوف أتذكر.سوف أتذكر. سوف أتذكر. لن أستسلم. آ. هذا أنت مرّةً ثانية؟ ماذا تريد؟.ولكن لحظة من فضلك! من أنت؟ لا أراك جيداً في هذه العتمة. أو لعلّك تغيرت كثيرا. لاتؤاخذني

أرجوك!هل تسمع مثلي طرقاتٍ على الباب؟ من جاء يطلبني؟ من يقرع الجرس في هذا الوقت؟ من يقرع الجرس؟ من يقرع الجرس؟ شكراً لك يا قارعَ الجرس، فقد أنقذتني من هلوساتي.نظرت إلى الساعة.إنها التاسعة والربع.التاسعة والربع التي في الصباح. الحمدلله! اعتدلتُ قليلاً في رقدتي وأشعلت سيجارة. الجرس مرّة جديدة. لن أفتح الباب. غلط بالعنوان. لا أحد يسأل عني.أنا شخص وحيد، مهجور. لقد غلطتم بالعنوان. لن أفتح الباب.الجرس يرنّ بلا توقف. يا إلهي! من ثقيل الدم هذا؟! ولماذا لا يدعني وشأني؟! لماذا لا يتركني أستمتع بسيجارة اليقظة بعد ساعات الهلوسة المضنية؟! صرختُ من مطرحي: ماذا تريدون؟ أشكّ بأن يكون أحدٌ قد سمعني، فأنا نفسي لم أسمع شيئاً. كان صوتي أضعف من أن يذهب إلى ما بعد باب الغرفة.والرنين لا يتوقف. نهضت من الفراش مترنحاً.ورحت أجرجر جسدي إلى باب المنزل. فتحت الباب، فتوقف الرنين. إنها رشا.. شهقتِ البنت من خوفٍ أبكم حلّ بها عندما رأتني. فماذا رأت أمامها؟! ما الذي كنتُ على هيئته تلك اللحظة؟! أشبحاً كنتُ أو مومياء أو ماذا؟! كيف استهديتي عالبيت؟ سألتها. لم ترد عليّ. دخلتْ وأغلقت الباب خلفها. كنتُ أترنح في وقفتي وإلا ما سارعت البنت تمسك بذراعي. قالت: استند عليّ. وقالت: وين غرفة النوم؟ أومأت لها بعيني إلى المكان الذي سألتْ عنه. أحاطت خصري بذراعها. كانت ذراعاً قوية. كدتُ أسألها: من أين لك هذه القوة أيتها البنت الناعمة؟ غير أني لم أقوَ على الكلام. أوصلتني إلى الفراش. ساعدتني على الاستلقاء هناك.غطتني بالحرام واللحاف جيداً. وقفتْ بجوار السرير تتأملني. أظنها كانت تحبّ أن تبكي، ولكنها بدلاً من ذلك قالت: وعم تدخن كمان؟!! وكدتُ أقول في نفسي: نكدُ المرأة ابتدأ. ذهبتِ البنتُ إلى النافذة.رفعت الأباجور. فتحت الشباك. أزاحت الستائر. كان المنطقي أن تبدأ بإزاحة الستائر أولاً. لكنّ الذي حدث هو العكس. اضطرابُ البنت واضح. وواضحٌ كذلك قلقها. كنتُ أراقبها بطرْف عينٍ. كانت حركتها مملوءةً غضباً. قلت في نفسي هذه المرّة أيضاً: يبدو أنّ نكدَ النساءِ قدَرٌ مقدور. رجعتْ إليّ. وقفتْ تتأملني لحظةً قبل أن تجلس على حرف السرير من يميني دون أن ترفع

بصرها عن منظري الذي هالتها رؤيتُه. سألتها: شو؟ قالت: على كلِ الحمد لله! على ماذا كانت تحمد ربها؟ قالت: كنت رح أكسر الباب، أو رح أجيب الشرطة.وابتسمتْ وأضافت: أوكنت رح قول للعساكر عند الحاجز إنو في جماعة عم يخزنوا سلاح، وأجيبهن لهادا البيت. أجبرتني على الضحك. - بتعمليها ولك رشا؟- والله بعمل أبوها. -خايفة علي؟.- إذا عليك ما بدي أخاف.. قاطعتها: لا تكملي. - أمرك، ما رح كمّل، بس قوللي، ليش هيك عامل بحالك؟!- إي شو أنا عامل جريمة؟ مريض. كل الناس بتمرض.- أن ما عم أحكي عن كلّ الناس،عم أحكي عنك إنت. إنت بالذات ممنوع تمرض. شو الدوا اللي عم تاخده؟. وأومأتُ بعيني إلى علبة الدواء على سطح الكومدينو.رفعتِ العلبة. فتحتها. أخرجتْ منها النشرة، وراحت تقرأها تحت نظري. فهمتي شي؟ سألتها. - ولا حرف. ممكن تعطيني نسخة من مفتاح البيت؟- منشان شو؟- لازم يشوفك طبيب.. وقطعتْ عليّ الطريق: ولا تناقشني. ولم أناقشها. كنت مطيعاً كعادتي مع المرأة.قالت لي قبل أن تخرج من المنزل: لا تتحرك من الفراش.وقالت لي أيضاً: اترك الشباك مفتوحاً.وقلت لها: أمرك! ونهتني عن التدخين. وقلتُ: أمرك! ولم تصدقني، فاحتجزتْ علبة السجائر والولاّعة الصينية الساحرة. وضعتهما في حقيبتها اليدوية، وغادرتْ.ألقيتُ إثرَها نظرة. رأيت فيها شيئاً من هناء، ولكنني لم أعرف بالضبط أيّ شيء هو ذاك؟ الشعر؟ القامة؟ لا. لا هذا ولا تلك. ماذا إذن؟ ربما كانت اللهفة. لست واثقاً.. كنا في الخريف. خريفنا الأخير، أو خريفنا الوحيد.. قالت لي: حتى لو تزوجناعلى سنة الله ورسوله فإنني لن أتجرأ على أن أتعرى أمامك. لم تطل غيبة رشا أكثر من عشر دقائق. رجعتْ بصحبة أحد الأطباء، لكنه طبيب أسنان. وكنتُ أعرفه ويعرفني. زرته في العيادة من قبلُ مرةً أشكو له ألماً في اللثة.وجدتني، مرغماً، أضحك حين رؤيته يدخل غرفة النوم.قال الطبيب من فوره: ولي! شو هاد؟! زنطاري!- والتفت إلى رشا- إي شي طبيعي بدو يمرض بهالسقعة. كنتي دفيه لأبوكي ما كان مرض. قالت رشا: إي حضرته عم يدخن. رد الطبيب عليها: أبوكي عم يدخن،أنا شو ذنبي موت من السقعة؟ سكري هالشباك يرضى عليكي. ثم

التفت إليّ وقال: خير جار؟ شو معك؟- والله يا جار إنت الحكيم. - أنا حكيم أنا؟ حكيم شو؟! بس هي بنتك لولا شوي رح تجيبني لعندك بالقوة. قلتلها ولك يا بنتي أنا دكتور سنان. ما شفتي الآرمة؟ قالت إي ما لقيت حدا قريب غيرك.بس أنا عتبان عليك يا جار! - له! الله لا يجيب العتب! خير؟ ليش عتبان؟ - كل هالجيرة وما بتقول إنو عندك هيك بنت أمورة؟ - أنو كل هالجيرة؟! إي ما صرلي هون غير سبع تمن شهور.ثم إنو البنت عايشة مع إمها، وأنا وأمها متل ما بتعرف مطلقين. - أنا بعرف إنكن مطلقين؟ من وين عملتني بعرف؟ - ثم ليش بدي قولك إنو عندي بنت أمورة؟ - إي كنا عم ندور على عروس للصبي. - وانشالله توفقتوا ببنت الحلال؟ - إي الحمد لله، مشي الحال،توفقنا ببنت حلال ومن عيلة مستورة. والتفت إلى رشا التي كانت تبتسم حيناً أثناء حديثي مع الطبيب، وتضحك حينا، كأنها تجاكرني، تماماً كما يفعل الأطفال، وقال الطبيب ينتهرها: ولك يا بنتي سكري هالشباك! قسماً بالله زنطرنا. ردّت رشا عليه تلعب دور الابنة البارّة، ودور البنت العاقلة في آن: إي عم يدخن حضرته! وكاد الرجل ينفجر من ردّها: إي وأنا شو دخلني موت من البرد؟ ونهض بنفسه إلى النافذة وأغلق الشباك حين تراءت له تناحةُ البنت. رجع إليّ من النافذة، وجلس على حرف السرير من جانبه الآخر، وهو يعلن عن تذمره: إي شو هالجيل يا؟! لك تصور جابتني من قلب العيادة والمريض على الكرسي فاتح تمو!! قلت: والله يا حكيم لازم تحمد ربك صباح ومسا على إنو هالبنت ما صارت كنتك، لأنهاكانت عوفتو لابنك عيشتو.التفتَ إلى رشا وابتسم ثم التفت إليّ وقال: إي لأ، يخزي العين عنها! شوفتها بترد الروح. إي جار، ما قلتلي، شو وجعك؟ - والله قلتلك يا جار.- سلامٌ قولاً من ربٍ رحيم، والتفت إلى رشا يسألها، سمعتيه لأبوكي حكى شي من وجعو؟وعادت رشا تلعب دور البنت المؤدبة، المهذبة، التي لا تخشى في الحق لومةَ لائم: بصراحة يا عمو، بابا ما حكى كلمة وحدة عن يللي بيوجعو. يا الله كم كان صوتها مملوءاً أسىً! لا. لقد فهمتها خطأً لوهلة. لم تكن تلعب أيَّ دور. فقد كانت نفسُها موجوعةً بحق وهي تنطق بتلك الكلمات القليلة.أظن أنني فهمت إلى ماذا كانت ترمي.

لقد تخلّت البنتُ عن جكر الطفولة مرّة واحدة.غدتْ امرأةً ملتاعةً في لحظةٍ من الزمن غايةٍ في القصر.أما طبيب الأسنان، فقد استشاط غبطةً. قال لي: وشهد شاهدٌ من أهله. وقال لرشا: ونعمَ الأخلاق الحميدة! وقلتُ له: والله يا دكتور قلتلك: إنت الحكيم. قال: طيب سيدي ما رح نختلف. والتفت إلى رشا: إي بنتي! بتروحي ع الصيدلية اللي بأول الشارع وبتقوليلو يعطيكي حب التهاب، بس انتبهي هه، مو تبع كل تناشر ساعة، تبع كل ست ساعات، وبتقوليله كمان حب سيتامول، السيتامول بتعطيه للوالد الله يشفيلك ياه كل ست ساعات حبتين، حتى لو ما كان في سخونة، أو حتى لو ما كان موجوع، في شي بالطب اسمه عتبة الألم، سمعانة بهالمصطلح؟ - أومأت رشا بوجهها سلباً، وتابع الطبيب كلامه: كتير مهم إنو نرفع عتبة الألم، خديها قاعدة بحياتك. ونهض الطبيب وقال: معافى يا جارنا وما على قلبك شر!السلام عليكم! قلت: شكراً يا دكتور! عذبناك.- لا ولو! واجبنا. واعترضتْ رشا طريقه بعد أن هرعت إلى حقيبتها اليدوية. كانت تريد أن تدفع له أجراً. فوجىء الطبيب بما تفعل. لقد شعر الرجل بالإهانة. التفت إليّ وقال: شو هالجيل اللي طالع يا جار؟! تدخلتُ أحاول تلطيف الموقف: لا تواخذها دكتور! درست كام سنة بأوروبا، ورجعتلي متل مانك شايف. قال الطبيب لرشا: لك عمي نحن مو أوروبا، نحن الجار عيب ياخد من جارو. تدخلتُ من جديد: عيب يا بنت! ضبي شنطايتك. أطاعتني. ورافقتِ الطبيب إلى الباب الخارجي، وسمعتها تشكره، ثم سمعتُ إطباقة الباب، ثم رأيتها تعود إلى الغرفة وتمرّ بي من دون أن تنظر إليّ، وتذهب إلى النافذة، وتفتح الشباك. حزينةً كانت، صامتةً كانت. قالت لي وهي تصرّ على عدم النظر في وجهي: أنا رايحة ع الصيدلية. وخرجتْ. وتركتني حائراً من أمري وأمرها. ماذا يمكن أن أفعل من أجل هذه البنت؟ أراني مرتبكاً، وقد بدا لي أنّ هذه البنتَ قدري، وأنني ما عدتُ إلى دمشقَ إلا بسببها، بل ومن أجلها أيضاً. كان ابن أخي السويديّ لا يفهم سبباً لعودتي إلى دمشقَ وأنا بعدُ في القاهرة. زارني هناك مرتين. كنت ماأزال أقيم في الفندق. في المرّة الأولى لم يلحّ كثيراً عليّ لمرافقته إلى السويد.أما في المرّة الثانية فقد كان عنيداً على نحوٍ

يصعب معه إقناعه بأنني لستُ مهيئاً للجوءٍ دائم بعيد. -لماذا؟ ما السبب؟. كيف أحدثه عن رشا؟ لعلّني خجلت من هذا السبب فآثرتُ الصمتَ عنه. والشاب في زيارته الثانية إليّ يرجع إلى عناده الفظيع في إصراره. كنت أفهم الدافع إلى ذلك العناد، فقد حدث أمر رهيبٌ بين الزيارتين لقد مات أبو الوليد في ذلك الفاصل الزمني.. كان الشاب قد وصل تواً إلى إسبانيا في شأنٍ يخصّ الشركة السويدية التي يعمل بها عندما رنّ في جيبه جهاز الموبايل. كانت المكالمة من لبنان. من أخته. من المرأة الشابة التي احتضنتني بقوةٍ وهي تخشى على رأسي أن يتصدعا، وتبكي من القهرِ وتقول لي: سلامة راسك عمي! سلامة راسك عمي حبيبي! مات أبو الوليد ومن حوله أربع نساءٍ لا حول لهنّ ولا قوة: امرأته العجوز أم الوليد، التي كنتُ أسميها أم الجميع، واثنتان من بناته، وحفيدةٌ واحدة هي ابنة المرأة الشابّة التي اتصلت بأخيها من دون أن تعلم أنه في إسبانيا منذ ساعاتٍ قليلةٍ فقط. قالت له: "مروان حبيبي يا ريتك تنزل ع لبنان.نحن بحاجتك خيّا.تعال ادفن أبوك." ونزل الشاب إلى بيروت، ودفن أباه في طرابلس، ثم عرج على القاهرة ليقنع عمه بحتمية مرافقته إلى السويد. أظن أن مردّ إصراره على سفري معه خشيتُه التي أتصور أنها كانت تحمله إلى حافة الرعب من أن يرنّ موبايله ذاتَ صباحٍ أو ذاتَ مساء ليسمع هاتفاً يقول له: "انزل عَ القاهرة ادفن عمك." كان يريد سبباً أكثرَ وجاهةً من الأسباب المئة التي حاولت إقناعه بها. السبب الوحيد الذي لم أخبره به كان رشا. أما اليومَ فلا رشا ولا سواها يمكن أن يكون له مقنعاً.فقد لُدغَ الشاب من الجحر ذاته مرتين. رنّ موبايله بعد شهرٍ ونصف شهر. كانت المكالمة من لبنان أيضاً.من أخته.قالت له: "مروان حبيبي يا ريتك تنزل عَ لبنان! إمك ما قدرت تعيش بعد أبوك. نحن بحاجتك خيّا. تعال ادفن إمك." ونزل الشاب إلى بيروت ودفن أمه في قبر يجاور قبر أبيه في طرابلس. وازداد رعباً من أن يأتيه هاتفٌ من دمشقَ ذاتَ صباحٍ أو ذاتَ مساء يقول له: "يا ريت تنزل على دمشق من اجل أن تدفن عمك!" لقد تعلم الشاب الدرس: أجمعُ العائلة كلها عندي في السويد.الجميع يكون تحت نظري. فكرته تلقى قبولاً من جميع العائلة. ولكن كيف يمكن تنفيذها؟! إنني أشفق على هذا

الشاب كثيراً. إنه دائم التفكير بالعائلة. دائم السفر إلى أبنائها المشردين في جميع الأرض. خطة الشاب ماضيةٌ في نجاحها ببطء السلحفاة. إنه ينفق الكثير من الوقت والكثير من المال من دون الوصول إلى نتائج كبيرة. لم يبقَ أحدٌ من العائلة في سوريا. لم يبقَ أحدٌ من العائلة في لبنان. لم يبقَ أحدٌ من العائلة في مصر. إنه يجمعهم في تركيا كمحطة أولى. الجميع ينفذ تعليمات مروان. الجميع ينفذ تعليمات أو مخططات رجل العائلة القادر على التصرف أكثر من البقية مجتمعين. وحده الذي يتمرد على هذه المخططات هو كبيرُ العائلة. عمي حسن. يتصل الشاب بي كلّ يوم تقريباً محاولاً إقناعي أن العرب لا يريدوننا بينهم. وبأن الحل المثالي بالنسبَة إليّ هو السفر إليه. لا يجوز التخلي عن كبير العائلة. لايجوز أن أبقى وحيدا ههنا. إنه يحرّض الجميع على أن يضغطوا عليّ كلِ يوم، وبكل الوسائط المتاحة، لكي أكون مطيعاً لمخططات مروان الذي يريد أن يكون الجميع تحت ناظريه. حتى أؤلئك الذين في كندا وجنوب إفريقيا يستجيبون لأوامره. يعتزمون شدّ الرحال إلى السويد.وجدي أنا يرفض ذلك. يقول لي: هناك أمر آخر يا عمي، وجودك بجانبي يساعدني في تدبير أمور العائلة على نحوٍ أفضل، فأنا بحاجة إلى خبرتك في هذه الحياة. وأنا أرد عليه بأنني لست جاهزاً للتيه بعد. أعلّل ذلك بمئة سبب آخر. ولا آتي في أسباب الرفض على اسم رشا. سوف أتدبر الأمر هنا. سوف أعتمد على هذه البنت كثيراً. سوف أرتب معها جميع المسائل. مازلت قادراً على الصمود.مازلت أملك ما يكفي من المال من أجل هذا الصمود. مازلت قادراً على تدبر أشياء الحياة المختلفة بما فيها القبر الذي هو أهم هذه الأشياء. أسمع باب المنزل ينفتح، وأسمع إطباقته. ها هي البنتُ تطلُّ عليّ في غرفة النوم. إنها تبدو كما تركتني قبل نحوِ من ربع ساعة. مازالت تتحاشى النظر إليّ مباشرةً. ها هي تغلق الشباك. وها هي تسألني: أين المطبخ؟ قلت بحركةٍ من يدي: المطبخ هناك. قالت: رح أعملك شوربة خضار. - وحذرتني - لا تقول إنك ما بتحبها! لم أعلّق بشيء على تحذيرها الذي بدا لي مثلَ تهديدٍ صريحٍ في قوّته. كانت تحمل بعض الأكياس الصغيرة. يبدو أنها تسوّقت ما تطبخه.انصرفتْ إلى المطبخ. ولكنها لم تكمل طريقها. رجعت إليّ وجلست

على حرف السرير. وضعت الأكياس على الأرض، وقالت: بالأول خليني أعطيك الدوا. كان الدواء في جيب سترتها.أعطتني منه حسب وصفة الطبيب. ونظرتْ إلى الوقت في ساعتها اليدوية. ثم رفعت الأكياس من الأرض وانصرفت إلى المطبخ. ألقيتُ إثرَها نظرة. ماذا أصابها؟ كانت تناكد مثل الأطفال. وفجأة ينقلب مزاجها مئةً وثمانين درجة. لم أفكر بالأمر كثيرا. هكذا النساء. قلت في نفسي. وقلت أيضا: سأعرف الأمر بعد قليل. سوف تبوح بالذي عكّر صفوها حتى من دون أن أطلب منها ذلك. هكذا النساء دائماً. كان لديّ أمرٌ آخرُ يشغلني. الموعد مع ليلى عصرَ هذا اليوم. يبدو أنني لن أستطيع موافاتها. ولن أستطيع الاعتذار أيضا، فالمرأة لا تملك جهاز موبايل. تركت الموبايل في المنزل الذي هجرته. تركت ساعتها اليدوية. تركت الإسورة الذهبية الوحيدة لديها. تركت صورة زفافها مع الشاب الذي تزوجت إليه، والذي اختفى قبل سبعة شهور. اختفى مع سيارة الأجرة التي يملكها ويشتغل عليها بنفسه. تركت المرأة كل شيء لحظة القصف العنيف على الحي المحاصَر. تمكنتْ من أمرٍ واحد فقط. أخذت الصبي والبنت وهربت باتجاه أحد الحواجز العسكرية التي تحاصر الحيَّ. الأمر بالنسبة إليها مقامرة، كانت تظنها، خاسرة. ولكن علّ وعسى!!. قلت لحالي هيك هيك ميتين.. هكذا فكّرتْ. هذا ما قالته لي. وقالتْ: طلع الضابط ابن حلال. أشفق على الطفلين وليس عليها. قال لها: اعبري. قالتْ لي: " شايف قديشو ابن حلال؟ ما كان قادر يقوصنا؟ بس ما عملها. تركنا نمرق. يكتر خيرو. والله رح ضل أدعيلو طوال ما أنا عايشة." سمعتُ طرطقة أوانٍ في المطبخ. أظنها كانت طرطقةً متعمدة. كانت البنتُ تريد أن تلفت انتباهي. هكذا اعتقدتُ. وأظن أنني كنت محقاً. كانت تحب أن أسألها: شو في يا بنت؟ فيصير لديها مبررٌ للمجيء إليّ والحديث بالذي يضايقها. ولكنني بدلاً من مناداتها طمرتُ رأسي تحتَ اللحاف. غير أنّ هذا لم ينقذني في شيء. فهأنذا أسمع وقع خطواتها يقترب مني. قالتْ: شو هالمطبخ هاد؟! قلتُ من تحت اللحاف: شبو؟ ناقصه شي؟ قالت: ليش عم تحاكيني من تحت اللحاف؟ ليش ما بتطلّع فيني؟ قلت: لأنك قالبة وجهك، وأنا ما بحب النكد، الله يعين اللي بدو يتجوزك! والله

لتعوفيه حياته! قالت: بس أنا ما بدي أتجوز.قلت: هاي الكلمة سمعتها من بنات كتير قبلك، وكلهن طلعو كذابات. جلستْ على حرف السرير من يميني، وقالت: على كلٍ مو هاد موضوعنا. قلت: بعرف - أنا الذي صار يحب النكد - موضوعنا المطبخ. شبو المطبخ؟ شو اللي مو عاجبك فيه؟ الشغّالة بتيجي كل عشرة أيّام، وبتخلي البيت متل الفلّة، وأنا بطبعي ما كتير بكوكش. قالت: واضح. المطبخ كتير مرتب. قلت: المطبخ كتير مرتب وحضرتك متعودة عالفوضى! رفعتِ اللحافَ عن رأسي، وقالت: طَلّع فيني. لم أستجب لطلبها. أمسكتْ بذقني غير الحليقة، وأزاحتْ وجهي نحوها بحركةٍ قاسيةٍ في نعومتها. شعرتُ بكل حنان الدنيا من لمسة يدها. من اللطف الذي في أصابعها الرقيقة. وجدتني أفتح عينيّ مرغماً. نظرتُ إليها. كانْ قد عادَها الحزنُ مرةً واحدة. أمسكتُ بكفّها التي مازالت على ذقني بعد. قبّلتُ ظاهرها كما لم أقبّل يدَ امرأةٍ في حياتي. وتأملتُ عينيها طويلاً قبل أن أسأل: شو القصة؟ قالت: هادا الدكتور كركبني. سألتُ: شلون يعني كركبك؟ بقصد ليش؟ قالت: إنت كنت بتعرف شو يعني عتبة الألم؟ قلت: أكيد مو أول مرة بسمع هالعبارة - وحاولتُ أن أكون مواسياً، فتصنّعتُ خفّة الدم، وأضفت - مو عبارة طبعاً. شبه جملة، مضاف ومضاف إليه، إلاّ إذا اعتبرناها خبر لمبتدأ محذوف، بهالحالة بتصير جملة اسمية، لكن وبكل الحالات هيّ مجرد مصطلح طبي، جميع الدكاترة بيستخدموه. قالت: أنا ما حسّيت هيك. ما هيك أنا حسّيت. بالأول شفته واحد أجدب. لكن بعدين لأ. وخاصة لمّا طَلّع فيني. كانت نظرته لإلي غريبة. حسّيت إنو مو دكتور اللي عم يحكي. قلّي هي القاعدة لا تنسيها طوال عمرك. فهمت إنو هادا واحد عرّاف، ومتل ما يكون عم ينبهني من وجع كبير ناطرني عَ الطريق. برأيك شو ممكن هادا الوجع يكون؟ - وصمتتْ لحظة قبلَ أن تسأل بصوتٍ مُضعضع من الانفعال: إنت مثلاً؟ قلت: أنا أو مو أنا، الألم جاي جاي. هي طبيعة الأشياء. طبيعة الحياة. وما منها مهرب. أنا شخصياً ما بعرف للحياة صيغة تانية. لذلك ما في داعي تستعجلي الأمور. إنتِ لسه بأول شبابك، وكل شي جاي بوقته: الألم، الحب، الموت، السعادة. الحياة فيها كل شي. وإذا بدك خلاصة تجربتي،

جمل شي بالحياة هو الحياة نفسها، وألعن شي بالحياة هو الحياة نفسها، فعيشي حياتك على مهل، ولا تستعجلي اللي عَ الطريق. كانت كفها الصغيرة ناعمة ما زالت في راحة يدي. قبّلت ظاهر الكف من جديد لعلّني أبعث في روح البنت بعضاً من طمئنينة. قلت مبتسماً: شو صار بالشوربة؟ قالت: عالنار. بدها شوية وقت كمان. كيف حاسس حالك؟ قلت: يمكن بلشت تحسن. بس أنا إلي عندك أمانة.سألتْ: أمانة شو؟ قلت: علبة السجاير والولاّعة. قالت: كم سيجارة بتدخن باليوم؟ قلت: ما بعرف أحسبها باليوم. أنا بحسبها بالساعة. أظن بدخن بالساعة ست سيجارات، يعني بمعدل سيجارة كل عشر دقايق. قالت: عال! اعتباراً من اليوم رح تصير تدخن كل ست ساعات سيجارة.طوال ما أنا هون هيك رح تكون القاعدة. قلت: شو يعني طوال ما رح تكوني هون؟ قالت: هون يعني بهادا البيت. قلت: وين بدك تنامي؟ سألتْ: ما في غرفة نوم تانية؟- ولم تعطني وقتاً للجواب - ولاّ لشو؟ بيكو التخت عريض. - ما فهمت.بدك تنامي معي بتخت واحد؟ - وين الغلط؟ - وضحكتْ - ولا خايف على حالك مني؟ قلت: لأ ماني خايف على حالي منك، ولا خايف عليكي من حالي.خايف علينا نحن انتنين.سألتْ: من شو؟ قلت: افترضي حدا من الجيران بلّغ الشرطة عن وجودك ببيت رجل عزابي، ساعتها شو؟ ضحكتِ البنتُ، وقالت: عن جد خايف من هيك شي؟ قلت: طبعاً، خايف على سمعتك. رجعتْ تضحك من جديد. ليش عم تضحكي؟ سألتها. قالت: حكاية متل هي بتعرف شو راسمالها عند الشرطة؟ قلت: لأ ما بعرف.قالت: أكيد بتعرف، مع ذلك رح قولك، بيجبروك تتجوزني، يعني القصة بتنحل بربع ساعة، ويا دار ما دخلك شر. هذه المرّة جاء دوري أنا بالضحك. راحت البنتُ تتأملني. سألتني: ليش عم تضحك؟ وفي الحقيقة أنني لم أكن أعرف لماذا كنت أضحك. قلت لها: اسمعي يا رشا! في موضوع مهم بدي أحكيه معك.- صمتُ لحظةً، والبنت أصغت بانتباه - أنا عندي حساب بالبنك. قالت: أكيد عندك حساب بالبنك، ويمكن يكون حساب كبير، أقل منها يعني بعد كل هالمسلسلات اللي كتبتها للتلفزيون؟ قلت: يا ريت ما تقاطعيني! قالت: أمرك! قلت: على كل حال،

ما عاد حساب كتير كبير، متل ما بتعرفي، ما عم أشتغل. قبل كام سنة كان حساب كبير. كان من ثمانية أرقام، هلأ ما عاد من ثمانية أرقام. وبغضّ النظر عن حجم المبلغ الموجود، أنا بدي تشاركيني فيه. - شو؟! قالت والدهشة تنضح من جميع وجهها، ولعلّ أفكارها قد ذهبتْ بها إلى البعيد. قلت: بدي تشاركيني بالمبلغ. قالت والدهشة تعقد لسانها: بدك تشتريني؟ معقول إنت؟ ما أنا عم أعرض عليك إنو نام معك بتخت واحد! ولاّ كنت مفتكرني عم أمزح؟ أنا ما عم أمزح. وخلعتْ سترتها، وخلعت الكنزة، وخلعت القميص أيضاً.بعجالة كانت تفعل ذلك. امتدّت يداها إلى ظهرها لتفكّ عقدةَ حمّالة الصدر. صرختُ بها: شو عم تعملي؟! قالت، وكان صوتها يختنق بغصّة الخذلان: بدي أثبتلك إنو ما بدي منك فلوس. وخلعتْ حمّالة الصدر، فطمرتُ رأسي باللحاف. قالت: ليش عم تخبي وشك؟ ليكني قدامك، عم أشلح البنطلون.قلتُ لها من تحت اللحاف: إنتي وحدة حمارة. عرفتي شو إنتي؟ حمارة، حمارة، حمارة. صرختْ بي: حيّرتْ سماي! شو بدك؟. قلت من تحت اللحاف طبعاً: البسي تيابك بالأول، بعدين بقولك شو بدي، البسي فوراً ونزلي الأباجور، وشغلي الشوفاج، وعطيني إشارة، وإلا رح ضل مغطّي راسي لتمشي من هالبيت، وما عاد بدي شوربة، امشي فوراً.. والله ما عدت فهمت عليك شي.تمتمتْ وهي تعاود ارتداء ثيابها. ثم راحت تنفذ بقية أوامري: الأباجور، الستارة، الشوفاج. عادت واقتربت من السرير. جلست على حرفه من يميني، وقالت بصوتٍ مكسور، وبصيغةٍ تقريرية صارمة، رغم البؤس البيّن في ثنياته: عم أسمعك.رفعتُ الغطاء عن رأسي، واعتدلتُ برقدتي حتى صرت نصف جالس، ورحتُ أتأملها. رأيتها بائسةً تماماً. من المؤكد أنها كانت تتعذب. روحها تزأر بمقاومة الخيبة والألم. لعلّها كانت تخاف مني! لعلّها كانت تخاف عليّ! كان واضحاً لي بالعين المجردة أنها تعاني فرطاً في العواطف المائجة. اصطكّت أسناني بقشعريرةٍ مفاجئة لا أعرف إن كان مصدرها السخونة التي في عظاميَ المريضة، أو إنْ كان الخوف الذي تملّكني من رؤية البنت على تلك الحال المتهدّلة.انطبقتْ رموشُ عينيها إلى بعْضٍ أمام نظرتي المتأملة. ما الحكاية؟ سألتُ في سري. أتراها تهْرب من لقاء

العين بالعين من بعدما فضحها ضعفُها أمامي؟ أو من بعدما لمحتُ نهدين صلبين متوثبين في صدرها الجميل عارياً من قبل أن أدفن رأسي باللحاف؟ مددتُ كفي أطلبُ كفها. أعطتني ما أردت، ولكن من دون حماسة، ومن دون حتى أن تفتح عينيها. رجعتُ أقبّل ظاهر كفها. لا أظنها قد تأثرت بمبادرتي هذه، رغم ما فيها من نيةٍ صادقة بالمصالحة. كان في وجهها لامبالاةٌ ممزوجةٌ بدهشةٍ من كل الذي جرى، أو حتى بخيبةٍ مني ومن نفسها، وفي عينيها كان ثمة بللٌ رقيق. مددت يدي المحررة إلى وجهها أمسح آثار البلل من أطراف عينيها، وهمستُ لها أقول: أنا آسف! لم يتحرك فيها شيءٌ أمام هذا الاعتذار الذي قدّمتُه لها عن ذنبٍ لم أرتكبه. قلت في نفسي: إذن يجب كسرُ الحواجز كلها، وبضربةٍ واحدة. قلت: بالمناسبة، عندك صدر جميل. وأظنها شبه ابتسمت، ولكنها ظلت مطبقةً رموش عينيها، وقالت بصوتٍ واهن: بعرف. الصوت واهنٌ، رغم الفرح الذي لا يخفى في طيّاته على ذئبٍ عتيقٍ مثلي. قلت: أكيد بتعرفي، أنا اللي ما كنت بعرف. وظلّت صامتة. إذن، ضربتي لم تكن موفقة بما يكفي. يبدو أنّ خبرتي بالنساء صارت في تناقص ملموس. ما العمل؟ قلت: اسمعيني يا رشا! ولم تفتح عينيها. سألتُ: هل تسمعينني؟ أومأتْ لي أن نعم. قلت: أنا لم أدفع النقود يوماً لامرأة مقابل جسدها. بل إنني أكره هذا الأمر. أبغضه. أمقته إنْ شئتِ. هل تعرفين لماذا؟ لأنني أرى فيه استغلالاً للنفوذ. إنْ كانت المرأة في حاجة إلى نقود، فأنتَ أمامَ أحد خيارين: إما أن تساعدها من دون مقابل، أو أن تتركها وشأنها وتمضي في حال سبيلك. لم أسلك يوماً طريقاً ثالثة. فكيف أسلكها اليومَ وأخون واحداً من أكثر مبادىء حياتي رسوخاً؟! وأخونه مع من؟ مع البنت التي لم تنم الليلَ من شدّة خوفها عليّ بعدما سمعتْ صوتيَ المريضَ على الموبايل. أنتِ يا رشا شخص قريب إليّ. أنتِ شديدةُ القرب إليّ، إلى قلبي، إلى نفسي. لقد اشتهيتُ جسدك مرّة. أعترف. وقد أشتهيه مرّةً ثانيةً وثالثة. لست أدري. ولكنني لن أدفع لك نقوداً مقابل هذا الجسد، أو هذه الشهوة.لن أخون نفسي. لن أمارس استغلال النفوذ فيما تبقى لي من أيام في هذه الحياة. ابتدأتُ حديثي معك عن النقود ومن النقود لأنني كنت أريدَ أن

أصل بك إلى نقطة بعيدةٍ عن جمال نهديك. - وابتسمتُ - على كل حال، ربّ ضارّةٍ نافعة! فقد رأيت اليومَ منظراً جميلاً قد يساعدني في تجاوز هذه الكآبة وهذا المرض. شكراً لكِ! وشكراً لسوء التفاهم.يبدو أنه يكون ذا جدوى في بعض الأحيان. وهنا انزاحتِ الرموشُ الطويلة السوداء عن بعضها بكسلٍ مِغناج، وآثارُ البللِ مازالتْ عالقةً في الأهداب. قلت: هل أتابع؟ أومأتْ لي بعينيها الوسيعتين أن نعم.قلت: سوف أبوح لك بسرٍ ليس مهمّاً. أنا، وقد تتفاجئين، لم أتحرش يوماً بامرأة. أبداً. لم أكن البادىء في أية علاقة نسائية. لم أكن المبادر إلى تلك العلاقة.كنت أستجيب أو لا أستجيب. هذا أمرٌ آخر. ولكنني لم أكن صاحب المبادرة مع أيٍ من النساء اللواتي عرفت في هذه الحياة اللعينة. ما أقوله لا يندرج في بند الغرور. أقول حقيقة ما جرى لي مع الجنس اللطيف.هكذا الله خلقني، وليس عندي اعتراضٌ على حكمته.. لم أكن واثقاً من أنها تسمعني باهتمام. ربما كان فكرها مشغولاً بأمرٍ آخر. لعلّها كانت تحاكم سلوكها الذي كان قبلَ قليل! أظنها كانت تبذل جهداً مضنياً لتقنع نفسها بصواب التعري الذي مارسته. ربما كانت تجلد ذاتها وهي تجد نفسها فريسةَ نوعٍ من الندم ثقيل الوطأة على أصحاب النفوس الرقيقة. لكنّ البنتَ خيّبتْ ظنوني من جديد. يبدو أنني بدأتُ أفقد الخبرة الكافية ليس في النساء فقط، بل في الحياة وأشيائها المختلفة، فقد اكتشفتُ فجأةً أن البنتَ كانت تستمع إليّ بحواسها جميعاً. وأنها كانت متأثرةً بما أقول. فقد ارتمتْ عليّ من فورها وأجهشتْ بالبكاء وهي تتمتم: أنا اللي آسفة. سامحني! بترجاك تسامحني! فهمتك غلط. قلتُ لها وأصابع يدي تمشط شعرها الثقيل: ابكي، ابكي. وعلى رأي أم كلثوم: بيريحني بكايَ ساعات. واضح إنك مقهورة. بس شو نعمل؟ الكل مقهور بهالأيام. وأردفتُ ممازحاً، لكن هادا ما بيعني إنك مو حمارة. ضحكتْ، ورفعتْ جسدها عن جسدي، وقالت: شو هي حمارة حمارة؟! ما عندك غير هالكلمة؟! قلتُ: حمارة لأنك ما سمعتيني للأخير.الناس اللي مو حمير ما هيك بيتناقشوا. قالت: تفضل إحكي، وما رح كون حمارة. قلت: رح أحكي، بس مو هلأ، بالأول اغسلي وجهك، وبعدين طعميني. جعت، ثم كلّه على بعضه صحن شوربة، يعني حلّو

يستوي، مانو خاروف مكتّف. ابتسمتْ، وقالت: صح، كلّه على بعضه صحن شوربة، بس رح يكون أطيب صحن شوربة بتدوقها بحياتك. ونهضتْ وانصرفتْ لتحضر لي أطيب شوربة خضارٍ تناولتها في حياتي فعلاً. شوربة خضار ساخنة بلحم الدجاج. تناولنا الطعام سويّةً. جلسنا متربعين على السرير حولَ صينيةٍ كبيرة. قالت لي: بعد الأكل بدي أعمل دوش. صرلها أسبوع المَيّة مقطوعة عندي بالبيت. سخنت القازان، بس بدي بيجاما. قلت: البيجامات اللي عندي كلها رجالية. قالت: مو قصة. قلت: شو بتعرفي تطبخي غير الشوربة؟ قالت: عرفت نسوان كتير بحياتك؟ - ولك وبعدين معك يا بنت؟! بسألك من الشرق بتجاوبيني من الغرب!! -إي شو كفرنا؟! -لأ ما كفرتي. انهبلتي.ثم تعالي نغير الموضوع. دراستك شلون؟! - دخيلك على هالدراسة! - ليه من شو بتشكي؟ اللغة العربية بحر، أو حتى محيط. اختصاص متل أي اختصاص تاني. - دخيلك على هالاختصاص! ممنوع إدخال حرف على حرف. شو أهمية إني أعرف هالقاعدة؟! - ما فهمت. شو هو الممنوع؟ - يعني بدك تعمل حالك غشيم؟! ممنوع في اللغة العربية دخول حرف على حرف. - مين قال هالحكي؟ - الدكتور. - أنو دكتور؟ بقصد شو اختصاصه؟ بس ما يكون دكتور الأسنان اللي جبتيه يعالجني من الأنفلونزا قام كركبك بعتبة الألم!- أنو دكتور الأسنان إنت التاني؟ دكتور بالأدب العربي. أستاذ عنّا بالجامعة. - عم تحكي جد؟ - شو هالسؤال؟! يعني أنا من وين بدي جيب هيك معلومة؟ - إذن، دكتورك هادا حمار يا رشا! - ليش حمار؟ - مين بيعرف لغة عربية أكتر من التاني؟ دكتورك ولا عنترة مثلاً؟ - شو هالسؤال؟! أكيد عنترة. - إذن دكتورك حمار. وأكيد أكيد أكيد مانو قارىء معلّقة عنترة، وإلا ما كان قال هالكلام السخيف اللي أبصر من مين سمعانو قام اعتبره قاعدة. - هلأ إنت ليش عم تشوشني؟ - أنا عم نوّرك، ما عم شوشك. بتتذكريها معلّقة عنترة؟ - طبعاً. - بتتذكري أول بيت فيها؟ - طبعاً. - شو بيقول؟ - هل غادر الشعراء من متردم / أم هل عرفت الدار بعد توهم. - أمْ يا رشا حرف، وهلْ يا رشا كمان حرف، وعنترة قال: أم هل، دعم حرف الاستفهام بحرف استفهام، والنتيجة كانت رائعة، فعن

شو عم يحكي دكتورك؟! لمّا عنترة قال هالشعر التحفة ما كان في قواعد للغة العربية. أصلاً القواعد انوجدت منشان نحافظ على لغة عنترة.القواعد بعد اللغة، واللغة قبل القواعد اللي انوضعت أساساً بالاستناد للكلام اللي كانت العرب تحكيه من أيام الجاهلية. والعكس مانو صحيح ولانو منطقي. عرفتي هلأ ليش دكتورك هادا حمار؟ - يا الله كيف هدول الناس بيجيبوا شهادة الكتوراة؟! - أشتريلك وحدة بكرا؟ - شو عم تحكي؟! - ما عم أحكي. عم أجاوب عن سؤالك. - لا تشتريلي ولا أشتريلك. بدي آخد دوش، بس بدي بيجامة. - البيجامات اللي عندي متل ما قلتلك رجاليّة، لكن دافية، صوف. بتلاقيهن بالخزانة، عَ الرف الفوقاني. كنا قد انتهينا من الطعام. رفعتِ البنتُ الصينية وانصرفت إلى مشاغلها، من دون أن تعيد إليّ الأمانة. حتى إنها أخذت حقيبتها اليدوية معها إلى الحمّام. ما هذه الطاغية؟! سألتُ نفسي وأنا أموت من شوقٍ إلى سيجارة. تمددتُ في الفراش. سوف يفوتني الموعدُ مع ليلى عصرَ هذا اليوم. لن أكون قادراً على موافاتها. ما زلتُ ضعيفاً.وحتى لو حاولتُ ذلك فإنّ هذه الطاغيةَ الصغيرة التي تحتلني لن تسمح لي بمغادرة الفراش. سوف تقفل الباب وتخفي المفتاح عني. سوف تنتظرني المرأة على الرصيف أمام ال (ميني ماركت) حيث التقينا أول مرّة عندما اعترضتْ طريقي تريد المنظفات. مشترياتي الكثيرة يومئذٍ لفتتْ انتباه بعض الزبائن. لم يفهموا لماذا أخزّن كل هذه المواد، فالتهديد الأميركي بالضربة العسكرية قد تلاشى. ما الداعي إلى التخزين إذن؟ إلا إنْ كنت قد سمعتُ نبأً لم يسمع به الآخرون حولَ التهديدات الأميركية. حتى إنّ أحدهم قد سألني: في أخبار جديدة أستاذ؟ لم أفهم عن أيّ شيء كان الرجل يسألني. قلت: أخبار شو؟ قال: الأميركان. قلت: شبهن الأميركان؟ قال: رجعوا يهددوا؟ قلت: ما أظن. اللي سمعته إنو أوباما مو فاضيلنا. عم يلعب بالآي فون اللي اشتراه جديد. قال الرجل: الحمد لله!لازم نهديه غالاكسي إس فور.بيقولوا هادا لسه متطور أكتر من الآي فون. وابتسمتُ مما قاله الرجل، ودفعت قيمة المشتريات.لم يخذلني المبلغ الذي في جيبي، حتى إنه كان يزيد عن الحاجة بثلاثة آلاف ليرة. يا إلهي كم خسرنا في غضون سنتين!! كانت الآلاف الثلاثة أكثرَ من ستين

دولاراً.واليوم صارت ثلاثةَ عشرَ أو أربعةَ عشرَ في أحسن الأحوال. وفكرت تلكَ اللحظةَ: ما حاجتي إلى هذه الآلاف الثلاثة السخيفة؟ وضعتها بين المشتريات على نحوٍ يمكن العثور عليه من دون عناء، وخرجت إلى الطريق. كانت ليلى تقف مستندةً إلى جذع شجرة تكاد أن تكون يابسة. لم نعد نعتني بشيء. كانت دمشق مدينة الخضرة. يبدو أنها سوف تصير عمّا قريبٍ مدينةَ اليباب. اقتربت منها حاملاً الأكياس العديدة. قدمتها لها. قالت: شو هاد؟!! وأظن أنّ عشر إشاراتٍ من التعجب ليست كافيةً في وصف دهشتها.قلت: شوية شغلات منشان البنت والصبي. وقفتْ حائرةً مترددةً في قبولها. أظنني انتهرتها. قلت: هي الكياس تقيلة، وأنا ماني شب، إنتي الصبية.شبك؟ ما عاد في نخوة؟! وقد أتت الانتهارةُ أُكُلَها. سارعتِ المرأة تأخذ عني الحِمْلَ الذي تظاهرتُ أنني أنوءُ به. وأكثر من ذلك، فقد قالت لي: يسلموا إيديك عمو! والله يكتر من أمثالك! قلت: روحي حممي الولاد وطعميهن. الله معك. وانصرفتُ من دون أن ألتفت إليها. ومن دون أن يخطر لي على بال أنني سوف أراها في اليوم التالي. اعترضتْ طريقي مرةً ثانيةً في المكان عينه وفي الزمان عينه. لكنها لم تطلب شيئاً هذه المرّة، بل على العكس من ذلك تماماً. كانت تحمل لي في يدها شيئاً. قلت: كيف الولاد؟ قالت بيتشكروك كتير، باعتينلك هدية. وقدّمتْ لي كيساً من النايلون. سألت: شو هاد؟ قالت: قميص، قميص شتوي، بيدفيك، واضح إنك ما عم تهتم بحالك. قلت: كيف يعني ما عم أهتم بحالي؟ ليكني لابس جاكيت وكنزة. قالت: مضبوط، بس القميص اللي تحت الكنزة مانو شتوي، لذلك الولاد بعتولك هادا القميص. وابتسمتُ في سري، فهل رآني الأولاد أصلاً؟ قلت: ولك يا بنتي يا. ..بالمناسبة، شو اسمك؟ قالت: ليلى، اسمي ليلى. قلت: يا بنتي يا ليلى أنا بدي منكن هدايا أنا؟! معقولة إنتي؟! قالت: هادا اللي صار. قلت: على كلٍ يسلموا إيديكي. بوسيلي الولاد وتشكريهن عني. قالت: كنت خايفة إنو ما شوفك، بس الهيئة إنك بتمرق كل يوم من هادا الطريق. قلت: صحيح، بطلع بتمشى، هيك بدو الطبيب. قالت: أصبح يا ريت تدير بالك على صحتك. قلت: حاضر، بأمرك أنا. قالت: صرت أعرف وين بلاقيك وإيمتى،

بترجاك تدير بالك على صحتك! أومأتُ لها برأسي أنْ حاضر. قالت: خليني أرجع للولاد.قلت: الله معك يا ليلى! وانصرفتْ تعبر الطريق. ولكنها عندما وصلت إلى المُنَصَّف التفتتْ إليّ وقالت: نسيت أتشكرك على علبة الدخان. كنت رح موت على سيجارة. أومأتُ برأسي كمن يقول: لا شكر على واجب. وبقيتُ واقفاً في مكاني أنظر إثرَها تصعد في إحدى الطرقات الفرعية إلى واحدة من العشوائيات التي نمت وترعرعت على سفح الصخرة العملاقة التي اعتدنا أن نسميها جبلاً، واعتدنا أن نسمي الجبل قاسيون. بقيتُ أنظر إثرَها حتى اختفت لديّ من مجال الرؤية. عندئذٍ ألقيتُ نظرة على الكيس في يدي.تناولت القميص منه. كان سميكاً. كان أزرقَ اللون. وكان سعره: ثلاثة آلاف ليرة سورية.. خرجتْ رشا من الحمّام ترتدي برنساً، وتلفّ شعرَها الثقيلَ بمنشفة.قلتُ لها: نعيماً! قالت: لا ترشيني، ما صار وقت السيجارة. قلت: ولك يا بنت إنتي في حدا مسلطك عليّ؟ قالت: إنت ثروة قومية ومن واجب الجميع إنو يحافظ عليك. وضحكتُ من هذه النكتة، فأية ثروةٍ قومية أنا الذي صار كاتباً فائضاً عن حاجة الناس؟! قالت كمن يردُّ على ضحكتي وهي تنشّف شعرها من البلل: ما عندك منتج تلفزيوني أمر الله. المنتجين اللي كانوا يركضوا وراك هاجروا، وما فينا نلوم الناس بهالظروف هيْ، بس ليش ما بتقعد تكتب رواية؟ إيمت كانت آخر رواية كتبتها؟ قلت: من أربعتاشر سنة، وكانت أضعف رواياتي. - حتى لو كانت ضعيفة، أربعتاشر سنة كتير. كتير كتير. معقول ما عندك فكرة، موضوع، أي شي بيصلح يكون رواية؟! قلت: عندي، أكيد عندي. قالت: أصبح شو عم تنتظر؟! بصراحة إنت مقصر بحق حالك، وبحقنا نحن كمان. أكيد في ناس كتيرة عم تسأل بهالأيام العصيبة: وين المثقفين ولاد البلد؟ وين فلان وفلان وفلان؟ وحتماً اسمك بين هي الأسماء. أنا سمعت هالكلام من كل اللي بيعرفوا إني بعرفك وبشوفك. الكل بيقوللي: وينو صديقك؟ ليش مختفي؟ ليش صامت؟ قلتُ وأنا أتأملها: شو منتظرين يسمعوا مني؟- ما بعرف، بس بغض النظر شوُ ممكن تقول، الناس بدها تعرف رأيك باللي عم يصير. بوقت الهدوء والراحة اسمك ما كان ينزل عن الشاشة. كنت عم تحتل الناس ببيوتها. بينما بوقت

الشِدّة اختفيت. حتى صفحة عَ الفيس ما عندك. عندك شوية أطفال وبس. حلوين الأطفال، ومن واجبك تهتم فيهن، لكن اللي عم يصير بالبلد أكبر بكتير من شوية أطفال. قلت: الفيس مو شغلتي، أنا ماني رجل إعلام. قالت: لذلك اقعد اكتب رواية. هي شغلة بتفهم فيها. تجربتك بهالمجال مانها زغيرة. وفتحتُ أبوابَ خزانة الملابس، وأخذتُ من على الرف العلوي واحدةً من بيجاماتي الشتوية، ورجعتُ إلى الحمّام من بعد أن قالت ما لديها حول غيابي عن المشهد العام في البلد، ومن دون أن تدري أنّ ما قالته لي قد جالَ في خَلَدي عشرات المرّات.السؤال وحدَه كان يخيفني: إنت فلسطيني، شو دخلك؟! يخيفني السؤالُ وليس أيّ شيء آخر، فأنا أملك الخبرة الكافية لكتابة رواية عما يجري في سوريا من مأساة متفردة في تراجيديتها. أنا أملك الأساس المتين الذي يخولني الذهاب بعيداً في الصراع مع نظريات الدرامة. في المرّة السابقة ارتكبت خطأً أو خطأين. سوف أعاود النزال حين أصحو. في المرّة الماضية نسيت أهمّ العناصر. نسيت التاريخ. في المرّة القادمة لن أنساه. وسوف أصل إلى الهدف المنشود. إنني قادر على تجاوز الخطأ الذي ارتكبت. تتلمذتُ على أستاذٍ كبير. كان مرشحاً للحصول على مقعدٍ في الأكاديمية السوفياتية التي من غير المسموح أن يتجاوز عددُ أعضائها ثلاثمئة. كان مرشحاً بقوة لحمل لقب أكاديميك. ولكنّ الموت سبق تلك اللحظة بثلاثة شهورٍ فقط، فبعد ثلاثة شهورٍ من وفاته شغر أحد مقاعد الأكاديمية. ثلاثمئة رجل يسيّرون في مختلف الاختصاصات شؤون دولة عظمى بحجم الاتحاد السوفياتي. يهودياً كان أستاذي الذي حملتُ اسمه طوالَ سنيّ الدراسة. كبير الأساتذة. فيدور ميخايلوفيتش. في سنتي الأولى في المعهد كنت أعاني رُهاباً فظيعاً من كون كبير الأساتذة يهودي. كنت أومن بأنه سوف يطردني من المعهد ذاتَ يوم، لا لشيءٍ سوى لأنني فلسطيني. هو الأستاذ الوحيد الذي يحق له أن يفصِل أيّ طالب من دون أن يناقشه في الأمر أحد، فهو أستاذ مادة الاختصاص. لو رسب الطالب في أية مادة غير الاختصاص يكون من حقه أن يتقدم للامتحان مرةً ثانية، وثالثة، ورابعة. أما الرسوب في مادة الاختصاص (واختصاصي كان السيناريو) فهذا يعني الفصل أتوماتيكياً. بدأنا

الدراسة أربعةَ عشَرَ طالباً.العام الأول مرَّ بخيرٍ على الجميع.في العام الدراسيّ الثاني، وفي نهايته تحديداً، تم فصلُ أحدِنا.كان يهودياً.والذي فصله هو كبير الأساتذة اليهودي الذي تجاوز السبعين من عمره. كان، رغم مرض قلبه، ورغم زحمة أشغاله، يتفرغ لطلابه يومين كاملين في أيام الأسبوع الستة. يوم السبت لم يكن عطلة في معهدنا. كان اسم ذينك اليومين: (الورشة)، وكانا: الإثنين والخميس.وكان الأستاذ يبحر بنا في الورشة عبر محيط تجربته المهنية التي شارفت على نصف قرن من الزمن. لم يكن يبخل علينا بمعلومةٍ مهما كانت صغيرة أو كبيرة. وكان يسعد بأسئلتنا كما يسعد الأب باستفسارات أطفاله وهم يكتشفون أشياء الحياة من حولهم. كان أباً بمعنى كلمة الأب المباشر. وكان أستاذاً بمعنى كلمة الأستاذ المباشر. كان يقول لنا: إياكم أن تبدأوا الكتابة من المجردات! إياكم أن تبدأوا الكتابة من الأفكار، ففي مثل هذا النوع من الكتابة سوف تقعون في الحفرة الكبيرة التي سوف تكتشفون فيها كمية هائلة من الإضجار للقارىء وللمشاهد على حدٍ سواء، لا لشيء سوى لأنكم تكونون قد ابتدأتم الكتابة من النهاية. سوف تكونون عبيداً للفكرة، وسوف تنفقون كل طاقتكم من أجل أن تبرهنوا على صحة تلك الفكرة التي هي على الأغلب لا تعني القارىء أو المتفرج في شيء.أفكاركُم المجردة اكتبوها مقالةً في جريدة.هناك مكانها المناسب، أما هنا فلا مكان لغير الحياة: الرجل، المرأة، وما يحيط بهما.ابدأوا الكتابة من شخصٍ ما تعرفونه، من حادثةٍ ما وقعتْ أمام أعينكم، أو حتى وقعتْ على مسامعكم. اخلقوا الشخصية الغنيّةَ بسلوكها ثم اتركوها تتصرف على سجيّتها، وأنا أضمن لكم أنّ شخصيةً كهذه ستقوم بالعمل المطلوب نيابةً عنكم. في أحد أيام (الورشة)، وفي استراحة بين محاضرتين قال لي: لا تذهب للتدخين، أريد أن أتحدث معك. قلت: بأمرك حضرةَ البرفسور! خرجنا من القاعة وذراعه تحيط رقبتي. ورحنا نتمشى في صالة المعهد الرئيسة التي تغصّ بأكثر من مئة شاب وصبيّة. قال لي: ما حكايتك مع أستاذة علم الجمال؟ يبدو أنها غير راضية عنك. وصفتك لي بأنك مشاغب. ما الحكاية؟ أعرفك صادقاً، فقل لي الحقيقة. قلت: الحقيقة حضرةَ البرفسور أنّ في معهدنا بعضَ الأساتذة الذين

لا يحبّون أسئلة الطلاب، كما لو أنّ الإجابة عن أسئلتنا هي من اختصاص أساتذة معهد الصناعات التحويلية. ضحك البرفسور. كثيراً ضحك من ردّي. قال: فقط؟ قلت: هذا هو شغبي فقط. قال: إذن، لا تخف، سوف أتدخل في اللحظة المناسبة، وسوف أحميك منها كما حميتك العام الفائت من أستاذ نظريات الدرامة. وكنتُ سعيداً لأنني أضحكته. قال: الآن سآتي إلى الأهم.أعرف بأنك تعرف أنني يهودي. قلت: نعم حضرة البرفسو إنني أعرف أنكم يهودي. - وتعرف بأنني أعرف أنك فلسطيني. - نعم حضرة البرفسور. - والآن أصدقني القول: هل أنت خائف مني؟ - لا حضرة البرفسور. كنت خائفاً من قبلُ نعم، أما الآن فلا. - ولماذا كنتَ تخافُني من قبل؟ - لأنكم يهودي ولأنني فلسطيني. - إذن هي الأفكار المسبقة كانت تحكم تفكيرك. - أظن هذا حضرةَ البرفسور.- ولماذا لا تخاف مني الآن فأنا مازلتُ يهودياً. وأنت مازلتَ فلسطينياً، ومستقبل هذا الولد الفلسطيني مازال في يد هذا الشيخ اليهودي؟ - لأنني أرى فيكم شخصاً نزيهاً. - هذا الإنشاء لا يقدّم ولا يؤخر. - ولكنْ هذه هي حقيقةُ نظرتي إليكم. - الدرامة هي تراكم مجموعة من الحقائق. الحقائق المختلفة طبعاً. لا يجوز تكرار الحقيقة الواحدة عدداً كبيراً من المرات بحجة مراكمة الحقائق. هذا التكرار يسلب الحقيقة قيمتها الحقيقية. ولكنْ أيةُ حقائق تلك التي يجب أن نراكم؟ إنها، في جميع الأحوال، ليست ما يشبه هذا الذي قلتَه الآن ووصفتَه بأنه حقيقةُ مشاعرك.هذه الحقيقة تنتمي إلى فصيلة المجردات، ولا يمكنها أن تؤثر بقارىء أو بمتفرج. لماذا لا تؤثر؟ لأننا كبشر لا نستطيع التعاطف مع ما هو ليس ملموساً. قد تدغدغُ المجرداتُ عقولَنا في لحظة غفْلة، ولكنْ من المحال أن تنفذ إلى قلوبنا، ولهذا سوف نجد أنفسنا مبتعدين عنها على نحوٍ آلي، أو، وهذا هو الأصح، نكون قد هربنا منها عمداً، وسرعان ما سوف نكتشف أننا سعداءُ بهروبنا هذا.- ماذا أقول إذن؟ - حسناً.. هل تعرف لماذا فصلتُ ذلك الطالب الذي أظنك تعرف بأنه يهودي؟ -أعرف بأنه يهودي، أما أسباب الفصل فليست سراً. لقد كان أداؤه في الورشة ضعيفاً. - أي أنه لم يكن موهوباً. - ربما كان قليل الموهبة. - إذن، فليذهب ويدرس الطب مثلاً،

فربما كان موهوباً في الطب، وبكلماتٍ ثانية: لقد ساعدتُه في تلمس طريقه الصحيح عندما فصلته من المعهد. طبيب جيد أو ميكانيكي جيد خيرٌ من كاتب سيء.- أظن ذلك حضرةَ البرفسور. - هل كان لك صديقاً؟ - لا. - ألأنه يهودي؟- لا. - ألستَ متعصباً تجاه اليهود؟ - لا حضرةَ البرفسور؟ - ما دليلك؟ - دليلي هو ريتا حضرة البرفسور، فهي يهودية أيضا كما تعلمون.- كيف علاقتك بها؟ - إنها بنت لطيفة وحلوة. - فقط؟ - ماذا أيضا؟ - وكيف لي أن أعرف ما لا أرى وأسمع؟ الذي أراه وأسمعه في الورشة هو أنّ هذه البنتَ مهتمةٌ بك. إنها تدافع عن شغلك بحماسة غريبة. من لا يعرفك ويحكم على شغلك من كلام ريتا يظن أن تولستوي قد رجع إلى الحياة. أسمعها دائماً تقول في النقاشات المختلفة: أضمّ صوتي إلى صوت حسن. ألم تلاحظ ذلك؟ - بلى حضرةَ البرفسور. الجميع لاحظ ذلك.- هل تتغازلان؟ - لا حضرة البرفسور. - ولكنك تقول عنها حلوة ولطيفة، وهي تميل إليك، فلماذا لا تتغازلان إذن؟. لماذا لا ترد؟ هل أنت خائف مني؟ - إنني متردد بالكلام. - ألأنها يهودية؟ - نعم حضرة البرفسور. - شكراً على صراحتك، ولكنني لستُ وصيّاً عليها. هي مجرد طالبة عندي. إنها مثلك تماماً، بل أنت أهمّ لديّ منها، فهي أقل منك موهبة. ثم إننا نتحدث حديث شباب. أنت ولد وسيم وموهوب، وهي بنت لطيفة وحلوة وتميل إليك.- نعم هي كذلك. - إذن، أين المشكلة؟ لماذا لا تتغازلان؟ - في الحقيقة حضرةَ البرفسور. لقد دعتني مرّة على العشاء في منزلها. كان والداها مسافرين إلى مكانٍ ما بعيد.كنت معها وحيداً في المنزل. كانت قد حضّرت طعاما شهياً.تناولنا الطعام في المطبخ على عادتكم هنا، وشربنا بعض النبيذ. - يا سلام! يبدو أنني سأسمع قصةً شائقة.فماذا حدث بعد العشاء والنبيذ؟ - انتقلنا إلى الصالون لنشرب القهوة مع الكونياك. كانت قد اشترت قنينة من الكونياك الفرنسي خصيصاً لهذه المناسبة. - ما هذا التخبيص؟! ضحك البرفسور وأضاف: من الواضح أنها هبلة، أو فلنقل مبتدئة في الغرام. - لماذا تظن ذلك حضرة البرفسور؟ -كيف لماذا؟! يبدو أنك أنت أيضاً مبتدىء وأبله. ربما كانت الشمبانيا في مناسبة كهذه أفضل، ولكن لا بأس

بالكونياك الفرنسي. خيارٌ ليس سيئاً.ثم ماذا حصل؟ -أظن أنه كان يمكن لنا أن نتغازل تلك الليلة. لست واثقاً ماذا كانت نوايا البنت من دعوتها إليّ على العشاء في منزلها. على أية حال، لم أتمكن من معرفة حقيقة تلك النوايا. - كيف؟ لماذا؟ - كان ثمة ما يدفعني إلى مغادرة ذلك المنزل فوراً. - وماذا يمكن لذلك الشيء أن يكون؟ - أرجو ألا تغضبَ مني حضرةَ البرفسور! - كنْ على ثقة تامة بأنني لن أفصلك من المعهد، وذلك لسبب واحدٍ فقط: إنني ألمح فيك موهبة، وهذا هو معياري الوحيد في الاحتفاظ بطلابي. والآن قل لي: ما هو السبب الفظيع الذي منعك من مغازلة ريتا؟ - علم إسرائيل حضرة البرفسور. كان علماً كبيراً معلقاًعلى أحد جدران الصالون في مواجهتي تماماً. وكان ثمة علمٌ آخر معلقاً على الحائط المقابل. أي إنني كنت أجلس تحت العلم الإسرائيلي.- ياه! إلى هذه الدرجة تكره النجمة السداسية؟- نعم حضرةَ البرفسور، فهي تذكّرني بأنني مغتَصَب. - يا لك من شقيّ! وللمناسبة إنني متعاطف مع شقائك يا ولدي. -شكراً على تعاطفكم حضرة البرفسور! - أنا أقول لك يا بني، وأنت تقول لي حضرة البرفسور!! لماذا لا تكون عادلاً يا ولد؟ - الدنيا مقامات حضرة البرفسور. أنتم مرشحون للقب أكاديميك، وأنا مازلت طفلاً بعد. - نعم إنك مازلتَ طفلاً، لو كنت أنا مكانك لما أعرتُ التفاتةً إلى العلم الإسرائيلي في حضور شابة لطيفة حلوة تدعوني إلى منزلها في غياب والديها. لو كنتُ مكانك لما أعرتُ التفاتةً إلى الجدران حتى لو كانت مملوءةً بصور هتلر وشعارات النازية المختلفة. هكذا تكون الدرامة الحقيقية. عليك أن تتعلم الدرس جيداً. على أية حال، إنك سوف تتعلمه مع الأيام. الكاتب المبتدىء هو بالضرورة قليلُ الخبرة. وربما كان في غنىً عنها لأنه يكون متسلحاً بشيء لا يقلّ عن الخبرة أهميةً. هل تعرف ما هو هذا الشيء؟ - لا حضرة البرفسور. - إنه البراءة. لكننا، للأسف الشديد، نفقد مع الأيام براءتنا، فنروح نتسلح بالخبرة لنعوض خسائرنا التي غالباً ما تكون جسيمة. والآن دعني أقلْ لك الآتي:أنا شيوعي، وزوجتي أيضاً شيوعية، وليس يوجد في منزلنا أية نجمة سداسية، ولكنّ هذا لا يعني أنني ضد إسرائيل، غير أني في الوقت نفسه متعاطفٌ مع آلام الفلسطينيين، وأعتقد بأنه

يجب حلُّ هذه المسألة بأقل خسائر ممكنة للجميع.لا تسألني كيف، فأنا لا أعرف هذه الكيف.الذي أعرفه هو أنّ السياسيين عموماً مجموعة من الأوغاد. لكن ؛ وللأسف يا بني، أنّ مصير البشرية في قبضة هؤلاء الأوغاد، وليس في قبضتنا أنا وأنت. والآن سوف أطرح عليك سؤالاً في الدرامة. أنا في هذه اللحظة أشعر بأنني أتحدث إلى ابني، إن لم يكن حفيدي.هل تشعر أنت بالشيء نفسه؟ - نعم. - كيف؟ ما دليلك؟ - الحديثُ الذي من القلب. - كلام فارغ.هناك من حولنا في هذه اللحظة مئة شاب وصبية، وجميعهم يعتقدون بأن علاقتنا أنا وأنت مثل علاقة أب وابنه، وهم لا يسمعون هذا الحديث الذي من القلب، فكيف عرفوا إذن أننا أبٌ وابنه؟ - الحقيقة أنني لا أعرف كيف عرفوا. - ما هي الدرامة؟. - الدرامة أن نضع المرآة أمام الطبيعة. - وماذا أيضاً؟ - الدرامة هي الحركة في الفراغ. - الفراغ بأي معنى؟ - الزمن. - نعم، في الفراغ، في الزمن، ولكنها حركة، ومستمدة من الطبيعة، أي من الحياة. وهذا ما أفعله أنا الآن وأنت غير منتبه، ألا تنتبه أخيراً إلى ذراعي التي تطوق رقبتك؟ فهؤلاء المئة من حولنا لا يسمعون ما نقول، ولكنهم يرون بأمّ أعينهم كيف يحنو الأب على ابنه بهذه الحركة البسيطة، بهذا الفعل البسيط جداً. الأفعالُ يا بني. الأفعالُ هي الحركةُ التي في الفراغ. تذكّر هذه الكلماتِ مادمتَ حيّا. وأرجو لك حياةً طويلةً، قليلةَ الآلام، تتراكمُ لديك فيها خبراتٌ تساعدك في تجاوز الصعاب من أمور هذه الحياة التي تظلّ حلوةً، رغم جميع لعناتها.. زمنٌ طويلٌ انقضى منذ تلك الأوقات التي كنتُ فيها بريئاً يا رشا. زمنٌ طويلٌ جداً اكتسبتُ خلاله من الخبرة ما يكفي لثلاثة أجيالٍ قادمة وتزيد. أستطيع أن أكتب روايةً جديدة. أستطيع أن أكتب عن هذه الكارثة التي شملتنا جميعاً. ولكنّ المشكلةَ ليست في الخبرة. المشكلة في السؤال المرعب الذي سوف يلقيه الجميع في وجهي: إنت فلسطيني، شو دخلك؟! السؤال المرّ الذي سوف أتعرض له ممن قد لا يتفق مع ما قد أقول. السؤال الذي طرحوه عليّ مباشرةً في أوقات السلم: إنت فلسطيني، شو دخلك؟! فكيف سيكون شكل السؤال في أوقات الدّم يا رشا؟! لاحظي معي يا رشا. من الذي لا يتدخل في هذه التراجيديا غير المسبوقة في

فظاعاتها؟! حاولي معي العدّ. روسيا، إيران، تركيا، الصين، فرنسا، الولايات المتحدة، السعودية، قطر، لبنان، العراق، بريطانيا، الخ. جميع السوريين يختلف مع بعضه حول تدخل هذا الطرف أو ذاك. ولكنّ جميع هؤلاء المختلفين سوف يتفقون ضدي أنا الفلسطيني حين أقول ما لا يعجبهم. ولا شيء يعجبهم يا رشا. لا شيء يعجبهم مني أنا، رغم أني ابنُ هذا البلد. ابنُ سوريا. سوريا التاريخية. وحجّتهم في عدم الإعجاب: إنت فلسطيني. وفي الحقيقة أنني لا أعرف معنىً لهذه الجملة الاسمية البسيطة. لا أعرف لها مكاناً من الإعراب، لا لشيء سوى لأنني أجهل السياق العام الذي تقع فيه هذه العبارة. أتراهم يقصدون القول: أنت لستَ من هذا الكوكب، كما قد يقول السيد باراك أوباما للشعب الأميركي إنْ حقق أولئك الأولاد الذين يتدربون في سانتياغو المعجزة التي قد يحققونها يوماً؟ مرحين رأيتهم، وسعدت بذلك المرح. إنهم يشبهون أولاد مخيم اليرموك. يشبهون الفتى عامر الذي ربّما كانت تتيه روحه في ظلمة البحور العميقة. نوع من التيه جديدٌ على التاريخ البشري. التيه الفلسطيني. الحقَ أقول لك يا رشا: الفلسطينيون لا يريدون هذا التيه. بل إنهم يبغضونه. ولكنْ ليس أمامهم خيارٌ مختلف عن هذا الخيار. التيه القسريّ.أو تراهم، أؤلئك المحتجّون عليّ، سيبررون حيادي القسري أيضا قائلين: أنت مخلوقٌ كونيٌ، فعليك أن تهتم بشؤون ثقب الأوزون والانحباس الحراري، وذوبان الجليد في القطب الشمالي، وما شاكل ذلك من مسائلَ لا تهتم بها أمةٌ بذاتها دون باقي الأمم، إذن، هي من اختصاص مَن كان مثلك كونياً، وفي هذا تنحصر صلاحياتك. فقط في هذا. لا شأن لك بالشأن السوري. لا شأن لك بالبراميل المتفجرة فوق البشر والحجر. لا شأن لك بالرؤوس الآدمية المعلّقة على أسنّة الرماح، وفي مختلف الميادين العامّة. لا شأن لك بالتعذيب، وبالموت تحت التعذيب. لا شأنَ لك بالموت جوعاً، أو بالموت خبزاً.. الموتُ خبزاً. مصطلحٌ جديدٌ سمعته مؤخَرَاً من منجزات المحرقة. وانتبهي يا رشا إلى أنني أستخدم كلمة المحرقة للمرة الأولى في وصف ما يجريِ في بيتنا السوري.. هل تعرفين يا رشا؟ إنني لا أحب كلمة وطن، لذا نادراً ما تسمعينها على لساني. أفضّل

كلمة بيت. بيتنا السوريّ. ولا أحبُّ كذلك كلمة التعايش. فهل الآخرون مرضٌ علينا أن نتعايش معه؟ إنه عيش مشترك. الناس تعيش ولا تتعايش.. وسوف يقولون أيضاً: لا شأن لك بالموت جوعاً. لا شأن لك بالفلسطينيين ذواتهم. ولكنهم محاصَرون في مخيم اليرموك. إذن، لا شأن لك بمخيم اليرموك. أستطيع أنْ أكتب عن مخيم اليرموك أفضل من كتابتي عن أيّ مكانٍ آخر في العالم، وليس مردّ ذلك إلى أيّ تعصبٍ من أيّ نوع. لا. مردّ ذلك إلى كوني أعرف هذه الجغرافيا خيراً من أية جغرافيا ثانية، وأعرف أهلَ هذه الجغرافيا خيراً من أيِّ أهلٍ آخرين، فقد كنت شاهداً على هذا المخيم منذ نشأته أول مرّة. ثم إنّ في هذا المخيم قبرَ أمي. إذن لا شأن لك بأمك، ولا شأن لك بما كانت تؤمن به تلك العجوز التي تسميها أمك. لا شأن لك بالشمعة التي أوقدتها أمك في مقام (ستنا زينب). كيف هذا؟! فقد كنت لها مرافقاً في تلك الرحلة. كان أخي الصغيرُ أصغرَ من تلك الرفقة، وكان أخي الكبيرُ أكبرَ منها. فوقع اختيار أمي عليّ أنا. كانت المسافة، ومازالت، بين مخيم اليرموك وبين (ستنا زينب) عشرة كيلومترات. ولم يكن ثمة مواصلاتٌ من أي نوع بين المنطقتين. عشْرةُ كيلومترات ذهاباً ومثلها إياباً. عشرون كيلومتراً مشياً على الأقدام. مسافة كبيرة جداً بالنسبة إلى أيّ طفلٍ في العالم. ولكنني قمت بالمَهَمّة على خير وجهٍ، فكيف لا شأن لي بأبعد مشاوير طفولتي؟! إذن لا شأن لك بطفولتك. لا شأن لك بشيء. لا شأن لك برشا. ولكنها الآن عندي، إنها حبيبتي الصغيرة، فكيف لا شأن لي بها؟هي الآن في الحمّام. لا أعرف ماذا تفعل بالضبط. ذهبتْ إلى هناك من أجل أن ترتدي البيجاما، ولكنها تأخرتْ في العودة إليّ. ربما انشغلتْ بتمشيط شعرها الثقيل. لا شأن لك بشعر البنت الثقيل. ولكنّ سجائري عند هذه الطاغية الصغيرة، فكيف لا يكون لي بها شأن؟!عن أيّ أمرٍ تريدينني أن أكتب يا رشا؟ أحبّ أن أكتب عنك. أحب أن أكتب عن ليلى. لديّ مشهد قد يكون افتتاحياً، وقد يكون رائعاً كذلك. أتصوره مشهداً استهلالياً مثيراً في روايةٍ أو في مسلسلٍ تلفزيوني، أو في فيلم سينمائي. المشهد الذي اعترضتْ فيه المرأة طُريقي على الرصيف من أجلَ المنظفات. ولكنْ ماذا بعد الاستهلال؟ سوف يفوتُني اليومَ لقاؤُها. مازلتُ

ضعيفاً، رغم الدواء، ورغم شوربة الخضار الساخنة. ولكن لا بأس. لديّ معها موعدٌ ثابت التجدد. فهي تعلم أنني أمرق على هذا الرصيف كلّ يوم. سوف تحضر إليّ غداً أو بعد غدٍ أو بعد بعد غدٍ. وسوف أسمع منها القصة التي سوف يقولون لي: لا شأن لك بهذه القصة. كيف لا شأن لي بهذه القصة وأنا فيها طرف أساس؟ فالمرأة لجأت إليّ أنا من أجل المنظفات. اختارتني أنا من بين جميع العابرين في الطريق. قالت لي: لا أريد نقوداً. أعادت إليّ الآلاف الثلاثة على شكل قميص يدفئني. نعم. ربما كانت تعيد إليّ النقود لا أكثر. ولكنْ ربما كان في الحكاية شيءٌ مختلفٌ أيضاً. إننا نتّهم النساء بالنكد في أيّة مناسبة، وفي كل مناسبة، وننسى ونتناسى أنهنّ أكثرُ منّا حرصاً علينا. ننسى ونتناسى أنهنّ يتمتعنّ بدقة الملاحظة، والإحساس الفائق بالمسؤولية، التي جوهرها الأمومة، حتى وإن كنّ صغيراتٍ بعد. كانت إحدى نساء الحياة تقول لي: أشعر بأنك مثل ابني. كانت تقول ذلك حتى ونحن نتغازل. وكنت أصدقها دائماً، فقد كانت مشاعرها مكشوفة أمامي. كانت تصغرني بستةَ عشَرَ عاماً. ومع هذا فقد كانت لي أمّاً. ولكنني لم أكن أباً لها، مع أنّ فارق العمر بيننا يسمح لي بذلك، من دون مواربة أو تلاعب بالألفاظ. حتى هذه الصبيّة التي ربما كانت الآن تمشط شعرها الأسود الثقيل بأناةٍ في الحمّام، فإنني لا أقول لها بنتي إلا من باب النداء فقط. الكلمة كلها تصير أداة نداء حسب. وهذا فارقٌ بيني وبينها جوهري. كل ما فعلتْه هي مذ سمعتْ صوتي المريضَ على الموبايل حتى مصادرة السجائر يتّسم بالمسؤولية، بالأمومة، بغضّ النظر عن أيّة مشاعر أخرى تختزنها تجاهي. وليلى لاحظتْ من وهلةٍ لا تعدو جزءاً من الثانية أنّ القميص الذي كنت أرتديه تحت الكنزة لا يليق ببرد هذه المدينة. وهكذا ضربتْ بالحجر ذاته أكثر من عصفورين. أعادت النقود، ودفئتني، وأبلغتني أنها ليست شحّادة، رغم أنني لم أتهمها بذلك. ارتكبتُ خطأً في لقائنا الثالث. كان يجب أن أرتدي ذلك القميص. كان يجب أن أقول لها شكراً، ولكن ليس بلساني، وإنما بارتداء القميص ذاته. غير أنني نسيت أن أفعل. لو كانت هي مكاني لما نسيتْ. وهذا فارقٌ جوهريٌ آخرُ بيننا.على العموم، كان اللقاء قصيراً، ورغم ذلك فإنني لا أستطيع الرهان على أنها لم

تلاحظ أني قليلُ الشكر، إنْ لم أكنْ عديمَه. حدثتني في ذلك اللقاء عن ذلك الضابط الذي سوف تظل تدعو له بالصحة وطول العمر لأنه أبقاها مع ولديه على قيد الحياة، كما لو أنّ وظيفة ذلك الضابط هي انتزاع حيواتهم منهم. وليس حمايتها! فعن أيّ شيءٍ أكتب يا رشا؟! ولك وينك يا بنتي؟ ناديتها من فراش المرض. بدك شي؟ جاءني صوتها من جهة الحمّام أو المطبخ، فهما في هذا المنزل متجاوران. قلت: لأ، بس بدي أتطمن إنك لسه عايشة. قالت: لا تخاف عليّ متل القطة بسبع رواح. وصمتتْ. ربما كانت منشغلةً بأمرٍ ما من أمور البنات التي نعتقد نحن الرجال غالباً بتفاهتها، من دون أن نلاحظ أنها لهنّ على درجة كبيرة من الأهمية لاستكمال أنوثتهن التي جوهرُها الأمومة الخالصة: الحب والمسؤولية الكاملة.عن أي شيءٍ أكتب يا رشا؟ إنني في الحقيقة لا أعرف. تناولتُ موبايلي الذكي من على سطح الكومدينو في يميني، وقد تذكرتُ موقع الأمس الذي يدعو إلى إحراق الفلسطينيين في الفيس بوك. مازال الموقع موجوداً، ولكنه يوجه نداء استغاثة إلى مؤيديه لأنه يتعرض إلى حملة تبليغاتٍ شرسةٍ من الفلسطينيين الكلاب المنتشرين حول العالم. ما الذي يحدث في سوريا تجاه الفلسطينيين؟ ما الذي يحدث عند السوريين تجاه أخوتهم الفلسطينيين؟ ولكي يكون السؤال غيرَ منقوص أجدني مضطراً على إضافة ما يلي: ما الذي يحدث عند الفلسطينيين تجاه أخوتهم السوريين؟ بعد خروج المقاتلين الفلسطينيين من لبنان عام 1982 كتب محمود درويش يقول: بيروتُ خيمتُنا الأخيرة. وجاء تعليق حنظلةَ على هذا الكلام سريعاً: محمود خيبتُنا الكبيرة. أعترف بأني كنت أميل إلى تصديق ناجي العلي، ليس كُرْها بمحمود درويش، ولكنْ حباً بحنظلة، لأنّ " حنظلةَ وحده يمثلني." لا منظمة التحرير الفلسطينية، ولا ياسر عرفات، ولا أحدٌ سواه، ولا أحدَ في الكون كله يمثلني سوى (حنظلة).غير أنني، قبل نحوٍ من عشْرة أيام، أيقنتُ بعبثية تلك الملاسنة التي حصلت بين اثنين من أهم صانعي المشهد الثقافي الفلسطيني، والعربي. كنتُ أجلس في مقهى هافانا مع أحد أصدقاء الطفولة البعيدة (نزح من مخيم اليرموك إلى بلدة قدسيا). وكنا نتحدث في أمور يغلب عليها الأسى: موت هذا، وهجرة ذاك من الأهل والمعارف

وقدامى الأصدقاء. وكنا، مع ذلك، نشرب القهوة وندخن السجائر، ونضحك من بعض الوقائع العجيبة التي تحمل البؤس بين طيّاتها، فشرُّ البلية يُضحك أحياناً. رنّ موبايل صديقي. نظر الرجل إلى شاشة الجهاز، وسرعان ما بدتْ على وجهه أماراتُ دهشةٍ ما. فتح الخط.كانت المكالمة عسيرة. من الواضح أنّ التغطية سيئةٌ جداً عند الطرف الآخر من الحديث، ما دفع صديقي إلى أن يرفع صوته، وينقل الجهاز من أذن إلى أذن، وينهض، ويغير مكان وقفته، ويكرر بعض الكلمات، ويؤكد أحياناً على بعض الحروف. سمعتُ كلماتٍ لم أستطع أن أربطها ببعضها في مشهدٍ واحد: سُكّر، حبل، شاي، اقتحام، الخ... انتهت المكالمة. قال صديقي وهو يجلس منهدّاً من الحديث الشاق: "عرفت من وين هادا الزلمة عم يحكي؟." "لأ." "عم يحكي من المخيم." مخيم اليرموك المحاصر بالجوع والنار منذ شهورٍ صارت كثيرة. "شو بدو؟" سألت. قال: "عم يسألني إذا تركنا بالبيت قبل ما ننزح عن المخيم شي بيتاكل. أي شي. رز، سكر، زيت، وخصوصاً الشاي. عم يقول إنو من تلات شهور ما شرب كاسة شاي، ونفسه قبل ما يموت، ويمكن يموت بأي لحظة، يشرب كاسة شاي سخنة. قلتله أظن بتلاقوا هيك شغلات." منزل صديقي ما زال سليماً في المخيم حسب إفادة المتصل. سألت: "وبعدين؟" "قلتله خدوا أي شي بتحتاجوه. بس كيف بدكن تدخلوا للبيت؟ قال: ما أناعم أتصل منشان أستئذنك إنو نقتحم بيتك. "وعطيته الإذن؟" "طبعاً.أقل منها؟! ومخيم اليرموك لا يبعد عن مقهى هافانا (حيث أجلس ألفّ ساقاً على ساق وأشرب قهوتي المفضلة وأدخن السجائر المستوردة) سوى أربعة كيلومترات أو خمسة على أبعد تقدير، ولكنها بدتْ لي مثلَ خمس سنين ضوئية. كأسٌ من الشاي.حُلمٌ يعزّ تحقيقُه. يا الله!!! حتى المجرمُ المحكومُ بالإعدام يُلَبّونَ له طلباً أخيراً. ولكنْ. ما باليد حيلة، فقد كانت الملاسنةُ بين الراحلين الكبيرين مجانيّةً تماماً، وعبثيةً تماماً، فلا بيروتَ خيمتُنا، ولا محمودَ خيبتُنا. وحدَها دمشقُ خيمتُنا الأخيرة. ودمشقُ وحدَها خيبتُنا الكبيرة. نعم، هذا ما يقوله الفلسطينيون عن أخوتهم السوريين: خيبتنا الكبيرة من بعد أن كانوا خيمتنا الأخيرة. هذا ما يفكرون به حول أخوتهم. فعن أيّ شيء

أكتب يا رشا؟ خرجتُ من الفيس وأنا في فراش المرض. أغلقت الموبايل. قلتُ بصوتٍ مرتفع: اعمليلي قهوة ورجعيلي سجايري، أنا ماني عبد عندك. سمعتُ ضحكتها. قالت من دون أن تتوقف عن الضحك: بنصحك تكون عبد عندي أنا. أنا أرحم من غيري بكتير. مين غيرك؟ سألتُ. قالت: لا تعمل حالك غشيم. قلت في نفسي: لا حولَ ولا قوّة إلا بالله! قالت من بعيد: سمعتك. رحت أسأل نفسي: من وين إجتني هالمصيبة؟ قالت: كمان سمعتك. قلت في نفسي أيضاً: أحاول أن أنام. قالت: لا تنام. هذه البنت تعلمُ الغيبَ أم ماذا؟ قالت: عم أعملّك زهورات. قلت: ما بحبها. قالت: مو على كيفك. بعدين مو أنا ماما؟ بدك تسمع كلمة الماما. طمرتُ رأسي تحت اللحاف. وأغفيتُ سريعاً. كانت إغفاءةً قصيرةً على نحوٍ غريب. لعلّها لم تدم أكثر من دقيقةٍ، أو بعضٍ من دقيقة. قالوا كم لبثنا. إنها تأثيرات المرض دون شك. ومن تأثيرات المرض أيضاً: فقدانُ الإحساس بالمحيط. مَنْ هذه البنتُ تكون؟ أم إنني صعدت إلى السماء وصرت في مواجهة الملائكة؟ من أنتِ؟ كدتُ أسألها. كانت ملاكاً على هيئة أنثى. امرأةٌ صغيرةٌ تفيض عافيةً ومَلاحةً. يا الله!! إنها هناء. قالت لي: متى ستأتي؟. اشتقت إليك كثيراً، وطال إليك انتظاري! قلت لها: أنا قادمٌ يا هناء! أنا قادم. أرجوك ألاّ تملّي الانتظار، أعرف أني تأخرت. سامحيني يا هناءة!! - هل سبّبتُ لك العذاب؟ - نعم، لقد تعذبتُ من بعدك. لقد تعذبتُ كثيرا. - فإلى متى سوف يطول عذابك؟ - من أنتِ يا هناء؟ قولي لي الحقيقة ولو بعد فوات الأوان.- أنا حمامةُ الأيكِ. - لا، بل غصّةُ العُمرِ أنتِ.. وفتحتُ عينيّ. كم لبثنا؟ رفعتُ عن رأسي الغطاء وكنت أتعرق. رأيتها تقف على بعد خطوةٍ من السرير أو نصف خطوة. سألتني بصوتٍ يفيض بالندم: صحّيتك؟ قلت: لأ ما صحّيتيني، ما بعرف ليش صحيت، ولا بعرف كيف نمت. كانت ترتدي واحدةً من بيجاماتي الشتوية السميكة، ولكنها كانت بيجامةً مكويّة، وأنا شأني شأن أغلبية الرجال العازبين لا أكوي البيجامات. وحدها الملابس الخارجية أرسلها إلى المصبغة. كانت ترتدي بيجامتي السماوية المفضلة لديّ. وكان هذا اللون يليق بها تماماً. كان وجهها وضّاءاً، وكانت عيناها أكثرَ بريقاً من أيّ وقتٍ مضى، وشعرهُا

الثقيلُ أيضاً كان أكثر غزارةً من أي وقتٍ مضى. كانت تقف حاملةً صينيةً صغيرةً عليها كأسان زجاجيتان يتصاعد منهما البخار. اعتدلتُ في رقدتي بأمرٍ من بريق عينيها. الطلب في تينك العينين واضح. تريد البنت أن تجلس متربعةً قبالتي على السرير كما فعلنا مع الشوربة. وهذا ما كان. قالت لي: كنت عم تحلم. - لا أعرف كيف دخلتُ في الغفوة. - كنتَ تتحدث إلى إحدى النساء. - حقاً؟ - نعم، أظن ذلك،امرأة ربما كان اسمها هناء.- ربما! لا أتذكر هذا الحلم.- لماذا تهرب دائماً عند الحديث عن النساء في حياتك؟ - لا، إنني لا أهرب.على أية حال، هناء لم تكن من نساء حياتي. - من هي إذن؟ حدثني عنها. قلت لها بعدما تناولتُ رشفةً من الزهورات الساخنة: لا أحبّ هذا الدواء. قالت: رجعتَ تهرب.- سوف أحدثك عن هناء. هذا وعد، ولكن ليس الآن.- متى إذن؟ - في وقت آخر. - يا سلام! هل تضحك عليّ؟ في وقتٍ آخر!! قد يكون هذا الوقت الآخر بعد سنة أو حتى سنتين، أليس كذلك؟ - لا، بل سوف يكون قريباً جداً. - اليوم. - حاضر، اليوم، بشرط أن تعفيني من تناول هذا الدواء. ضحكتْ. قلتُ لها: "عال! هذا يعني أنّ مزاجك رائق. إذن اسمعيني، ولكن اسمعيني للنهاية قبل أن تنطقي بأيّ حرف، اتفقنا؟ - أومأتْ بعينيها الحلوتين أن نعم. - ممتاز. أعود إلى موضوع النقود.أنا أملك حساباً بالبنك، وأنا أريد أن تشاركيني هذا الحساب. وأنا أيضاً لا أقوم بهذه الخطوة من أجلك أنت، بل من أجل نفسي. هل سبق أن كان لك حسابٌ في البنك ذاتَ يوم؟ -أومأتْ بهزة بالكاد مرئية من رأسها أن لا.- الأمر بسيط. ثمة شيء في نظام البنوك اسمه: حساب مشترك. وهذا ما سوف نفعله أنا وأنت. تصيرين شريكتي في هذا الحساب. ويصير من حقك أن تتصرفي بالمبلغ الموجود لديهم بكل بساطة، ومن دون أية مساءَلة من أية جهة. من المؤكد أنك تسألين نفسك: لماذا؟ الجواب على لماذا هذه سهل. إنني سوف أعتمد عليك في اللحظة التي لا تتكرر في عمر الإنسان مرتين. "
وكان عليّ ألاّ أصمت بعد تلك المقدمة التي بدتْ مقنعةً إلى الآن. صمتيَ المفاجىءُ منحَ الصبيّةَ فسحةً من الوقت للتفكير المضني. لقد بان ذلك في عينيها اللتين لم تعودا صافيتين تماماً. ظلّتْ تحدق في عينيّ راجيةً ألاّ أنطق

تلك الكلمة التي لم أستطع النطق بها بتلك البساطة التي ميّزتِ المقدمةَ المقنعة. ولكنْ لا بدّ مما ليس منه بدّ. قلت مرةً واحدة كمن يرمي عن كاهله عبئاً ثقيلاً: " القبر. هبطَ على البنت صمتٌ ثقيلٌ مرّةً واحدة. أظنها أصيبت بالبكم. هكذا بدتْ لي تلك اللحظة. ظلّت تحدق بي. كانت تفعل ذلك بثباتٍ عجيب، لدرجة أني لم أعد قادراً على الاستمرار بالنظر في عينيها. تشاغلتُ عن عناد نظرتها بشرب الزهورات التي أكرهها. وعندما استنفدتُ وسيلتي هذه للهروب من المواجهة معها، ورجعتُ إلى لقاء العين بالعين وجدتُ النظرةَ ذاتَها جاهزةًفي استقبالي. لعلّها كانت بتلك النظرة تقول لي: أنا أحميك من الموت، فلا حاجة بك إلى القبر. شبابي الفوّارُ كفيلٌ بتوفير الأمن والحماية من كل سوء ينتظرنا نحن الاثنين. تعال نتشارك في هذا وليس في حسابك البنكيّ، فهذا أمرٌ جدير بالمشاركة، وربما كان الأمرَ الوحيدَ الجدير بذلك. قلت قافزاً فوق جميع ما قرأت من أفكارٍ في العينين الوسيعتين: لم يبقَ لي في هذا العالم أحدٌ سواكِ يا رشا. الجميع رحل. وبقيتُ مثلَ السيف فردا.كلماتٌ شهيرةٌ غنتها السيدةُ فيروز، ولكنني في الحقيقة لا أعرف قائلها.. كنت كمن يستجدي الموافقة على طلب القبر المفاجىء. كنت كمن يستجدي ليس تعاطفاً، بل عطفاً. ولكنّ هذه الطاغيةَ الصغيرةَ التي تقابلني لا تعرف الشفقة. لا وجود لكلمةٍ كهذه في قاموس شبابها العامر بمفردات الحياة الفائرة. لم يكن قد تغير في نظرتها إليّ شيء. كانت كمن يردّ على ما أفكّر به حول قاموس مفرداتها. نعم، الحياة، وليس الموت. ومضيتُ أتوسلُها وأنا أفقدُ أسلحتي واحداً بعد آخر: بالأمس يا رشا. بالأمس في قلب الليل احتلّني الرعبُ من خشية أن أفقد حقي في العدالة التي كنت قد فقدتها في الحياة، فليس عدلاً أن أفقدها في الموت أيضاً. تصورت أنني مائتٌ بلا ريب، وبأنّ أحداً لن يعلم بموتي قبل عودة صديقي من السفر بعد شهرٍ وأربعة أيام. ماذا كان يمكن أن يحدث خلال هذه الفترة الطويلة؟ فهل أذهب للقاء ربي متحللاً؟.ألا تكفيني الذنوب التي اقترفتها في حياتي؟ ألن يكون هذا التحلل اعترافاً بذنب الموت وحيدا مثل ذلك السيف فردا؟ فأنا سيفٌ مثلومٌ يا رشا. لم أعد صالحاً لغير الانصهار في الفرن المعدني، فأعودَ مادةً خاماً تحتاج إلى

تصنيعِ من جديد. هل تدركين ما أقول؟ هل تشعرين بجسامة الذنب الذي أرتكبُ؟ أليس هذا الذنب وحدَه كفيلٌ بإلقائي إلى العذاب خالداً فيه خلودَ العذاب نفسه؟ ولكن هل تعرفين طبيعة ذلك العذاب الذي أخشى؟ أخشى أنني لن أعثر في الموت على راحتي. أخشى أنني لن أكون قادراً في الموت على أن أنام لو كنت متحللاً. لكِ أنْ تتصوري حجم ما سوف ألاقي من جحيم عندئذٍ. هل تدركين الآن حاجتي إلى القبر يا رشا؟ القبر مكان تتحقق فيه العدالة. بل هو المكان الوحيد الذي تنسجم فيه العدالةُ مع نفسها، فلا تميّز بين قتيلٍ وبين قاتله، أو بين جلّادٍ وبين ضحيته. لا تقولي لي إنك قد قرأتِ هذا الكلام في إحدى رواياتي، فأنا أعرف أنك لم تقرئي شيئاً من تلك الروايات. لم أسمعك يوماً تأتين على سيرتها، ولو من بعيد. سمعتك تتحدثين عن مسلسلاتي التلفزيونية كثيراً. حتى ذلك المسلسل الذي عرضوه وأنتِ بعدُ تسلخين عن بدنك جلد الطفولة وترتدين بدلاً منه روح البنت المراهِقة. ذلك المسلسل الذي عشقتْ فيه صبيةٌ في أوائل العشرينات من عمرها كاتباً خمسينياً، وعشقَها. مازلتِ إلى اليومِ تلومينني على نهاية القصة. إلى اليومِ لا تغفرين لي انفصالَ العاشقَيْن الذي يفَتقرُ أولَّ ما يفتقر إلى العدالة التي أنشدَها الآنَ حول ضرورة أن أمتلك في هذه الحياة قبراً. ما حكايتك يا رشا؟ لماذا تنظرين إليّ بهذه الغرابة؟ لماذا تمدّين كفك إلى جبيني؟ " لقد عادتك السخونة." نظرتِ البنتُ إلى معصم يدها. لم يكن هناك ساعة. يبدو أنها نسيتها في الحمّام. نظرتْ إلى ساعتي اليدوية على سطح الكومدينو من يميني، وقالت: حان وقت الدواء. وقالت: " لا تخف! سوف نكسر عتبة الألم. " ونهضتْ عن السرير. انتصبتْ على الأرض مثل شجرةٍ سنديان راسخة الجذور في الصخور العميقة قبلَ أن تنحني على الصينية وترفعها من على الفراش، وتمضي بها إلى المطبخ. لم تتأخر هناك. رجعتْ سريعاً، وقالت: لقد جئتك بالدواء. وقالت: سوف نعبر عتبة الألم. أعطتْني الجرعة الموصوفة، وأسقتني ماءً طازجاً أحضرَتْه مع الدواء في كأسٍ زجاجيةٍ كبيرة. وتمنّت لي الشفاء العاجل، وانصرفت إلى المطبخ من جديد. ومن جديدٍ رجعتْ سريعاً. كانت تحمل في يمينها ولاّعتي السحرية وسيجارةً واحدة

أشعلتها لي بنفسها، وقالت: أنا أفي بوعودي دائماً. وانصرفتْ إلى المطبخ أيضاً. لم أعرف من أجل أيّ شيء ذهبتْ هذه المرّة. الذي أعرفه هذه المرّة أنها تأخرت هناك كثيرا. لم ترجع إليّ سريعاً مثلما توقعتُ. حسبتُ تأخرها نوعاً من الاحتجاج على التدخين، وحسبته نوعاً من الإشفاق عليّ وعلى نفسها وهي تشاهد بأمّ العين إصراراً لديّ غريباً على الإضرار بالصحة. ولكنها تأخرت من الزمن ما يكفي لتدخين عشر سجائر. ما الذي تفعله البنت في المطبخ هذا الوقتَ كلَّه؟ سألتُ نفسي. حتى إنني لست أسمع أيةَ طرطقة. لا شيءَ غيرُ الصمت. أم إنها ليست في المطبخ؟ هل تكوي الثياب مثلاً؟ تلك الثياب التي لم أرسلها إلى المصبغة؟ شغلتْ غيبتُها بالي. ناديتُ: رشا! لم ترد على ندائي. ناديتها من جديد، فلم ألقَ غيرَ الصمت جوابا. نهضتُ من رقدتي. كنتُ أخشى أنّ مكروهاً قد وقع للبنت. نهضتُ بسرعة من الفراش نتيجة تلكَ الخشية، فلَفّتْ بيَ الدنيا، وجلستُ على حرف السرير مرغما. أغمضتُ عينيّ، والتقطتُ أنفاسي، وأسندت رأسي بكفين اكتشفتُ ضَعفهما سريعاً. وانتظرتُ استقرار الدوخة بي في مكانٍ ما على وجه هذه البسيطة التي تراءت لي شديدةَ الضيق. وحين مرقتِ اللحظةُ على خير، نهضتُ متوخياً الهدوء في الحركة. وجدتني ثابتاً على الأرض. هذا رائع. الصحةُ تاجٌ على رؤوس الأصحاء لا يراه إلاّ المرضى. عبارةٌ لا نتذكرها في غير أوقات الشدّة. رغم أننا نعرفها منذ الأزل.أخذتُ طريق المطبخ الذي لا باب له. وهذا كان من مقترحات المهندس الذي أشرف على تصميم المنزل قبلَ عشرين سنة تقريبا. وعَبْرَ الباب المفتوح دائماً رأيتها.كانت تجلس على كرسيٍ إلى طاولة الطعام. وكانت قد ألقتْ رأسها فوق ذراعها اليمنى الممدودة بلا مبالاةٍ على سطح الطاولة. وبلا مبالاة أيضاً كانت تتدلى ذراعها اليسرى في حيزٍ صغيرٍ من مساحة المكان الكبيرة. بدتْ لي مثلَ لوحةٍ معلّقةٍ على حائطٍ في أحد المتاحف القليلة التي زرتها حول العالم. لستُ مولعاً بالمتاحف. كثير من الأصدقاء يلومني على هذا الشيء. كيف تعود من باريس من دون أن تدخل متحف اللوفر؟! لم أجد نفسي معنياً بجوابٍ عن هذا السؤال، رغمَ عشقي للانطباعية الفرنسية، والتعبيرية الألمانية.. رشا! ناديتها. قالت: نعم؟- هل

كنتِ نائمة؟ - لا. - ناديتك ولم تردّي. - صحيح، ناديتني مرتين. - لماذا لا تردين إذن؟ - أحببتُ أن أخلو بنفسي قليلا. - وأنا أفسدت عليك خلوتك! أليس كذلك؟ - ليس مهماً الذي فعلتَه. - ولكنْ ما بكِ؟هل تبكين؟ - لا، لست أبكي. ورفعتْ رأسها بكسلٍ عن ذراعها اللامبالية، ونظرتْ إليّ كي تبرهن لي على صدق ما تقول. لم يكن في عينيها بلل، أو حتى أثرٌ لبلل. جلستُ على كرسيٍ يجاورها. تأملتها مليّاً. كانت قد ألقت من جديد رأسها على ذراعها. ما الذي يدور في دماغ هذه البنت؟ قالت لي فجأةً: بالمناسبة! وصمتتْ لحظةً. ووجدتُ الفرصة مواتيةً لتطرية قسوة الهواجس التي تطوف في روحها المتعبة. قلت: بأية مناسبة؟ ظهرت ابتسامةٌ صغيرةٌ على وجهها مثل طيفِ عابر، وقالت: بمناسبة وجودك في حياتي. وعادت إلى الصمت وقد هجر الطيفُ مطرَحَه. وكنت متشوقا لمعرفة ما سوف تقول بالمناسبة. ولم تجعلني أنتظر طويلاً. قالت: أنت الرجل الوحيد الذي رأى صدري عارياً. قلت: وهل هذا ما يؤرقك الآن؟ قالت: لماذا تحبّ أن تفهمني على نحوٍ خاطىء؟! قلتُ: في الحقيقة إنني لا أحبُّ ذلك يا رشا، ولكنّ هذا ما استنتجته من وحدتك. قالت: يبدو أنك لا تجيد الاستنتاج دائماً، فأنا لستُ متذمرةً ولستُ نادمةً على أنك رأيت صدري العاري، ولم أقل ما قلت إلا بالمناسبة، رغم أنّ المناسبةَ في الحقيقة غير موجودة. - ولكنكِ اعترفتِ تواً بمناسبة وجودي في حياتك! قلتُ محاولاً تطريةَ الجو من جديد. قالت: هذا ليس مناسبة، هذا وجود، هذا ثبات، وليس شيئاً عابراً.. لم افهم. قلت: ماذا تقصدين؟ قالت: إنني متعبة، وأريد أن أنام ولو نصف ساعة، أو حتى عشرين دقيقة. ونهضتْ، وانصرفتْ إلى غرفة النوم التي صارت تعرفها جيداً. ألقيتُ إثرَها نظرة. وسألتُ نفسي: ما الذي تريده مني هذه البنت؟ ما الذي تريده فعلاً؟ أنا أريد أن أساعدها. أحبُّ أن أساعدها، ولكن عليّ من أجل ذلك أن أعرف أولاً حقيقة ما تلاقي من التعب. وتناسيتُ في لحظتي تلك أن أسأل نفسي عما أريده أنا منها؟ إنني أريد أن تشاركني الحساب المصرفي. هل أستغلّها؟ هل أستغلّ شهامتها؟ ولكنني كنت صريحاً معها. قلت لها: ليس من أجلكِ أنتِ، بل من أجلي أنا. ولكنْ هل الصراحةُ تمحو النيّة في الاستغلال؟

أوليستِ الصراحةُ أشدَّ خبثا من المراوغة أحيانا؟ لم أصل إلى أجوبة عن هذه الأسئلة. عقلي مشوشٌ تماما. القبر. نعم، القبر. آخرُ منازلِ الحياة. لكِ يا منازلُ في القلوب منازلُ. ظلّ عقلي مشوّشا. فكّرت بتدخين سيجارةٍ ثانية. ولكنّ السجائرَ في حقيبة البنت اليدوية. الحقيبة أمامي على سطح الطاولة. يجبُ عدمُ التمادي. زجرتُ نفسي. لن أفتح حقيبة البنت. لن أستبيح خصوصياتها تحت أية ذريعة. وليذهب النيكوتين إلى جهنم. نهضتُ عن الكرسي على مهلٍ. الحمد لله! لا دوخة. الحمد لله! ذهبتُ إلى غرفة النوم بخطىً بطيئةٍ، لكنها غيرُ مترنحة، رغم افتقارها إلى الثبات الواثق على الأرض. رشا تحتلّ مطرحي من السرير. تحتل النصفَ الأيمن. ما هذا الاعتداء السافر؟! سألتُ نفسي وأنا أنظر إلى البنت متبسما. كنت سعيداً بوجودها في فراشي، وفي بيجامتي المفضّلة أيضا. هل أطلب منها أن تذهب إلى النصف الآخرَ من السرير؟ فعلى الكومدينو في هذا الجانب أشيائي الصغيرةُ كلها: موبايلي الذكيّ، وساعتي اليدوية التي لا تشبهني، ونظارتي الطبية الغبيّة، وكتاب الحماسة، ودفتر ملاحظاتي الاستباقية، وقلمٌ ياباني يكتب بسلاسة حتى من دون تدخلٍ مني. يقرأ أفكاري ويدوّنها من تلقاء نفسه. من المحزن أن انقضى العمرُ من دون أن أزور هذا البلد الذي اسمه اليابان، مع أنني وصلت إلى تخومه، ولم يعد يفصلني عنه غيرُ ساعة طيرانٍ واحدة، هي المسافة التي أظنها تفصل اليابان عن كوريا. وكوريا لم تكن بين ملفّات أحلامي البعيدة. كانت اليابان تحتل بين تلك الأحلام جميعاً موقع الصدارة. منذ عام 1958 وأنا مندهشٌ من السحر الذي تصنعه اليابان في العالم. مذ رجع أخي من بيروت في نقاهة ما بعد جراح الحرب. مذ أعطاني تلك الليرات الخمس. في ذلك اليوم أعطاني علاّقة مفاتيح أيضا. لم أكن أملك أيَّ مفتاح لأيِّ باب، ولكنني، مع ذلك، كنت سعيداً بتلك العلاّقة أيّما سعادة، فقد كان يتدلي منها أيقونةٌ من زجاج يحمل كل ألوان الطيف حسب انعكاسات الضوء على صفحتها، ومن الجانبين. عددٌ لا يتناهى من أشكال الفتنة الآسرة، حتى تحت إضاءة لمبة الكاز الفقيرة. قال لي أخي يومئذٍ: هذه من اليابان. قلت لأخي يومئذٍ: أنا أحب اليابان يا أخي. فضحك، وأرسل أصابع كفه الطويلةَ القويةَ

إلى حلقات شعري الخرنوبي ترعى فيها بكل حنان الأبوّة. هل أطالب رشا بالانتقال إلى نصف السرير الآخر؟ ولكنْ، ربما كانت البنتُ نائمة! ناديتها باسمها همساً. لم تردّ على ندائي. انحنيتُ فوقها قليلاً. سمعتُ أنفاسَها الغافية. بطيئةً تلك الأنفاسُ كانت، ولكنها منتظمة. البنت مرهقة. من المؤكد أنها في سهادٍ مذ سمعتْ صوتيَ المريضَ على الموبايل في ليلتها الفائتة. تركتُها ترتاح. اللعنةُ على من يوقظُ صبيّةً مرهقةً من نومها!! درتُ من حول السرير. اللعنةُ على هذه المدافع التي راح المنزل يرتجُّ من وقع انفجارات قذائفها فجأةً.أرجوكم يا حماةَ الديارِ! أوقفوا هذا القصفَ قلي؟! لا توقظوا البنتَ من نومها.لا توقظوا هذه البنتَ من نومها.فهذه البنتُ الصغيرة متعبة جداً، إذن، دعوها بسلام تستريح ولو وقتاً قصيراً، ولا تزعجوها. أتوسلُ يا حماةَ الديارِ إليكم. كنتُ قد صرتُ في الفراش أنا أيضاً. وكنت لا أرفع بصري عن جارتي الحلوة.أجارتَنا إنّ المزارَ قريبُ. وكنت أقول في نفسي: يا الله كم في هذه البنت من مشقّة!! حتى المدافع لا تستطيع انتزاعها من المشاركة في وجبة الرز مع الملائكة. وكنت بذلك فرِحا. وكان المساءُ قد هبطَ على المدينة. كانت عيني على رشا، وكانت أذني على انفجارات المدافع، وتذكرتُ أمّي التي لم أكن بِرّاً بها، فعادني عواء الذئب يترجّع صداه في جنبات رأسي. موجعاً ذلك العواءُ عادني. أبي يا أبي!. جَرْوكَ الضائعُ مازال ضائعا.جَرْوكَ القتيلُ مازال قتيلا. فتعالَ يا أبي تعال. أنا لا أستطيع إليك ذهابا، فمن يحرسُ البنتَ النائمةَ في غيابي؟! من غيري يحرسها، وأنا كلبُ الحراسة الوفيُّ أبدا؟ لقد اشتقتُ إليك كثيرا يا أبي. إذن، أرجوك أن تشفقَ عليّ وتجيئني مرةً في العمر، فالعمرُ ينفد يا أبي. ولم يبقَ منه غيرُ القبر. وهذه البنتُ الشقيّة ترفض أن تمدّ لي يدَ العون. الحقَّ أقولُ لكَ يا أبي. كنت أظن أن هذه البنتَ تمسكُ ببعض خيوط حياتي.ثمّ صرت أظن بأنّ هذه البنتَ لا تمسك بأي من خيوط حياتي. ولكنني مقتنعٌ اليومَ بأنّ هذه البنتَ، هيَ كلُّ حياتيَ الباقية. كثيرُ التقلّب في عواطفه ابنُك يا أبي. متناقضٌ إلى حدود الإشفاق ابنُك يا أبي. متناقضٌ هو ابنك على نحوٍ يبعث على الحيرة الدائمة. وما باليد حيلةٌ يا أبي. هذه جيناتك، فلا تلمني. أنت المسؤولُ وحدَكَ يا أبي، فأنت من أورثني هذا

التناقض، مثلما أورثتني تلك الأرضَ التي لا أستطيع أن أموت فيها كما يموت البشر العاديّون في أراضي آبائهم وأجدادهم.اللعنة على هذا الموبايل الغبيّ! لم يرنّ طوالَ النهارِ. لم يرنّ إلا في اللحظة التي كان يتوجبُ عليه فيها أن يلزم الصمتَ، أن يخرس تماماً، فقد صنع ما لم تصنعه القنابل. لقد أيقظ حسنائي النائمةَ من غفوتها. اللعنة على من اخترع الموبايل! كان الجهاز بعيداً عني. كان في يمين رشا على سطح الكومدينو. ورشا كانت في يميني على السرير. زحفتُ بجسدي قليلاً باتجاه رشا لألتقط الموبايل، علّني أنقذ الموقف قبل فوات الأوان.ولكنّ الأوان كان قد فات. لقد استيقظتِ البنتُ من نومها. أنا آسف يا رشا! كنتُ قد صرت لها ملاصقا.لم تعلّقْ بشيء على أسفي. بل ربما كانت كمن يشكر الموبايل على الرنين. لم تفتح البنت عينيها. التقطت الموبايل بيدٍ كسولة، من دون حتى أن تتحرك في رقدتها ولو قليلا. قلت لها: أعطيني النظارة. بدتْ كمن يرفض الانصياع لهذا الطلب الغبي. سألتها: مين المتصل؟ وبررتُ طلبي: ما بشوف منيح بلا نضّارة. فتحت البنت عينيها بكسل، وألقت نظرةً على الشاشة، وقالت: ما في اسم، بس الرقم موجود. وقرأتْ عليّ الرقم التساعي بعجالة. ولم أعرفه. ولم تعطني النظارة. لم تلتفت إلى يمينها، بل انزاحت إلى يسارها، فتوسدتْ كتفي، وقالت: الحكي ما بدو نضّارة. قلت لها: طيب افتحي السبيكر على الأقل. وأطاعتني. وظلّ رأسها مستريحاً على كتفي. وظلّ جهاز الموبايل راقداً في كفها المنتصبة على صدري. - ألو مسا الخير أستاذ حسن! - أهلين مسا النور! مين معي؟ وقدّم لي المتصلُ نفسه. إنه أحد منتجي الدرامة السورية الذين مازالوا في البلد. وسأل: تذكرتني؟ قلت: الاسم معروف طبعاً. قال: بالأول اسمحلي أتطفل وأسألك ليش صوتك تعبان؟ قلت: عندي سخونة.قال: سلامتك أستاذ! أجيبلك دكتور؟ قلت: شكراً!عندي بالبيت دكتورة. ليكها جنبي. قال: الله يخليلك ياها! وما على قلبك شر! بس ما قلتلي، بتتذكر وين وإيمتى اجتمعنا؟ ضحكتُ وقلت: لا تحاول تمتحن ذاكرتي، لأنك أكيد رح تطلع خسران. ضحك وقال: طيب وين وإيمتى اجتمعنا؟ قلت: صعب نسميه اجتماع. كان لحظة تعارف ومصافحة، وعلى السريع كمان. هادا الشي حصل

في عام ألفين وتلاتة، في فندق الشيراتون، باحتفالية الدرامة السورية. قال الرجل: يخزي العين! بسمع كتير عن ذاكرتك القوية، بس هلأ ما فيني غير أرفع الراية البيضا، عم تتذكر هيك تفصيل مع إنو حضرتك يومها أكيد سلّمت على أكتر من خمسمية بني آدم، كنت نجم الاحتفالية كلها بعد مسلسل أيامنا الحلوة. - وصمت الرجل لحظة وأضاف أيامنا ما عادت حلوة يا أستاذ، أيامنا كلها صارت مرّة. والله متل ما يكون هداك المسلسل اللي كل سورية فرحت فيه، متل ما يكون جرس إنذار للسوريين كلهن! قلت: بيجوز إنك عم تبالغ شوي، أنا ما كنت أعلم بالغيب. قال: خلينا نرجع للذاكرة لو سمحت، بهديك السهرة سألتك سؤال واحد، بتتذكرو؟ - قلتلي إيمتى رح أنتج مسلسل من تأليفك؟ - يا الله على ذاكرتك يا أستاذ! وشو جاوبتني يومها؟ - قلتلك الأيام جاية إن شاء الله. - وهي الأيام ليكها إجت يا أستاذ. بدي منك نص. إلا إذا عندك اعتراض على إنتاجي! - الحقيقة ما عندي هيك اعتراض، ثم إنت أنتجت واحد من أهم المسلسلات بتاريخ الدرامة السورية إنْ لم يكن في الدرامة العربية كلها. - الله يجبر بخاطرك! - ما عم حاكيك من باب المجاملة. هي قناعتي. وهي القناعة قلتها مرّة بمقابلة تلفزيونية. - أنا شفت هديك المقابلة، وسمعت هادا الكلام على لسانك، وبصراحة هالحكي يومها كركبني، قلت لحالي مادام هادا رأي الأستاذ حسن بإنتاجي إذن ليش مانو متحمس نتشتغل سوا؟! وبالحقيقة ما كان عندي جواب غير إنو الرجل بيفضل يشتغل مع أصدقاؤه من المنتجين. - بس هدول المنتجين اللي كنت أحب أشتغل معهن ما كانوا أصدقائي. ما كان بيناتنا أي علاقة شخصية. بعمري ما دخلت بيت واحد منهن، وبعمر واحد منهن ما دخل بيتي. كانت العلاقة بيناتنا مهنية خالصة. كانت علاقة ناس محترفين. - يعني أنا اللي ماني محترف يا أستاذ؟ - لأ، مو القصد، بس أنا عندي مشكلة بهالحياة، على رأي المتنبي: خُلِقْتُ ألوفاً لو رجعتُ إلى الصِّبى/ لفارقتُ شيبي موجَعَ القلب باكيا. وأنا تعودت أشتغل مع هدول الناس اللي للأسف ما عادوا موجودين بالبلد! - فعلاً للأسف إنهن ما عادوا موجودين بيناتنا. على كل حال، ما فينا نلومهن. ما فينا نتمنى لهن إلا الخير. إي سيدي، بدي منك نص لمسلسل

تلفزيوني بتلاتين حلقة، ولا تتحجج بشي، بعرف إنك قاعد بلا شغل، ولا تفهمني غلط منشان الله، ما عم حاول أستغل إنك بلا شغل حتى ساومك على الأتعاب، لالا أبداً، أنا بعرف سعرك، وملتزم فيه وزيادة والدفع بالطريقة اللي إنت بترتئيها مناسبة. المهم بدي منك نص. بأي شكل. - بس ما تقوللي نص تاريخي! - بالعكس تماماً، بدي نص ابن اليوم، دمشق 2014. -إنت رح تكون منتج ولا منتج منفذ؟ حاكم هالأوقات ما حدا عم يغامر بسلعة مانها مضمونة التسويق.- أنا منتج، بس مستعد أكشفلك وحدة من أوراقي، عندي محطة إماراتية جاهزة تاخد العمل عرض أول. - مقابل كام؟ - خمسين بالمية من كلفة الإنتاج. - ممكن أعرف أي محطة؟ - بنصحك تحط إيديك ورجليك بمي باردة. المحطة ذاتها اللي أخدت غالبية أعمالك عرض أول. - لساه تعاملهن ظريف؟ - ذكروك بالخير، واستغربوا إنك قاعد بلا شغل. - وبخصوص المسلسل هاد عندهن شروط؟ - لا أبداً. ممكن أقول عندهن طلب. - ألا وهو؟ - إنو ما يكون في بالمسلسل دم وقتل ودمار وتفجيرات، ومن هالأمور هي. قالوا المتفرج العربي تعب من المشهد السوري بنشرات الأخبار. وأظن يا أستاذ عندهن حق. - وإنت كمنتج شو طلباتك؟ - طلبي كالعادة إنو النص يحصل على موافقة الرقيب. - عندك فكرة عن سقف الرقابة وين صار؟ - أظن بعدو على حطة إيدك، أو يمكن صار أوطى شوي. - كمان!! - أظن. وقبل ما إنسى عندي طلب إلو علاقة بظروف الإنتاج. - ألا وهو؟ - يا ريت تقلل قد ما بتقدر من المشاهد الخارجية، لأنو الله وكيلك صار تصوير لقطة وحدة بالشارع متل الأشغال الشاقة. - مانك ملاحظ إنك عم تصعّب عليّ المسائل؟ - مبلى ملاحظ، بس يا أستاذ حسن أنا عم ألجأ للكاتب الأكتر خبرة بسورية. الأكتر خبرة مو بس بسوريا، يمكن بكل الوطن العربي. يعني إنت أبوها للحكاية كلها. هادا ملعبك. إنت على أرضك وبين جمهورك، لذلك الصعب بين إيديك بيصير سهل على قلمك الحلو.- طيب ممكن تمهلني يومين أو تلاتة لبين ما صحصح من المرضة؟ - يومين تلاتة مو قصة. - يومين تلاتة وبنلتقي فيس تو فيس، وبقولك بالضبط شو ممكن أعمل بهالموضوع. - أوكي، ومعافى

انشالله! – الله يعافيك. مع السلامة! أطفأتْ رشا الموبايل الذي كانت تحمله أمامي طوالَ المكالمة.وظلّت ممسكةً بالجهاز، ولكنها أراحت كفها على صدري، وهمست من دون أن تفتح عينيها: ما رح تكتب، ما هيك؟. قلت: ما بعرف. " ليش ما بتعرف؟! ما إنت فعلاً الأكتر خبرة. بتعرفي شو يعني الأكتر خبرة يا رشا؟ الأكتر خبرة يعني الأكتر مسؤولية." بعرف. " دمشق يا رشا العاصمة الأكتر خبرة بالعالم، ومع ذلك نص البشر فيها ساكنين بعشوائيات. فتحتْ رشا عينيها من بعد طول إغماض، ولم تكتف بذلك. زادت من ثقل جسدها على كتفي بعدما اعتدلتْ في رقدتها. تأملتني مليّا بوجه خالص الطفولة، وقالت: " ما فهمت المقارنة. " قلت: ما عم قارن. مجرد خاطرة مرقت ببالي. الدرامة السورية مو ناقصها عشوائية جديدة. ولعلّ إجابتي هذه أدهشتها. قالت وهي تستنكر ما مرق في بالي من خواطر خبيثة: " إنت!! إنت تبني عشوائيات!! " ما بتعرفي شو ممكن يطلع معي. ما أنا رح كون مكبّل. كبلي بطل العالم بالسباحة وارميه بالمي. أكيد رح يغرق. وما فينا نلومه. هو سباح ماهر حتماً. بطل العالم بالسباحة غرق!! كيف بيغرق؟! ما إنتو مكبلينه! شو بدكن ياه يعمل؟! شو ممكن يعمل غير إنه يغرق، مع إنه هو الأكتر خبرة؟ " بس إنت مو بطل العالم. " ما هادا اللي عم قوله. لا لا فهمتني غلط. كيف يعني فهمتك غلط؟" "يعني إنت.. إنت.. " أنا شو يا رشا؟ أنا مين يا رشا؟ " إنت اللي بتعمر أحلى بيوت العالم، حتى لو ما كان بين إيديك غير حفنة تراب." ابتسمتُ. أيْ رشا اللي عم تحكي هالكلام؟ سألتُ نفسي وأنا أحدّق بسقف الغرفة، وشعرتُ بزيغان في عينيّ. هل عادتني الدوخة أم ماذا؟ سألت نفسي، فأجابتني نفسي: السبب فيما تعاني بسيط، النظارة الطبية مصنوعة من أجل تجنب الزيغان في البصر، وأنت تهملها. قالت رشا وهي لا ترفع بصرها عن وجهي: " بعرف بشو عم تفكر. بشو عم أفكر يا رشا؟ عم تفكر فيني. عم تقول لحالك لو كان كلام هالبنت صحيح، إذن ليش هيّ ساكنة بعشوائية؟ ليش ما بنيتلها بيت متل هادا البيت مثلا؟ " قلت: " إنتي سألتي وإنتي جاوبتي. " قالتْ: " لا السؤال صح ولا الجواب صح. " تلفتُّ

إليها، وكان بادياً عليّ عدمُ فهم ما قالت. ابتسمتْ، وأضافتْ واثقةَ النطق: رح تكتب. رح تكتب عني. ما بتقدر ما تكتب عن رشا. رشا الحلوة، الأمّورة، اللي طبختلك أطيب شوربة خضار دقتها بحياتك.رشا اللي ورجتك صدرها الظريف بلكي المنظر بيخليك تطيب من السخونة! مفتكرني كنت معصبة ولاً زعلانة ولاً سائلة عن شي اسمه عيب؟ أبداً. كنت عم عالجك لما ورجيتك صدري. كنت عم عالجك. صبية زغيرة. صدر عامر. زلمة كبير. احسبها صح. في وحدة من النسوان اللي عرفتهن بحياتك فكّرتْ بهالطريقة اللي فكّرت فيها أنا؟ بس للأسف إنت خذلتني. طمرت راسك باللحاف. مفتكر حالك عملت منيح يعني؟! غلطت يا صديقي. وما كان لازم تغلط. مازالك الأكتر خبرة ما كان لازم تخبي وشك عن صدري. أو اسمحلي أشكك بأنك الأكتر خبرة.اسمحلي أشكك إنك الأكتر خبرة بالنساء على الأقل. وبالمناسبة، قديش عرفت نسوان بحياتك؟ " قلت وأنا واقع تحت تأثير اعترافاتها التي بدتْ لي غير منسجمة مع حقيقة ما قد حصل، أو التي ربما كانت منسجمةً مع تلك الواقعة من دون أن أنتبه تماماً للتفصيلات المرافقة بسبب ما كنت أعاني من وهن وسخونة، وبسبب ما عادني من وهنٍ وسخونة: " ما رح جاوبك. " " مو قصة قالت أنا بجاوب عنك.. إنت عشت حياتك كلها بلا نساء. بيتهيأ لك إنهن كانوا نساء، لكن الحقيقة ما كان فيهن من المرأة غير أعضاءها الأنثوية. وبس.عم تفهمني؟.أنا المرأة الوحيدة في حياتك. لذلك، رح أحميك من الموت، ورح أحميك من المرض، ورح أخليك تكتب عن تجربتك النسائية الوحيدة. ولا تقول إنه هالتجربة إجت متأخرة. ما في شي اسمه متأخر. في شي اسمه: هادا وقته، مبارح كان بكير، وبكرا بيكون فات الوقت. ووقته المناسب هو اليوم. وهي ليكنا اليوم. أنا عايشة فيك. وإنت مانك عشوائية. إنت بيت دمشقي. باحة دار. حجر أبيض. حجر أسود.بحرة. نافورة. عريشة ياسمين. شجرة نارنج. ليوان. أرابيسك.. طيّارة بيلعب فيها الهوا اللطيف بعز الحر. بس ما قلتلي قديش عرفت نساء بحياتك؟ " " ما رح جاوبك." " طيب ليش تركتهن؟ ليش تركوك؟ " الأسباب دائماً موجودة. " قصدك دائماً منخترعها. " جايز. " خانوك

مثلا؟ خنتهن؟ " " أظن كان في خيانة." " من الطرفين؟ " " أظن من الطرفين. " بس أنا ما رح خونك. إنت رح تخوني؟ " " ما أظن. ما عدت شب. " " يا سلام!. أفحمتني بجوابك هاد. يا الله قديش أفحمتني!! بس أنا صبية. " مشكلتك. " مرة تانية عم تجاوب غلط. شو قصتك اليوم؟ شو قصتك اليوم؟! بالعادة مو هادا منطقك." " وبالعادة هاي مو إنتي. " " مبلى أنا، بس إنت ما كنت عم تشوفني صح. جايز المرض خلاك أخيراً تشوفني منيح. لكن أنا بدي ياك تطيب. ما فيني شوفك مريض. ساعتها روحي بتوجعني. عم تفهم؟ روحي اللي بتصير موجوعة. وما فيني على وجع الروح." " رشا إنتي مين؟ " " أنا رشا. بس قوللي، شو هالصوت؟ " " أنو صوت؟ مانك سامع؟! " آ.. إي، مبلى. رشاشات. رشاشات عيار أربعتاش ونص." " شو معنى هالكلام؟ الجيش الحر اقتحم دمشق؟ " " ما أظن." " كيف ما بتظن؟ " المعركة تحت شباكنا. بالطريق. ويمكن صارت جوّات البناية. حسن! حسن! حبيبي اصحَ!" فتحتُ عيني الثقيلتين، وسألت: "أصحى من شو؟ ليش أنا كنت نايم؟ " " شو اللي عم يصير معك؟! شو اللي عم يصير معك؟! وكادتْ أن تبكي وقد شرعت تصفع وجهها من خوفٍ أبكم نزل بها عليّ، وعلى نفسها أيضا. "شبك؟ شو القصة؟! " سألتها. قالت: " اشتباكات بالطريق تحت بنايتنا. " أظنني استعدتُ بعض وعيي بعد جهد. كانت البنت تلتصق بي كأنها تسعى لأن تكون جزءاً مني. وكانت ترتعش من خوف بسبب ما يجري تحت شباكنا في الطريق. كان ثمة رشاشاتٌ ثقيلة تهدر برعب بين المنازل المأهولة بكل أصناف البشر عجائز، شيوخ، أطفالٌ، صبايا، شبابٌ لا عهدَ لهم بالسلاح وذخائره المختلفة. استعدتُ وعيي تماماً. احتضنتُ الصبيةَ أحميها من احتمالات شظيةٍ قد تخترق شباكنا. نسيت في احتضانتها أبسطَ قواعد السلامة: مغادرة هذه الغرفة إلى مكانٍ آخر أكثرَ أمناً. إلى المطبخ مثلاً، فالمطبخ لا يطلّ على الطريق حيث الاشتباكات جارية، بل على الطريق المعاكسة. رحتُ أهدىء من روعها: لا تخافي حبيبتي! لا تخافي يا عمري! كانت البنت ترتعش، وصوتها كان يرتعش أيضا: شو اللي عم يصير؟ بلشتْ معركة دمشق؟ - لأ. - كيف

بتعرف؟ - بعرف. من دون كيف. ما إلك ثقة بمعرفتي؟- مبلى.- تنفسي بعمق، لكن بهدوء، بهدوء.هادا اشتباك محدود. ربع ساعة وبينتهي. - وبلكي ما انتهى؟ - بينتهي. وعد. كلمة شرف. - يا الله! شو اللي عم ينتظرنا؟! شو اللي عم ينتظر هالمدينة؟! - تنفسي بعمق، لكن بهدوء، بهدوء يا قلبي إنتي يا رشا! - أنا قلبك أنا؟ - إنتي قلبي، وروحي،وكل اللي بقيان من عمري هو إنتي. - إذن، لا تنام، نومك عم يخوفني أكتر من صوت الرشاشات. - ما رح نام، ما رح نام، مارح نام.هادا وعد يا رشا.رح أضل سهران، ورح أحرسك، رح أحرس نومك. رح أرجع لوظيفتي اللي انخلقت منشانها. وهدأتِ البنتُ قليلا من بعد طمئنينة أصابتها من وعودي.رحتُ أهدهدها علّها تغفو. تذكرتُ عرس الدّم. نم يا حبيبي نم، فالحصان الأبيض يرفض أن ينام. وأتتِ الهَدْهدَةُ بثمارٍ طيبة، فقد أغفتِ البنت في حضني وبين ذراعيّ، أو ربما أغفتْ من الخوف، فالخوف يأتي أحياناً بنتائج تعاكسُ المألوف حين نُسلم له قيادَنا. وقلتُ في نفسي: شكراً لوركا! والعارُ لقاتليك! وهدأتِ الاشتباكاتُ رويداً رويدا، وقد تناءت عن شارعنا رويداً رويدا.تباعدت. تناثرت. وأخيراً تلاشت. لعلّها مداهمة كانت لخليةٍ نائمة! أو ربما كانت مطاردةً لقوة صغيرة من الجيش الحر قامرت بالوصول إلى قلب المدينة. لا أعرف ماذا كانت بالضبط طبيعةُ ذلك الاشتباك. ولكنه الآن انتهى. ماذا خلّف وراءه من خسائر؟ سوريا مثلُ الغولة التي تأكل أبناءها حين لا تجد ما تأكله. وظلّتْ رشا غافية. وبقيتُ أحرسها مثلَ كلبٍ وفيٍّ لسيدته. رحت أتأملها وهي لا تبعد عن ناظريّ أكثر من سنتمرات يمكن عدّها بأصابع اليد الواحدة. هذه البشرة الصافية. هذه الخلايا المتجددة. هذه الهرمونات الناضحة بالغواية. هذه الفتنة الغافية. لم يكن بي حاجة للنظارة الطبية. كيف للفتنة أن تغفو؟ أي ظلم تمارسه عندما تحرمنا حضورَها الطاغي؟ عن أي شيء كنت تسألينني يا رشا؟ عن أية نساء كنت تتحدثين؟ خَدعتُ أو لم أَخدع؟ ما أهمية ذلك؟ خُدعتُ أو لم أُخدَع؟ ما أهمية ذلك أيضا؟ أليس عن هذا كنت تسألين؟ كل النساء سواء بأعضائهن الأنثوية. أظنني سمعتك جيدا، رغم أني كنت معلّقاً بين الصحو وبين النوم. كنت مؤرجحاً بين الصحة وبين المرض. كل ما في الأمر أن ذلك التأرجح

كان عنيفاً في علّوه وانخفاضته، فكنت أفقد الوعي أحياناً وأنا أعجز عن مقاومة فتلان الدماغ من شدة الانتقال بين السماء وبين الأرض. بين الجذب وبين النبذ. أنا لست متمرساً في هذه التقلّبات العنيفة. لم أعد شاباً يا رشا. كما إنني لست من روّاد الفضاء. لم أتلق من التدريب ما يكفي لأن أكون حاضر القوى في متابعة الدرس الذي كنتِ عليّ تقرئين. الحقَ أقول لك: ظننتك لوهلة تتمتمين على روحي بالفاتحة من قبل أن تهيلي عليّ التراب في القبر الذي سوف من أجلي تشترينه. أعرف أنك لن تتركيني في العراء تنهشني الكلاب الجائعة. أعرف أنك سوف تدفنينني حتى ولو في البريّة البعيدة، وسوف تقرئين الفاتحة أيضاً إلى روحي التي بعثرها بؤس هذا الوجود العبثي. أعرف أنك سوف تجمعين أشلاء روحي المبعثرة إلى بعضها، وأنك سوف تذرفين عليها دمعةً، وتقولين: يا ليتني كنتُ المسيحا! إذن لبَعَثتُ في روحك الحياةَ من جديدٍ يا حبيبي!! عقارب الساعة لا تمضي، وللأسف الشديد، إلاّ في اتجاهٍ واحد يا رشا. كل النساء سواء. ليس في ما تقولين سرٌّ يا رشا. السرُّ يا رشا في أنّ الأرواح ليست كلها سواء. من يحيي العظامَ وهي رميم؟ نم يا حبيبي نم، فالحصان الأبيض يرفض أن ينام. هل تعرفين بماذا أحلم معك يا رشا؟ معك أنت. أنت وحدَكِ. ليلةٌ في دمشق القديمة. ونهارٌ في فلورنسا تحت شمس توسكانا. ونظرةٌ سريعة على الأندلس. و.. وداعاً.. فهل أطلب الكثير؟ يومٌ وليلةٌ قبل الوداع، أو يومان وليلتان قبل القبر. لا تريدين مشاركتي الحساب المصرفي؟ أنت حرّة. وأنا بالمقابل حر. سوف أكتب هذه المسلسلة التلفزيونية. ولن أغرق مهما كان الماءُ عميقا، ومهما كبّلوني بقيود الرقابة. لن أبني عشوائية. هذا وعدٌ يا رشا. ولكنني لن أكتب عنك حرفاً واحداً. وهذا أيضاً وعد. سوف أكتب عن ليلى وعن الضابط الذي وَهَبَها الحياة. وسوف أستجيب لطلب المنتج. المشهد لن يكون في شارعٍ يملأُه الدمار، بل سوف يكون في منزلٍ لحظةَ اقتحامه من الجيش بحثاً عنِ الإرهابيين. لن أغرق يا رشا. أعدك بألا أفعل. ولكن هل تعرفين بماذا أفكر؟ سوف أشتري لكِ منزلاً جميلاً من ثمن هذا المسلسل. لن تقيمي في العشوائيات بعد اليوم. لن أسمح بذلك بعد الآن. سوف أشتري لك شقة تشبُهك، شقةً حلوةً مثلَك في حيٍ

مثلِك دافيءٍ وجميل، وسوف أشتري لليلى إسورةً من ذهب خالص بدلاً من تلك التي تركتْها بين ركام المنزل حين هطلت عليه القذائف، وسوف أشتري لها موبايلاً ذكياً، وللطفلين سوف أشتري ثياباً كثيرة وألعاباً كثيرة، وصندوقاً كبيراً من الشوكلاتة، وسوف أشتري الشوكلاتة لكِ أنتِ أيضا، وسوف أشتري لك بيجامة بلون السماء في الربيع. وببقية المبلغ، تكونين بنتاً طيبة، وتشترين لي قبراً، وتدفعين فاتورة العزاء. يا أيتها النفس المطمئنة.. أظنها صفقةً عادلة يا رشا، فلا ترفضيها.أرجوكِ ألا تفعلي، فالقبر عندي أهمّ ما في المسألة. لماذا تتململين يا صغيرتي؟ هذه البيجامة تليق بك كثيرا. لونها السماويّ ينبىء بأصولك الملائكية. اسمعي يا بنت! ماذا تسمعين؟ لا شيء. قالت رشا. قلت: ألستِ نائمة؟ قالت: ما هذا الصمت؟ هل هو السكون الذي يسبق العاصفة؟ قلت: بل هو السكون الذي يليها. كان كل شيء قد هدأ. كل شيء. حتى أنفاس البشر بين جدران المنازل قد سكنت من بعد الاشتباك الذي يجب الاعتراف بأنه كان عنيفاً بالنسبة إلى حيٍّ اعتاد الهدوء في قلب المدينة. قالت البنت: كم الوقت الآن؟ – ما حاجتك إلى الوقت يا رشا؟ – هل حان موعد الدواء؟ – لا أعرف. لم أكن أحسب الزمن. – يا الله كم كان نومي عميقاً! – لاحظتُ ذلك. – كنتَ تراقبني؟ – نعم. – لماذا؟ – لأنك امرأة حسناء. – أعرف أنني امرأة حسناء، كان ينبغي عليك أنت أن تعرف ذلك، فتكفّ عن الحديث حول القبر. وتمطّتِ البنتُ قليلا، وتثاءبتْ قليلا، ونظرتْ إلى ساعتي اليدوية بجوارها، وعرفتْ أن موعد كسر عتبة الألم لم يحن، وقالت: ألستَ جائعاً؟ قلت: ليس كثيراً.ونهضتْ من الفراش. وقالت: سوف أحضّرُ لقمةً نأكلها. وضحكتُ. ووقفتْ تنظر إليّ متصنعةً دهشة الأطفال: لماذا تضحك؟ قلت: تحضرين لقمةً نأكلها.. قالت: وما المضحك في هذا؟ قلت: من الطبيعي أن اللقمة للأكل، أي أنك تشرحين المشروح. قالت: يا سلام! وضربتِ الهواءَ بيدها الناعمة، وانصرفتْ إلى المطبخ. ملتُ على موبايلي الذكي، ورفعته عن سطح الكومدينو. قلت في نفسي: أتسلى قليلاً بتصفح الفيس. دخلتُ إلى حسابي. وجدت طلب صداقة. ثمة طفلٌ صديقٌ لأحد أطفال العائلة يطلب صداقتي من بلجيكا. قلت له: تكرم عيونك. وضغطت

على: تأكيد. وكان ثمة رسالة أيضاً. من أين؟ دخلتُ إلى الرسالة. من صديقتي طبيبة الأمراض النسائية. كان لنا أيامٌ حلوةٌ أنا وهناء في منزل هذه الطبيبة. ولكن ما هذا؟! ما هذا يا ربي؟! ما هذا؟! ما الذي تقوله هذه المرأة؟! ماذا تقول؟! ومن أجل أيّ شيء؟! كانت رسالةً صادمة تماماً. جاءت رشا تحمل صينية صغيرة عليها ثلاث حبات كبيراتٍ من البطاطا وسكيناً. قالت: عم فكر أعمل مفركة بطاطا بالبيض. بتحبها؟ قلت: متل ما بدك.قالت: وجنبها صحن سلطة. قلت: متل ما بدك. قالت: شبك مكركب؟ في شي خبر مو منيح؟ قلت: لا لا اتطمني. قالت: إذن، شبك؟ قلت: والله يا رشا ما بعرف شبني. رسالة من صديقة قديمة عم تبهدلني فيها، لكن بلطف. - ليش؟ - على كلمة حكيتها ذات يوم. - كلمة شو؟ وقبل هيك قديش هيّ صديقة؟ - قديش هي صديقة؟ مو لدرجة إنو ورجتني صدرها. ضحكتِ البنتُ وقالت: شفت إنو أنا استثناء في حياتك؟ صرت المعيار لعلاقاتك النسوية. - يا للتواضع! - ومازال إنها ما ورجتك صدرها، فعلى أي أساس بتبهدلك هي الهبلة؟ قصدي بأي حق؟! - والله ما بعرف شو بدي قول. أظنك قرأتي مرّة البوست اللي نشرته بالفيس إنه هناك في الحياة خط أحمر لكل شيء لازم نلتزم فيه منشان ما نرمي إنسانيتنا بالزبالة. - قرأته وحطيتله لايك. بس هادا البوست قديم شوي.- يبدو إنها ما قرأته إلاّ مؤخراً. اسمعي شو معلقة: لمّا ما بتحدد موقفك بشكل واضح وصريح من هذا النظام الفاشي بتكون عم ترمي إنسانيتك بالزبالة.- باين عليك إنك مزعوج. أنا فكرت أقعد معك هون وأقشر البطاطا، بس إذا حابب تختلي بنفسك برجع عَ المطبخ. - لأ يا عمري خليكي. على الأقل هون دفا. اقعدي. جلستْ متربعةً على السرير، ووضعتْ الصينية في حضنها، وقالت: قدامك واحد من حلّين. يا بتطنش الرسالة وصاحبتها يا بترد عليها وبتدافع عن رأيك. قلت: قدامي الحل التاني فقط. وقبل ما تنتهي من تقشير البطاطا بكون أنا انتهيت من المهمة. بدي أستطعم بطبخك على رواق.- أوكي. وأنا بتفرج عليك وإنت عم تكتب. أصلاً طول عمري مشتهية شوفك عم تكتب. نظرتُ إليها، وابتسمتُ من أمنيتها الطفولية، وشرعتُ أكتب إلى صديقتي العتيقة.. صديقتي الغالية!

شكراً على كل شيء. على رسالتك. على وجبات العشاء في منزلك الجميل! شكراً على السهرات اللطيفة! شكراً على علبة الدواء المهدىء التي أعطيتنيها مرّة عندما كنتِ تجزمين بأني حزينٌ أكثرَ مما ينبغي بعد زواج هناء وسفرها إلى بلادٍ بعيدة، وبأنّ هذه الحبوب سوف تجعلني أفضلَ حالاً. بالمناسبة، تلك الحبوب لم تجعلني أفضل حالاً، فتوقفتُ عن تعاطيها بعد الحبة الثالثة، وكدت أرمي العلبة في الزبالة، غير أني لم أفعل. هي هديةٌ منك. وهذا وحده كان كفيلاً بألاّ أنفذ الفكرة التي مرقت للحظة برأسي، فاحتفظت بالدواء لسنين طويلة جداً، وربما كنت أختفظ بها إلى اليوم في منزلي المهجور. وبعد.. انتهيتُ من كتابة الرسالة على عجل، ورفعت بصري عن الموبايل فورا، حتى إنني نسيت أن أرسلها، أو أنّ الأولوية عندي تلك اللحظة لم تكن الرسالة كلها. كانت تكمن عندي الأولوية في رؤية الإعجاب على وجه رشا من بعد أن رأتني أمارس الكتابة أمام ناظريها، رغم أنّ الذي مارسته لم يكن كتابة، فأنا لا أكتب في الفراش، ولا أكتب مستعيناً بالكي بورد.أنا من الطراز القديم بين الكتّاب.مازلت أكتب بالقلم. قلمٌ حبرُه أسودُ حتماً. أما الكي بورد فهو حادثٌ عَرَضي. وهذا ما سوف أقوله لرشا من بعد رؤية الفرحة في عينيها، ولهذا استعجلتُ أرفع رأسي عن الموبايل.ولم يكن أمامي سوى الخيبة.لم تكن البنتُ موجودةً في الغرفة.أيّ خائبٍ أنا؟! ها هي البنتُ تدخل الغرفة تحمل الطعام جاهزاً على صينية كبيرة. قالت: خلصت؟ قلت: خلصت. قالت: الرسالة كانت طويلة ولاّ كتابتك بطيئة؟ قلت: أنا بكتب بالقلم. قالت: هادا الجواب مو عن هادا السؤال. قلت: بعرف، وبلا نكد! ضحكتْ.ضحكتُ.وباشرنا طعامنا.كانت الأكلة لذيذةً، رغم بساطة مكوّناتها: شوية بطاطا، شوية زيت، شوية بيض، شوية نار.والنتيجة مدهشة. يسلموا إيديكي يا رشا! يسلموا إيديكي! قالت: وسطياً قديش كتابة المسلسل بتاخد من وقتك؟ قلت: وسطياً بكتب تناشر صفحة باليوم. والمسلسل وسطياً عبارة عن ألف ومتين صفحة. فتلَ دماغُها قليلاً وخرجت بالإجابة السليمة. قالت: يعني مية يوم. قلت: غلط. قالت: كيف غلط؟! احسبها،ألف ومتين على تناش؟ الجواب: مية. الأرقام ما بتكذب. قلت: الأرقام يا رشا ما بتكذب،

لكنها مع ذلك خدّاعة. والبنت لم تفهم قصدي، وهذا في الحقيقة لم يكن ذنبها، بل ذنبي أنا.إذن،لا بدّ من الإيضاح. قلت: سأل مرّةً أحدُ الصحفيين رسّاماً عن الزمن الذي استغرقه في رسم إحدى لوحاته، فقال الرسام: استغرق رسمُ هذه اللوحة خمسَ ساعات، وحياةً بأكملها. قالت البنت: يا الله! كيف فاتتني هي النقطة؟!وقالت: احكيلي عنك. احكيلي عن حياتك. قلت: حياتي؟!. أظن ما كان فيها شي بيستاهل أحكي عنو.قالت: ما بصدقك. قلت: تصطفلي. قالت: طيب احكيلي عن هناء.قلت: هاي البنت كانت غصّة العمر، أو على رأي أم كلثوم: كانت منام في الليل، وصحيت من بدري، ولا فِرح بيها قلبي ولا عيني. قالت رشا: إنت حابب تبكيني؟ قلت: سلامتك من البكا! قالت: أحياناً بحسك مغرور، وأحياناً بحسك مسكين. ليش؟! من وين هادا التناقض؟ من وين بيجيني هالإحساس اللي دائماً بيجيني ضدّه؟! قلت: معناتا أنا فعلاً هيك. وبالمناسبة، في بالدرامة مسلمات وفيه محظورات. من المحظورات: إيّاك ثم إيّاك أن تسخر من صاحب عاهة!!! ومن المسلمات: إيّاك ثم إيّاك أن تقول للقارىء أو المتفرج: إنت إحساسك باللي شفته أو قرأته كان غلط. الأحاسيس يا رشا دائماً صادقة. قالت: شو بفهم من هالحكي؟ قلت: خليكي على أحاسيسك. قالت: وأحياناً بحسك مقهور. قلت: معك حق. قالت: ليش؟ بسبب اللي عم يصير بالبلد؟ قلت: ليش اللي عم يصير بالبلد قليل؟! قالت: أكيد لأ، بس الوضع مانو عليك لحالك. قلت: بهالزمانات يا رشا، كان في تسعة وتسعين مثقف سوري كتبوا بيان يحذروا فيه من اللي عم ينتظر البلد إذا ما حصلت المعالجة الصحيحة لبعض المسائل الملّحة: حرية الإعلام، حرية الأحزاب، الإفراج عن المعتقلين السياسيين، وضع دستور جديد، الخ.

الصحافة السورية رفضت تنشر البيان، وهادا ما كان مفاجىء. البيان انتشر ببعض الصحف العربية وبأغلبية الصحافة العالمية، وحدة من الصحف الفرنسية اللي نشرت البيان كتبت عليه تعليق. قالت: طلبات المثقفين السوريين في عام ألفين هي ذاتها طلبات الثورة الفرنسية في عام 1789. بتعرفي شو معنى هالكلام يا رشا؟ يعني نحن متخلفين عن العالم متين وحداشر سنة،

هادا إذا اعتبرنا السنة عنا بتعادل سنة عندهن. والحقيقة طبعاً مو هيك.الحقيقة إنو السنة عندهن، على الأقل بالخمسين سنة الأخيرة، صارت بتعادل مية سنة على الروزنامة تبعنا. واللي قاهرني أكتر ولك يا رشا هو سعادتنا بالتخلف اللي نحن غرقانين فيه.العالم هلأ عايشين بمعطيات ألفين وأربعتاش، بينما إحساسي هو إني أنا عايش قبل عام1789. إحساسي إنو أنا من أهل الكهف. والقاعدة في الدرامة تقول: الأحاسيس لا تكذب. عم تفهميني رشا؟ الشي اللي عم تحسيه تجاهي أو حولي صادق تماماً. وبهالحالة إنتي قدام أحد أمرين: يا بتقبليني متل ما أنا، يا بترفضيني متل ما أنا. لا تحاولي تعيدي تركيبي من جديد. أولاً فات الوقت. أو بالأصح هادا تانياً. أولاً هو الآتي: ما في بني آدم بهالحياة مفصَّل على مقاس بني آدم آخر. مطلقاً. قالت البنت بنبرةٍ لا تخلو من احتجاج: لوين أخدتنا؟! وامتدّت كفها إلى جبيني. قلت: ما عندي سخونة. قالت: مبلى، عندك. صار لازم نكسر عتبة الألم. وكنتُ مطيعاً لها، وتناولتُ من يدها جرعة الدواء، وحمدتُ ربي، وشكرتُها على الطعام اللذيذ، ونهضت من الفراش على مهلٍ، وذهبتُ إلى الحمّام.وعندما رجعتُ إلى غرفة النوم لم أجدها هناك. جاءني صوتها من المطبخ: رح أعملك شاي. قلت: متل ما بدك. تمددتُ في الفراش، ورجعتُ إلى الموبايل. إلى صفحتي على الفيس. إلى صديقتي العتيقة. أعدتُ قراءة الرسالة، ولم أنقر على: إرسال. بل وجدتني أقرر فجأةً أن لا حاجة بي إلى هذا السجال وقد تراءى لي مجانياً تماماً، فألغيت الرسالة بكبسة زر، وانقطع التيّار الكهربائي في اللحظة ذاتها. كنتُ كمن يكبس زر إطفاء العالم.عالمي أنا. ما أهمية أن تملك إنترنت وأنت بلا كهرباء تتغذى بها هذه الأجهزة، الذكية منها والغبية؟ أنت من أهل الكهف، رغم أنفك. ويجب أن تكون سعيداً بهذا.لا بأس. ثمة في أنحاء المنزل أضواءٌ صغيرةٌ ضعيفة الأداء تعمل تلقائياً مع انقطاع التيار الكهربائي. ورغم أنها صينيةُ المنشأ إلا أنها تفي ببعض الغرض الذي صُنعتْ من أجله. إذن، لا خوفَ على البنت في المطبخ. ومع هذا سألتها بصوتٍ عالٍ: كيف الوضع عندك؟ قالت: لا تخاف عليّ، بدبر حالي، متعودة على أسوأ من هيك. قلت: الشعب السوري كله متعود. قالت: إلاّ ما تُفرَج.

وقالت: بس أرجوك لا تنام. نومك صار عم يخوفني أكتر من صوت القنابل والرشاشات. قلت: لا تخافي ما رح أنام. رح أفكّر.. بشو؟ سألتني. قلت: ما بعرف بالضبط، بس رح أفكر. قالت: كمان لا تفكر، ثم ليكني جاية، منفكر سوا. قلت: أنا بأمرك يا ست الصبايا! واسترخيتُ في استلقاءتي، وامتنعت عن التفكير. نفّذتُ أمر الصبية.لا أستطيع عدم تنفيذ أمرها. قضيتُ حياتي كلها مطيعاً للنساء عموماً، والصغيراتِ منهنّ على نحوٍ خاص.ولحظتي هذه ليست استثناءاً.سوف أنتظر قدوم المرأة الصبية الحلوة الناعمة الغضّة الرّيانة الحوراء الدعجاء اللمياء الوطفاء القطفاء الغيداء.. هههههه.. يا لخداع اللغة عند العرب!! يا لانحياز هذه اللغة إلى نفسها!! فحتى لفظة لغة بالعربية تذهب باتجاه الأنثى على نحوٍ لا لبس فيه. اللفظة بالانجليزية تأخذ صفة لا علاقة لها بالأنثى. أما في الروسية فلا وجود لهذه اللفظة أصلاً.يقولون: اللسان. واللسان مذكر طبعا.أما العرب فيتباهون بأنوثة لغتهم. ومنها يشتقون من المحاسن صفاتٍ لا حصر لها وينسبونها إلى المرأة. ولو حاولنا إلصاق هذه الصفات ذاتها بالرجل لجاءت النتائج كارثية. فبأية لفظة يمكننا تذكير هيفاء؟ ليس أمامنا إلا: أهيف.أي: ليس أمامنا إلا واحدٌ من أسماء التفضيل. وهذا بذاته إهانة للذكر. كيف للصفة المطلقة أن تتحول إلى: أكثر أو أقل؟! أكثر من ماذا، وأقل من ماذا؟ لماذا هذه الأرجحة؟ أين ذهب ذلك الثبات الشمولي الذي تتصف به الأنثى؟! إهانةٌ تضاف إلى الإهانة غير الفصيحة عندما نستخدم هذه اللفظة(أهيف) بوصف من كان سخيفاً من الرجال. هذا أسوأ من ذاك. وصفٌ سخيف واسم تفضيل في وقت واحد! ما هذا الازدراء للرجل؟! حتى إنّ أسماء التفضيل لا تصلح لغير المقارنة بين شيئين، رغم تظاهرنا بأنّ الأمرَ ليس كذلك تماماً. ولكنّ الحقيقة هي أنّ هدفنا من استخدام هذه الأسماء هو الوصول إلى معرفة أي الاثنين أكثر نذالةً من الآخر. هذا أسوأ من ذاك. هذا أنذل من ذاك. ولدينا دليلٌ قوي على صحة ما نقول: الاسم الذي يلي اسمَ التفضيل يكون إعرابه تمييزاً منصوباً. دائما. قاعدة أعرفها مذ كنت في المدرسة الابتدائية. وكانوا في كل مرة يأتوننا بالمثال ذاته: السيفُ أصدقُ إنباءً من الكتب.أصدقُ خبر مرفوع، والمبتدأ هو السيف.

وأصدقُ، رغم ما تخبر به عن حال السيف، تظل اسم تفضيل. إذن، إنباءَ تمييز منصوب. هل هذا واضح يا أولاد؟ نعم يا أستاذ، هذا واضح جداً. والمرأة عند العرب لا تكفّ عن المطالبة بالمساواة مع الرجل. أيّ جنونٍ هذا؟!.الذي أعرفه أنا من تجربتي الشخصية أنّ من وصل إلى مستوىً حقوقي مرتفع يصير صعباً عليه، بل مستحيلاً، النزول إلى مستوىً أدنى في الحقوق.لا يمكن لمواطنٍ هولنديٍ أن يتنازل عن جنسيته مقابل الحصول على جنسيةٍ سوريةٍ مثلاً. ولكنّ العكس قويّ الاحتمال. افهميها يا بنت. أنتِ هيفاء، وأنا أهيف. مَنْ مِنّا أولى بطلب المساواة إذن؟ يا إلهي!! فكّري في الأمر قليلا. مَنْ منا ينتظر الآخر؟ كل الذي أفعله الآن هو انتظارك. نعم. سوف أنتظر الصبيّةَ من أجل أن نفكر معاً.سوف أنتظرها مهما تأخرتْ.أو بالأصح: مهما تخلّفتْ. فاللمياء الدعجاء الهيفاء الحوراء لا تتأخر. هي فقط: تتخلف. وهذا يليق بها أكثر مما يليق الِحدادُ بإليكترا. وأنا أمتهن الانتظار، فالانتظار ليس غريباً عليّ. يُخيّلُ إليّ في بعض الأوقات أنّ حياتي كلها لم تكن إلا انتظارا. ولكن ما الذي كنت أنتظره على وجه الدّقة؟ لست أعرف. هذا سؤالٌ فوق طاقتي. لن أفكر بجوابٍ عنه حتى لو كان ضمن طاقتي، فقد وعدت امرأتي الصغيرةَ بالامتناع عن التفكير، ووعدتها بانتظار قدومها. وسوف أفي بوعدي مثلما يفعل جميع الرجال النبلاء. ولحظة انتظاري لم تطل. ها هي الأميرة رشا تجيء حاملةً الشاي في كوبين على صينيةٍ صغيرة. وضعتِ الصينيةَ على السرير وجلستْ قبالتي متربعة. ورانَ صمتٌ على قعدتنا. نظرتْ إليّ وقالت بعد رشفتين من الشاي: ماذا؟ قلت: إنني أفكر. سألتْ: تفكر بماذا؟ قلت: أفكر بلا شيء. قالت: ما هذا العبث الذي نمارسه أنا وأنت؟! ونهضتْ. وحملت الصينية، ووضعتها على الكومدينو، واندّست في الفراش من يميني. رجعتْ تتوسدُ كتفي وهي تقول: الآن يطيبُ التفكير. ما هذا؟ سألتُ نفسي وقد استشعرتُ في بدني رجفةً لا علاقة لها بالمرض. لها علاقةٌ بماذا إذن؟ قالت البنت: سوف أدفئك، وسوف أشفيك من هذا الدّاء.. أيّ داءٍ هو يا بنت؟ إننا شيخٌ وصبية. أيّ داءٍ هو هذا؟ تعالوا يا قومُ وانظروا في حكمة الخالق الجبّار! تعالوا وانظروا إلى ثمرةٍ من ثمرات الزنا! إنّ عقابه

شديد. إنه شديدُ العقاب.لا شيءَ ينفع مع هذا الدّاء يا رشا. ولكن أيّ داء هو هذا الذي يقلب تاريخنا، ويغيّر ترتيب الأولويات في حياتنا، ويسلبنا القدرة على الألم؟ أيّ داءٍ هو هذا الذي نغذّيه بالعذاب من أجل ان يتقدّ في نفوسنا بالحيوية المخادِعة؟ من أجل أن نمجّدً به شقاءَنا المسعور؟ من أجل أن نصيب به سعادةً لا نجرؤ على المجاهرة بها أمام الخلق وخالقهم؟ إننا نتغذى بالوهم يا رشا. فعلى مَنْ نلقي باللائمة إذن؟ ها هي أوجاعُنا مبسوطةٌ في زُرقةِ القمر. تعالوا يا قومُ تفرجوا! الفرجة بلا ثمن. بلا أدنى ثمن. تعالوا تفرجوا على هذه المخلوقات المنقرضة. تعالوا تفرجوا! الفرجة بلا ثمن.. أين سرح بك الخيال؟ لماذا أنت صامت هكذا؟ هل عادتك السخونة؟ سألتني. قلت: لا، أنا بخير. وأَزّتْ، فجأةً بل فجاءةً، رصاصةٌ في الفضاء الساكن من حولنا. رصاصةٌ واحدةٌ، يتيمةٌ. انتبهنا. عاد الصمت يرين على الخليقة. سألتني: ما هذا؟ قلت: أظنها رصاصة قنّاص. قالت: كيف تعرف؟ قلت: من صوتها، من يُتمها. أو ربما كانت رسالةً بين الأصدقاء في الوحدة العسكرية الواحدة، وبخاصةٍ إنْ كانت ملّونة. ونحن لم نشاهدها. سمعنا الصوتَ فقط. ومن الصوت فقط أرجحَ أن تكون رصاصة قنّاص. من اتجاهها على الأقل. رصاصة الرسائل تذهب في الهواء إلى أعلى من أجل أن تكون مرئية. وصوت هذه لا يوحي بأنها في الهواء.قالت: وهل تظنها أصابت أحدا؟ قلت: هذا جائز. قالت: هل جائز أيضا أنّ إنساناً ما في الجوار يموت في هذه اللحظة، من دون أن نكون قادرين على مساعدته في شيء؟ قلت: نعم، إننا غيرُ قادرين على أية مساعدة، فالقنّاص ينتظرنا. وربما كان هذا ما يسعى إليه أصلاً. لعلّه لم يُصِبْ أحداً! لعلّه ينادي أحداً من أجل أن يصيبه. هذا أيضاً جائز.وجائزٌ أيضاً أنه يبعث إلينا برسالةٍ يقول فيها: انقطاع التيار الكهربائي لا يمنعني من رؤيتكم، فأنا مزودٌ بمنظار يزيح العتمة من الدروب. قالت البنت: هل يستطيع أن يرى ما خلف الجدران أيضاً؟ قلت: ليس بعد، ولكن قد يكون مثل هذا الأمر في الطريق إلى التنفيذ قريباً. وجائزٌ كذلك أنّ الرجلَ خائفٌ، فأطلق الرصاصة كي يشجّع نفسه، أو أنه يريد أن يخبرنا الآتي: التجولُ ممنوعٌ بأمرٍ مني. أنا الحاكم بأمره.أنا أهبكم الحياة، وأنا أسلبكم

إيّاها.مصيركم في ضغطةٍ من زناد بندقيتي.هل تريدين مزيداً من الاحتمالات؟ ربما أطلق النار على قطةٍ تتجول على سطح إحدى البنايات المجاورة. سمعتُ عن أنواعٍ من البنادق القنّاصة التي تعمل من دون جندي يضغط على الزناد.هذا النوع مزودٌ بمجسٍ لحرارة الدم في الجسم. ولكنه ليس ذكياً بما يكفي لتمييز الحرارة بين جسم الإنسان وجسم الحيوان. الاحتمالات، كما ترين، يا صغيرتي كثيرة. قالت البنت: لا، إنها ليست كثيرة. نحن محاصرون. وهذه هي الحكاية كلها. قلت: نعم، أنت عل حق. وفي جميع الأحوال، نحن محاصرون إلى الصباح، وما باليد حيلة. تعالي لا نفكر بالأمر. قالت: نعم. هذا أفضل.حدثني عن نفسك. قلت: ماذا تحبين أن تسمعي؟ قالت: لماذا كنتَ كثيرَ الطلاق؟ ضحكتُ، وقلت: لأنني كنت كثير الزواج. ضحكتْ، وقالت: إذن، لماذا كنتَ كثير الزواج؟ قلت: لأنني وصلتُ باكراً جداً. قالت: لا أفهم. وصلتَ باكراً إلى أين؟ قلت: إلى المحطة. قالت: مازلت لا أفهم. أية محطة؟ قلت: محطتك أنت يا رشا. قالت: لا، إنك لم تصل باكراً. قلت: إذن، أنتِ مَنْ وصل متأخراً. قالت: لا، أنا لم أصل إلا في الوقت الصحيح. وقد قلتها لك من قبل. الأمسُ كان باكراً واليومُ هو الوقت المناسب. اليومَ أنت ملكٌ لي أنا وحدي، وبالأمس ربما كنتُ لن أنجح في المسابقة. سألتُ نفسي: بماذا تهرف هذه البنت؟ قلت لها: عن أية مسابقة تتكلمين؟ قالت: إنني أعرف. - تعرفين ماذا؟ - أعرف أنك كنت محاطاً بالنساء من كل صنف. - قلتُ وبالعامية: إنتي وحدة هبلة يا رشا! - ليش هبلة؟ - لأنو أنا أكتر رجل بالكون هربت النسوان منه. ضحكت البنت، ولم تصدقني، رغم أنني كنت أقول الحقيقة. قالت ساخرة: حلو التواضع، بس مو لهالدرجة!- الحقيقة يا رشا هادا مانو تواضع، لأنو هادا اللي صار فعلاً. - طيب كم مرة تزوجت؟ - ما بعرف، نسيت. - ها ها ها.. طيب قديش استمر أطول زواج؟ - حداشر سنة. - حداشر سنة مو قلال. وأقصر زواج؟ - أربع ساعات. - عم تمزح!! - يا ريتني كنت عم أمزح!! - يا الله! شبو صوتك؟! فوراً تغير. متل ما يكون عندك غصّة من هالحكاية.- الحقيقة إني لما بتذكر هالحادثة بتألم، بس مو لدرجة الغصّة. الغصّة الوحيدة

بحياتي هي البنت اللي رفضت إنو نتزوج أنا وهي، البنت اللي تركتني فجأة، تماماً فجأة، وسافرت لسويسرا، وتزوجت رجل ما بتحبه، ولا بتعرفه حتى، وعاشت معو تلات سنين، وماتت. - هناء؟ - هناء. - احكيلي عنها. - بلالك هالحكاية.. بتوجع القلب. بلالك وجع القلب يا رشا! - منشان الله احكيلي عنها! إذا كنت بتحبني بتحكيلي عن هناء. - لك أنا بعمري ما جبت سيرة هاي البنت على لساني، بعمري ما كتبت عنها، بعمري ما حكيت عنها لمخلوق، شو اللي ورطني معك هلأ؟- عم قولك إذا بتحبني! - ما بحبك. - طيب ورحمة هناء تحكيلي عنها.- عن شو بدي أحكيلك ولاّ عن شو ولك يا بنت؟ -احكيلي كل شي، كل التفاصيل، من طقطق للسلام عليكم.. وأذعنت برغبتها الملحاح، وشرعت بالحديث عن هناء وقصتي معها، ورشا تنصت باهتمام، من دون أن ترفع بصرها عن وجهي. أظنها كانت بنظرتها تحاول أن تنفذَ إلى روحي، وربما بدت لها عيناي كثيرة التعب، وأفكاري قليلة التجانس، وربما قالت في نفسها: إنها سآمة الحياة.. وربما رأتني رجلاً شقياً يستأهل الشفقة، فها هي ذراعها تضغط على صدري بحركة عفويةٍ تماماً.. واخترقت الصمت من حولنا رصاصةٌ ثانية أعادتنا إلى الواقع مرةً واحدة. وقالت رشا: هذه الرصاصة أصابت أحداً ما. قلت: كيف عرفتِ؟ قالت: سمعت خبطةً أو ارتطامةً. ألم تسمعها أنت؟ قلت: أظنك على حقٍ يا رشا. وأصخنا السمع لنصف دقيقة تقريباً. لم نسمع أيةَ أصوات. قالت: هل أطلقتَ النار على إنسانٍ مرةً؟ قلت: لا، ولكني أطلقت النار ذاتَ ليلة على حيوانٍ شرس. قالت: كيف؟ متى؟ قلت: كتبت عن تلك الحادثة في إحدى رواياتي. والبنت لم تقرأ أيّاً من تلك الروايات. قالت: حدثني كيف حصلت الواقعة. رحت أسرد لها بعضاً من ذكرياتي في خدمة العلم حين أطلقت النار على قطٍ برّيٍ شرس. ثم استرسلتُ في الحديث عن تلك الحقبة من شبابي. قاطعتني تقول: هذا الكلام ليس ممتعاً، فلنرجع إلى هناء لو سمحت. أرجوك! - لماذا هذا الإصرار لديك؟ هل ترغبين بالبكاء؟ - لن أبكي. وعد. - حسناً! لكِ ما تريدين. - حدثني عن لحظة الفراق. متى وكيف وأين؟ - بأمرك أنا يا رشا!. وشرعتُ من جديدٍ بالحديث عن غصّة العمر التي اسمها

هناء، أو تلكَ البنت التي لم أكن أعلم أنها من أهل الهوى. أو هذا ما صرت أفترضه مذ تركتني فجأةً وسافرتْ إلى بلاد بعيدةٍ من أجل أن تموت. وإن كان ما أفترضه سليماً أصير قادراً على تبرير مجمل سلوكها تجاهي مذ وقع اختيارها عليّ شريكاً في الهوى وحتى رحيلها عن هذه الدنيا التي سوف نغادرها نحن أيضاً، فمشكلة الإنسان مع الحياة أنها سوف تنتهي به ذاتَ يوم. وهو يومٌ قريب مهما تراءى لنا بعيداً. وأهلُ الهوى يدركون هذه الحقيقةَ أكثرَ مما ندركها نحن الأسوياء من البشر. فنحن نسعى على الدوام إلى إثباتِ بطلان هذه الحقيقة، فنروح نتشبث بالحياة. وتلك هي أكبرُ مصائبنا. وهكذا تصير الحياةُ، بالنسبة إلينا، أكبرَ مصائب الحياة. أما بالنسبة إلى أهل الهوى، فالأمر مختلفٌ تماماً. الموتُ عندَهم غايةُ الهوى. والحياةُ وسيلةٌ من وسائله. وهي عندهم وسيلةٌ غبيةٌ حتماً. ولن تكون يوماً أكثرَ من وسيلةٍ غبية، رغمَ ما تبعثه فيهم من أحاسيس عظيمةٍ بلّذة الألم الذي يقطّع أرواحهم البائسة، ولا ينتهي بغير الموت. ومَنْ يدري؟ ربما يتواصل إلى ما بعد الموت أيضاً! ربما حملوه معهم إلى القبر. حدّثتُ رشا عن هناء، ولكن ليس بهذه الكلمات. كنت أسرد لها الوقائع فقط. وشرعت البنت تبكي عندما وصلتُ في السرد إلى المشهد الأخير في الحكاية، فقد عادت هناء إلى دمشق في زيارةٍ يمكن اعتبارها خاطفة. مكثت في دمشق خمسة أيام. ولكنني لم أعلم بتلك الزيارة في حينها. وكانت هذه رغبة هناء. وفي أحد تلك الأيام الخمسة لم يكن يفصلني عنها غير جدارٍ لا تتجاوز سماكته عشرين سنتمتراً. كنت في زيارةٍ لصديقي أحمد في منزله. وكنت أجلس مع ربِّ البيت وربّته في الصالون، بينما كانت هناء ترقد في الغرفة المجاورة. لاحظت في تلك الزيارة اضطراب الطبيبين، وخمّنت أنَّ ثمّة مشكلةً ما بين الزوجين الشابين، وكدت أن أسألهما عن الموضوع، وأن أعرض خدماتي عليهما بوصفي صديقاً غير منحازٍ سلفاً لطرفٍ دون آخر، غير أنّهما لم يعطياني فرصةً لذلك، ففضلت التزام الصمت، ثم الانسحاب بهدوءٍ بعدئذٍ. لم أعلم بالزيارة إلاّ بعد موت هناء. أي بعد أكثر من شهرين على ذلك المساء المتوتر. أحمد هو الذي بادر إلى مصارحتي بالأمر. قال لي: كانت هناء ترقد على بعد سنتمترات قليلة من

حيث كنت تجلس في ذلك المساء. كانت مريضةً جداً. يكفي أن أقول إنها كانت ضنينةً بالأمل، شديدة الارتباك من احتمال لقائك، ولو بالمصادفة، من بعد أن غدت في لونٍ غير متجانس وقد قمطت رأسها بإيشاربٍ بعدما تساقط شعرها بسبب الأدوية الكيميائية. سألته: من أجل أيِّ شيءٍ جاءت إلى دمشقَ إذن؟ هل من أجل أن تودع أهلها؟ قال: لا، حتى إنّ أهلها لم يعلموا بأمر تلك الزيارة. لم يعلم بالأمر سواي أنا وليلى. جئنا بها من المطار إلى البيت الذي لم تخرج منه إلاّ مرةً واحدة. قلت: إلى أين ذهبت في تلك المرة؟ قال: إلى الشام القديمة، وقد كنا بصحبتها ليلى وأنا؟ قلت: وماذا فعلتم في الشام القديمة؟ قال: لا شيء خاص. تجولنا في الطرقات. شربنا عصير البرتقال في سناكٍ على الرصيف. ثم رحنا نتمشى في الحواري العتيقة، ولكنها شعرت بالتعب، فعدنا بها إلى البيت الذي لم تغادره إلاّ إلى المطار. قلت: ألم تسأل عني؟ قال: لن أكذب عليك إنها لم تفعل. قلت: ماذا كان هدف الزيارة إذن؟ قال: صدّقني لا أعرف، وإن كنت أظن بأنها جاءت تودع مطارح القلب المفضلة.. وقالت رشا: هذه القصةُ أغربُ من الخيال. وظلّت تبكي. مسحتُ بكفي الدموع من وجنتيها، وأنا أقول لها: حذرتك من البكاء. قالت: لا بدّ وأنك عانيت آلاماً فظيعةً بسبب هذه البنت. - نعم، لقد عانيت آلاماً فظيعة، ولكنني عانيت بصمتٍ يا رشا، وفي الحقيقة أنني مازلت أعاني إلى اليوم، رغم مرور تلك السنين الكثيرة على رحيلها عن دنياي البائسة. قالت البنت: كفى أرجوك! لا أريد أن أسمع المزيد عن هذه المرأة. قلت: نعم، هذا حقك يا رشا. ورنّ موبايل البنت. إنها صديقتها التي تشاطرها السكن. كانت مشغولةَ البال على رشا، التي راحت تلوم نفسها على عدم الاتصال بالصديقة، الأخت، الوفية، الطيبة، وأعلنتها أنها بخير، وأنها ستتغيب عن المنزل يومين أو ثلاثة، وأنها سوف تتصل بها في غدٍ حتماً، وتمنّتْ لها ليلة سعيدة، وأطفأت الموبايل، فجاء دوري أنا، بالموبايل طبعاً. قلت لهناء: افتحي السبيكر. إنها رزان. كانت عاتبةً عليّ. حاولت رشا أن تنهض وتنصرف. ولكنني منعتها من ذلك. قالت رزان: ما بعرفك بخيل. - أنا آسف يا رزان! - مو على أساس تعزمني عَ الغدا؟ - مبلى، ولهيك أنا آسف. امهليني كام

يوم، عندي شوية مشاغل. - شبو صوتك؟ - يمكن عندي كريب، لهيك عم قولك تمهليني كام يوم. - سلامتك انشالله! - الله يسلمك! - شو صار معك بالسيارة؟ بعتها؟ - إي بعتها. - وانشالله جابتلك سعر منيح؟ - أظن السعر اللي جابته كويس، يعني متل ما بتعرفيها سيّارة نضيفة. -إي طبعاً، كتير نضيفة. على كلٍ، ما على قلبك شر! - تسلمي. - إذن، أنا بانتظار تلفون منك. - أكيد. - أوكي! باي! - الله معك! أغلقتُ رشا السبيكر وقالت من فورها: إيمت بعت السيارة؟ قلت: من يومين يا رشا. كنت بحبها كتير هي السيارة بالذات. وضحكتُ وأردفت: لذلك مرضت على فراقها. - لا بقى تجيب سيرة المرض الله يخليك. تنذكر انشالله وما تنعاد. مو ناقصنا سموم، بالعكس، بدي تحكيلي شغلة بتفرح. - شغلة متل شو؟ قالت: حدثني عن أي شيء مفرح في حياتك، لا يعقل ألاّ يكون في سيرة العمر لديك شيءٌ بهيج. قلت: أنت على حق. حدثتها عن قصتي مع المطبخ حيث كانوا يسرقون طعام الجنود. حدثتها عن العقوبة التي حكم عليّ بها قائد اللواء. تلك في الحقيقة لم تكن عقوبة. كانت نقاهة. عملياً قائد اللواء ما كان عم يعاقبني. وما كان عم يكافئني كمان. كان عم يحميني. كان عم يحميني من ضابط الأمن. أخد منه المبادرة، وتظاهر بالغضب عليّ وأمر بعقوبتي خمستاشر يوم، لكن قبل هاد كله عمل الشي الأهم: مزّق تقارير المخبرين. وتظاهر بالغضب عليّ. عندك خمستاشر يوم تعني خمستاشر يوم سجن، لكن مو سجن بالمعنى التقليدي. لو كانت العقوبة ستاشر يوم فهي بتصير بلوائح الجيش عقوبة عن جد. الخمستاش معناها ممنوع عليك مغادرة حدود اللواء. بس. قلت لرشا:- سجن كبير. مساحته ستاشر كيلومتلر مربع. وديان وسهول وهضاب، والفصل كان ربيع.وما عندي أية التزامات. ما أنا معاقَب. ما عندي مسؤوليات. نقاهة حقيقية. في فترة بعد الضهر كنت أتسلبط على ملعب كرة الطائرة. ما حدا طبعاً بيقدر يقوللي لأ. أنا الضابط الوحيد بالملعب. اكتشفت وبسرعة إنو هاي اللعبة ما بتناسبني. بدها قامة طويلة. تركتها، وانتقلت لملعب كرة القدم.طول القامة هون ما بيعني شي، ثم إني لعبت كرة القدم بالمدرسة الثانوية. حتى إني كنت بمنتخب المدرسة، وكنت قلب هجوم كمان. وخضنا تصفيات مع

عدة ثانويات بدمشق. وكنا نربح. بس الله يرحم أيام الثانوية. كانت مرقت سنين وسنين على هديك الأيام. يعني اللي ضرب ضرب واللي هرب هرب. لذلك وجدت نفسي فجأة اللاعب الأسوأ على أرضية الملعب. إذن، لا بد من استخدام صلاحيات خارج قوانين اللعبة. مرّة تانية أنا الضابط الوحيد بالملعب. صرت أفرض على الحكم، وكانت رتبته رقيب، يمنحني ضربة جزاء. كان يقوللي: سيدي أولا ما حصل أي احتكاك مع لاعب منافس، تانياً وهو الأهم، سيادتك كنت بنص الملعب، يعني بعيد كتير عن منطقة الجزاء. كنت أرد عليه: بتنفذ الأمر العسكري يا رقيب. - سيدي أنا هلأ حكم المباراة، ماني رقيب.- إذن، عندك تلات تيام سجن.- لأ سيدي دخيلك! على شو السجن؟! أحلى ضربة جزاء لسيادة الملازم حسن. وكان يوقف اللعب مشيراً إلى نقطة الجزاء. وكان الجنود اللاعبون يستغربون الأمر في البداية، ثم صاروا يجدون فيه طرافةً، حتى إنّ أحدهم قال لي مرّة: انشالله بتضل معاقب طوال مدة الخدمة يا سيادة الملازم! قلت له: الله يقصف عمرك على هالدعوة! وكانت رشا تضحك مما أرويه لها. وأنا كنت أسعد (فعل، وليس اسم تفضيل) بإضحاكها.- ولك يا رشا النكتة مو هون. - شو في لسه؟ - كان فيه الأدهى: كان الحارس يصد ضربة الجزاء اللي أنفذها. ورشا تضحك أكتر. - ولك يا رشا النكتة مو هون.- شو في لسه؟ - لسه في الأمرّ. - شو؟ - لما يئست من تسجيل ضربة الجزاء للمرة التناش، قلت لحارس المرمى: اعتباراً من هاللحظة إنت معاقب تلات تيام سجن. بتنفذ الأمر فوراً يا عريف.- ونفذه؟ - أكيد لأ، لأني ماكنت رح أسمح بهالشي، بس هو طلع فهمان عليّ، وخرج من المرمى. - إي؟ - من غير إيه. سددت الكرة على المرمى الفارغ قمت صبت العارضة، وارتدّت الكرة لوسط الملعب. -معقول إنت؟ وتضحك البنت. - حبيت أعمل فيها ماردونا، إنو على أساس بدي أضع الكرة بالزاوية، قمت صبت العارضة. وتضحك رشا، وتضحك. - ولك يا رشا لسه الحكاية ما خلصت. - ليش شو ممكن يصير أكتر من هيك؟. - ولك صار وخلص. - شو؟ - الحكم اعتبر إنوالكرة دخلت المرمى وإنو الهدف شرعي، رغم إنو الكرة كانت ورانا أنا وهو.

والبنت تكاد أن تسقط عن السرير وهي لا تتمالك نفسها من شدة الضحك.- بتعرفي ساعتها شو عملت مع الحكم؟ قرّبت منه، ومدّيت إيدي لجيبة سترته، وطالعت من هنيك الكارت الأحمر، ورفعته بوشه. - طردت الحكم؟!- طبعاً، لأنه ما كان عادل، الهدف ما كان صحيح، إذن لازم يتحمل نتيجة أفعاله المشينة. - وبعدين؟ - شي حلو إنه الواحد يكون ديكتاتور، وما في مين يسائله.- سألتك: وبعدين؟ - ما في بعدين. ناديت العريف حارس المرمى، عطيته البطاقة، وقلتله ارفعها بوشي، قام هو تردد. قال: ما بيصير سيدي أنا عريف وسيادتك ملازم. قلتله: مادام هيك، إذن نفّذ الأمر العسكري يا عريف، وارفع بوشي البطاقة الحمرا، لأني بستاهلها. المسكين ضل متردد. قلتله: إذا ما رفعت البطاقة بوشي، فهالمرة عندك تلات أيام سجن عن جد، وما رح أرحمك. وصرخت عليه، وانتهرته. خاف من تهديدي. ورفع إيده اللي عم ترجف بالبطاقة الحمرا في وجهي. وهيك غادرتُ مطروداً، وما عدت رجعت لملعب كرة القدم ولا حتى كمتفرج. تركت الملعب لأهله.- فعلاً إنت مو معقول. وهمّتْ بالنهوض وقد تذكرت أنها ظلمتني كثيراً هذا اليوم. - وين رايحة؟! القصة لسه ما خلصت. - عم تمزح! - لا والله ما عم أمزح. - شو في كمان؟ - اقعدي، لسه قدامنا الأهم. - شو بقى في أكتر من الطرد؟! - في رواية كتير مهمة بالأدب الروسي اسمها ماستر ومارغريتا. بمعنى المعلم ومارغريتا.كانت ممنوعة من التداول أيام دراستي بموسكو. كنا، بقصد نحن الطلاب، نتشاطر ونمرق لبعضنا مقطع منها نحصل عليه بطلوع الروح، وفجأة بتجيني هاي الرواية هدية من سويسرا. النص الكامل باللغة الأم. - لا تقوللي من هناء! - للأسف كانت الهدية من هناء. ما قدرت أقرأها، ما قدرت أكمل قراءتها. كانت كاتبة على الصفحة الأولى، وبخط اليد بيت شعر لرابعة العدوية: أحبّك حبّين: حبَّ الهوى/ وحبّاً لأنكَ أهلٌ لذاكَ.. كنت جايب الرواية معي عالمعسكر. قلت بقراها بليالي المناوبة. كنت أمسكها كل يوم وأحاول أقرأ. وكنت كل يوم ما أقدر أتابع. كانت هناء كاتبة بيت الشعر نفسه وبخط إيدها على كل صفحة من صفحات الكتاب. بتعرفي؟ لاحقاً تُرجمت هاي الرواية للغة العربية،

واشتريت منها نسخة، بس ما قدرت أقرأ فيها أكتر من خمس صفحات. حتى النص بالعربية كان يذكرني بهناء. وهيك بقيت هاي الرواية ناقصة بحياتي.المهم. بهداك اليوم اللي قررت فيه إني ما بقى إرجع لملعب كرة القدم. بالليل. كنت متسطح عالتخت العسكري ببيجامة الرياضة وبين إيديّ الرواية ذاتها عم أحاول أغصب نفسي أكمل قراءتها. سألني المراسل حمدون اللي طلب مني ضابط الأمن أجيبه مراسل عندي لأنو درويش. ضابط الأمن نفسه اللي هدّد بأنه رح يضرب بيد من حديد بسبب السرقة اللي عم تصير بالمطبخ. سألني حمدون الدرويش اللي قاعد قريب من التلفون العسكري: سيدي شو عم تقرأ؟. قلتله: رواية. قال: بأي لغة؟ قلتله: باللغة الروسية. قللي: سيدي كم لغة أجنبية بتعرف؟ قلتله: يعني شغلة خمسين، خمسة وخمسين لغة. راح يصفر من الدهشة. قلتله: ليش عم تصفر؟ إنت كمان فيك تتعلم كل هاللغات. قال: كيف؟ قلتله: شغلة كتير سهلة، ما بتشوف على بسطات الكتب كيف تتعلم اللغة الصينية في أسبوع؟ خلص ولا يهمك. أنا ببقى بجيبلك كتاب كيف تتعلم اللغة الروسية في أسبوع. ومنصير جكراً برفقاتك نحكي بالروسي أنا وإنت. قال: فيها وجهة نظر، لكن سيدي هلأ بهاللحظة شو عم تقرأ؟ - قلتلك عم أقرأ رواية. صفن الجندي لحظة طويلة قبل أن يعلن: طيب أنا كيف بدي كون متأكد إنك عم تقرأ رواية مو شي تاني؟! صفنتْ رشا لحظةً وقد ثقل عليها الحزن من بعد صمت. ثم اعتدلت في جلستها وهمست: كان عم يتجسس عليك؟! بالضبط يا رشا. كان عم يتجسس علي. كان ضابط الأمن مقرر يضرب بيد من حديد، بس مو على إيد اللي عم يسرقوا طعام العساكر، وإنما على إيد اللي تجرأ وفضح السرقة. ساعتها بس عرفت إنه قائد اللواء كان عم يحميني من ضابط الأمن، حتى لو تظاهر بالغضب علي، وعاقبني خمستاشر يوم.- هلأ هيك جيشنا؟! وعاد التيار الكهربائيّ إلى العمل فجأة. وزغردتْ إحدى البنادق في الجوار برشقةٍ طويلة ابتهاجا بالحدث السعيد. ونزلت رشا عن السرير، وغادرت الغرفة، ورجعت بعد قليل تحمل إليّ علبة السجائر مع الولاّعة السحرية ومطفئة، وقالت: أنا آسفة! أنا ظلمتك كتير اليوم.وجلستْ متربعةً على السرير، من

دون أن ترفع بصرها عني، ومن دون أنَ يزايلها الحزن الثقيل من بعد الصمت الذي طال قليلاً بيننا. قالت بصوتٍ يئنّ من وطأة الأسى: تعرضت بحياتك لأذى من أي نوع؟ قلت: الجواب يا رشا هو: لأ. ما بيخلى الأمر من شوية مضايقات. لكن، على العموم، كانت مضايقات زغيرة، وما بتستاهل حتى إنو أحكي عنها. - مضايقات متل شو؟ - قلتلك زغيرة. بقصد زغيرة على المستوى الشخصي. جايز على مستوى البلد ككل ما تكون زغيرة. لكن شو نعمل؟ هادا الحاضر. هيك السوق وهيك منسوق.اللي قاهرني يا رشا هو هادا الإحساس إنو أنا لسه عايش قبل 1789. مشكلتي إني شفت العالم. زرت بلاد كتيرة. أحياناً بتمنى لو إني بعمري ما طلعت برات سوريّا. يمكن ساعتها بكون مرتاح. ما بيكون عندي المقارنة اللي بتسم البدن. أنا بعرف إنو العالم كله فيه فساد. لكن حتى الفساد إله سقف، وما ممكن تجاوزه، مو منشان شي، بس منشان الأسس اللي بتقوم عليها المجتمعات تضل سليمة. المشكلة عنا مو إنو الأسس مانها سليمة، المشكلة إنها أصلاً مانها موجودة. خلال حياتي المهنية التقيت بشوية مسؤولين، بس ولا مرّة التقيت بواحد منهن إلاّ وتمنيت إنو اللقاء ينتهي فوراً. مرّة كنا باجتماع مع سيدة من اللي شغلوا منصب وزير ثقافة.كنا في قاعة الاجتماعات الملاصقة لمكتب السيدة في مبنى الوزارة.كنا نناقش أسباب تراجع السينما السورية بعد طفرة من اللمعان.كانت المرأة، أثناء الاجتماع، كثيرة الاندهاش من كل شيء تسمعه من أحد الحاضرين.وكانت مع كل اندهاشة تقول: "ولي على قامتي!" أو: "معقول في هيك شي؟!" أو: "كرمال خاطري! " أو: "تقبرني انشالله!." من المؤكد أنها سيدة لطيفة جداً.ومن المؤكد كذلك أنها أمّ رؤوم، وزوجة صالحة، وربّةُ منزل ممتازة، وأستطيع أن أجزم بأنها تعدّ في مطبخها من الطعام أطيبَه، وبخاصة (الباسمشكات) التي أحبها كثيراً.هذا كله بدا لي مؤكداً. ولكن من المؤكد أيضاً أن هذه السيدة تجلس في المكان الخطأ.من المؤكد أنّ من وضعها على رأس الثقافة قد ظلمها كثيراً، وظلمني قليلاً، لأنني في تلك الجلسة اليتيمة التي جمعتني بها لم يكن لديّ من مشاعرَ تجاهها سوى الشفقة عليها وعلى نفسي أيضا.وجدتني فجأةً منفصلاً عن الاجتماع وأنا أنظر إلى المرأة الطيبة

وأتساءل عن: المعايير المعايير التي يتم بموجبها تكليفُ هذا الشخص أو ذاك بهذه الوظيفة أو تلك. لا بد من وجود معايير، أو مقاييس، أو مواصفات، أو سميها ما شئتِ يا صديقتي. في علم الأدوية يسمونها دساتير.والأمم الصناعية المتقدمة تتباهى بدساتيرها الدوائية أكثر من التباهي بديمقراطياتها. سويسرا مثلاً. السويسريون يتباهون بأنهم يملكون الدستور الدوائي الأكثر صرامةً حول العالم. لكل شيء ميزان: الطعام، الدواء، الثياب، الأحذية، وجبات القطط والكلاب المعلبة، الخ. لكل شيء مواصفاتٌ لا بد وأن تنطبق عليه من أجل أن يصير صالحاً للتداول. أفهم أن يكون وزير الدفاع ضابطاً في القوات المسلحة، رغم أن هذا ليس حتمياً. وأفهم أن يكون وزير الداخلية ضابطاً في جهاز الأمن، رغم أن هذا أيضاً ليس حتمياً. ولكن ماذا عن بقية الوزراء؟ من الذي يكلّفهم بالحقائب؟ وبناءً على ماذا؟ يُحكى أنّ أجهزة الأمن هي صاحب الدور الأكبر في اختيار عديد الأشخاص لشغل مناصب وزارية في كل حكومةٍ جديدة. أقول يُحكى لأنني لا أملك دليلاً. ولكن حتى لوكان الأمر كذلك بالفعل، أليس يوجد لدى أجهزة الأمن معايير لهذا الغرض؟ وإنْ وُجدت، فماذا تكون؟ الولاء لأجهزة الأمن نفسها مثلاً؟ ربما كان الأمر كذلك. ولكنّ هذه السيدةَ أكثرُ طيبةً من أن تكون مفيدةً لأجهزة الأمن في شيء. وهي في الوقت نفسه أكثر ضعفاً من أن تبسط هيمنةً ما على المشهد الثقافي في البلد. ما الحكاية إذن؟! فكّرتُ في الأمر كثيراً، وأعترف بأنني لم أصل إلى أية نتيجةٍ سوى التشويش. تشوّش دماغي، من دون أن يتوقف قلبي عن الإشفاق على السيدة الوزيرة، وعلى نفسي، وعلى البلد جميعه. وصرتُ شديد الضجر من وجودي في تلك القاعة. رحتُ أسألُ نفسي: ما الذي أصنعه أنا الآن، هنا؟ لم أكن قادراً على عمل شيء سوى الهروبِ من لعنة الإشفاق. وهذا ما فعلته. تلاعبت بالموبايل خاصتي خلسةً. جعلته يرنّ. ردّيتُ على المتصل الافتراضي: "أهلين!.. معقول؟! – ثم تصنعتُ الدهشة – شو عم تحكي إنت؟!! – ثم تصنعتُ الخوفَ – طيب ليكني جاي فوراً." وأغلقت الخط. سألتني السيدة الوزيرة: "خير؟ شو في؟" شغلة طارئة، اسمحيلي أمشي!" " فيني ساعدك؟ قول

ولا تخجل." شكراً دكتورة! مسألة شخصية، لكنها مستعجلة." " طيب عالأقل خليني أمنلك سيارة." " ما في داعي. ألف شكر! سيارتي ليكها برّا. ألف شكر! سامحوني يا جماعة. مضطر. بالإذن!" وخرجتُ. وسيارتي لا برّا ولا جوّا. السيارة مع زوجتي، وزوجتي ربما كانت في السوق تشتري شيئاً ما، نحن على الأرجح، لسنا بحاجةٍ إليه. خرجتُ من مبنى الوزارة، ورحت أتمشى في شوارع حي الروضة، وكان يلحّ علي سؤالٌ واحد: ترى هل يكون من اللائق لو سألتُ السيدةَ الوزيرةَ يوماً أن تستضيفني على الغداء مع أسرتها؟. ضحكتْ رشا من السؤال الذي راودني من بعد تلك الجلسة الكئيبة. قلتُ للبنت: قصتي مع وزير الثقافة التالي حسمتْ رأيي بالمسألة كلها. حدثت هذه القصة في المكان السابق ذاته. قاعة الاجتماعات الملاصقة لمكتب السيد الوزير. (هذا الرجل الآن في صفوف المعارضة. وأنا هنا لا أتحدث عن معارضةٍ وموالاة. إنني أتحدث عن مسؤولية المنصب).. اجتماع اللجنة التنظيمية العليا لمهرجان دمشق السينمائي. وهذه بين جميع لجان المهرجان يرأسها وزير الثقافة، وتضمّ في عضويتها قرابةَ خمسةٍ وعشرين مثقفاً، أو مديراً لبعض المؤسسات الثقافية والإعلامية. لن أنسى ذلك الاجتماعَ مادمتُ حيّاً. استمر خمس ساعاتٍ متصلة. كان نصيبُ السيد الوزير منها بالحديث أربعاً. كان المنطق يقول بخلاف الذي حصل، فهذه دورة المهرجان الأولى في عهد سيادته. إذن، عليه أن يصمت كثيراً، ويصغي كثيراً ليفهم ولو قليلاً طبيعة المتاعب التي واجهت القائمين على المهرجان في الدورات السابقات، وليعمل بالتالي على مساعدتهم في تجاوز تلك المتاعب. ولكنّ الذي حدث كان عكسَ المنطق تماما. الذين يعرفون هذا الرجل يؤكدون على أنه شخصٌ ممتاز. ولكنّ ممتاز هذه لا تنفع هنا في شيء، فالمشكلة ليست في كونه احتكر الحديث حسب. المشكلة أنه طوال أربع ساعات لم يقل جملة مفيدةً واحدة. كل ما قاله إنشاء. يبدو أنه لا يقدر على غير الإنشاء. هل أعود إلى السؤال عن المعايير؟ لا أظن بوجود فائدةٍ تُرتجى من السؤال. السيد الوزير مفطورٌ على الإنشاء. هذه هي الثقافةُ في نظره. والأمر خارجٌ عن إرادته. هكذا خلقه الله، فلا حولَ ولا قوةَ إلاّ بالله! وأنا أمقت الإنشاء. هكذا الله خلقني.

إذن، كيف الحل يكون؟ قررتُ عدمَ حضور أيّ اجتماع يرأسه وزيرٌ للثقافة في سوريا. وقد نفّذت قراري. وقبل يا رشا أن تسأليني أيّ شيء، لقد نفّذتُ قراري. ما مرة التقيت بواحد من هالمسؤولين إلاّ سألت حالي: أنا شو عم أعمل هون؟! قالت رشا: بتعرف شو؟ - شو؟ - إنت ما بتنترك لوحدك، وقبل ما أنسى لما بيرجع صديقك وزوجته من السفر وين رح تسكن؟ هون برضو؟ - لأ، أكيد لأ. - إذن شو؟ بتروح لبيتك؟ -كمان لأ، لسه بكير. المعارك في داريّا مستمرة.- إذن شو ناوي؟ - بستأجر بيت قريب من هون، أو بروح عَ الفندق. - وبتاخدني معك طبعاً. - وليش طبعاً؟ - لأنو أنا هيك بدي. - يا سلام! - عم أحكي جد؟ -إذا جاي على بالك تسكني بفندق، بحجزلك غرفة، تكرمي يا ست رشا. - لا أنا مو جاي على بالي أسكن بفندق إلاّ إذا كان هادا هو الحل الوحيد المتاح، ساعتها ما عندي مانع. لكن مو تحجزلي غرفة، لأني بدي كون معك بغرفة وحدة. قلتُ وأنا أضحك: ممنوع. الشرطة في الجمهوريّة العربيّة السوريّة لا تسمح بهذا. نحن يا بنتي مو بأوروبا. - صح، نحن مو بأوروبا، نحن أسهل من أوروبا. - كيف؟ ما عم أفهم. - مبلى عم تفهم وعم تتغشمن كمان. عقد الزواج ما بيستغرق أكتر من ربع ساعة. - زواج؟! عم تنكتي؟ - أبداً، بعدين دخيلك شو هو عقد الزواج؟ وسيلة. مجرد وسيلة. المهم الغاية، وأنا غايتي نبيلة. - الغايات النبيلة يا بنتي بدها وسائل نبيلة. ضحكتِ البنت، وقالت: شو هالاكتشاف العظيم!! بعدين شو يعني؟ عقد الزواج وسيلة حقيرة؟! وراحت تضحك وهي تضيف: بفهم من كلامك إنو أنا وإنت جينا عَ الدنيا نتيجة حقارة أهالينا؟. وجدتني أضحك أنا أيضاً. - ولك إنتي من وين جايبة هالدماغ الحلزوني؟ - مو بيقولوا الحاجة أُمّ الاختراع؟. ثم إنت شو خسران؟ نحن بنعمل عقد الزواج، وبعدها تصطفل كيف بتنظرلي أو بتعاملني. بدك تعتبرني إمك، زوجتك، أختك، بنتك، حبيبتك،مو فارقة معي. المهم إنو إنت ما بتنترك لوحدك، ولهيك أنا ما رح أتركك، ولا تناقشني، وبالمناسبة، إنت ملاحظ اللي أنا ملاحظته؟ قلت: ما عندي فكرة عن شو عم تحكي، ما إنتي لخبطتيني بالطول وبالعرض. قالت: سلامتك من اللخبطة. وقالت: السيجارة. قلت:

شبها السيجارة؟ قالت: لهلأ ما شعلتها. قلت: نسيت. قالت: إذا صرت تنسى فهادا شي ممتاز. قلت: شو معنى هالكلام؟ قالت: معناه إنو كسرنا عتبة الألم. وبهالمناسبة، رح أكافئك. - كيف يعني رح تكافئيني؟- رح أعملك فنجان قهوة. ونهضتْ من فورها، وانصرفتْ. وألقيتُ إثرَها نظرة. بماذا تهرف هذه البنت؟ كنت أريد ان أقنعها بأن تشتري لي قبراً، فإذ بها تسعى إلى إقناعي بالزواج منها. أيّ زواج أيتها المرأة الصغيرة البلهاء؟! فهل بقي على هذه الأرض ما يستحق الزواج؟! وسوف ترشيني بفنجان قهوة من أجل القبول بما تقترح عليّ! حسناً، سوف أقبل رشوتها، وسوف أدخن السيجارة مع القهوة. ثم لكل حادث حديث. ولكن ماذا لو جاء الحديث غير متناسب مع الحادث؟ سنرى.ننتظر ثم نرى. رنّ الموبايل بنغمة رسالة. من يكتب إلي؟ فتحت الجهاز، وذهبت إلى الرسائل، فوجدت الآتي: الحكمة من ترك السلاح، رجال الجيش العربي السوري قادمون.. قلت في نفسي: أه لاً وسهلاً!. أغلقت الجهاز، ولكنه رنّ من جديد.واتس آب هذه المرة. دخلت إلى الموقع. ما هذا؟ بندقيةٌ رشّاشة.أربعٌ وتسعون رسالة. مجموعة مغلقة اسمها الغربة. إنهم أطفال العائلة. مجموعةٌ تشكّلتْ هذا اليوم. تقتصر على الأطفال فقط من العائلة، ولكنّ هؤلاءِ الأطفالَ كانوا كرماء، واعتبروني طفلاً مثلهم، وأضافوني إلى المجموعة من دون حتى أن يستشيروني. واضح أنّ حيلتي لم تعد تنطلي عليهم، فأعدّوا لها خطةً مضادة، ويبدو أنهم سوف ينجحون فيها. ما عادوا يقبلون بأن أحصر علاقتي بهم على الفيس بوك، وأتحكم بالتوقيت الذي يناسبني من أجل الاطمئنان عليهم. يريدون أن يهرجوا معي، فأضافوني بالإكراه إلى الغربة، وشنّوا عليّ هجوماً متزامناً. تصفحت بعض رسائلهم.. أنا آسف! لا أقدر على مجاراتكم يا شركائي في الغربة. اليوم على الأقل. اعذروني! نلتقي في غربة جديدةٍ قريبة. لديّ الآن مصيبة خاصة جداً: طاغية صغيرة تحكمني كما طاب لها الهوى، أو كما طاب لها المزاج. سوف أطلب منكم أن تضمّوها إلى مجموعتكم، ثم تشنّون عليها هجوماً كاسحاً. لا، لا، لن أرتكب هذه الحماقة. لن أعطيكم اسمها، ولن أعطيكم رقمها، أعرف أنكم ستتآمرون معها ضدي.. هي من سوف يقنعكم

بذلك. هذه الطاغية داهية. دماغها شغّال على جميع الموجات. سوف تطلب يدي منكم، وأنتم سوف توافقون طبعاً، بل إنكم سوف ترقصون طربا، والبنات منكم سوف يزغردن ابتهاجا.لا لن أعطيكم رقمها. لن أفعل. أغلقت الواتس. رجعت إلى الفيس بوك. ما أخبار البلد؟ هل ثمة نبأٌ ما عن الاشتباك الذي حصل في شارعنا؟ لم أعثر على أيّ نبأ عن ذلك في أيّ موقعٍ معارضٍ للنظام أو مؤيدٍ له. إذن، ما أخبار مخيم اليرموك؟ أتصفح عديدَ المواقع. كلُّ شيءٍ على حاله.. عتمةٌ وقنابلُ وقنّاصونَ وزمهريرٌ وشرفاءُ وقتلةٌ وأبرياءُ ومذنبون ولصوص يستبيحون حرماتِ البيوت التي هجرها أهلُها. مخيم اليرموك ليس المدينةَ الفاضلة، ولكنه ليس مدينةَ الخطيئةِ أيضا، رغم اللصوص الذين استباحوا كل شيء.حتى مقبرةُ الشهداء لم تسلم من الاذى (شاهدوا تنسيقيات مخيم اليرموك على اختلاف مواقفها من النظام). لماذا الاساءةُ إلى الشهداء؟! لماذا العبث بالمقدّسات؟! ولماذا أجدني مقهوراً إلى هذا الحد؟ لعلّ في الامر شيئاً من أنانية! حسنا.سوف أترك المقدّساتِ جانباً، وسوف أتحدث عن الموضوع بشفافية.. كان لي في هذه المقبرة مكانٌ يأويني بعد الموت. ما زال لي فيها شقيقٌ مقيم. كان اسمه محمد. وكنا نناديه (أبو النور). يكبرني بأربع سنوات.كان لي أخاً وصديقاً. ارتحل عن هذه الدنيا وهو يبصق على من فيها من عرب ويهود.حدث هذا قبل ثلاثٍ وعشرين سنة. ارتحل تاركا خمسةً من الابناء الذين طالما أوصيتهم بأن يدفنوني في قبر أخي وصديقي، وطالما وعدوني بتنفيذ هذه الوصية.كانوا صغاراً عندما فارق أبوهم دنيانا البئيسة. كبيرهم في العشرين من عمره وصغيرهم في العاشرة. لم ترهبني فكرة وجود خمسة أيتام في العائلة. تعاملت مع المسؤولية على نحو أظنه كان جيدا، فمشتْ بنا الحياةُ على نحوٍ لا بأس به. كبر الخمسة. بنوا بيوتا (جميعها في مخيم اليرموك)، وتزوجوا، وأنجبوا الكثير من الاطفال. أحدُ هذا الكثيرِ صبيٌّ في الخامسة من عمره، اسمه محمد، ونناديه (أبو النور). أما هو فينادي الجميع بِ (عمي الحج) أو (عمتي الحجة). حتى أخته الصغيرة ليست سوى (عمتي الحجة). ينطقها باللغة المصرية. سمعها خلال إقامته فترة قصيرة في القاهرة قبل تهريبه من هناك، فاستهوته إلى حدّ التعلّق بها. إنه الان في

السويد مع أسرته. أحبّ هذا الطفل كثيرا، وأجدني دائمَ الحنين إليه، وأعترف بأنه حنينٌ موجعٌ أكثرَ من وجع الحنين إلى (خبز أمي وقهوة أمي).. محمود درويش! مغنّي الجراح! سلامٌ عليكَ يومَ وُلدتَ ويومَ رحلتَ ويومَ تُبعثُ شاهداً على عذاباتِ شعبِكَ، وشهيدا.. أكلّمُ الطفلَ أحيانا على (سكايب). أقول له إنني أقيم في منزلهم في مخيم اليرموك. وهو يصدّقني طبعا، ولكنّه يسألني: "وين عم تنام؟" "على تخت لونا - أخته." فيروح يؤنبني لانني أرتكب خطأ مميتاً حين أنام على سرير "عمتي الحجة" "ليش يا أبو النور؟" "لأنو الدَّب (القصف) كلّه من هاي الجهة." "طيب وين أنام؟" "افرش على الارض بالصالون. هاي الجهة ما فيها خبط (قصف)." "أنا بأمرك أبو النور." "بخاطرك عمي الحج"! وينصرف. وأسأل أمّه: "لوين راح؟" "البسكليت آخده عقله." تقول بمرارة، رغم تظاهرها بالابتسام، فهي تموت من الحنين إلى بيتها في المخيم.. يا باب محفور عمري فيك، رح أنطر وسمّيك: باب العذاب.. والطفلُ يفعلُ الصوابَ طبعاً، فالاطفالُ خُلقوا للعب، وليس لِـ (الخبط والدَّب). يخرج الصبيّ من الكادر سريعاً كالبرق، فيشتعلَ الحنينُ إليه في قلبي التعبِ. أحنُّ إليه، ولكن من دون خوفٍ عليه، فقد صار في بلد بعيد، غير أنه بلدٌ أمين. سوف يكبر الولدُ في مملكة السويد. هذا ما أتمنى. وسوف يقول رأيه ذات حين في أمرٍ ما يخصّ هذا البلد. وأومن - من الآن - بأنه لن يجد شرطياً يعترض على رأيه، أو يقول له ما قالته ليَ العربُ مراراً: إنت فلسطيني، شو دخلك؟!

2014 - 5 - 17

بكرا صديقي عبد اللطيف راجع إلى دمشق عن طريق مطار بيروت.. صار وقت أترك البيت.. ما ضل أمامي إلاّ الفندق.. من جديد: سائحٌ في مدينتك.

رشا عم تحتج على حكاية الفندق. عم تحاول تقنعني أستأجر شقة. قلتلها: اتركيني أفكر بالموضوع لأشوف إن كان في بالعمر لسه شي بيستاهل إنه حدا متلي يكون عنده بيت وحيط وباب ومفتاح.. قالتلي: الحياة أقصر من إنه نترك الناس ناطرين ليفهمونا على مهلنا أو حتى على أقل من مهلنا.

2014 - 5 - 30

شكراً صديقي عبد!

السيارة تأخرت وما بعرف ليش، يمكن تكون علقانة عند شي حاجز عسكري، فقلت لحالي أتسلى شوي وأكتب لك هالرسالة قبل ما أترك البيت. أكيد بين الأصدقاء ما في شكر، بس مع ذلك شكراً إلك! التسع شهور اللي قضيتهن ببيتك ما مرقوا مجاناً. أظن إني أنجزت فيهم شغل طيب، وخاصة في شهر كانون الثاني وشهر شباط: رواية (عتبة الألم) جاهزة بوحدة من صيغها. مو بالضرورة إنو هَيْ هيِّ الصيغة اللي استقرّيت عليها. عم أجرّب. ماني مستعجل. وغير هيك: بلشت أكتب مسلسل تلفزيوني بعنوان: الندم.. يمكن بالفندق ما كان فيني أنجز شيء من اللي أنجزته في بيتك. ألف شكر! الخسائر اللي تركتلك ياها مانها كبيرة. في لمبة احترقت بالصالون، وفي وحدة من حنفيات المطبخ عم تنقّط. ما صلّحتها. خفت يعملوا ورشة كبيرة من شغلة تافهة. قلت لحالي بتركها لعبد لأنه أكيد هو أدرى مني بهالمسائل. وإذا بدك الصراحة كنت مبسوط فيها. كل ما دخلت المطبخ تذكرت عوالم جاك ماريا ريمارك، مع إني أشك بوجود شي برواياته على علاقة بالحنفيات. كتير بحب أعمال هادا الكاتب، وخاصة رواية (وقت للحب.. وقت للموت)، لذلك بتذكرها مع أي شي بلاقيه قدّامي.. شو في كمان؟ الدوا اللي طلبت مني أسأل إن كان لسه متوافر بسورية. رحت للصيدلية المركزية. قالولي الدوا متوافر، ورح يضل متوافر. كل الأدوية المتعلقة بهي الأمراض الصعبة رح تضل متوافرة مهما طالت الحرب. مع ذلك، اشتريت منو علبة احتياطاً. بتلاقيها على رف الأدوية. تركت عندك شوية الكتب اللي طلعت فيها

من الحياة. رتبتهم في مكتبتك بحيث ما يزعجوك. وتركت شنطاية تياب شتوية بالخزانة في غرفة ماريّا. غيرو ما في شي. لا خسائر ولا أرباح. هادا المفتاح اللي عَ الطاولة جنب الرسالة هو مفتاح بيتك. وهيك بصيرأنا بلا أي مفاتيح لأية أبواب في العالم. ها ها ها.. العمى كيف ضبطت هيْ؟! كل هالعمر، كل هالشغل، كل هالمسلسلات، كل هالفلوس، وما عندك مفتاح لباب!! وين راحت الفلوس؟ شو بيعرفني وين راحت!. راحت. شو بدي أعيش حياتي حامل بإيدي آلة حاسبة؟!. كيف ركبت هيْ؟! ما بعرف، بس يبدو لي منسجمة مع الواقع اللي عم نعيشه. أوكي، بالنهاية في شي اسمه أمر واقع وبدك تتكيف معه. وليكني عم أتكيف. بتعرف شو أول هدية إجتني بهالحياة؟ علاّقة مفاتيح. كان عمري 13سنة، وما كان معي أي مفتاح لأي باب. هذا يا عبد اللي بيسموه: دورة الزمن. قبل كام يوم مرقت من ساحة القصور. يا الله شو حنّيت لبيت نجيب! استغربت إنو أنا ما عندي مفتاح لهادا البيت. العمى! كيف هيك؟! ما هادا البيت من المطارح اللي بالقلب. شو يعني إنو ما عندي مفتاح لهيك مطرح بقلبي؟! حسّيتها حكاية قاسية. كان عندي رغبة أفتح الباب، وأدخل، وأعمل قهوة، وأجلس بمكاني المفضل، وأدخن سيجارة على مهلي. القلب عم يصير شوي شوي من دون مطارح مفضّلة. أو المطارح المفضلة في القلب عم تصير مغلقة. يا ترى للأبد؟. حتى قهوة هافانا، صرت عم أحس حالي فيها غريب. دائماً بالنهارمزدحمة، لكن بوجوه غريبة عني. ما بعرف حدا ولا حدا بيعرفني غير الكراسين. بيسألوني عنك. بيسألوني عن مروان. بيسألوني عن فهد. بيسألوني عن نجيب. دائماً نفس الأسئلة. ودائماً بيتفاجأوا إني ما بعرف عنكم شي كتير. ودائماً بقولهن: المتوافر الوحيد في الأسواق هو أنا، دللوني شوي قبل ما أنفقد. ودائماً بيقولولي: إنت بعيونّا يا أستاذ حسن. بقولهن: ما بدي أكون بعيونكن، بدي طاولة. بيقولولي: شوفة عينك.. شوفة عيني كلّ الطاولات مشغولة، لأ ومشغولة بناس أغراب كمان. والأغراب ما بيعطوك مفاتيح للقلب.. شو أعمل يا صديقي؟! العمى هالفراقات شو كانت حادّة، وشو كانت مفاجئة!! كيف هيك صار؟! والله ما بعرف. اللي بعرفه إني صرت بلا مفاتيح. لك حتى مفتاح الغرفة بالأوتيل

بيضحك. بطاقة مُمَغنطة. إي والنِعِم! بس أنا شو بدي أعمل فيها؟! بتحطها بالقفل بيطلعلك شي ضو أحمر، شي ضو أصفر، شي ضو أخضر.. إي شو أنا جاي أسرق بنك؟! بدي مفتاح عادي. بدي أسمع الطقّة. بدي أتونس بالصوت. الأذنُ تعشقُ قبلَ العين أحيانا. والأذن ما بتلتقط الضوء.. أمري لله! بلا العشق. ياما بهالزمانات عشقنا، شو طلع منها؟! ولا شي غير الألم، وأحياناً الألم والخيبة سوا، والغش كمان. ليك صديقي! تركتلك بالبراد شوية أكل. اليوم اشتريتهم. أكيد رح توصلوا جوعانين وتعبانين. المشوار من مطار بيروت لهون لحاله بيسمّ البدن، وخاصة إنو معك امرأة مريضة. قلبي معك يا صديقي. بالمناسبة، ولا تسألني بأي مناسبة، خلال إقامتي هون في بيتك صرت أدخل عَ الفيس وصار عندي أصدقاء. مو كتير. شي تلاتمية واحد. طريقة العلاقة عَ الفيس. بتشبه البطاقة الممغنطة. ومع ذلك بيسموها: تواصل اجتماعي. لكن الحقيقة في ناس ظريفين على هاي المواقع، وبينحبّوا.. الموبايل عم يرن. هادا السائق. وجرس الباب كمان عم يرن. مضطر أتوقف. توصلوا بالسلامة!

2014 - 5 - 31

أستطيع أن أكتب روايةً جديدة. أستطيع أن أكتب عن هذه الكارثة التي شملتنا جميعاً. ولكنّ المشكلةَ ليست في الخبرة. المشكلة في السؤال المرعب الذي سوف يلقيه الجميع في وجهي: إنت فلسطيني، شو دخلك؟! السؤال المرّ الذي سوف أتعرض له ممن قد لا يتفق مع ما قد أقول. السؤال الذي طرحوه عليّ مباشرةً في أوقات السلم: أنت فلسطيني، شو دخلك؟!

حسن سامي يوسف

كاتب وسينمائي، سوري/ فلسطيني، ولد عام 1945 من عائلة لجأت بسبب النكبة إلى دمشق مروراً ببعلبك، درس السينما/ السيناريو بمنحة من وزارة الثقافة السورية، إلى المعهد العالي للسينما في عموم الاتحاد السوفياتي (فغيغ)، وعمل كاتباً ومستشاراً درامياً في المؤسسة العامة للسينما في دمشق منذ تخرجه، وحتى تقاعده، انتج خلالها العديد من الروايات، وعدد كبير من النصوص البصرية.

الروايات: (الفلسطيني ـ الزورق ـ رسالة إلى فاطمة ـ فتاة القمر ـ هموم الدراما).

الأفلام: (قتل عن طريق التسلسل ـ الاتجاه المعاكس ـ غابة الذئاب ـ عنصر في قائمة منقطة ـ يوم في حياة طفل ـ اثنا عشرة دقيقة إلى منتصف الليل).

مسلسلات تلفزيونية: (شجرة النارنج ـ الشقيقات ـ ثلوج الصيف الرمادية ـ الغفران ـ الندم ـ نساء صغيرات ـ أسرار المدينة ـ حكاية خريف ـ أيامنا الحلوة ـ قبل الغروب ـ نساء ورجال ـ الانتظار ـ زمن العار ـ السراب ـ الملعونون).

وهو يعيش في دمشق حتى الآن.


ISBN 978-9953-417-92-9
9 789953 417929

